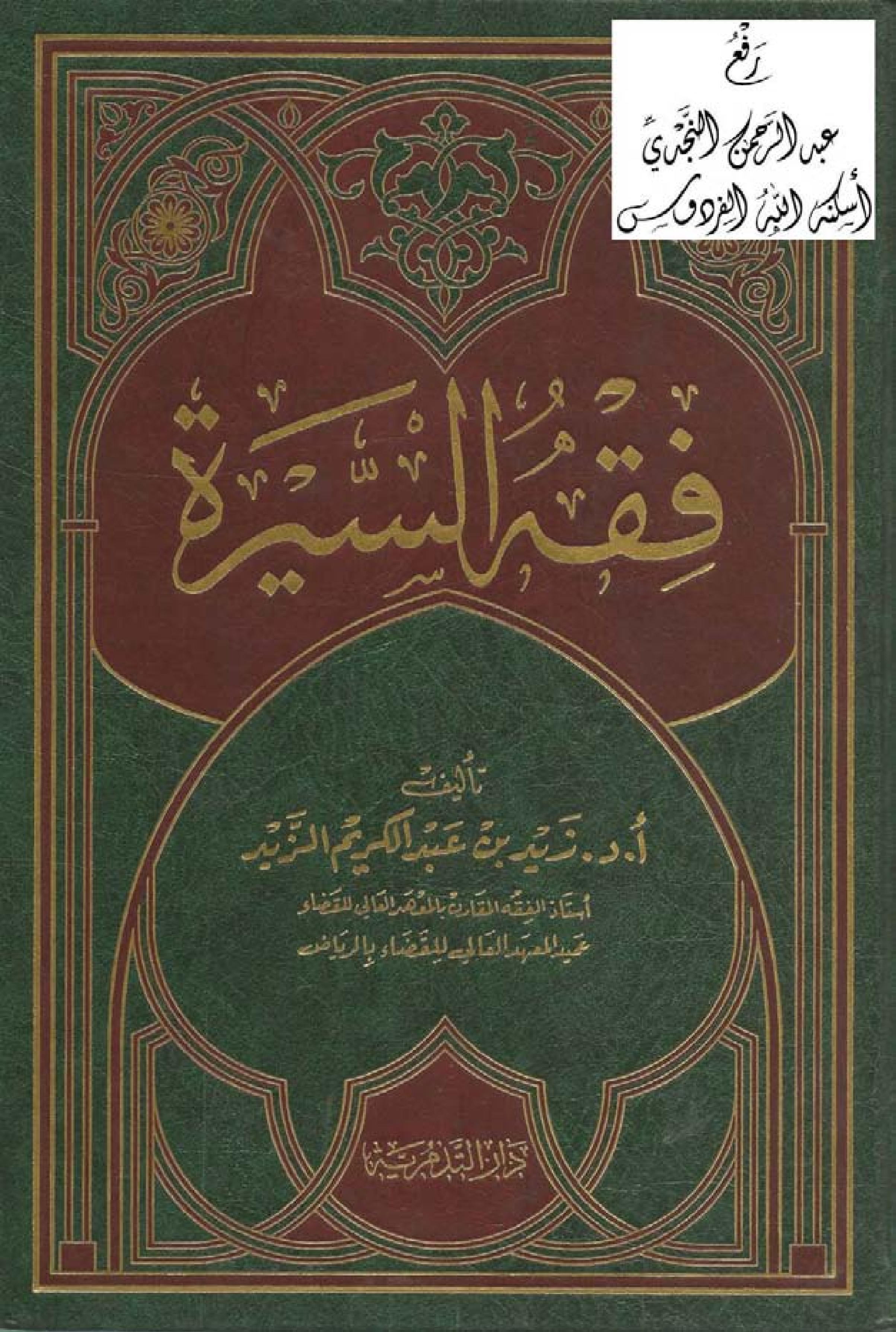

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
فقه السيرة
تأليف
أ.د. زيد بن عبد الكريم الزيد
أستاذ الفقه المقارن بالمعهد العالي للقضاء
عميد المعهد العالي للقضاء بالرياض
دار التدمرية

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

فقه السيرة

ح زيد بن عبد الكريم الزيد ، ١٤٢٤هـ .
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر .
الزيد ، زيد بن عبد الكريم .
فقه السيرة ./ زيد بن عبد الكريم الزيد ـ الرياض ، ١٤٢٤هـ .
٧٣٦ ص ؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك : ٦-٧٤٢-١٠-٩٩٦٠
١- السيرة النبوية أ.العنوان
ديوي ٢٣٩ ٤٧٦٤/ ١٤٢٤

رقم الإيداع : ٤٧٦٤ ١٤٢٤
ردمك : ٦-٧٤٢-١٠-٩٦٠

الطَّبْعَةُ الثَّالِثَةُ ١٤٢٨ هـ

دار التدمرية

الرياض ـ ص.ب: ٢٦١٧٣ ـ الرمز البريدي: ١١٤٨٦
هاتف: ٤٩٢٤٧٠٦ ـ ٤٩٢٥١٩٢ ـ فاكس: ٤٩٣٧١٣٠
Email: TADMORIA@HOTMAIL.COM
المملكة العربية السعودية

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

فقه السيرة

تأليف

أ.د. زيد بن عبد الكريم الزيد
أستاذ الفقه المقارن بالمعهد العالي للقضاء
وعميد المعهد

دار التدمرية
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدّمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فيقول ابن سبط رسول الله ﷺ علي بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ : (كنا نعلم مغازي النبي ﷺ كما نعلم السورة من القرآن) [١] .

ويقول الإمام الزهري ـ رحمه الله تعالى ـ (في علم المغازي علم الآخرة والدنيا) [٢] .

ويقول ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالى ـ : (رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب ، إلا أن يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالح) [٣] وفي مقدمة سير السلف ، وعلى رأسها سيرة رسولنا ﷺ .

ويصف عبيد الله بن عتبة مجلس ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ للحديث عن السيرة ، فيقول : (ولقد كنا نحضر عنده فيحدثنا العشية

---

(١) الخطيب البغدادي ، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/٢٥٢ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) ابن الجوزي ، صيد الخاطر ص ٢٩٢ .

كلها في المغازي) ، وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قد خصص جزءاً من يومه لتدريس المغازي[(١)] .

ويقول ابن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن سيرة محمد ﷺ لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورة ، وتشهد له بأنه رسول الله ﷺ حقاً ، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته ﷺ لكفى)[(٢)] ، ويقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (ومن هنا تعلم اضطرار العبد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول ﷺ وما جاء به وتصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر ، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة ، إلا على أيدي الرسل ... وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به ويدخل في عداد أتباعه وشيعته وحزبه ، والناس في هذا بين مقل ومستكثر ومحروم والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)[(٣)] .

و (سيرة الرسول ﷺ مملوءة بالعبر ، والعظات ، والدروس ، والمبادئ العظيمة وإنا نحسب أن سيرة الرسول ﷺ وكمال عقله وخلقه واستقامة نفسه ، وسلامة ما يدعو إليه ، كل ذلك في نفسه دعوة إلى الإسلام في وسط غياهب الجهالة في الماضي ، وهو لا يزال القوة

---

(١) محمد مصطفى الأعظمى ، مغازي رسول الله ﷺ لعروة ابن الزبير ص ٢٣ .
(٢) ابن حزم ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢ / ٩٠ .
(٣) ابن القيم ، زاد المعاد في هدي خير العباد ١ / ٦٩ — ٧٠ .

الداعية إلى الإسلام في عصرنا الحاضر ، وإننا نجد بعض الناس يسلمون إذا علموا السيرة النبوية ، وأدركوا عقله ، وبعده عن الأوهام ، والخرافات التي تسود العامة ، وتستهوي تفكير السذج)[١] .

وما هذا الاهتمام بالسيرة النبوية العطرة إلا لأن السيرة سلوك ، بل أقوم سلوك ، وتصرفات المصطفى ﷺ فيها أهدى تصرفات ، فكانت بذلك مثلاً أعلى ، وميزاناً صادقاً توزن بها أعمال البشر ، وحركات بني آدم .

إن السيرة تطبيق حي للقرآن الكريم ، ذلك أن القرآن الكريم مبادئ سامية ، ومنهج حياة كامل ، وجاءت سيرة الرسول ﷺ تطبيقاً كاملاً عملياً لهذه المبادئ العظيمة .

ولذا فقد اجتمع في هذا الدين عظمة المبدأ ، وجودة المطبق[٢] ، ولم يبق لأحد بعد ذلك حجة يحتج بها وأصبح أمام الناس أجمعين القرآن الكريم يُتْلَى ومعه سيرة الرسول ﷺ تبيِّن للناس كيف يتحول القرآن الكريم إلى سلوك عملي في الحياة يصلح الدنيا والآخرة .

وإن عظمة المبدأ لا تغني عن وجود القدوة الحسنة (وإن أي نظرية مهما بلغت من الصحة والدقة ، وإن تعليماً مهما يكن رائعاً ، ويقع

---

(١) محمد الشثري ، الدعوة في عهد الملك عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ ٥٨٢/٢ وبعض النص نقله عن محمد أبو زهرة في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) ص ٦٥ .

(٢) الرسول ﷺ وسلفنا الصالح رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

من الناس موقع الإعجاب ، لا يغني ولا يثمر ثمره ، ولا يبقى على الدهر إلا إذا كان له من يمثله بعمله ، ويدعو إليه بأخلاقه وفضائله ، ويعرفه إلى الناس بالقدوة والأسوة ، فيقتدي الناس بدعاته عن طريق العمل بعد العلم ، معجبين بسجايا هؤلاء الدعاة ، معظمين لأخلاقهم ، مكرمين طهارة قلوبهم ، وزكاة نفوسهم ... والدين لا ينجح ويعلو وينتشر إلا بسيرة النبي ﷺ الذي بعث به ، وبما عرفه الناس عنه في شؤون حياته وفي أخلاقه وأعماله)[١] .

ولذلك فالسيرة جزء من هذا الدين ، والتعريف بها تعريف بهذا الدين ، يقف الخليفة الراشد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطيباً في أول خطبة له بعد وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وتوليه الخلافة يقول بعد حمد الله والثناء عليه : (إن الله تعالى نهج سبيله ، وكفانا برسوله ﷺ ، فلم يبق إلا الدعاء والاقتداء)[٢] ، والاقتداء الشرط فيه : وضوح القدوة وصلاحيتها للاقتداء ، ولقد كانت سيرة محمد ﷺ هي السيرة الوحيدة التي جمعت الخصائص الأربع المطلوبة التي يجدر بالناس أن يتخذوها قدوة في حياتهم وهي : كونها تاريخية وجامعة وكاملة وعملية[٣] ، فهي سيرة تاريخية ، يشهد التاريخ بصحتها ، وجامعة

---

(١) سليمان الندوي ، الرسالة المحمدية ص ٣٨ - ٤٠ .

(٢) ابن الجوزي ، تاريخ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ص ١٩٤ .

(٣) سليمان الندوي ، الرسالة المحمدية ص ٦٨ .

لجميع أطوار الحياة ، وأصناف المجتمع ، وجميع شؤون الحياة ، وكاملة لا نقص فيها ، وعملية فلم تكن قولية فقط ، بل قول من الداعي ﷺ يصحبه عمل وتطبيق على نفسه ، ولن نجد سيرة لفرد تصلح أن تكون للإنسانية أسوة سوى سيرة هذا النبي محمد ابن عبد الله ﷺ (١) .

وقد توالت الكتابات في السيرة النبوية العطرة في القديم والحديث تعبيراً عن مكانته ﷺ في النفوس ، وحباً في معايشة حياته الكريمة العطرة ﷺ ، ورغبة في الإسهام بتقديم هذه السيرة الخيرة والنموذج الأمثل للأمة .

وقد اخترت لنفسي الكتابة في فقه السيرة ، وما سيجده القارئ هنا هو (فقه سيرة) وليس (كتاب سيرة) ذلك أن السيرة الكريمة للمصطفى ﷺ مدوَّنة ، ولا سبيل في عصرنا لمتأمل أن يضيف عليها ، وإنما يستنبط منها المزيد من الدروس والعبر ، وفق ما يفتح الله عليه ، وهو ما حاولت أن أقدمه هنا لك أيها القارئ الكريم ، و ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (٢) .

ولقد اعتمدت بعد الله في هذه الدراسة على منهج الاستقراء لأبرز أحداث السيرة وفق التسلسل التاريخي مع التوقف عند كل حدث من

---

(١) انظر : سليمان الندوى ، الرسالة المحمدية ص ٨ ، ٦٧ .
(٢) سورة الطلاق ، الآية رقم (٧) .

تلك الأحداث بعد عرض موجز ، محاولاً استنباط الدروس والفوائد ذات الصلة بالدعوة والسلوك والتربية ، مرتباً تلك الفوائد ترتيباً يتناسب مع التسلسل التاريخي للحدث ذاته دون نظر أو اعتبار في الترتيب لأهمية الفائدة وإنما لتسلسلها التاريخي داخل الحدث ؛ كي يتمكن القارئ من استمرار تصور الحدث وربطه بالفائدة المستنبطة .

وقد استغرقت هذه الدراسة أكثر من عشر سنوات لم أكن ـ بكل تأكيد ـ متفرغاً لها ولا شاغلاً وقتي كله فيها ، ولكن كنت أعايشها فكراً من خلال كل قراءاتي ، فما تمر مدة وجيزة إلا وأعود إلى ما كتبته بالزيادة والإضافة ، وذلك بدءاً من عام ١٤١٣هـ تقريباً مع ما سبق ذلك من تدريس لفقه السيرة في الجامعة وفي المسجد حتى تم إنجاز وطباعة الجزء الأول عام ١٤١٥هـ ، ثم صدر قرار الجامعة بتفريغي بناء على طلبي لمدة عام لإكمال بقية الكتاب .

وتم إنجاز ما تبقى بين عامي ١٤١٧هـ و ١٤١٨هـ ولكنه بقي حبيس الأدراج في مكتبتي لا أغفل عنه بمزيد التعليق والإضافة أو التعديل والحذف ومع بداية هذا العام ١٤٢٤هـ رأيت أن أعيد النظر في كل ما كتبت بقراءة أخيرة ، تمهيداً لطباعته في كتاب ؛ لتكون المدة من الابتداء إلى تاريخ الانتهاء تتجاوز عشر سنوات ـ كما سبق أن قلت ـ وهي مهلة طويلة للتروي والتفكير أفادتني كثيراً .

وكانت تقسيمات الدراسة على النحو التالي :

مقدمة .

مدخل وفيه :

أ. أهمية دراسة السيرة النبوية .

ب. أسباب اختيار الجزيرة العربية منطلقاً للرسالة والخاتمة .

ت. ميزة ختم الرسالات برسالة محمد ﷺ ، والأمم بأمة محمد ﷺ .

الفصل الأول : فقه السيرة من بدايتها إلى قبيل البعثة .

الفصل الثاني : فقه السيرة من البعثة إلى الهجرة إلى الحبشة.

الفصل الثالث : فقه السيرة من إسلام حمزة وعمر ـ رضي الله عنهما ـ إلى الإسراء والمعراج .

الفصل الرابع : فقه السيرة من العرض على القبائل إلى الهجرة.

الفصل الخامس : فقه السيرة من وصول المدينة النبوية إلى نهاية غزوة بني قريظة .

الفصل السادس : فقه السيرة من غزوة الحديبية إلى نهاية غزوة مؤتة.

الفصل السابع : فقه السيرة من فتح مكة إلى وفاة المصطفى ﷺ.

خاتمة البحث .

الفهارس العامة .

وفي الختام أرى لزاماً علي أن أشكر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية التي تعلمت فيها قرابة عشرين عاماً ، ثم احتضنتني أحد أعضاء هيئة التدريس عشرين عاماً أخرى وفرغتني لإنجاز هذا البحث ، سائلاً المولى ـ عز وجل ـ أن يجعلها جامعة مباركة يعم نفعها بلاد المسلمين .

كما أشكر إخواني الذين تفضَّلوا علي بمراجعة هذا الكتاب ، فقرأه كل منهم كاملاً من أوله إلى آخره وأبدى عليه ملحوظات مفيدة كانت محل عناية الباحث وهم :

١. فضيلة الأستاذ الدكتور / فضل إلهي ظهير ، الأستاذ في قسم الدعوة في جامعة الإمام سابقاً .

٢. فضيلة الدكتور / عبد الرحمن بن سليمان الخليفي ، الأستاذ المشارك في قسم الدعوة بالجامعة .

٣. فضيلة الدكتور / خالد بن عبد الرحمن القريشي ، الأستاذ المشارك في قسم الدعوة بالجامعة .

سائلاً المولى ـ العلي القدير ـ أن يجزيهم خير الجزاء على ما بذلوه من جهد وما أسدوه من نصح .

وبعد :

فهذا الكتاب هو جهد بشري فما فيه من صواب فمن فضل الله وتوفيقه ، وما فيه من خطأ فهو مني ومن الشيطان والله ورسوله منه

بريئان [١] وأسأل الله العفو والمغفرة وأرجو إن فاتني أجرا الإصابة ألا أحرم أجر الاجتهاد ، مؤملاً من كل ناصح يرى خللاً أن يلتمس العذر ، وليعلم أني رجاع للحق بإذن الله (والرجوع للحق من جملة الدين) [٢] .

أسأل الله جل شأنه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يتقبل هذا العمل عنده وأن ينفع به كاتبه وقارئه وكل من له إسهام في نشره .

والله الهادي إلى سواء السبيل وصلى الله وسلم على نبينا محمد .

أ.د. زيد بن عبد الكريم الزيد
ص.ب : ٣٦١٠٧٧
الرياض : ١١٣١٣
البريد الإلكتروني : azzaid77@hotmail.com
الفاكس : ٤٥٥٧٦٦٠ - ٠١

(١) ورد هذا المعنى عن أبي بكر الصديق ﷺ لما سُئِلَ عن الكلالة قال : (أقول فيها برأيي ، فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه) تفسير ابن كثير ١/ ٤٦٠ ، وورد أيضاً عن ابن مسعود ﷺ في مسألة طرحت عليه كما في مسند الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ ١/ ٤٤٧ ، وانظر هذا المعنى تفصيلاً في : منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية لابن تيمية ٥/ ١٨٢- ١٨٦ .

(٢) العيني ، عمدة القارئ ١/ ٦٦ .

المدخل

وفيه :

أولاً : أهمية دراسة السيرة النبوية .

ثانياً : أسباب اختيار جزيرة العرب منطلقاً للرسالة الخاتمة .

ثالثاً : ميزة ختم الرسالات برسالة محمد ﷺ ، والأمم بأمة محمد ﷺ .

أولاً : أهمية دراسة السيرة النبوية :

سيرة الرسول ﷺ جزء من هذا الدين ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [(١)] ويقول تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [(٢)] ، والبيان يكون بالقول وبالفعل وبالإقرار على الفعل والسيرة النبوية فيها التطبيق العملي للقرآن الكريم ؛ ولذلك فلدراستها أهمية كبيرة يمكن أن نجمل أبرزها فيما يلي :

١. أن (الله جل شأنه أمرنا في تنزيله بتدوين سيرة نبيه ﷺ وسننه فقال تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) [(٣)] ولا يمكن اتخاذه ﷺ أسوة حسنة إلا بمعرفة سيرته وهديه ، والعلم بهذا وذاك لا يكون إلا بتدوين سيرته ، وسننه وهديه في قوله وفعله وتقريره ﷺ وتخريجها) [(٤)] .

٢. ندرس سيرة رسول الله ﷺ ؛ لأنها سيرة أعظم رجل عرفته البشرية ، فهي سيرة سيد ولد آدم عليه السلام ، كما يقول ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » [(٥)] .

---

(١) سورة النجم ، الآيتان (٣ و ٤) .
(٢) سورة النحل ، الآية رقم (٤٤) .
(٣) سورة الأحزاب ، الآية رقم (٢١) .
(٤) بكر أبو زيد ، التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل ، الطبعة الأولى (الرياض : دار العاصمة د، ت) ١/ ٦٦ .
(٥) صحيح الإمام مسلم ٤ / ١٧٨٢ .

٣. وندرس السيرة ؛ لأجل فهم كتاب الله سبحانه وتعالى ، إذ كثير من الآيات نزلت بسبب أحداث وقعت في السيرة ، ثم بعد نزولها أيضاً كان امتثال الرسول ﷺ لمضمون تلك الآيات بمثابة شرح عملي لكيفية الاستجابة لما ورد في تلك الآيات ، فالسيرة تبين الآية من حيث معرفة سبب نزولها ، ومن حيث معرفة كيفية الاستجابة لمضمونها ، يقول عبد الحميد بن باديس ـ رحمه الله تعالى ـ : (وفقه القرآن الكريم يتوقف على فقه حياة النبي ﷺ وسنته ، وفقه حياته ﷺ يتوقف على القرآن ، وفقه الإسلام يتوقف على فقههما)[(١)].

٤. من الأصول التي يجب على الإنسان معرفتها ، معرفة العبد لنبيه بعد معرفته لربه ودينه[(٢)].

ومعرفة النبي ﷺ تتضمن خمسة أمور :

أ. معرفته ﷺ نسباً فهو أشرف الناس نسباً .

ب. معرفة عام ومكان ولادته ، ومهاجره .

ت. معرفة حياته النبوية ، وهي ثلاث وعشرون سنة .

ث. بماذا كان نبياً ورسولاً ؟.

ج. بماذا أُرْسِلَ ولماذا ؟ فقد أُرْسِلَ بتوحيد الله تعالى وشريعته المتضمنة لفعل المأمور وترك المحظور ، وأُرْسِلَ رحمةً للعالمين

---

(١) ابن باديس ، الدرر الغالية في آداب الدعوة والداعية ص ٥٧ .

(٢) انظر : الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، شرح ثلاثة الأصول للإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ ضمن مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ٦ / ١٢١.

لإخراجهم من ظلمة الشرك والكفر والجهل إلى نور العلم والإيمان والتوحيد حتى ينالوا بذلك مغفرة الله ورضوانه وينجوا من عقابه وسخطه [١] ومعرفة الرسول ﷺ تقودنا إلى : -

أ. أن نكون أكثر محبة وتبجيلاً واحتراماً وتوقيراً للحبيب المصطفى ﷺ ، ويكون حبنا له ﷺ عن علم وليس عن عاطفة موروثة فحسب ، والحب عن علم هو الحب المطلوب.

ب. التأسي به ﷺ ، ونحن مأمورون بالاقتداء به ﷺ ، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [٢] وجعل سبحانه وتعالى التأسي به ﷺ دلالة محبة الله سبحانه وتعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [٣]، ووعد المتأسين بالرسول ﷺ بمحبتهم ومغفرة ذنوبهم ، ولن نتمكن من التأسي به إلا بمعرفة سيرته ﷺ ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب [٤] ، وإذا وجب التأسي وجب ما لا يتم إلا به وهو معرفة السيرة .

---

(١) المرجع السابق ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية رقم (٢١) .

(٣) سورة آل عمران ، الآية رقم (٣١) .

(٤) انظر : ابن اللحام ، القواعد والفوائد الأصولية ص ٩٤ .

٥. السيرة علم واسع يدخل فيه ، وينضوي تحت لوائه ، كل العلوم الشرعية ، فمن خلال السيرة يمكن معرفة ما يلي :

أ. العقيدة : تتجلى أهمية العقيدة والتركيز على التوحيد لدارس السيرة النبوية الشريفة حينما يرى اهتمام الرسول ﷺ بالعقيدة في دعوته ، وكيف أن الرسول ﷺ بدأ بالتوحيد وشغل نفسه به أكثر حياته النبوية .

ب. الأحكام : ويتم الاطلاع من خلال السيرة النبوية على الأسئلة التي تعرض على الرسول ﷺ وإجابته عليها ، فضلاً عن سائر أقواله وأفعاله التي هي تشريع وأحكام ، وترشد إلى أحكام فقهية كثيرة تهم المسلمين في أمور حياتهم الدنيوية والأخروية.

ت. الأخلاق والسلوك : ونعرف هذا الجانب المهم من خلال الاطلاع على تعامل الرسول ﷺ مع صحابته وزوجاته وخدمه وغيرهم من أفراد المجتمع .

ث. الدعوة إلى الله تعالى : ففي السيرة النبوية المواقف المهمة في موضوع الدعوة وأسلوبها والصبر عليها ، مما لا يمكن للدعاة إلى الله القيام بالدعوة بدونها .

ثانياً : أسباب اختيار جزيرة العرب منطلقاً للرسالة الخاتمة [(١)] :

١) إن جزيرة العرب أرض حرة ، لا سلطان لأحد عليها ممن يعادون الدين من تلك الإمبراطوريات المعاصرة كالفرس والروم ونحوهما .

٢) إن جزيرة العرب لم تكن ذات ديانة موحدة غالبة في سائر بقاعها ، فقد كانت الوثنية منتشرة ، لكنها عبادات شتى ، فمنهم من يعبد الملائكة ، ومنهم من يعبد الكواكب ، ومنهم من يعبد الأصنام ـ وهم الأغلبية ـ ومع ذلك فهذه الأصنام متعددة ، وربما كان لكل بلد صنم ، وكان في معتقداتهم خلخلة ، وفيهم من كان يرفض ذلك ويتحدث بنقده ، ومنهم من كان على دين اليهودية أو النصرانية ، وقلة متمسكة ببقايا من الحنيفية الإبراهيمية عليه السلام .

٣) بالإضافة إلى ما سبق فإن الأوضاع الاجتماعية في الجزيرة العربية لها قيمتها ومكانتها في ذلك الوقت ، فقد كان النظام القبلي هو النظام السائد ، وكان للعشيرة وزنها في هذا النظام ، فلما قام محمد ﷺ بدعوته وجد من قوة بني هاشم نصرة له وحماية ، يتقدم هؤلاء عمه أبو طالب ، ثم من نصره ووقف معه يوم الحصار في الشعب ، بل إن من الداخلين في الإسلام من استفاد من هذه العصبية القبلية .

---

(١) حينما نتحدث عن هذه الأسباب فلا يَعْدُ هذا في الغالب أن يكون اجتهاداً في معرفة سبب الاختيار لا نملك عليه دليلاً من النصوص الشرعية ، وإنما هو توقع وتلمس للأسباب ، والعلم بالحكمة الحقيقية عند الله سبحانه وتعالى .

٤) إن العرب الذين عاشوا في جزيرة العرب وفي مكة خاصة كانوا بعيدين عن مظاهر المدنية ، فهم ـ كما يقال ـ خامات طبيعية ، لم تؤثر فيهم الحضارات والأفكار الأخرى .

٥) إن جزيرة العرب تقع وسط العالم مما يسهل اتصال هذه الرسالة بهم ، وانتشارها بينهم ، والتاريخ الإسلامي بعد ذلك شاهد على فائدة بزوغ الدعوة الإسلامية من هذه المنطقة الوسطى[1] .

٦) تفوق اللغة العربية وسعة انتشارها ، ففي الجزيرة العربية كانت لهم لغة واحدة ، هي : اللغة العربية في مقابل تعدد اللغات في أماكن أخرى كالهند مثلاً التي فيها (١٥) لغة رسمية[2] .

---

(١) انظر في كون مكة وسط العالم ما يلي :

أ. القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ / ١٥٣ .

ب. البسام ، نيل المآرب تهذيب شرح عمدة الطالب ٢ / ٥١١ .

ت. مجلة البحوث الإسلامية ، العدد الثاني ص ٢٩٢ ، بحث للدكتور حسين كمال الدين يقول في مقدمة البحث: (ومما يجدر ذكره في هذه المقدمة أني بعدما وضعت الخطوط الأولى في هذا البحث ورسمت عليها القارات الأرضية وجدت أن مكة المكرمة هي مركز الدائرة تمر بأطراف جميع القارات أي أن الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة المكرمة توزيعاً منتظماً وأن مدينة مكة المكرمة في هذه الحالة تعتبر مركزاً للأرض اليابسة وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ﴾) سورة الشورى ، الآية رقم (٧) .

(٢) انظر : أبو الحسن الندوي ، السيرة النبوية ص٢٢ .

٧) إن مكة المكرمة تتميز بكثرة الوافدين عليها من زوّار البيت ، وحجاجه، وأصحاب التجارة ، ومنتديات الأدب والشعر ، وهذا يسهل انتقال الرسالة إلى الجزيرة العربية عبر العائدين من مكة إلى بلادهم كل عام ، وهل كان إسلام الأنصار إلا عن طريق موسم الحج؟ وهل كانت بيعة العقبة إلا في موسم الحج ؟ [١] .

٨) يقول ابن خلدون في مقدمته : (وسكانها [٢] من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً حتى إن النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها ، ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية ، وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم ، قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [٣] وذلك ليتم القبول لما يأتيهم به الأنبياء من عند الله وأهل هذه الأقاليم أكمل بوجود الاعتدال لهم) [٤] .

ولعلنا بذلك ندرك تميز هذه الجزيرة العربية التي اختيرت باصطفاء إلهي ؛ لتكون مهبط الوحي ومنطلق الرسالة الخاتمة وقبلة المسلمين .

---

(١) انظر : عبد الله الموسى ، أسباب نجاح الدعوة الإسلامية ص ١٣٦ .

(٢) قسم ابن خلدون العالم إلى سبعة مناطق أبعدهما في الشمال والجنوب الأول والسابع ثم الثاني والسادس ثم الثالث والخامس ثم الرابع في الوسط وهذه الثلاثة الأخيرة هي التي يشير إليها بقوله : (وسكانها ...) .

(٣) سورة آل عمران ، الآية رقم (١١٠) .

(٤) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ١٤١ — ١٤٢ .

ثالثاً : ميزة ختم الرسالات برسالة محمد ﷺ والأمم بأمة محمد ﷺ :

المسألة الأولى : من إكرام الله جل شأنه لنبيه محمد ﷺ تحميله أعباء الرسالة وحده ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾ (١) فتخصيص الله جل شأنه محمداً ﷺ بهذا المقام العظيم ؛ لينهض بأعباء الرسالة وليكون رسولاً للثقلين ؛ لأجل تعظيمه وتكريمه وتخصيصه بالأجر الكثير والثواب الذي ليس له مثيل .

فلو أراد الله جل شأنه لأرسل في كل مصر وعصر رسولاً يحمل عن محمد ﷺ بعض عبء ما تحمل ويسقط عنه بذلك عناء وتعب كثير، ولكن الله جل شأنه لم يرد ذلك ، وحمله وحده ﷺ أثقال النذارة لجميع القرى ؛ ليظهر فضله بعموم رسالته ويعظم أجره بعظم جهاده وصبره ويكثر ثوابه بكثرة من يؤمن به (٢) .

المسألة الثانية : ميزة ختم الأمم بأمة محمد ﷺ وفيها :

١. كانت بعثة الأنبياء عليهم السلام خاصة لأقوامهم ، وبالتالي فهم يحملون معهم تشريعاً يتناسب مع القوم الذين يبعثون إليهم ، فهو تشريع مؤقت بزمان ومكان ، لا يلبث أن يدخل عليه التعديل من النبي اللاحق له وفقاً للبيئة الجديدة ، أما بعثة محمد ﷺ فقد كانت عامة في الزمان والمكان ، وكان التشريع الذي جاء به ﷺ مناسباً مع

---

(١) سورة الفرقان ، الآية رقم (٥١) .

(٢) انظر : عبد الحميد بن باديس ، تفسير ابن باديس ص ١٨٥ - ١٨٦ .

من بعث إليهم ، فهو تشريع كامل كما قال تعالى : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ (١) وأصبح هذا التشريع بهذا الكمال الشامل مناسباً لحاجة الأمة أياً كان موقعها ، وحيث لا حاجة بعد ذلك إلى تشريع جديد فلا حاجة إلى بعثة نبي آخر بعد المصطفى ﷺ (٢) .

٢. وانقطاع الوحي والرسالة لا يعني انقطاع الدعوة ، بل الدعوة إلى الله ماضية إلى يوم الدين ، وقد تكفّل الله جل شأنه صيانة هذا الدين بأمرين :

أ. حفظ الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم من التبديل والنقص والزيادة أو التحريف قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (٣) .

ب. أن الله سبحانه وتعالى جعل طائفةً من أمة محمد لا تزال قائمةً على الحق كما جاء في الأحاديث الصحيحة ؛ لكي يكون منهج هذه الطائفة في الحياة وعلمها وعملها أسوة دائمة ونبراساً وضاءً لكل من ينشد الحق ويستضيء بنور الإسلام (٤) ، قال ﷺ : « لا تزال طائفة من

---

(١) سورة المائدة ، الآية رقم (٣) .

(٢) انظر : عبد الكريم زيدان ، أصول الدعوة ص ٥٤ .

(٣) سورة الحجر ، الآية رقم (٩) .

(٤) انظر : بكر أبو زيد ، حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات ص ٦٨ - ٦٩ .

أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك »[١] .

وكان من الأمم قبلنا (إذا بدلوا دينهم بعث الله نبياً يبين الحق وهذه الأمة لا نبي بعد نبيها فكانت عصمتها تقوم مقام النبوة ، فلا يمكن لأحد منهم أن يبدل شيئاً من الدين إلا أقام الله من يبين خطأه فيما بدله فلا تجتمع الأمة على ضلال)[٢] .

ومن هنا يظهر تميز هذه الأمة عندما ختمت بها الرسالة على سائر الأمم من النقاط الثلاثة الآتية :

١) فيه تكريم لها ؛ لأنها الأمة التي تستطيع أن تعتمد على نفسها من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وعمل السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم .

٢) فيه تكريم لها تعتز به ، وهو تشريفها بالقيام بوظيفة الأنبياء ، فلا تجتمع هذه الأمة على ضلالة ، ولا يبدل أحد شيئاً من الدين إلا أقام الله من هذه الأمة من يبين خطأه .

٣) فيه تكريم لها ، تميزت به عن سائر الأمم بكونها أمة معصومة من أن تجتمع على ضلالة .

---

(١) متفق عليه : صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ١٣ / ٢٩٣ ، رقم ٧٣١١ ، وصحيح مسلم ٣ / ١٥٢٣ ، رقم ١٩٢٠ واللفظ له .

(٢) ابن تيمية ، منهاج السنة النبوية ٦ / ٤٦٦ - ٤٦٧ .

الفصل الأول

فقه السيرة من بدايتها إلى قبيل البعثة .

وفيه المباحث التالية :

المبحث الأول : نسب الرسول ﷺ .
المبحث الثاني : حادثة الفيل .
المبحث الثالث : مولد الرسول ﷺ .
المبحث الرابع : رضاعته ﷺ .
المبحث الخامس : شق صدره ﷺ .
المبحث السادس : وفاة أمه آمنة .
المبحث السابع : في كفالة جده عبد المطلب ثم عمه أبي طالب .
المبحث الثامن : رعيه ﷺ للأغنام .
المبحث التاسع : قصة بحيرا .
المبحث العاشر : حلف الفضول .
المبحث الحادي عشر : زواجه ﷺ بخديجة رضي الله عنها .
المبحث الثاني عشر : بناء الكعبة .
المبحث الثالث عشر : صور من حفظ الله جل شأنه لنبيه ﷺ قبل البعثة .

المبحث الأول

نسب الرسول ﷺ

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان [(١)] .

ونسب الرسول ﷺ بعد ذلك إلى إبراهيم عليه السلام مختلف فيه بين أهل السير ، أما بعد ذلك ، أي من إبراهيم عليه السلام إلى آدم عليه السلام فمن ذكر فيه شيئاً فلا دليل معه يمكن أن يعتمد عليه في هذا النسب ، بل إن فيه نسباً غير صحيح [(٢)] .

أجداد الرسول ﷺ :

١) قصي : هو الذي جمع قريشاً واستعاد سلطتها على الحرم ، وكانت له مكانة عظيمة في قريش حتى كانوا يقولون للرسول ﷺ بعد

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر ٧ / ١٦٢ ، كتاب رقم (٦٣) ، باب (٢٨) ويمكن أن يأتي نسب الرسول من جده قصي إلي عدنان على هذا النحو تسهيلاً لحفظه : (قصت كلاب مرة كعب لؤي فغالبها فهر بن مالك الذي نضر كنانة خزيمة فأدركه يأس مضر بنزار معد لعدنان) فكل كلمة تعني اسم رجل حسب تسلسل نسب الرسول عدا (الذي). أفادني بهذا مشافهة د . أحمد أبابطين .

(٢) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٥١ .

بعثته : ابعث لنا قصياً ، فإنه كان شيخ صدق ، فإن شهد لك اتبعناك [١] .

٢) لما هلك قصي خلفه أولاده الأربعة وكان أشرفهم في قريش عبد مناف الذي كانت له السقاية والرفادة [٢] .

٣) بعد عبد مناف خلفه ابنه هشام وهو أول من سن رحلة الشتاء والصيف ، وسُمِّي هاشماً لكونه يهشم الثريد للحجاج واسمه الحقيقي (عمرو) [٣] .

٤) ثم بعد هشام جاء عبد المطلب الذي نشأ في المدينة وكان شبيهاً بجده الأعلى (قصي) ، وهو الذي حفر بئر زمزم ، وهو الذي أقسم إن رزقه الله عشرة من الولد أن يذبح أحدهم [٤] .

يقول المصطفى ﷺ عن نسبه : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش [٥] بني هاشم واصطفاني من بني هاشم » رواه مسلم [٦] .

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٥١ .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ١٤٤ .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ١٤٧ .

(٤) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ /١٦٤ .

(٥) قال ابن هشام : النضر هو قريش ، فمن كان ولده فهو قرشي ومن لم يكن ولده فليس بقرشي وإنما سُمِّيت قريش بهذا الاسم من التقرش ، وهو التجارة والاكتساب وقال ابن إسحاق : ويقال إنما سُمِّيت قريش بهذا الاسم ؛ لتجمعها من بعد تفرقها ويقال للتجمع : تقرش ، انظر : سيرة ابن هشام ١/١٠٢-١٠٣ ، وابن كثير ، البداية والنهاية ٢/٢٠٠- ٢٠١ .

(٦) الإمام مسلم ، صحيح مسلم ١٧٨٢/٤ ، رقم ٢٢٧٦ .

ولقد شهد حتى الأعداء بطهارة هذا النسب ورفعته ، فقد سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ـ عندما كان كافراً ـ عن نسب الرسول ﷺ فقال : (هو فينا ذو نسب) رواه البخاري [١] .

ولمكانة هذا النسب الكريم لم نجد أحداً من أعداء الرسول ﷺ طعن في نسبه ، مع حرصهم الشديد على اختلاق كل ما يمكن أن يشوِّه سمعته أو ينقص من مقامه الشريف ﷺ .

ما سر اختيار الرسول ﷺ من قبيلة ذات مكانة ؟ :

١) لعل من الحكمة في ذلك أن تكون دعوته إلى المساواة والعدل قائمة على أسس ثابتة ، وليست رد فعل لحالة نفسية أو مكانة اجتماعية ، فلو لم يكن محمد ﷺ في هذا النسب الرفيع لوجدنا من يقول : إن محمداً إنما يطالب بما افتقده ؛ ليرد اعتباره الاجتماعي . ولقد رأينا كثيراً من الدعوات المنحرفة الباطلة كانت دعوتهم صدى لواقع سيئ لما عاشوه [٢] ، فمثلاً الماركسية الملحدة دعا إليها رجل عاش منبوذاً في المجتمع ، فأراد رد الاعتبار لنفسه بهذه الدعوة التي تواجه الرأسمالية التي افتقدها في حياته .

٢) أن العرب كانت تعرف نسبه وأصالته ، فلا تجد عضاضة في الانضواء تحت لوائه ، ولنا أن نتصور ظهور شخص من الموالي بين

---

(١) الإمام البخاري ، صحيح البخاري ١ / ٥ ، كتاب بدء الوحي ، حديث رقم ٦ .
(٢) انظر : صالح الشامي ، من معين السيرة ص ١٧ / ١٨ .

هذه القبائل ، ماذا سيكون رد فعل القبائل ؟ ولقد قال الكفار مع هذا النسب الرفيع : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[1] .

٣) أن كون الرسول ﷺ من قبيلة ذات مكانة يعود على الرسول ﷺ بالحماية والنصرة ، ولقد وقفت قبيلة الرسول ﷺ مواقف طيبة في حمايته ، كما أنهم دخلوا معه الشعب ، ولما حاول كفار قريش قتله كان من العقبات التي أهمتهم قبيلته ﷺ ، ووقف أبو طالب مواقفه المشهورة ، وإسلام حمزة رضي الله عنه كان أصله وبدايته ـ كما تقول كتب السير ـ حمية لابن أخيه .

۞۞۞

---

(١) سورة الزخرف ، الآية رقم (٣١) .

المبحث الثاني

حادثة الفيل

في عهد عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ وقعت حادثة الفيل التي تزامنت مع العام الذي وُلِدَ فيه الرسول المصطفى ﷺ ، وخلاصة القصة : أن أبرهة الحبشي نائب ملك الحبشة في اليمن لما رأى العرب تتوافد على البيت في مكة ، وتحجه كل عام بنى كنيسة كبيرة بصنعاء وأسماها (القُليس) وأراد أن يصرف العرب إلى الحج إليها بدلاً من البيت الحرام بمكة ، فسمع بذلك رجل من بني كنانة فسار إليها ، ودخلها ليلاً ولطخ جدرانها بالعذرة ، فلما علم أبرهة بذلك غضب ، وقرَّر أن يهدم الكعبة ، وسار بنفسه يقود جيشاً عدده ستون ألف جندي وكان في جيشه عدد من الفيلة ، ومضى يشقّ طريقه لا تقف له قرية حتى وصل إلى المغمس [١] ، وهناك ساق أموالاً لقريش ، منها مائتا بعير لعبد المطلب ، فجاء عبد المطلب ـ وكان سيد قريش ـ وقابل أبرهة ، فلما رآه أبرهة أَجَلَّه وأكرمه ، وقال له : ما حاجتك ؟ فقال : حاجتي أن يرد الملك علي مائتي بعير التي أخذها ، فقال أبرهة : قد

---

(١) المغمس : كان لا يزال معروفاً شرقي الحرم المكي ، يشرف عليه من جهة الشرق جبل كبكب ، وعرفة في نهاية المغمس من الجنوب ، فهو على مسافة عشرين كيلاً من مكة . محمد حسن شراب ، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ص ٢٧٧ .

كنت أعجبتني حين رأيتك ثم زهدت فيك حينما كلمتني ! أتكلمني في مائتي بعير ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت ؛ لهدمه لا تكلمني فيه ؟! قال عبد المطلب : (أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه)، قال : ما كان ليمتنع مني ، قال : أنت وذاك [(١)]، ولجأت قريش إلى الجبال وجلست تنظر ما يصنع أبرهة .

وأعد أبرهة جيشه ، وتهيأ لدخول مكة ، فلما وجهوا الفيل - وكان اسمه محموداً - إلى مكة برك ، وضربوه ؛ ليقوم فأبى ، ولما غيروا وجهته قام يهرول ، ثم أرسل الله عليهم طيراً أبابيل تحمل أحجاراً ، فلا تصيب أحداً منهم إلا أهلكته كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[(٢)] .

حادثة الفيل وقعت في شهر المحرم الموافق لأواخر فبراير أو أوائل مارس سنة ٥٧١ م أي قبل ميلاد الرسول ﷺ بحوالي شهر ونصف تقريباً [(٣)] ولعلنا نقف معها الوقفات التالية :

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ٤٣ وما بعدها .

(٢) سورة الفيل من أولها إلى آخرها .

(٣) انظر : المباركفوري ، الرحيق المختوم ص ٥٩ .

١) إن حادثة الفيل جاءت ؛ لتبرز وتعلي مكانة قريش بين سائر القبائل العربية ، فهي القبيلة التي حُمِيَتْ ، وإن لم تكن هي المقصودة وإنما جاءتها الحماية تبعاً ، وأرضها هي الأرض التي حرست ، وسائر القبائل انتصر عليها أبرهة ، واستباح أرضها وهو في طريقه إلى مكة ، فإذا ظهرت وبرزت مكانة قريش وتميزت على سائر القبائل ، ثم بُعِثَ منها وفيها محمد ﷺ فتابعت هذه القبيلة انقادت سائر القبائل العربية ، فهي أشبه برأس صنع ثم تابع فانقاد سائر الجسد ، وما قيمة الجسد إذا ذهب الرأس ؟ .

يشهد لهذا المعنى أن قبائل العرب ـ حينما كانت الحرب سجالاً بين الرسول ﷺ وكفار قريش ـ كانوا ينتظرون ويقولون : إن هزم محمد قريشاً دخلنا في دين محمد ، وإن بقيت الزعامة في قريش لم نكن خسرنا علاقتنا بها ، ولما انتهى الأمر ودخل الرسول ﷺ مكة فاتحاً ، وانقاد هذا الرأس ، انهالت القبائل العربية للدخول في دين الله أفواجاً ، فبعد فتح مكة نزل قول الله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾[1] .

فقد سقط الرمز الذي صنع ، فتبعه من كان يقلّده ولو لم يكن هناك قبيلة قائدة لاستمرت الدعوة تواجه القبائل العربية قبيلة قبيلة .

---

(١) سورة النصر من أولها إلى آخرها .

قال ابن هشام في السيرة : (فلما رد الله الحبشة عن مكة ، وأصابهم ما أصابهم من النقمة أعظمت العرب قريشاً وقالوا : هم أهل الله ، قاتل الله عنهم ، وكفاهم مؤنة عدوهم)[١] ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾[٢] .

يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيرها : (هذا تذكير خاص لأهل مكة وإنما خصوا من بين المشركين من العرب ؛ لأن أهل مكة قدوة لجميع القبائل ، ألا ترى أن أكثر قبائل العرب كانوا ينتظرون ماذا يكون من أهل مكة ؟ فلما أسلم أهل مكة يوم الفتح أقبلت وفود القبائل معلنة إسلامهم)[٣] .

٢) هذا الرجل الكناني الذي خرج من بلاده إلى اليمن لماذا خرج وقطع هذه المسافات الطويلة ؟.

لقد قطع هذا الرجل هذه المسافات الطويلة ، انتصاراً لمعتقده ، وانتقاماً لحرمة البيت سار بنفسه وضحَّى وبذل في سبيل مبدأه ، وهو موقف يذكّرنا حق ديننا علينا ، أن نسير ، ونبذل ونضحِّي من أجل الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى .

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ٥٩ ، وانظر : الذهبي ، السيرة النبوية ص ٦ ، والشامي : سبل الهدى والرشاد ١ / ٢٥٨ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية رقم (٦٧) .

(٣) الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير ٢١ / ٣٣ .

إن العديد منا ليشعر بالتكاسل للقيام لهذا الدين في أقل الأمور وهذا الرجل يمضي في رحلة شاقة لأجل مقالة سمعها يريد أن ينتصر لبيت الله ، إنها همة وتضحية متى كانت في قلب مسلم نصر الدين وسعى في رفعته .

٣) إن أحوال العرب وقت حادثة الفيل تدل على أنهم كانوا أوزاعاً وأشتاتاً ، فمنهم من هو خاضع للأكاسرة في العراق ومنهم من هو خاضع للروم في الشام ومنهم من هو خاضع للأحباش في اليمن ، ومنهم القبائل العربية المتحاربة وسط الجزيرة العربية .

ولما جاءهم هذا الغزو الخارجي ماذا صنع بهم ؟ كان يمر القبيلة تلو القبيلة فتتساقط بين يديه ، فلم يكن للعرب بصفتهم عرباً مكان في هذا العالم ، فما حدث في قصة الفيل كان مقياساً لحقيقة العرب وقوتهم المجردة من الإسلام حينما تتعرض لغزو خارجي .

هذه هي حقيقة القومية العربية المجردة ، قبائل متصارعة فيما بينها ، منها ما هو خاضع ذليل لغيره ، ومنها ما هو متقاتل مع جاره ، لا قيمة لها ولا حساب إلا بعد أن انضوت تحت راية الإسلام ، ولأول مرة في تاريخ العرب أصبح لهم دور عالمي يؤدونه ، لهم قوة يحسب لها ألف حساب ، والذي هيأ للعرب هذه المكانة هو إيمانهم بالله جل شأنه (وكل من له أدنى معرفة بتاريخ العرب قبل الإسلام وبعده يعلم أنه لم

يكن للعرب قيمة تذكر ولا راية ترهب إلا بالإسلام ، وبه فتحوا البلاد وسادوا العباد)[١] .

(والدعوة إلى العروبة كغايةٍ إذا عرضناها على ضوء الإسلام فبحثنا في القرآن الكريم نجد أنه لم يرد في القرآن المبين لفظة العروبة والعرب بعينها ولا تجد فيه أن الله تعالى ناداهم بهذا اللفظ الخاص ، فلم يقل : (يا أيها العرب) أو (يا عرب) ...... وإنما نجد (يا أيها الناس) و (يا بني آدم) و (يا أيها الذين آمنوا) و (قل يا أيها الكافرون))[٢] .

يقول سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن الدعوة إلى القومية العربية كما أنها إساءة إلى الإسلام ومحاربة له في بلاده ، فهي أيضاً إساءة إلى العرب أنفسهم وجناية عليهم عظيمةٌ ؛ لكونها تفصلهم عن الإسلام الذي هو مجدهم الأكبر وشرفهم الأعظم ، ومصدر عزهم وسيادتهم على العالم ، فكيف يرضى عربي عاقل بدعوة هذا شأنها وهذه غايتها ؟)[٣] .

---

(١) الشيخ عبد العزيز بن باز ، نقد القومية العربية ص ٥٨ ، وانظر : صالح العبود ، فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام ص ٢٢٦ حيث قال : (وما تبوأ العرب مكانهم القيادي في العالم كله ولن يتبوأ ذلك إلا بالقرآن كما شهد بذلك الأعداء فضلاً عن أهل القرآن) .

(٢) د : صالح العبود ، فكرة القومية على ضوء الإسلام ٢٢٣ / ٢٢٤ .

(٣) الشيخ عبد العزيز بن باز ، نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع ص ١٤ .

ولهذا فإن في حادثة الفيل درساً بليغاً لكل منخدع بالقومية العربية ، فالعرب متى تخلوا عن دينهم وعادوا إلى قوميتهم العربية فقط فلن يعدو شأنهم شأن العرب يوم اجتاحهم أبرهة الحبشي [١] .

٤) موقف عبد المطلب وهو مشرك يوحي للمسلم بوجوب الاعتماد على الله سبحانه وتعالى والتوكل عليه والثقة بنصره ، فإذا كان عبد المطلب يقول : (وللبيت رب يحميه) يقولها وهو واثق أن لهذا البيت رباً سيتولى حمايته ، فماذا يقال للمسلم الذي يغفل عن هذا المعنى ؟!! عن نصر الله سبحانه وتعالى لدينه ونبيه وعباده الصالحين ؟!.

ما أحوج المسلمين اليوم وهم يتعلقون كثيراً بالأسباب ، وكثير منهم يتخبط في البحث عن أسباب النصر أن يستشعروا أولاً عظمة الثقة بالله ونصره ، وهو سبحانه القائل : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [٢] وهو القائل سبحانه عن حادثة الفيل : ﴿ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِى تَضۡلِيلٖ ﴾ [٣] .

---

(١) قال خادم الحرمين الشريفين الملك فهد ـ حفظه الله تعالى ـ في لقاء له برجال الصحافة عند مستهل ربيع الثاني عام ١٣٩٧هـ : (وقد أدرك الجميع أن الأمة العربية لم يكن لها قيمة في يوم من الأيام إلا بالإسلام ... وبدونه لم ترتفع ؛ لتصبح خير أمة أخرجت للناس) د/ صالح العبود ، فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام ص ٢٧٥ وعزاه إلى مجلة الدعوة بالرياض ، عدد ٥٩٢ ، ص ٧ في ٢ / ٤ / ١٣٩٧هـ .

(٢) سورة محمد ، الآية رقم (٧) .

(٣) سورة الفيل ، الآية رقم (٢) .

٥) أن عبد المطلب عندما قال عبارته المشهورة : (وللبيت رب يحميه) لم يقلها من باب التخلي عن تحمل المسؤولية ، وهم العرب المعروفون بأنفتهم وعزتهم وشجاعتهم ، ولكنه قالها من باب الإنذار والتهديد لأبرهة ، فهذا الكلام في ظاهره كلام فيه السهولة واللين ، يتصور بعض الناس أنه لا يقوله إلا الضعيف ، وليس الأمر كذلك ، بل هو كلام يخفي في ثناياه الإنذار الشديد لهذا الرجل النصراني (أبرهة) ينبهه فيه إلى أنه لا يحارب أحداً من أهل مكة وإنما يحارب الله جل شأنه ، ويهدم بيتاً بناه خليل الله بأمر من الله سبحانه وتعالى ، فهو تهديد ووعيد قاله عبد المطلب وهو مشرك وينبغي دائماً أن يقوله المسلم القوي المنتصر بالله ، إنه تهديد بحرب لم يألفها البشر ، وأنى لشخص أن يحارب الله [1] ؟! .

٦) إن في حادثة الفيل درساً لكل من تسوِّل له نفسه الاعتداء على حرم الله ، فالله جل شأنه هو الذي تولى حماية بيته وهو يعج بالشرك والمشركين ، فكيف لا يحميه اليوم وهو معمور بالطائفين والعاكفين والركع السجود ؟. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ : (وأما الكعبة فإن الله شرفها وعظمها وجعلها محرمة ، فلم يمكن الله أحداً من إهانتها لا قبل الإسلام ولا بعده ، بل لما قصدها أهل الفيل عاقبهم الله العقوبة المشهورة) [2] .

---

(١) انظر : أبو زهرة ، خاتم النبيين ١ / ١٣١ .

(٢) ابن تيمية ، منهاج السنة النبوية ٤ / ٥٧٦ ، وانظر : مزيد إيضاح في الصفحات ٥٧٧ و ٥٨٣ من المرجع نفسه .

٧) في حادثة الفيل تثبيت لكل مؤمن بأن الله يدفع عنه كيد أعدائه ، فإذا كان الله سبحانه وتعالى دفع من يكيد لبيته ، فمن باب أولى أن يدفع كيد من يكيد لدينه ورسوله ﷺ وعباده المؤمنين ، فإن حرمة المؤمن أعظم من حرمة البيت ، وقد ورد عن ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أنه نظر يوماً إلى البيت أو إلى الكعبة ـ فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك [(١)] ، وإذا كانت حرمة المؤمن أولى فهي لاشك أحرى بالدفع من الله جل شأنه وهو القائل في محكم كتابه : ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [(٢)] .

٨) أن حماية الله جل شأنه لهذا البيت تلفت النظر إلى أن لهذا البيت أهمية خاصة ، علاوة على ما كان له في النفوس من احترام مما يعمق احترامهم له ، فإذا خُرج من هذه البقعة المفضلة من يدعو إلى الله سبحانه لم يكن هذا بالشيء الغريب ؛ إذ هي أرض تولى الله سبحانه وتعالى حمايتها ، خاصة وأن حادثة الفيل تزامنت مع مولد الرسول الكريم ﷺ . يقول شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (وكان أمر الفيل تقدمة قدمها الله لنبيه وبيته ، وإلا فأصحاب الفيل كانوا نصارى أهل كتاب ، وكان دينهم خيراً من دين أهل مكة إذ ذاك ؛ لأنهم كانوا عباد أوثان ، فنصرهم الله على أهل

---

(١) أخرجه الترمذي وقال عنه الألباني : (حسن صحيح) ، صحيح سنن الترمذي ٢ / ٢٠٠ ، رقم ١٧٥٥ .

(٢) سورة الفيل ، الآية رقم (٢) ، وانظر : محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٤٤.

الكتاب نصراً لا صنع للبشر فيه ، إرهاصاً وتقدمةً للنبي ﷺ الذي خرج من مكة ، وتعظيماً للبيت الحرام)[١] .

٩) أن هذه القبيلة التي نصرت في حادثة الفيل وميزت على سائر القبائل وخصت بالحماية الإلهية ثم يُبعث منها الرسول ﷺ ، نقف عند هذا ونقول : ما سبب اختيارها ؛ لتكون قبيلة الرسول ﷺ ؟ هناك قبائل كثيرة في العرب ، لكن أن تبرز قبيلةَ ثم يُبعث منها الرسول ، هذا يرشدنا إلى إعطاء الكبراء أولوية وأهمية في الدعوة ، فالرسول ﷺ أُرْسِلَ أولاً إلى سيّدة القبائل العربية وهي الخطوة الأولى في عمله ، وكذلك يبدأ الداعية في دعوته ، في المنزل يحسن أن يبدأ الداعية بالأب ، وفي المدرسة يبدأ بمديرها ، وفي القرية يبدأ بأميرها ، وهكذا . فالكبير له حق التوقير والتقدير ، ومن التقدير البدء به ، و من الحكمة البدء به ؛ لما له من التأثير على من دونه ، والله أعلم .

١٠) يقول الشيخ محمد العثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ : (وإنما حمى الله عز وجل الكعبة من هذا الفيل مع أنه في آخر الزمان سوف يسلط عليها رجل من الحبشة يهدمها حجراً حجراً حتى تتساوى بالأرض[٢] ؛ لأن قصة أصحاب الفيل مقدمة لبعثة الرسول محمد ﷺ التي يكون فيها تعظيم البيت ، أما في آخر الزمان فإن أهل البيت إذا

(١) ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد ١ / ٧٦ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الحج ، باب هدم الكعبة (١٥٩٥ – ١٥٩٦) .

أهانوه وأرادوا فيه بإلحاد بظلم ولم يعرفوا قدره ، حينئذ يسلط الله عليهم من يهدمه حتى لا يبقى على وجه الأرض ولهذا يجب على أهل مكة خاصة أن يحترزوا من المعاصي والذنوب والكبائر ؛ لئلا يهينوا الكعبة فيذلهم الله عز وجل) [١] .

۞۞۞

(١) ابن عثيمين ، تفسير جزء عم ص ٣٢٠ .

المبحث الثالث :

مولد الرسول ﷺ

١. تزوج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة بنت وهب من بني زهرة ، ثم خرج إلى الشام (غزة) في عير من قريش في تجارة ، ثم انصرفوا في طريق عودتهم إلى المدينة ، وتوقف عبد الله عند أخواله بني النجار ؛ لشعوره بالمرض ، وأقام عندهم أياماً ثم مات ودُفِنَ بالمدينة ورسول الله ﷺ جنين في بطن أمه ، وعمر عبد الله حينئذ خمس وعشرون سنة [١] ، وهذا اليتم هو الذي أشارت إليه الآية الكريمة : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ [٢] .

٢. لا خلاف أن الرسول ﷺ وُلِدَ يوم الاثنين لحديث : أنه سُئِلَ عن صيام يوم الاثنين ، فقال : « ذاك يوم وُلِدْتُ فيه وأُنْزِلَ علي فيه » رواه الإمام مسلم [٣] .

٣. الصحيح الذي عليه الجمهور أنه وُلِدَ ﷺ في مكة ، أما مكانه في مكة فقيل : في الدار الكائنة في شعب بني هاشم ، وقيل : بالدار التي عند الصفا [٤] ، وكانت القابلة هي الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه وعنها ـ [٥] .

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٢ / ٢٦٣ ، وابن قيم الجوزية ، زاد المعاد ١ / ٦ .
(٢) سورة الضحى ، الآية رقم (٦) .
(٣) صحيح الإمام مسلم ٢ / ٨١٩ ، حديث رقم ١٩٧ .
(٤) انظر : السهيلي ، الروض الأنف ١٨٤/١ ، والشامي ، سبل الهدى ١ / ٤٠٨ .
(٥) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٢٦٤/٢ .

واختلفوا في أي شهر ولد ؟ :

فقيل : وُلِدَ في ربيع الأول ، وقيل : ولد في رمضان ، واستدلوا على هذا بأنه ﷺ بُعِثَ على رأس الأربعين ، وقد بُعِثَ في رمضان فتكون ولادته في شهر رمضان [1] .

ولكن الصحيح أنه ولد في ربيع الأول ، ثم اختلفوا في أي يوم من ربيع الأول ؟ على الأقوال التالية : ٢ ربيع الأول ، أو ٨ ربيع الأول ، أو ٩ ربيع الأول ، أو ١٠ ربيع الأول ، أو ١٢ ربيع الأول ، أو ١٧ ربيع الأول ، أو ٢٢ ربيع الأول [2] .

أما عام مولده :

فيقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : وكان مولده ﷺ عام الفيل و وهذا هو المشهور عند الجمهور ، قال إبراهيم بن المنذر : وهو الذي لا يشك فيه أحد من علمائنا أنه عليه الصلاة وأتم التسليم وُلِدَ عام الفيل

---

(١) نقل هذا القول ابن كثير في البداية والنهاية ٢ / ٢٦٠ وقال عنه : وهو قول غريب جداً ، وعقّب على الدليل الذي أشرت إليه بقوله : (وهذا فيه نظر) .

(٢) انظر هذا الخلاف في :

١- ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ١٧١ .

٢- أبو حاتم البستي ، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء ص ٣٣ / ٣٤.

٣- ابن كثير ، البداية والنهاية ٢ / ٦٠ .

٤- الذهبي ، السيرة النبوية ص ٧ .

٥- المنصورفوري ، رحمة للعالمين ١ / ٣٣ .

٦- المباركفوري ، الرحيق المختوم ص ٦٢ .

[١] عام ٥٧١ م ، عن أبي أمامة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « رأت أمي كأنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام »[٢] .

١. وبعد ولادته ﷺ أرسلته أمه إلى جده عبد المطلب ، فأخذه ودخل به الكعبة ، ولما كان يوم سابعه ذبح عنه ودعا له قريشاً ، فلما أكلوا قالوا : يا عبد المطلب ما سمَّيتَ ابنَك الذي دعيتنا على وجهه ؟ قال : محمداً ، قالوا : كيف سمَّيتَ باسم ليس لأحد من آبائك وقومك ؟ فقال : إني لأرجو أن يحمده أهل الأرض ويحمده أهل السماء ، وهذا الاسم (محمد) غير معهود في الجاهلية إلا من عدة أشخاص سمَّاهم آباؤهم بهذا الاسم لما سمعوا بأن نبياً سيُبْعَثُ اسمه محمد رجاء أن يكون هو .

ثم إن الله سبحانه وتعالى حمى كل من تسمَّى بهذا الاسم في ذلك الوقت بأن يدعي النبوة أو يدعيها له أحد ، أو يظهر عليه أمر يشكل على أحد[٣] .

وقفة مع تاريخ ميلاد الرسول ﷺ :

إذا نظرنا إلى تاريخ ميلاد الرسول ﷺ نلحظ كثرة ما قيل في تاريخ ميلاد الرسول ﷺ ، فالأقوال كثيرة ، ثم إن هذه الأقوال ليس بينها

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٢ / ٢٦٧ ، والذهبي ، السيرة النبوية ص ٦ .
(٢) أخرجه الدارمي في سننه ١ / ١٧ ، رقم ١٣ وقال محققه : (رواه أيضاً أحمد والطبراني في الكبير وإسناد أحمد حسن) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ، حديث رقم ٣٤٥١ .
(٣) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٢ / ٢٥٩ .

قول مقطوع فيه ، يصار إليه ويترك ما عداه ، ولعل لهذا مغزى معيناً نقف عنده ونستفيد منه دلالات معينة ، منها :

١. أن تاريخ ميلاد الرسول ﷺ لا يرتبط بعبادة معينة من العبادات ، ولم يشرع فيه أي نوع من العبادات احتفالاً كان أو غيره ؛ لأن فرع العبادة المؤقتة بزمن معرفة وقتها .

وفي هذا رد على من يحتفل بالمولد النبوي كل عام ، فالذين يحتفلون بالمولد يقال لهم : مهلاً ، حددوا أولاً مولد الرسول ﷺ بطريق ثابت ثم احتفلوا ، ويقال للذين يحتفلون بالثاني عشر : ما دليلكم على أن هذا هو يوم المولد ؟ وكذلك الذين يحتفلون بالتاسع أو العاشر أو السابع عشر ما دليلهم ؟ .

ولو كان مطلوباً من المسلم الاحتفالُ بالمولد لحدد له يوم المولد تحديداً واضحاً ، كما حددت مواقيت سائر العبادات المقيدة بزمن مثل الصيام ، فقد حدد بدء الصيام بالأول من شهر رمضان وينتهي بنهاية الشهر ، ويوم العيد محدد في الأول من شوال والعاشر من ذي الحجة ، والوقوف بعرفة هو يوم التاسع من ذي الحجة ، ويسن للمسلم أن يصوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر . أما المولد فليس له تاريخ محدد ؛ لأنه ليس فيه عبادة محددة مقترنة به .

٢. هذا البحث والجمع والتحري عن ميلاد الرسول ﷺ وبذل الجهد في جمع الأقوال يشعر بمدى عمق المحبة لهذا النبي الحبيب ﷺ والعناية بتاريخه وسيرته وحياته.

٣. ليوم الاثنين ميزة خاصة في حياته ﷺ، فإنه وُلِدَ في هذا اليوم وفيه بُعِثَ وفيه تُوُفِّيَ ﷺ (١) وقد سن الرسول ﷺ صيام هذا اليوم مع يوم الخميس، ولو قال قائل: إن صيام هذا اليوم احتفال بيوم ولادته، قلنا: إن صيام المسلم لهذا اليوم ليس لكونه يوم مولد الرسول ﷺ وإنما لكون الرسول ﷺ أمر بصيامه ولم يعهد أن يكون الاحتفال بالصيام، والرسول ﷺ لم يخص هذا اليوم بكونه ولد فيه بل قال: « وُلِدْتُ فيه وأُنْزِلَ علي فيه »، فليحتفل هؤلاء أيضاً بتاريخ البعثة، فالدليل واحد وعلى فرض أن يكون هذا الحديث أصلاً يجب أن يقتصر فيه على ما ورد؛ لأن العبادات توقيفية (٢)، وهؤلاء الذين يحتفلون بمولد النبي ﷺ لا يقيدونه بيوم الاثنين بل باليوم الذي زعموا مولده فيه وهو اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول مع أن ذلك لم يثبت من الناحية التاريخية (٣) كما سبق أن أشرت.

---

(١) انظر: المنصور فوري، رحمة للعالمين ١ / ٢٨٨، قال ابن كثير في البداية والنهاية: (قال ابن عباس: ولد نبيكم ﷺ يوم الاثنين ونبئ يوم الاثنين، وخرج من مكة مهاجراً يوم الاثنين ودخل المدينة يوم الاثنين ومات يوم الاثنين، رواه أحمد والبيهقي) ٥ / ٢٥٤.

(٢) انظر في هذه الفقرة الأخيرة: الشيخ محمد بن صالح العثيمين، القول المفيد على كتاب التوحيد ١ / ٣٨٦.

(٣) المرجع السابق.

وإذا تجاوزنا هذا الخلاف التاريخي في مولده ﷺ نجد :

١) أن الرسول ﷺ وُلِدَ بعد موت والده وفي هذا يقول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ : (وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه) [١] .

ولعل يتمه ﷺ كي لا يكون للمبطلين سبيل أن يقولوا : إن محمداً تلقى دعوته هذه بإرشاد وتوجيه من والده ، أو أن دعوته هذه ورثها من أبيه ، فقد مات أبوه قبل مولده ، ولم يلتقيا ، فانقطع بذلك توارث الزعامة أو التوجيه والإرشاد الأبوي لها .

٢) أن في نشأته ﷺ يتيماً يجعله أكثر إحساساً بالمعاني الإنسانية النبيلة فصاحب التجربة أدرى ممن لم يمر بهذه التجربة ، وابن الأغنياء لا علم له بمعاناة الفقراء ، وهذا النوع من الحياة وفر للرسول ﷺ رصيداً من الخبرات في الدعوة عندما بُعِثَ [٢] .

٣) نشأة الرسول ﷺ في طفولته المبكرة مع أمه لم تكن من باب الصدفة والاتفاق ، فقد وجدنا قبل الرسول ﷺ غير قليل من الأنبياء عهد بهم إلى أمهاتهم ، أليس في هذا إشارة إلى أهمية الأم وعظيم دورها في تكوين وتربية الأجيال ؟!! .

فإسماعيل عليه الصلاة والسلام عاش في بيت أمه في مكة بعيداً عن أبيه إبراهيم عليه السلام ، وموسى عليه الصلاة والسلام عاش في

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ٢ / ٢٦٣ .

(٢) انظر : مصطفى السباعي ، دروس وعبر من السيرة النبوية ص ٣٨ ، وانظر : الشامي ، سبل الهدى والرشاد ١ / ٣٩٩ .

بيت أمه تحن عليه وترعاه ، وتتابع أحواله ، ولم نجد ذكراً لأبيه عند الحديث عنه عليه السلام في القرآن الكريم .

وعيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ نشأ في بيت أمه ، ثم محمد ﷺ نشأ في طفولته مع أمه آمنه بنت وهب ، إن هذا يذكّرنا بمكانة الأم في المنزل وفي المجتمع وعظم رسالتها ، فهي التي تولت تربية عدد من الأنبياء في طفولتهم وهي التي تنشئ هذه الأجيال التي تحتل مكانتها المرموقة في المجتمعات .

وحينئذ فاختيار الزوجة له أهمية ومكانته ؛ لأنها هي التي ستربي هؤلاء الأولاد وترعاهم ، وتوجيههم منذ صغرهم وطفولتهم يكون له الأثر على مستقبلهم وربما مستقبل المجتمع بكامله [1] ، وهو أيضاً يدلنا على مكانة المرأة وأهميتها في المجتمع المسلم .

٤) شاء الله سبحانه وتعالى أن يجعل نبيه محمداً ﷺ يتيماً حتى لا تتدخل يد أب حانية في توجيهه ، بل يتولاه الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾ [3] ، فلا يتلقى محمد ﷺ شيئاً من مفاهيم الجاهلية وأعرافها من أبيه ، وإنما يتلقى من لدن الحكيم الخبير سبحانه وتعالى [4]

(١) انظر : د. عبد الحميد الهاشمي ، الرسول العربي المربي ص ٨٣ – ٨٤ .

(٢) سورة طه ، الآية رقم (٤١) .

(٣) سورة طه ، الآية رقم (٣٩) .

(٤) انظر : منير الغضبان ، فقه السيرة النبوية ص ٨٤ .

، (نقل أبو حيان في بحره وغيره عن جعفر الصادق ـ رحمه الله تعالى ـ قال : إنما يتم رسول الله ﷺ ؛ لئلا يكون عليه حق لمخلوق ، وقال ابن العماد في كشف الأسرار: إنما رباه يتيماً ؛ لأن أساس كل كبير صغير، وعقبى كل خطير حقير ، وأيضاً ؛ لينظر ﷺ إذا وصل إلى مدارج عزه إلى أوائل أمره ؛ ليعلم أن العزيز من أعزه الله ، وأن قوته ليست من الآباء والأمهات ولا من المال، بل قوته من الله تعالى وأيضاً ؛ ليرحم الفقير والأيتام) [١] .

٥) في هذا اليتم درس دعوي وهو أن الغنى والرفعة والعزة لا علاقة لها باليتم ، ولا بمن بقى أبواه حيين ، فكم من فرد منا يتعلق بالأولاد ومستقبل الأولاد ، ويخشى ضياع الأولاد ، إن دعي إلى الصدقة قال : أولادي أولى واستدل بحديث الرسول ﷺ « إنك أن تدع أهلك بخير ، خير من أن تدعهم يتكففون الناس » [٢] ، وإن جاء الجهاد جاء الأولاد وتذكرهم والخوف عليهم والتعلق بهم ، وإن جاءت رحلة في الدعوة إلى الله عاقه الأهل والأولاد ، والرسول ﷺ يقول : « إن الولد مبخلة مجبنة » [٣] ، تذكر أنك إن حفظت الله حفظك الله بأولادك ، وحفظ الله أولادك من بعدك ، فالله سبحانه وتعالى

---

(١) الشامي ، سبل الهدى والرشاد ١ / ٣٩٩ .

(٢) روى الحديث سعد بن أبي وقاص ﷺ وقد أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ٣ / ١٢٥٣ ، حديث رقم ١٦٢٨ .

(٣) أخرجه ابن ماجة في سننه ، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ٢ / ٢٩٥ ، رقم ٢٩٥٧ .

يحكي لنا قصة موسى والخضر ويذكر فيها تسخير موسى عليه السلام والخضر لبناء الجدار لليتيمين ، وذكر أن أباهما كان رجلاً صالحاً قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [١] ، قال سعيد بن المسيب ـ رحمه الله تعالى ـ لابنه : (لأزيدن في صلاتي من أجلك رجاء أن أحفظ فيك) [٢] وقال عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ : (ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه وعقب عقبه) [٣] .

۞۞۞

(١) سورة الكهف ، الآية رقم (٨٢) ، وانظر : ابن رجب ، جامع العلوم والحكم ١ / ٤٦٧ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

المبحث الرابع
رضاعته ﷺ

بعد ولادته ﷺ أرضعته أمه آمنة ثلاثة أيام أو سبعة أيام ، وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية [1] ، ثم أرضعته ثويبة مولاة أبي لهب أياماً ، يقول الرسول ﷺ : « أرضعتني وأبا سلمة ثويبة » [2] ، قال

---

(١) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ١/٨٣ .

(٢) البخاري ، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر ٩ / ١٤٠ ، حديث رقم ٥١٠١ ، وقال ابن حجر في فتح الباري ٩ / ١٤٥ : (وفي الحديث دلالة على أن الكافر قد ينفعه العمل الصالح في الآخرة لكنه مخالف لظاهر القرآن الكريم ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ (الفرقان :٢٣) ثم أجاب عن الحديث ثم قال : (وقال البيهقي : ما ورد من بطلان الخير للكفار فمعناه أنهم لا يكون لهم التخلص من النار ولا دخول الجنة ويجوز أن يخفف عنهم من العذاب الذي يستوجبونه على ما ارتكبوه من الجرائم سوى الكفر بما عملوه من الخيرات) ثم ختم البحث بقوله : (وتتمة هذا أن يقع التفضل المذكور إكراماً لمن وقع من الكافر البر له ونحو ذلك) ، وانظر أيضاً : السهيلي ، الروض الأنف ٣ / ٦٧ ، ونضيف أيضاً أن فرح أبي لهب بمولود لأخيه فرح طبيعي لا تعبدي ، إذ كل إنسان يفرح بالمولود يولد له أو لأحد إخوته أو أقاربه ، والفرح إذا لم يكن لله لا يثاب عليه فاعله ، قاله الجزائري في الأنصاب ص٣٠ نقله : حافظ بن موسى الحكمي في بحث

عروة بن الزبير ـ رضي الله تعالى عنهما ـ : (وثويبة مولاة لأبي لهب ، وكان أبو لهب أعتقها ، فأرضعت النبي ﷺ ، فلما مات أبو لهب ، أريه بعض أهله بشر حيبة ، قال له : ماذا لقيت ؟ قال أبو لهب : لم ألق بعدكم ، غير أني سقيت في هذه بعتاقتي ثويبة)[1] ، ثم قدمت مجموعة من النساء يبحثن عن الأطفال ، منهن حليمة السعدية ـ رضي الله تعالى عنها ـ[2] ، فعرض عليهن الرسول ﷺ ، فكن يرفضن أخذه إذا قيل لهن : إنه يتيم ، ولما لم تجد ـ رضي الله عنها ـ طفلاً تأخذه في حين وجدت جميع النساء أطفالاً عادت حليمة ـ رضي الله عنها ـ

الأعياد المشروعة والممنوعة ، رسالة ماجستير غير منشورة ١ / ٢٨٩ ، كلية أصول الدين بالرياض .

(١) المرجع السابق .

(٢) انظر : ابن سعد ، الطبقات ١ / ١١٤ ، وأبو داود في سننه ٤ / ٣٣٧ ، كتاب الأدب ، رقم ٥١٤٤ ، وابن عبد البر ، الاستيعاب ٨ / ١٨١٢ ، والمنذري ، مختصر سنن أبي داود وقال : (وأمه ﷺ من الرضاعة حليمة السعدية ، أسلمت وجاءت إليه وروت عنه ﷺ) ٨ / ٣٩ ، وعدها ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ في القسم الأول من الصحابة ٨ / ٥٢ - ٥٣ وقال عن القسم الأول كما في المقدمة ١ /٣ : (فالقسم الأول فيمن وردت صحبته بطريق الرواية عنه أو عن غيره سواء كانت الطريقة صحيحة أو حسنة أو ضعيفة أو وقع ذكره بما يدل على الصحبة بأي طريق كان) ، وانظر : الشامي ، سبل الهدى والرشاد ١/ ٤٦٥-٤٦٩ ، فقد خصص باباً في إسلام حليمة وزوجها .

وأخذته معها ، وقد ورد في صحيح مسلم إشارة إلى هذه الرضاعة [١] .

وبعد مضي سنتين قدمت به إلى أمه وهي حريصة على بقائه معها ؛ لما يرون فيه من البركة التي حلت عليهم منذ نزل عندهم ، فلم تزل بها حتى وافقت على رده معها [٢] .

وقصة رضاعته ﷺ مشهورة في كتب السيرة حكتها حليمة السعدية ـ رضي الله عنها ـ تصف فيها قدومها إلى مكة ، ثم قبولها في النهاية للرسول ﷺ لما لم تجد غيره ، ثم ما حل في ديارهم من البركة [٣] .

وإرسال النبي ﷺ للرضاعة في البادية على عادة أشراف العرب لحكم نذكر منها :

---

(١) الإمام مسلم ، صحيح مسلم ١ / ١٤٧ ، حديث رقم ٢٦١ ، ويقال : إن ديار حليمة السعدية ـ رضي الله عنها ـ في واد جنوب غربي الطائف يبعد عنه مسافة تزيد عن سبعين كيلاً في منطقة تسمى حالياً ديار بني سعد وهي مجموعة من القرى ويقال : إن القرية التي نشأ فيها الرسول ﷺ هناك تُسَمَّى (الذويبات) ويقول الشيخ بكر أبو زيد : (وفي بني سعد عند قرية الشهبة على نحو مائة كيلو من الطائف جنوب غرب ، مسجد يُسَمَّى (مسجد حليمة السعدية) وهو مسجد لا أصل له ، وبنو سعد هناك لا يرون صحة هذا ، ويقولون: إن مراضع النبي ﷺ في بني سعد قرب وادي نخلة بين ميقات قرن المنازل وحنين والله أعلم) تصحيح الدعاء ص ١٠٤- ١٠٥.

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ١٧٥ .

(٣) انظر القصة مفصلة في : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ١٧٣ — ١٧٤ ، والذهبي ، السيرة النبوية ص ١٩ - ٢٠ .

١. أن في رضاعته ﷺ في البادية بعيداً عن المدينة تجنباً للأوبئة ، واستفادة من مناخ البادية الصحي ، خاصة وأن مكة في ذاك الوقت يفد إليها الكثير من جميع أجناس الناس للحج والزيارة والتجارة وغيرها ، مما يجعلها معرَّضة للأوبئة أكثر من غيرها .

ولذلك ينصح المربون بالاهتمام بصحة الطفل ، والخروج به إلى الخلاء والهواء الطلق ؛ لما في ذلك من أثر تربوي ونفسي على هذا الطفل في مستقبل حياته .

وكثير من الأمراض وبخاصة النفسية منها إنما يعاني منها أبناء المدن الذين تضيق بهم المساكن ، ويهملهم الآباء ، فلا يخرجون بهم حيث تنشرح النفس ويتجدد الهواء وتنتعش الحياة معهم ، والتربية المعاصرة اليوم تنادي (بأهمية قيام الأطفال برحلات إلى الريف والجبال والسهول والوديان ، فذاك نافذة لتفتح الذهن والذكاء) [١] ، (وقد ذكر أن عبد الملك بن مروان كان يقول : أضر بنا حب الوليد ؛ لأن الوليد كان لحاناً ، وكان سليمان فصيحاً ؛ لأن الوليد أقام مع أمه وسليمان وغيره من إخوته سكنوا البادية فتعربوا ، ثم أدبوا فتأدبوا) [٢] .

٢. إن في خروج هؤلاء الأطفال إلى البادية تعويداً لهم على النطق السليم للغة العربية ، وحماية لهم من اللحن فيها ، وهذا يدلنا على

(١) د. عبد الحميد الهاشمي ، الرسول العربي المربي ص ٨٧ .
(٢) السهيلي ، الروض الأنف ١ / ١٨٨ .

مدى اهتمام هؤلاء القوم بلغتهم اللغة العربية، وهو درس لنا نحن في المحافظة على اللغة العربية لغة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وكان سلف الأمة يحضون على تعلم العربية كما يحضون على التفقه في السنة وتعلم الفرائض، فقد كتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري ﷺ قال: (أما بعد، فتفقهوا في السنة وتفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن، فإنه عربي)[١].

وقال ﷺ أيضاً: (تعلموا اللحن والفرائض، فإنها من دينكم)[٢].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: (فإن نفس اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض واجب ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)[٣].

ويقول الإمام الشاطبي ـ رحمه الله تعالى ـ عن القرآن الكريم: (فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة)[٤].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (١٠ / ٤٥٧ رقم ٩٩٦٣)، كتاب فضائل القرآن الكريم، باب ما جاء في فضائل القرآن.

(٢) المرجع السابق ص ٤٥٩، رقم ٩٩٧٥.

(٣) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم ١ / ٤٧٠.

(٤) الشاطبي، الموافقات ٢ / ٤٣.

وقال أيضاً : (الشريعة عربية ، وإذا كانت عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم ؛ لأنهما سيان في النمط ما عدا وجوه الإعجاز)[١] ، ولهذا حرص الأعداء على تشجيع العامية ، وبثِّها بين الناس ؛ لإدراكهم أن اللغة العربية هي الجسر الذي يربط فيما بينهم ، ويصلهم بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والتراث الإسلامي العظيم ، (ولا وصول كاملاً إلى الإسلام إلا بمعرفة لغته التي بها نزل القرآن الكريم ودُوِّنَتْ بها السنةُ ، وسطرت بها دواوين الإسلام كافة ولهذا كان الهجوم على اللغة العربية هجمة على الدين ، وعجمة اللسان تُعْقِبُ عجمة في القلب والفكر ، ووأدها وأد لحملتها وقوامها)[٢] ، وإذا ما تم هدم هذه اللغة ، وجرى التفريط فيها من قبل أبنائها انقطع هذا الاتِّصال وأصبحت أمة ممزقة بلهجات متعددة لا رابط لساني بينها ، منقطعة عن قرآنها وحديث نبيها وتراثها الإسلامي ، ولقد أشار السلف إلى أن من أكبر أسباب الابتداع وظهور الفهومات الزائغة للنصوص ، الجهل بلسان العرب .

وإن اللغة العربية هي إحدى ركائز ثلاث يهتم بها الأعداء في هجومهم على الإسلام : القرآن الكريم والكعبة المشرفة واللغة العربية .

---

(١) المرجع السابق ٤ / ٦٠ .
(٢) بكر أبو زيد ، حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية ص ٩٠ - ٩١ .

فاللغة العربية هي اللسان الذي يربط الأمة الإسلامية فيما بينها وبين قرآنها وحديث نبيها وتراثها الإسلامي ، والقرآن الكريم هو مصدر التشريع الرئيسي لها جميعاً والكعبة هي قبلتها الوحيدة التي تتجه إليها الأمة بأفرادها أينما كانوا أحياء وأمواتاً .

ولقد كنت في زيارات إلى أمريكا وبريطانيا والبرازيل ورأيت شباباً مسلمين عرباً في مقتبل العمر وفي ريعان الشباب بين العاشرة والعشرين سنة ، ولا يستطيع الفتى منهم أن يتكلم ثلاث كلمات متزنة باللغة العربية ، وإذا تحدث بلغة البلد انطلق يتكلم بلا تلعثم ، هؤلاء آباؤهم مسلمون عرب لكن ولدوا ونشأوا في بلاد الغرب ، فماذا سيكون حال هؤلاء بعد أن يكونوا رجالاً ؟ كيف ستكون صلتهم بالإسلام والمسلمين ؟ ماذا سيقرأون ؟ إنهم سيخرجون إلى المجتمع وقد حيل بينهم وبين القرآن الكريم والحديث وسيرة السلف الصالح ، وأصبح في متناول أيديهم وبلغتهم الإنجيل والتوراة والكتب النصرانية ، وهذه بداية الضياع والانسلاخ التام من الدين .

ولذلك فمن مسؤولية الأب ومن الأمانة التي تحملها أن يحفظ على أبنائه اللغة العربية ، وأن يعلّمهم اللغةَ العربيةَ كما يعلّمهم القرآنَ الكريمَ والسنةَ المطهرةَ ؛ ليهيئ لهم الجسر الواصل لهم بدينهم وأمتهم .

٣. شاء الله سبحانه وتعالى أن لا يتيسر لحليمة ـ رضي الله عنها ـ طفل ترضعه ، ولما همت بالخروج من مكة ، عادت لأخذ محمد ﷺ ، ولعلها كانت كارهة لذلك في البداية ، فلما أخذته وعرفته تمسكت به ، ورأت أن مصلحتها ومصلحة أسرتها في التمسك بهذا الطفل المبارك الذي أعرضت عنه جميع النسوة في البداية ، ولنا أن نتصور حالها وهي تأخذه على مضض ، وتخاطب نفسها قائلة : ما بال حظي العاثر ؟ كل النسوة يجدن غايتهن ، إلا أنا ، وهي لا تعلم ما في طيات الغيب من الخير ، وما أكثر ما نواجهه نحن من مثل هذه المواقف في حياتنا اليومية ، نُلِحّ على طلب أمر ونحن لا ندري أين الخير ؟ وهذا يذكّرنا بقول الله تعالى : ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾[1] ، وبقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾[2] ، وقال ابن مسعود ﷺ : (إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتى ييسر له ، فينظر الله إليه ، فيقول للملائكة : اصرفوه عنه ، فإني إن يسرته له أدخلته النار ، فيصرفه الله عنه ، فيظل يتطير يقول : سبقني فلان ، دهاني فلان ، وما هو إلا فضل الله عز وجل)[3] ، (ومن لطف الله بعباده أنه يقدر أرزاقهم بحسب علمه

---

(١) سورة النساء ، الآية رقم (١٩) .

(٢) سورة البقرة ، الآية رقم (٢١٦) .

(٣) ابن رجب ، جامع العلوم والحكم ١ / ٤٧٠ .

بمصلحتهم لا بحسب مرادهم ، فقد يريدون شيئاً ، وغيره أصلح فيقدر لهم الأصلح ، وإن كرهوه لطفاً بهم و براً و إحساناً) [(١)] ، ففي موقف حليمة هذا درس لنا بأننا لا نعلم عواقب الأمور ولا ندري أين الخير ؟ فكم من أمر نسعى إليه جاهدين وهو يصرف عنا ، والخير في صرفه ، ومع ذلك نحن نتضايق ونتأفف في غفلة أن الخير كل الخير عندما سلمنا من هذا الأمر .

وقد نعرض عن شيء وننصرف عنه ، ونأخذه على كره و مضض ، وأبى الله جل شأنه إلا أن يحقق لنا الخير فيه ؛ لذلك فمقام العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور ، والرضا بما يختاره له علام الغيوب ، ويرجو في ذلك حسن العاقبة ، فلا تقترح على ربك ولا تسأل ما ليس لك به علم ، بل اسأله ـ سبحانه ـ أن يحسن لك الاختيار ، وأن يرضيك بما يختار لك [(٢)] .

وكم من الخير تحقق لحليمة السعدية ـ رضي الله عنها ـ ؛ لصرف الأطفال عنها ، وتوجيهها نحو هذا الطفل اليتيم الذي فيه خيرها وخير قومها أبد الدهر .

٤. على قول من قال : إن سقي أبي لهب بسبب عتاقه لثويبة لما بشرته بمولد محمد ﷺ ، يمكننا أن نستفيد من ذلك ، ما فيه من إشارة

---

(١) السعدي ، المواهب الربانية من الآيات القرآنية ، الطبعة الثانية (الرياض ، رمادي للنشر ١٤١٧هـ) ص ١٤٨ .

(٢) انظر : التفسير القيم لابن القيم جمعه محمد أويس الندوي ص ١٤٦ .

إلى مكانة محبة النبي ﷺ ، وأن حب أبي لهب للرسول ﷺ يوم ولد جعله يسقى ، مع أن أبا لهب كان مشركاً مات على الشرك وعداوة الرسول ﷺ [١] ، فكيف بالعبد المسلم الذي يدرك قيمة هذه المحبة و يتقرب بها إلى الله ، ويحرص على حبه والتأسي به ﷺ ؟! وقد قال الرسول ﷺ في الحديث المتفق عليه : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » [٢] .

وفي هذا الحديث جمع الرسول ﷺ أقسام المحبة التي تكون بين الناس وهي ثلاثة :

أ. محبة إجلال وإعظام كمحبة الولد لوالده .

ب. محبة إشفاق كمحبة الوالد لولده .

ت. محبة مشاكلة واستحسان كمحبة سائر الناس .

ومحبته ﷺ يجب أن تكون فوق هذا كله كما يفيد أفعل التفضيل في قوله : « أحب إليه » [٣] .

وإذا كان أبو لهب مع شركه جُوْزِيَ [٤] بفرحه بالرسول ﷺ ورضاعته له من ثويبة بهذا الجزاء ، فكيف يكون جزاء المحب له ﷺ المقتفي أثره ، المتبع لسنته في كل أحواله ؟!.

---

(١) انظر : أبو بكر الجزائري ، هذا الحبيب يا محب ص ٦٩ .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر ١ / ٥٨ ، كتاب الإيمان ، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان .

(٣) انظر : ابن القيم ، جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام ص ٢٢٠ ، وحسن نور حسن ، التأدب مع الرسول ﷺ ص ١٥٤ .

(٤) إكراماً للنبي ﷺ ، كما خفف عن أبي طالب ، لا لعمله ؛ لأن الكافر باطل عمله . محمد بحرق ، حدائق الأنوار ص ١٠٧ .

اللهم إني أحب رسولك ﷺ ، وأسألك أن توفقني لاقتفاء أثره ، واتباع سنته ، وأن تجعلني ممن يحشر تحت لوائه يوم القيامة ووالدي وذريتي والمسلمين أجمعين .

٥. قال الشيخ عبد الرحمن الصقلي : (لكل إنسان من اسمه نصيب ، هذا في الأشخاص وكذلك في غيرها)[١] ، واسم الرسول ﷺ محمد ، فهو (صلى الله عليه وسلم محمود عند الله ومحمود عند ملائكته ومحمود عند إخوانه من المرسلين ، ومحمود عند أهل الأرض كلهم)[٢] .

وولد رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول (وفي ذلك إشارة عظيمة إلى الاستبشار بابتداء نعم المولى سبحانه وتعالى)[٣] .

وأمه : آمنة ، والقابلة : الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ، وحاضنته : بركة ، ومرضعتاه : ثويبة ، وحليمة السعدية .

قال الشامي : (وينعقد في سلك هذا النظام ما هيأ الله تعالى له ﷺ من أسماء مربيه ، ففي الوالدة والقابلة : الأمن والشفاء ، وفي اسم الحاضنة : البركة والنماء ، وفي مرضعتيه ﷺ : الثواب والحلم والسعد)[٤] .

❁❁❁

---

(١) الشامي ، سبل الهدى والرشاد ١/ ٤٠٦ .
(٢) ابن القيم ، جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام ص ٨٨ .
(٣) الشامي ، سبل الهدى والرشاد ١/ ٤٠٦ .
(٤) الشامي ، سبل الهدى والرشاد ١/٤٠٣ .

المبحث الخامس

شق صدره ﷺ

عن أنس بن مالك رضي الله عنه (أن الرسول ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه ، فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقة ، فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني ظئره) ، فقالوا : إن محمداً قد قُتِلَ ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون ، قال أنس : وقد كنت أرى أثر المِخْيَط في صدره)[1] .

وجاء في رواية أبي نعيم عن ابن كثير مزيد تفصيل وهذا نصها : « كانت حاضنتي من بني سعد بن بكرة ، فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا ، ولم نأخذ معنا زاداً فقلت[2] : يا أخي اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا ، فانطلق أخي ومكثت عند البهم ، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ فقال : نعم ، فأقبلا

(١) الإمام مسلم ، صحيح مسلم ١ / ١٤٧ ، كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٦١ .

(٢) هذا يؤيد أن قصة شق صدره ﷺ في السنة الرابعة أو بعدها ؛ لأن ما دون ذلك لا يتمكن ولا يؤمن للذهاب بالبهم ، ولا يفهم الخطاب ولا يدرك حاجته إلى الزاد أو يرسل أخاه لأجل هذا الغرض .

يبتدرانني ، فأخذاني فبطحاني للقفا فشقا بطني ، ثم استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه علقتين سوداوين ، فقال أحدهما لصاحبه : ائتني بماء ثلج فغسلا به جوفي ، ثم قال : ائتني بماء برد ، فغسلا به قلبي ، ثم قال : ائتني بالسكينة ، فذرها في قلبي ، ثم قال أحدهما لصاحبه : خطه ، فخاطه وختم على قلبي بخاتم النبوة ... »[(١)] .

وقد أشفقت ظئره أن يكون حدث له حادث سوء فأسرعت به عائدة على أمه في مكة وقالت لها : أديت أمانتي وذمتي ، وحدثتها بالذي جرى ، فطمأنتها أمه وقالت : إني رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام ، والأرجح أن هذه الحادثة وقعت للرسول ﷺ وعمره أربع سنوات[(٢)] ، وقد ثبت شق الصدر مرة أخرى عند الإسراء كما سيأتي[(٣)] .

ماذا نستفيد من حادثة شق صدره ﷺ ؟ :

١) في هذه الحادثة التي جرت للرسول ﷺ عيانًا وشهدها بعض الأفراد إشارة إلى الإعداد والتهيئة للرسول ﷺ بأمر يعرفه الناس ، فقد

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ٢ / ٢٩٩ ، وانظر : الذهبي ، السيرة النبوية ص ٢١ ، والشامي ، سبل الهدي ٢ / ٨٢ ، ومحمد الصوياني ، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة ص ٢٨.

(٢) انظر : محمد أبو شهبة ، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ١ / ١٩٢ .

(٣) متفق عليه : واللفظ للبخاري ، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر ٧ / ٢٠١ - ٢٠٢ ، رقم ٣٨٨٧ ، وصحيح مسلم ١ / ١٤٩ ، رقم ٢٦٤ .

أجري للرسول ﷺ عملية تطهير لقلبه بإزالة تلك العلقة السوداء ، ثم غسل القلب بماء زمزم ، فهو تطهير معنوي أخذ الشكل الحسي المادي الذي يطلع عليه الناس ويرونه ؛ لكي يحقق اطلاع الناس ومعرفتهم بتميزه عنهم [١] ، وإنما كان ذلك إعظاماً وتأهباً لما سيلقى عليه لا لإزالة أمر مستقذر لكمال خلقه [٢] .

٢) في هذه الحادثة إشارة إلى عصمة الرسول ﷺ منذ صغره ، فقد أزيل منه حظ الشيطان وهو لا يزال طفلاً مما يعني أنه ﷺ سينشأ نشأة لا نصيب للشيطان فيها ، محفوظاً حفظاً خاصاً يميزه عن غيره من الناس [٣] ، يقول ابن حجر ــ رحمه الله تعالى ـ عن هذه القصة : (وكان هذا في زمن الطفولة فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان) [٤] .

٣) في حادثة شق الصدر درس في حدود العقل ، فإلى أي حدود نعمل عقولنا في النصوص الواردة وكيف نتعامل مع هذه النصوص ؟ .

في كل ما يرد من الشرع قرآناً كان أو سنة نبوية ثابتة فدورنا هو التسليم له دون التعرض لهذا النص بالتأويل الصارف له عن حقيقته ،

---

(١) انظر : الشامي ، سبل الهدي والرشاد ١ / ٤٢١ و ٢ / ٩٠ ، وأبو شهبة ، السيرة النبوية ١ / ١٩٩ .

(٢) انظر : الزرقاني ، شرح المواهب ٨ / ٦٧ .

(٣) انظر : مساعد الحميد ، هامش دلائل النبوة للأصبهاني ١ / ٢٥٤ .

(٤) ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٢٠٥ .

وقد تاه في هذا الأمر أقوام اعتمدوا على عقولهم ، وغفلوا عن واجب المسلم تجاه النص الشرعي ، يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (وجميع ما ورد في شق الصدر ، واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته ، لصلاحية القدرة ، فلا يستحيل شيء من ذلك)[١] .

يقول ابن القيم في نونيته :

تباً لهاتيك العقول ، فإنها | والله قد مسخت على الأبدان
تبـاً لمن أضحى يقدمها | على الآثار والأخبار والقرآن[٢]

والعقل دائماً لا يستقل بالعمل في الأمور الشرعية بل عمله تحت ضوء النص ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ : (والطريق إلى ذلك (أي إلى النجاة) الرواية والنقل ، إذ لا يكفي من ذلك مجرد العقل ، بل كما أن نور العين لا يرى إلا مع ظهور نور قدامه ، فكذلك نور العقل لا يهتدي إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة)[٣] .

۞۞۞

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٢٠٥ .

(٢) ابن القيم ، نونية ابن القيم ص ١٤ .

(٣) ابن تيمية ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية جمع ابن قاسم ١ / ٦ .

المبحث السادس

وفاة أمه آمنة

خرجت آمنة ومعها ابنها محمد ﷺ وحاضنته (بركة) أم أيمن إلى المدينة ، وكان عمره ﷺ ست سنوات ، قاصدة زيارة قبر زوجها عبد الله في المدينة ، وبقيت في المدينة أياماً كان لها بعض الذكريات في نفس محمد ﷺ وفي طريق العودة إلى مكة مرضت آمنة ، واشتد عليها المرض بالأبواء (١) ، فماتت ، ودفنت فيها (٢) .

وقد زارها الرسول ﷺ في صلح الحديبية كما في الحديث الصحيح : أن الرسول ﷺ زار قبر أمه ، فجلس عنده وبكى وأبكى من معه ، وقال : « استأذنت ربي في أن أزور قبر أمي فأذن لي ، و استأذنته في الاستغفار لها فلم يؤذن لي » (٣) .

---

(١) الأبواء : بالفتح وسكون الموحدة تحت ، وفتح الواو بعده ألف ممدودة ، قرية لا تزال معروفة تقع شرق بلدة مستورة ، الواقعة على الطريق بين مكة والمدينة وتبعد عنها بما يقارب ٢٥ كيلاً ، وتبعد مستورة عن مكة ٢٣٥ كيلاً ، وبالأبواء قبر آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ ، انظر : سعد بن عبد الله بن جنيدل ، معجم الأمكنة الواردة في صحيح البخاري ص ١٧ و ١٨ ، و محمد حسن شراب ، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ص ١٧ ، ٢٥٢ .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ١٧٩ ، وابن كثير ، البداية والنهاية ٢ / ٢٧٩ ، وابن القيم ، زاد المعاد ١ / ٧٦ .

(٣) الإمام مسلم ، صحيح مسلم ٢ / ٦٧١ ، حديث رقم ٩٧٦ .

في طريق السفر ، وفي هذا البعد بين مكة والمدينة ، ليس في مكة ؛ ليكون بين أعمامه، ولا في المدينة ؛ ليكون بين أخواله ، هناك تموت آمنة ؛ ليصاب الرسول ﷺ بنوع خاص من اليتم ، نوع آخر غير اليتم الأول الذي هو فقد الأب قبل الولادة .

هذا اليتم في هذه المرة يحمل وقعاً شديداً على هذا الطفل ، وهو في السادسة من عمره ، حينما يرى مصرع أمه وليس معه أحد يسليه أو على الأقل يأخذه بعيداً عن هذا المشهد من عمات أو خالات أو أخوات ، فكان المصاب عميقاً يبقى أثره في قلبه ؛ ليصبح ﷺ يقول للناس : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وقال بأصبعيه السبابة والوسطى » [١] ، ويقولها ليس من الوحي فقط ، وإنما يقولها من الوحي ، وقد وعى معناها بالتجربة ، ويأتي رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو إليه قسوة قلبه ، فيقول له الرسول ﷺ : « امسح رأس اليتيم » [٢] .

---

(١) الإمام البخاري ، صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب : فضل من يعول يتيماً ٧ / ٧٦ .

(٢) رواه الإمام أحمد ، انظر : أحمد البناء ، الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد ابن حنبل الشيباني ١٩/١٧٩ ، وقال في بلوغ الأماني ١٩/١٧٩ : (أورده المنذري في الترغيب والترهيب وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، قلت : في إسناده عند الإمام أحمد رجل لم يسم) ، أحمد البناء ، بلوغ الأماني ١٩ / ١٧٩ ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير ، رقم ١٤٢٣ .

ما قيمة مسح رأس اليتيم ؟ إن لها أثراً كبيراً على هذا اليتيم حينما يجد زملاءه من الأطفال لهم آباء يحتضنونهم ، وهو لا يجد من يرحِّب به ولا يجد من يعتني به ، فيأتي الحديث النبوي يوصي باليتيم الذي يحتاج إلى رعاية المجتمع واهتمامه ، ووصيته ليست وحياً فحسب كما قلت ، وإنما وحي تلقاه من ربه ، وأدرك معناه أيضاً من تجربة عاشها الرسول ﷺ .

وهذا يذكر كل مسلم بيتامى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها الذين فقدوا آباءهم ، منهم الطفل الرضيع ، والصغير الذي لا يجد كساء ولا مأوى ، ولا مأكلاً ولا مشرباً ، وقد أقبل أعداء الإسلام عليهم ؛ ليتولوا كفالتهم ومن ثم تحويلهم عن دينهم ، ومن وصية الرسول ﷺ تلك نتذكر هؤلاء بحثاً عن تلك الدرجة الرفيعة التي وعدها الرسول ﷺ لكافل اليتيم ، وطلباً لرقة القلب من قسوة نشكو منها صباحاً ومساءً ، وأداء لواجب حماية أبناء المسلمين من المنصرين وأعداء الأمة الإسلامية .

❁❁❁

المبحث السابع

محمد ﷺ في كفالة جده عبد المطلب وعمه أبي طالب

وكان رسول الله ﷺ عند جده عبد المطلب بعد وفاة أمه آمنة ، يرق له رقة لم يرقها على أحد من ولده ، وكان يقربه منه ويدنيه .

ولقد كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، ويجلس بنوه حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له ، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام فيجلس على هذا الفراش ، فيأخذه أعمامه ، ويمنعونه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابني ، فإن له لشأناً ، ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع ، ولم تستمر هذه الرعاية طويلاً فقد هلك عبد المطلب بعد سنتين من كفالته لمحمد ﷺ وكان وقتها عمر الرسول ﷺ ثماني سنوات (١) .

وكان أبو طالب هو شقيق عبد الله بن عبد المطلب ، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ ولأجل ذلك أوصى عبد المطلب عند وفاته لأبي طالب بكفالة محمد ﷺ بعد وفاته (٢) .

---

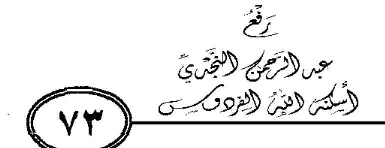
(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ١٨٠ ، و القسطلاني ، المواهب اللدنية ١ / ١٨٤ ، والذهبي ، السيرة النبوية ص ٥٦ .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ١٩٣ .

وقد كان أبو طالب فقيراً لا مال له مع كثرة عياله ، وكان يحب الرسول ﷺ حباً شديداً ، فكان لا ينام إلا عنده ، وإذا خرج خرج معه .

وسيأتي حديث وتعليق حول هذه الكفالة التي قام بها أبو طالب باذلاً قصارى جهده في تربيته ﷺ صغيراً ، ونصرته كبيراً ، مداوماً عليها أكثر من أربعين سنة في مواجهة قومه في مكة حتى وفاته في السنة العاشرة من البعثة وذلك عند الحديث عن وفاة أبي طالب في المبحث الثالث من الفصل الثالث من هذا الكتاب ، وهناك يكون حديثنا وتعليقنا حول هذا الموضوع إن شاء الله تعالى .





المبحث الثامن

رعيه ﷺ للأغنام

مر معنا أن الرسول ﷺ كان يرعى الغنم مع أخيه من الرضاعة في ديار بني سعد عندما جاءه الملكان وشقا صدره ، وقد روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من نبي إلا وقد رعى الغنم » ، قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال : « نعم ، كنت أرعاها على قراريط [(١)] لأهل مكة » [(٢)] .

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال : (كنا مع النبي ﷺ بمر الظهران ونحن نجني الكباث [(٣)] فقال النبي ﷺ : « عليكم بالأسود منه » قال : فقلنا : يا رسول الله : كأنك رعيت الغنم ، قال : « نعم ، وهل من نبي إلا وقد رعاها » أو نحو هذا القول) [(٤)] .

---

(١) قراريط : جمع قيراط ، والقيراط جزء من أجزاء الدينار ، ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث ٤ / ٤٢.

(٢) الإمام البخاري ، صحيح البخاري ، كتاب الإجارة ٣ / ٤٨ .

(٣) الكباث : النضيج من ثمر الأراك ، والأراك شجر معروف طيب الريح ، يستاك به ، انظر : ابن الجوزي ، غريب الحديث ٢ / ٢٧٨ ، وابن حجر ، هدي الساري مقدمة فتح الباري ص ٧٨ .

(٤) الإمام مسلم ، صحيح مسلم ٣ / ١٦٢١ ، حديث رقم (٢٠٥٠) .

ماذا نستفيد من قصة رعيه ﷺ للأغنام ؟ :

١) نقف أولاً مع قضية رعي الأغنام هذه التي أجمع عليها الأنبياء : « ما من نبي إلا ورعى الأغنام » ، لماذا اتفق هؤلاء الأنبياء جميعاً على رعي الغنم ؟ يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (قال العلماء : الحكمة في إلهام الأنبياء رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم)[١] .

فالأنبياء كانوا رعاة أغنام في صغرهم ؛ ليكونوا رعاة الإنسانية في كبرهم ، فـ(كما قدر لموسى ومحمد وغيرهما من الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ في ابتداء أمرهم رعاية الغنم ؛ ليتدرجوا من رعاية الحيوان البهيمي وإصلاحه ، إلى رعاية بني آدم ودعوتهم وإصلاحهم)[٢] .

فلكي يكون الداعية ناجحاً في دعوته لا بد بعد العلم من التدرج والتدرب العملي .

٢) في رعي الأغنام التعود على الحلم والشفقة ؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى ألفوا من ذلك الصبر على الأمة ، وعرفوا اختلاف طبائعها ، واختلاف عقولها ، فجبروا كسيرها ، ورفقوا بضعيفها ، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة ، فكان التدرج في ذلك برعيهم

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٤ / ٤٤١ .

(٢) السعدي ، المواهب الربانية من الآيات القرآنية ص ١٤٩ .

للأغنام التي هي مختلفة الطباع وفيها الضعيفة والعرجاء والتي ترغب تسلق الجبال ، وفيها التي لا تتمكن من تجاوز الأودية ، فيتعلم مع الأغنام تحقيق الرغبات المتفرقة ، تمهيداً وتدريجاً لمواجهة البشر في رغباتهم وقضاياهم المختلفة (١) .

٣) فيه تواضع الرسول ﷺ والتصريح بمنة الله عليه ، حيث ذكر بداية حياته ورعيه للأغنام ، وإنك لترى بعض الأشخاص ليستنكف عن ذكر أيام حياته الأولى يوم كان صغيراً تكبراً وتعالياً ونسياناً لضعفه وحاجته ، وذلك الماضي لابد أن يذكر حتى يعرف الشخص قيمته وبدايته ، فيشكر نعمة الله عليه ، ويذكر ماضيه وضعفه ، فلا يتعالى على الفقير ؛ لأنه كان فقيراً ، ولا يتكبر على صغير ؛ لأنه كان صغيراً .

وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ ؛ ليتحدث إليه ، فأصابه خوف من الرسول ﷺ ، فقال الرسول : « هون عليك ، فإني لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد » (٢) .

وإن من مداخل الشيطان على الشاب المسلم تسمية الأشياء الممنوعة بغير مسمياتها الشرعية ، حتى يسهل له الوقوع فيها وهو لا

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٤ / ٤٤١ .

(٢) أخرجه ابن ماجة في سننه ٢ / ١١٠١ وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٢ / ٢٣٢ ، رقم ٢٦٧٧ ، والقديد هو اللحم المملوح المجفف في الشمس كما في النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٤ / ٢٢ .

يشعر ، فيأتيه الشيطان ويقول له : إن من قوة الشخصية أن لا تتحدث إلى الصغير ، ولا تتواضع للفقير ، ولو رآك الناس بهذه الصفة لفقدت شخصيتك ، ما الفرق هنا بهذا المعنى بين قوة الشخصية والكبر؟ المضمون والنتيجة واحدة ، ولكن تسمية الشيء بغير اسمه الصحيح سوغت الوقوع فيه دون الانتباه لهذا المحذور .

٤) رعي الأنبياء للأغنام منذ صغرهم واعتمادهم في مكسبهم على أنفسهم يشعر بأهمية اعتماد الداعية إلى الله على نفسه ، وأن لا يتعلق بما في أيدي الناس ؛ لأنه لو تعلق أو مالت نفسه إلى ما في يد غيره لجامله ، والدعوة لا مجاملة فيها ، والداعية يربأ بنفسه أن يعيش على صدقاتهم وأعطياتهم [1] ولن يتقبل الناس ممن يوماً يأخذ صدقاتهم ، ويوماً يقف يعظهم ويذكّرهم الآخرة ، ويحذّرهم من الركون إلى الدنيا .

ولأجل ذلك لم يكن في مصدر رزق الرسول ﷺ منة للكفار يذكرونه بها ، بل قد كان بينهم يعتمد على نفسه ، لم تمتد له يد كافر بعطاء أو منة يمتن عليه بها فيما بعد .

۞۞۞

---

(١) انظر : السباعي ، السيرة النبوية دروس وعبر ص ٣٩ .

المبحث التاسع

قصة بحيرا

تذكر كتب السير أن النبي ﷺ حينما بلغ الثانية عشرة من عمره ذهب إلى الشام مع عمه أبي طالب الذي كان يسافر إليها للتجارة ، فقد جاء في سنن الترمذي :

عن أبي موسى الأشعري ، قال : خرج أبو طالب إلى الشام ، وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش ، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا ، فحلوا رحالهم ، فخرج إليهم الراهب ، وكانوا قبل ذلك يمرون به ، فلا يخرج إليهم ولا يلتفت ، قال : فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب ، حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ ، فقال : هذا سيد العالمين ، هذا رسول ربّ العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين .

فقال له أشياخ من قريش : ما علمك ؟ فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة ، لم يبق حجر ولا شجر إلا ساجداً ، ولا يسجدان إلا لنبي ، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة ، ثم رجع فصنع لهم طعاماً ، فلما أتاهم به فكان هو في رعية الإبل ، فقال : أرسلوا إليه ، فأقبل وعليه غمامة تظله ، فلما دنا من القوم ، وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة ، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه

، فقال : انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه ، قال : فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم ، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه ، فالتفت ، فإذا بسبعة قد أقبلوا من الروم ، فاستقبلهم ، فقال : ما جاء بكم ؟ قالوا : جئنا إن هذا النبي خارج في هذا الشهر ، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس ، وإنا قد أخبرنا خبره بطريقك هذا ، قال : أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده ؟ قالوا : لا ، قال : فبايعوه ، وأقاموا معه . قال : أنشدكم بالله أيكم وليه؟ قالوا : أبو طالب ، فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب وبعث معه أبا بكر وبلالاً ، وزوده الراهب من الكعك والزيت [1] .

نقف عند قصة بحيرا هذه لعلنا نأخذ بعض الفوائد الدعوية فنقول :

١) في قصة بحيرا دليل على معرفة أهل الكتاب بصفة الرسول ﷺ وزمانه [2] ، وأن إنكارهم وجحودهم الرسالة إنما هو عن علم ، وليس عن جهل ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [3] .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، وصححه الألباني ، انظر : الألباني ، صحيح سنن الترمذي ٣ / ١٩١ ، وقال : (لكن ذكر بلال فيه منكر كما قيل) .

(٢) انظر : د. مهدي رزق الله ، السيرة النبوية ص ١٢٢.

(٣) سورة البقرة ، الآية رقم (٨٩) .

٢) في قصة بحيرا شهادة كتابي على أهل الكتاب، بل هي شهادة عالم من علمائهم على صدق محمد ﷺ في نبوته، وشهادة على النصارى بعداوتهم للنبي محمد ﷺ وذلك انطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾[١]، فيقال لأهل الكتاب: هؤلاء علماؤكم يشهدون بصدق محمد ﷺ ويشهدون بالعداوة المبيتة من النصارى.

٣) علق بعض النصارى على لقاء النبي ﷺ مع بحيرا وقالوا: إن ما قاله النبي ﷺ بعد البعثة كان قد تلقاه من بحيرا، فيقال لهم: ما دام الأمر كذلك، وأن هذا القول من بحيرا، فلماذا لا تقبلون قوله في إبطال التثليث والكفارة والصلب التي جاء بها محمد ﷺ عن هذا الراهب؟.

لماذا لا يقبل النصارى اليوم توجيه كبيرهم الذي بين بطلان هذه العقيدة وفقاً لقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[٣]؟.

فما دام هذا القول ـ كما تزعمون ـ أصله من بحيرا، فلماذا لا تقبلونه[٤]؟.

۞۞۞

(١) سورة يوسف، الآية رقم (٢٦).
(٢) سورة المائدة، الآية رقم (٧٢).
(٣) سورة المائدة، الآية رقم (٧٣).
(٤) انظر هامش كتاب: رحمة للعالمين للقاضي محمد سليمان المنصورفوري ١ / ٣٤.

المبحث العاشر

حلف الفضول

سبب هذا الحلف أن رجلاً من قبيلة (زبيد) باليمن قدم مكة ومعه بضاعة فباعها على العاص بن وائل السهمي ، فأبى أن يعطيه حقه ، فاشتكى إلى أندية قريش ، فلم يجد من يعينه على العاص ، فصعد على جبل أبي قبيس ، وقريش في أنديتها ، فاستصرخهم لرد مظلمته ، فقام الزبير بن عبد المطلب ، فقال : ما لهذا مترك ، فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وبنو تيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان فتحالفوا بالله لنكونن يداً واحدة مع المظلوم حتى يرد إليه حقه ، فسمت قريش هذا الحلف (حلف الفضول) وقالوا : لقد دخل هؤلاء في فضول من الأمر ، ثم مشوا إلى العاص بن وائل ، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي ، ودفعوها لصاحبها ، وقد حضر النبي ﷺ هذا الحلف [1] الذي رفعوا به منار الحق ، وهدموا صرح الظلم ، وهو يُعَدّ من مفاخر العرب ، وقد قال ﷺ عن هذا الحلف : « لقد شهدت بدار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو دعيت لمثله في الإسلام لأجبت » [2] .

---

(١) وكان عمره ﷺ عشرين سنة .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ٢ / ٢٩١ ، وانظر : الشامي ، سبل الهدي والرشاد ٢ / ٢٠٩ ، ومحمد أبو شهبة ، السيرة النبوية ١ / ٢١٣ ، و مهدي رزق الله ، السيرة النبوية ص ١٣٠ ، وقال : وإسناد هذا الحديث صحيح ، و راجع الكردي ، شعاع

ونقف هنا مع هذا الحلف خاصة مع قول الرسول ﷺ : « ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعيت لمثله في الإسلام لأجبت » .

١) إن المسلم عادل حتى مع خصمه ، فمحمد ﷺ جاء ؛ ليواجه هذه الجاهلية في بلاد العرب ، فلم يعادها جملة وتفصيلاً ، وينكر ما فيها من الخير ، بل أقر ما فيها من الخير ، واعترف بالفضل لأهله ، ولو كانوا خصوماً له ، ولو كانوا يعلنون العداوة والحرب عليه ، فهو يثني على هذا الحلف ؛ ليعلمنا أن نكون عادلين مع خصومنا وأن نقبل الحق الذي مع غيرنا ، ولا تدفعنا العداوة إلى تجاهل الخير مع الخصم .

والرسول ﷺ يقول : « إنما بُعِثْتُ ؛ لأتمِّم مكارمَ الأخلاقِ »[(١)] ، فهو يقول : إن في الجاهلية أخلاقاً حسنة ، وأنه جاء ؛ ليكملها ويتمها ، ولم ينكر ما عليه الجاهلية من أخلاق حسنة لمجرد أنهم عادوه وحاربوه .

ولذلك أنصح كل مسلم بأن يكون عادلاً مع خصمه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾[(٢)] ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾[(٣)] .

من السيرة ص ٤٢ ، ٤٣ ، وله شواهد حسنها الألباني في صحيح السيرة النبوية ص ٣٥ و٣٦ .

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠ / ١٩٢ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٢ / ٢٨٥ ، حديث رقم ٢٣٤٥ .

(٢) سورة النساء ، الآية رقم (١٣٥) .

(٣) سورة المائدة ، الآية رقم (٨) .

وعن قتيلة : (أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال : إنكم تشركون ، تقولون : ما شاء الله وشئت ، وتقولون : والكعبة ، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة وأن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت)[١] .

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمهم الله تعالى ـ في شرحه لهذا الحديث : (وفيه قبول الحق ممن جاء به وإن كان عدواً مخالفاً في الدين)[٢] .

فالعدل مطلب مهم غفل البعض من الناس عنه في تعاملهم مع مخالفيهم جعلهم يغفلون أو يتغافلون عن ما لدى الخصم من خير لوجود عداوة أو خلاف بينهما ، ولقد طرح على الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ السؤال التالي : ما رأيكم فيمن إذا أراد أن يقيم شخصاً لا يذكر ما لديه من خير بل يذكر مساوئه فقط ؟ .

فأجاب : (إن هذا من الإجحاف والجور ؛ لأن الله عز وجل يقول في كتابه : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) ،

---

(١) أخرجه النسائي في سننه المطبوعة مع شرح السيوطي ٧ / ٦ ، والإمام أحمد في مسنده ٦ / ٣٧١ / ٣٧٢ ، والحاكم في المستدرك ٤ / ٢٩٧ ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي في التلخيص ، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة ص ٥٤٥ ، حديث رقم ٩٨٦ ، وقال محقق الكتاب فاروق حمادة : (حديث صحيح) .

(٢) سليمان بن عبد الوهاب ، تيسير العزيز الحميد ص ٦٠٠ .

فنهى الله سبحانه وتعالى أن يحملنا بغض قوم على عدم العدل ، بل أمرنا أن نقول العدل ، وقد أقر الله تعالى الحق الذي صدر من المشركين وأقر النبي ﷺ الحق الذي صدر من اليهود ، فقال الله عز وجل : (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) ، فكان الجواب : (قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) ، فأبطل قولهم : (والله أمرنا بها) ؛ لأنه باطل ، وسكت عن قولهم : (وجدنا عليها آباءنا) ؛ لأنه حق ، وجاء حبر من اليهود إلى الرسول ﷺ وقال : إنا نجد في التوراة أن الله جعل السماوات على أصبع ، والأراضين على أصبع ، وذكر بقية الحديث ، فضحك النبي ﷺ تصديقاً لقول الحبر وقرأ : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) ، فأقر اليهود على قول الحق ، وهو يهودي ، فالواجب على من أراد أن يقيم شخصاً تقييماً كاملاً إذا دعت الحاجة أن يذكر مساوئه ومحاسنه ، وإذا كان ممن عرف بالنصح للمسلمين أن يعتذر عما صدر منه من المساوىء ، فمثلاً : نحن نرى من العلماء كابن حجر والنووي وغيرهما من لهم أخطاء في العقيدة ، لكنها أخطاء نعلم علم اليقين فيما نعرف من أحوالهم أنها صدرت عن اجتهاد ، فمثلاً نجدهم يؤولون قوله تعالى : (وجاء ربك) أنه (وجاء أمر ربك) لماذا ؟ فالله يقول : (جاء ربك) وهم يقولون : جاء أمره ... فهذا خطأ ، فإنه لا بد لنا أن نؤمن بأن الله يجيء كيف شاء ، لكن نلتمس لهم العذر ، ولا نجعل من هذا

الخطأ الذي نعلم أنه صادر عن اجتهاد ، لا نجعل منه باباً للسبّ والقدح فيهم ، أما من أراد أن يذكر الجرح في الإنسان للتحذير مما قال في هذه المسألة فهذا لا بأس به ؛ لأن هناك فرقاً بين شخص يريد أن يقيم شخصاً تقييماً كاملاً فهذا يجب أن يذكر الحسنات والسيئات ، وإذا كان ممن عرف بالنصح للأمة فليعتذر عنه لما صدر منه من السيئات ؛ لأنه قد يكون عنده تأويل ، أو عدم علم ، أو ما أشبه ذلك ما دمنا نعرف أنه رجل ناصح للأمة . وإذا كان يريد أن يحذر من السوء الذي صدر منه ، فهنا لا حرج عليه أن يذكر هذا الشيء الذي صدر منه ؛ ليحذر الناس من هذا المقال مثلاً) [١] .

ولا يعني هذا عدم ذكر أخطاء الشخص للتحذير منها ، فليس هذا مرادنا ، بل لابد من بيان خطأ الشخص للتحذير من هذا الخطأ ، حتى لا يقع فيه غيره وهو ما أشار إليه الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ حينما قال : (أما من أراد أن يذكر الجرح في الإنسان للتحذير مما قال في هذه المسألة فهذا لا بأس به) وهو من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٢) الأمر الآخر الذي نستفيده هنا هو أن المسلم داعي خير ، يساند كل من يدعو إلى الخير ؛ لأنه أولى به ، فكل من دعا إلى خير

(١) انظر : جريدة المسلمون الدولية عدد ٤٣٧ ، في ٢٨/ ١٢/ ١٤١٣هـ ص ٨ ، لقاء مع الشيخ محمد العثيمين رحمه الله .

للمجتمع فالمسلم عون له ومناصر له ومعين (قدم الرسول ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا يوم صالح ، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى ، قال : فأنا أحق بموسى منكم ، فصامه وأمر بصيامه)[١] .

فإذا رأيت من يدعو إلى خير للمجتمع المسلم أو نفع للأمة الإسلامية فكن أول مناصر له ومؤيد .

ودعوة الإسلام جاءت ؛ لتعلم المسلمين أن يكونوا متعاطفين مع كل بادرة خير ، ولا يكتفي بما يبدأ به هو ، ويهمل ما عند الآخرين من الخير[٢] .

يقول الرسول ﷺ في صلح الحديبية : « والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها »[٣] فما دامت القضية تتوافق مع أهداف الرسول ﷺ فسيقبلها ويناصرها ويؤيدها ، ويقسم على ذلك أيضاً ﷺ ، والرسول ﷺ هو القدوة لنا ، فمتى رأينا خيراً أيدناه ووقفنا معه وناصرناه ؛ ليقوم ، بصرف النظر عن الذي بدأ بالدعوة والفكرة .

---

(١) البخاري ، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٤ / ٢٤٤ ، رقم ٢٠٠٤ .

(٢) انظر : راجح الكردي ، شعاع من السيرة ص ٤٣ .

(٣) الإمام البخاري ، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٥ / ٣٢٩ ، حديث رقم ٢٧٣١ .

يقول ابن القيم في زاد المعاد :

(إن المشركين ، وأهل البدع والفجور ، والبغاة والظلمة ، إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمات الله تعالى أجيبوا إليه وأعطوه ، وأعينوا عليه ، وإن منعوا غيره ، فيعاونون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى لا على كفرهم وبغيهم ، ويمنعون مما سوى ذلك ، فكل من التمس المعاونة على محبوب لله تعالى مرض له ، أجيب إلى ذلك ، كائناً من كان ، ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوض لله أعظم منه ، وهذا من أدق المواضع وأصعبها ، وأشقها على النفوس) [1] .



(١) ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد ٣ / ٣٠٣ .

المبحث الحادي عشر
زواجه ﷺ بخديجة رضي الله عنها

كانت خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ امرأة حازمة شريفة ، من أوسط قريش نسباً ، وأكثرهم مالاً ، وكانت تستأجر الرجال يخرجون بمالها للتجارة في قافلة قريش مضاربة بشيء تجعله لهم .

فلما بلغها صدق الرسول ﷺ وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، رغبت في أن يخرج بمالها إلى الشام يتاجر به فقبل ذلك ، وخرج مع غلام لها يقال له : ميسرة .

ولقد رأى ميسرة في رحلته هذه مع النبي ﷺ الكثير من الآيات وشاهد أخلاق الرسول ﷺ وطيب سجاياه ، وصدق أمانته ، فنقل ذلك إلى خديجة بعد عودته من تلك الرحلة التجارية الرابحة .

ولما سمعت خديجة من غلامها ميسرة ، وتأكد لها ما سمعته عن محمد ﷺ من قَبْلُ رغبت في الزواج منه ﷺ وكان عمره خمساً وعشرين سنة ، وعمرها أربعين سنة .

وقد تعددت الروايات في كيفية الخطبة ومن الذي تولى عقد الزواج والأكثر على أن الذي تولى عقد الزواج هو عمها عمرو بن أسد ، وكانت خديجة قد تزوجت قبل زواجها برسول الله ﷺ مرتين ، زوجها

الأول هو عتيق بن عائذ المخزومي ، ثم زوجها الثاني أبو هالة ابن النباش التميمي [١] .

فضل خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - :

١. قال رسول الله ﷺ : « خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة » [٢] وأشار وكيع إلى السماء والأرض ، قال النووي : (أراد وكيع بهذه الإشارة تفسير الضمير في نسائها ، وأن المراد به جميع نساء الأرض أي كل من بين السماء والأرض من النساء ، والأظهر أن معناه أن كل واحد منهما خير نساء الأرض في عصرها ، وأما التفضيل بينهما فمسكوت عنه ، قال القاضي : ويحتمل أن المراد أنهما من خير نساء الأرض ، والصحيح الأول) [٣] .

٢. عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : ما غرت على نساء النبي ﷺ إلا على خديجة ، وإني لم أدركها ، قالت : وكان النبي ﷺ إذا ذبح الشاة يقول : « أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة » ، فأغضبته يوماً فقلت : خديجة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إني قد رزقت حبها »

---

(١) انظر : الشامي ، سبل الهدي والرشاد ٢ / ٢٢٢ ، والقسطلاني ، المواهب اللدنية ١ / ١٩٠ ، ١٩١ ، والحاكم : المستدرك ١٨٢/٣ ، وفي عمره ﷺ وعمر خديجة ـ رضي الله عنها ـ خلاف ، وما ذكرته هو ما عليه الجمهور .

(٢) متفق عليه ، الإمام البخاري ، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٦ / ٤٧٠ ، حديث رقم ٢٤٣٢ ، والإمام مسلم ، صحيح مسلم ١٨٨٦/٤ ، حديث ٢٤٣٠ .

(٣) النووي ، شرح صحيح مسلم ١٩٨/١٥ .

[١] ، قال النووي ـ رحمه الله تعالى ـ : قوله ﷺ : « رزقت حبها » فيه إشارة إلى أن حبها فضيلة حصلت [٢] .

٣. عن أبي هريرة ﷺ قال : (أتى جبريل النبي ﷺ فقال : يا رسول الله : هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ـ عز وجل ـ ومني وبَشِّرْها ببيت في الجنة من قصب [٣] لا صخب فيه ولا نصب [٤]) [٥] ، وخديجة ـ رضي الله عنها ـ هي التي آمنت بالرسول ﷺ عندما كفر به الناس ، وصدقته عندما كذبه الناس ، وواسته بمالها عندما حرمه الناس ، وهي التي رزق منها الولد دون غيرها من زوجاته ، قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (ومما اختصت به سبقها نساء هذه الأمة إلى الإيمان ، فسنت ذلك لكل من آمن بعدها فيكون لها مثل أجرهن لما ثبت (أن من سن سنة حسنة) وقد شاركها في ذلك أبو بكر الصديق بالنسبة للرجال ولا يعرف قدر ما لكل منهما من الثواب بسبب ذلك إلا الله عز وجل) [٦] .

---

(١) الإمام مسلم ، صحيح مسلم ١٨٨٨/٤ ، حديث رقم ٢٤٣٥ .
(٢) النووي ، شرح صحيح مسلم ٢٠١/١٥ .
(٣) القصب هنا : اللؤلؤ المجوف الواسع كالقصر المنيف .
(٤) ولا نصب أي : لا مشقة ولا تعب . النووي ، شرح صحيح مسلم ١٥ / ٥٧١-٥٧٢ .
(٥) الإمام مسلم ، صحيح مسلم ١٨٨٧/٤ ، حديث رقم ٢٤٣٢ .
(٦) ابن حجر ، فتح الباري ١٣٧/٧ .

ماذا نستفيد من قصة زواج الرسول ﷺ بخديجة رضي الله عنها ؟ :

١. لقد سمعت خديجة ـ رضي الله عنها ـ الكثير من الأخبار عن صدق الرسول ﷺ ، وعن أمانته ، فبعثت إليه ؛ ليتاجر لها ، وبعثت معه غلامها ميسرة ، فعاد هذا الغلام يحدثها بما رأى عياناً من الصدق والأمانة ، وحسن الخلق ، هذا يدلنا على رجاحة عقل هذه المرأة التي بادرت إلى التعامل مع الرسول ﷺ لما علمت أمانته وازدادت قناعتها بأمانته وصدقه لما أخبرها غلامها ميسرة الذي سافر مع الرسول ﷺ مدة من الزمن ورأى منه في السفر الصدق والأمانة .

وقد شهد رجل عند عمر رضي الله عنه ، فقال : من يزكيك ؟ قال رجل : أنا ، فقال : هل سافرت معه؟ فقال : لا ، قال : عاملته بالدرهم والدينار ؟ قال : لا ، قال : والله الذي لا إله إلا هو ما تعرفه [١] ، فالسفر هو الذي يكشف حقيقة الرجل ، ويظهر خفاياه ولذلك فالداعية يأخذ من أناة خديجة ـ رضي الله عنها ـ درساً دعوياً مفيداً في التأني وعدم العجلة .

يقول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح للأشج (أشج عبد القيس) : « إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة » [٢] ، يقول الإمام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ في شرحه لهذا الحديث : (وأما الحلم فهو العقل ، وأما الأناة فهي التثبت وترك العجلة) [٣] .

---

(١) انظر : ابن الجوزي ، تاريخ عمر بن الخطاب ص ٢٣٠ .
(٢) صحيح مسلم المطبوع مع شرح النووي ١/ ١٨٩ .
(٣) النووي ، شرح صحيح مسلم ١/ ١٨٩ .

وكان الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ يقف عند الناس وهم يطوفون على قبر زيد بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قرب العيينة ويقول : (الله خير من زيد) ويكتفي بهذه العبارة ، فلم يتعجل في بداية دعوته ـ رحمه الله تعالى ـ رغم عظم هذا المنكر بل هو أعظم المنكرات وهو الشرك [١] .

٢. ورد في بعض كتب السير أن زواج الرسول ﷺ بخديجة ـ رضي الله عنها ـ كان بدايته عرضاً من بعض معارفها على الرسول ﷺ الزواج منها ـ وأياً كان الأمر ـ فهو يذكرنا بأهمية حرص الأولياء على تزويج بناتهم ولو عن طريق العرض ، فقد كسبت خديجة ـ رضي الله عنها ـ بهذا الزواج شرفاً عظيماً ، وأصبحت زوجة لأفضل الخلق ، وأماً للمؤمنين ، ولقد رأينا هذا العرض يرد في القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام مع صاحب مدين : ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [٢] ، فإن هذا الولي لهاتين البنتين لما رأى هذا الرجل الصالح موسى ـ

(١) انظر : الشيخ عبد الرحمن بن حسن ، خمس رسائل في التوحيد والإيمان (الرسالة الأولى أصل دين الإسلام وقاعدته ص ٣٣٩ ، مطبوعة ضمن مجموعة التوحيد) .
(٢) سورة القصص ، الآية رقم (٢٧) .

عليه السلام ـ سعى إليه ، واجتهد في تزويجه إحدى ابنتيه رغبة في كسب الرجل الصالح ولم ينتظر حتى يأتي الخاطب .

وفي السيرة : نجد أن عمر بن الخطاب ﷺ يعرض ابنته على عثمان بن عفان ﷺ ويعرضها على أبي بكر الصديق ﷺ ثم يتزوجها الرسول ﷺ [(١)] .

ولذلك فإن من حق بناتنا وأخواتنا أن نسعى لهن في الزواج ، ومجتمعاتنا الإسلامية يكثر فيها البنات العوانس اللاتي بقين بلا زواج بسبب أن الأب أو الأخ الأكبر لا يتحرك لبناته أو لأخواته ، يطلب لهن الشاب الصالح ، ويرى في ذلك عيباً أو نقصاً ولكن على الرجل أن يحسن طريق عرض ابنته أو أخته على من يريد ، وأن يكون العرض غير مباشر ، وبطريقة تحمي الفتاة والأسرة بكاملها من أن يساء إليها فيما بعد .

٣. إن في هذا الزواج درساً في أهمية اختيار الرجل للزوجة الصالحة والمرأة للزوج الصالح ، فالرسول ﷺ كما نرى اختار امرأة عمرها أربعون عاماً أي تكبره بخمسة عشر عاماً ، وقد تزوجت قبله مرتين ، ومع ذلك يختارها زوجة له ؛ لطهارتها وعفتها .

وخديجة ـ رضي الله عنها ـ يتقدم لها الكثير من أشراف قريش وسادتها ، وهي المرأة الغنية ولكنها ترفض ، وعندما عرفت الأخلاق العالية والصفات الحميدة في محمد ﷺ حرصت عليه ورغبت فيه .

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٨ / ٣٠ .

إذاً : هناك نقطة التقاء في اختيار الزوج واختيار الزوجة ، أكدها حديث الرسول ﷺ : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » [١] .

وفي المقابل ، قال ﷺ مخاطباً الأولياء : « إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض » [٢] ، فالرجل قدوته الرسول ﷺ في اختيار الزوجة والمرأة قدوتها خديجة ـ رضي الله عنها ـ في اختيار الزوج .

٤. لقد كان لهذا الزواج الذي تم وفق الاختيار السليم آثار عظيمة جداً ، فقد كانت خديجة ـ رضي الله عنها ـ البيت الذي يأوي إليه الرسول ﷺ بعد عناء الدعوة ، وحسبنا موقفها في أول يوم من أيام البعثة حينما طمأنته ، وقالت له : (كلا والله لا يخزيك الله أبداً) ، وكان يؤذى وهو يدعو إلى الله ، فإذا عاد إلى المنزل وجد المرأة التي تطمئنه ، وتشد من عضده وتثبته ، ولم تكن المرأة اللوامة العائقة عن الدعوة إلى الله .

ثم أيضاً كان موقف الرسول ﷺ معها أكمل الوفاء ، فقد كان يكثر ذكرها بعد موتها ، ويصل أقاربها ، حتى كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تغار من ذلك كما مر في فضائل خديجة ـ رضي الله عنها ـ وهنا

---

(١) صحيح البخاري ، تحقيق مصطفى البغا ١٩٥٨/٥ .

(٢) أخرجه ابن ماجة في سننه ٦٢٢/١ وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ٣٣٣/١ ، رقم ١٦٠١ .

نصل إلى الدرس الثاني من هذا الزواج وهو : الوفاء الذي ينبغي أن يكون بين الزوجين ، فالمرأة تحفظ زوجها في حضوره وغيابه ، وتسانده ، وتعينه في عمله ، وتثبته ، ولا تكون امرأة لوامة كثيرة المشكلات مع زوجها ؛ لأنه يواجه المعاناة في الخارج ، ويأتي إلى المنزل والمسكن يريد السكون والراحة فيواجه بالإزعاج أيضاً وعدم السكون والراحة ، وتلك أخطاء يقع فيها البعض من النساء اللاتي يغفلن عن التأسي بخديجة رضي الله عنها .

والزوج أيضاً يكون وفياً لزوجته ، قائماً بحقوقها ، وكثيراً ما يطالب الفرد زوجته بحقوق هو لم يقدمها لها ، يقصر في حقوق زوجته ، ويطالب زوجته بأن تؤدي له الحقوق كاملة ، وما أكثر هذا في بعض مجتمعات المسلمين ، يقول الشيخ محمد العثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ ﴾[1] وهذا المثال الذي ذكره الله عز وجل في الكيل والوزن هو مثال ، فيقاس عليه كل ما أشبهه ، كل من طلب حقه كاملاً ممن هو عليه ، ومنع الحق الذي عليه ، فإنه داخل في الآية الكريمة ، فمثلاً الزوج الذي يريد من زوجته أن تعطيه حقه كاملاً ، ولا يتهاون في شيء من حقه ، لكنه عند أداء حقها يتهاون ولا يعطيها الذي لها ، وما أكثر ما تشتكي النساء من هذا الطراز من الأزواج والعياذ بالله ... كذلك أيضاً نجد

---

(١) سورة المطففين ، الآيات (١ - ٣) .

بعض الناس يريد من أولاده أن يقوموا بحقه على التمام ، لكنه مفرط في حقهم ، فيريد من أولاده أن يبروه ويقوموا بحقه ... لكنه هو مضيع لهؤلاء الأولاد ، غير قائم بما يجب عليه نحوهم ، نقول : هذا مطفف)[١] .

٥. لن نقف مع زواج الرسول ﷺ من خديجة ـ رضي الله عنها ـ وبقائه معها قرابة خمسة وعشرين عاماً ؛ لنجيب على الذين حاولوا الانتقاص من مقام الرسول الشريف ﷺ بسبب تعدد زوجاته ، وذلك لأننا نوقن تماماً أنه رسول الله ﷺ المصطفى من عند الله جل شأنه الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وكفانا بل وكفى كل مسلم ذلك ؛ لينزه مقام الرسول الكريم ﷺ من كل قول يحاول به أعداء الإسلام النيل من نبينا ﷺ ، فمقامه أشرف وأعلى وأسمى من أن نقف ندافع عنه ؛ لسقوط كل محاولة بذاتها ونكوصها على صاحبها .

ومهما قالوا وافتروا وبغوا ، فيقين المسلم بأنه رسول الله يجعل تلك الافتراءات لا قيمة لها ولا اعتبار ، ولا تستحق أن ينشغل المسلم بالرد عليها ؛ لإدراكه بأنها سير على منهج كفار قريش ، وظلمة يهود في عصر الرسالة .

۞۞۞

(١) محمد العثيمين ، تفسير جزء عم ص ٩٣- ٩٥ .

المبحث الثاني عشر

بناء الكعبة

قال ابن حجر : (أخرج عبد الرزاق والحاكم والطبراني أن الكعبة كانت في الجاهلية مبنية بالرضم ليس فيها مدر [1] ، وكانت قدر ما تقتحمها العناق ، وكانت ثيابها توضع عليها تسدل سدلاً ، وكانت ذات ركنين) [2] - كهيئة هذه الحلقة D - [3] .

وكانت الكعبة محاطة ببيوت أهل مكة ، ففي صحيح البخاري عن عمرو بن دينار وعبيد الله بن أبي يزيد قال : (لم يكن على عهد النبي ﷺ حول البيت حائط ، كانوا يصلون حول البيت حتى كان عمر ﷺ فبنى حوله حائطاً ، قال عبيد الله : جدره قصير فبناه ابن الزبير) [4] ، فكانت معرضة للسيول التي تنحدر عليها من جبال مكة بسبب عدم وجود الأسوار التي تحميها .

---

(١) الرضْم : بتسكين الضاد : الحجارة بعضها على بعض ، والمدر هو الطين أو الملاط الذي يوضع بين الحجارة ؛ ليتماسك البناء ، ومعنى هذا أنها كانت مبنية بالحجارة بعضها على بعض ، وليس بين الحجارة طين يمسك الحجارة ، انظر : ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث ٢/٢٣١ و ٤/٣٠٩ .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ٣ / ٤٤١ .

(٣) أقرب الأشكال هو حرف D باللغة الإنجليزية .

(٤) البخاري ، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٧ / ١٤٦ ، حديث رقم ٣٨٣٠ .

ولما بلغ الرسول ﷺ خمساً وثلاثين سنة [(١)] جاء سيل عارم فصدع جدران الكعبة ، وأوهن أساسها ، فأرادت قريش هدمها ، ولكن تهيبوا من ذلك ؛ لمكانتها في قلوبهم ، وخوفهم أن يصيبهم أذى ، فقال الوليد : أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة ؟ قالوا : بل الإصلاح ، فقال : إن الله لا يهلك الصالحين ، وأخذ المعول ، وشرع يهدم ، وتربص الناس تلك الليلة وقالوا : ننتظر ، فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ، ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء هدمناها ، فقد رضي الله ما صنعنا.

فأصبح الوليد من ليلته عائداً إلى عمله ، فهدم وهدم الناس حتى إذا انتهوا إلى أساس إبراهيم عليه السلام ، أفضوا إلى حجارة خضر آخذ بعضها ببعض ، فتركوا الأساس كما هو وشرعوا في البناء ، واتفقوا فيما بينهم أن لا يدخلوا في بنائها من كسبهم إلا طيباً ، لا يدخل فيه مهر بغي ، ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس .

وقد تجزأت قريش بناء الكعبة ، وأخذت كل مجموعة من القبائل جانباً ، وشارك الرسول ﷺ في بناء الكعبة ، فعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال : لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ـ رضي الله تعالى عنه ـ ينقلان الحجارة ، فقال عباس للنبي ﷺ : اجعل إزارك على رقبتك يقك من الحجارة ، فخر إلى الأرض ، وطمحت

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١/ ٢٠٩ ، و ابن حجر ، فتح الباري ٣ /٤٤١.

عيناه إلى السماء ، ثم أفاق ، فقال : « إزاري ، إزاري فشد عليه إزاره »[١] .

ولما وصلوا إلى موضع الحجر الأسود اختلفوا في من يضعه ؟ ، فكل قبيلة تريد أن تحظى بهذا الشرف ، حتى كادت الحرب تقع بينهم ، وقرب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت ، واستمروا على هذه الحالة عدة أيام .

ثم ألهم الله سبحانه وتعالى أكبرهم سناً وهو أبو أمية بن المغيرة المخزومي ، فقال : يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل عليكم ، فرضوا وأقبلوا يترقبون أول قادم ، فإذا به محمد ﷺ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضيناه هذا محمد .

فلما وصل إليهم أخبروه ، فبسط رداءً ، ثُم أخذ الحجر فوضعه فيه ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بطرف ، ثم أمرهم برفعه ، فرفعوه جميعاً ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده المباركة . وبهذا كان سبباً في وقاية قريش من حرب كادت تقع بينهم .

وكانت النفقة قد ضاقت بقريش عن إتمام البيت على قواعد إبراهيم عليه السلام ، فاضطروا إلى النقص منه ، فبنوا على الجزء الشمالي الذي تركوه جداراً قصيراً ؛ للإعلام أنه من البيت ، وهو ما

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ، كتاب مناقب الأنصار، باب بنيان الكعبة ٧ / ١٤٥.

يعرف حالياً (بالحجر) ، ورفعوا باب الكعبة عن الأرض ، ونقصوا منها قليلاً من الجهة الشرقية وهو ما يسمى بالشاذروان (١) .

ماذا نستفيد من حادثة بناء الكعبة و تحكيم الرسول ﷺ في هذا النزاع الذي وقع بين قبائل قريش ؟:

١. عندما قالوا : لا تدخلوا في بناء هذا البيت مكسباً حراماً من كسب بغي أو مظلمة أو ربا ، يدلنا هذا على أن العرب كانوا يدركون دناءة كسب الربا ولذلك فهم يحذرونه في بناء الكعبة ، ماذا نقول عندما نرى العرب قبل أن يكرمهم الله بنعمة الإسلام يعرفون دناءة الكسب الربوي ويحرصون على تطهير أمورهم المهمة منه ، واليوم بعد أن من الله على الأمة بالإسلام وكثرت الأموال إذا بالربا ينتشر بين المسلمين ،

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١/ ٢٠٩-٢١٤ ، وابن حجر ، فتح الباري ٣ / ٤٤١ و ٧ / ١٤٦ ، والسهيلي ، الروض الأنف ١/ ٢٢١-٢٢٩ ، ومحمد أبو شهبة ، السيرة النبوية من ص ٢٢٧ - ٢٢٩ ، ومحمد الصوياني ، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة من ص ٤١ - ٤٤ .

في بداية عام ١٤١٧هـ أجري بعض الترميمات ، وتجديد بعض الجدر الداخلية للكعبة ، وقد شرفني الله ـ جل شأنه ـ بدخول الكعبة في ذلك الوقت ، والمشاركة في بناء بعض الجدار الداخلي ، وذلك ببناء حجرين ، ووضعهما في مكانهما ، وكان معي ابني خالد بن زيد الزيد ، وشارك بوضع ثلاثة أحجار في مكانها ، وذلك بعد صلاة العشاء ، ليلة السبت ١٨/ ١٩ ربيع الأول ١٤١٧هـ . فلله الحمد والمنة .

ويصبح أمراً غير منكر أن يكون لبعض المسلمين مساهمة في بنك أو شركة تعتمد الربا أساساً لكسبها .

كفار مكة يجمعون على دناءة الربا ، ويتحرزون من إدخال كسبه في عمارة الكعبة ، وفي الأمة الإسلامية من يتعاطى الربا في مطعمه ومشربه ، ومطعم أولاده ومسكنهم ، ما الجديد إذاً الذي أضافه لنا الدين إذا كنا لم نسمع لتوجيهاته في أمر كان محترزاً حتى في الجاهلية ؟ إنه الغزو اليهودي لأموالنا ، فأصبح المال فتنة تُنْسِي البعضَ دينَه ، فيقدم مكسباً محرماً على أمر شرعي .

٢. قد يبدو لبعض الناس أن هذا الرأي الذي جاء به الرسول ﷺ سهل ومن الممكن أن يهتدي إليه كل إنسان ، لكن لو تذكرنا أن سادة قريش وعقلاءها جلسوا في الحرم ثلاثة أيام وهم يتداولون الأمر فيما بينهم حتى تقاسموا وتحالفوا على القتال ، ولم يتوصلوا إلى هذا الرأي ، ثم يأتي محمد ﷺ وهو يصغرهم في السن ويأتي بهذا الحل التوفيقي الذي أشعر الجميع باشتراكهم في وضع الحجر ، ونزع فتيل القتال الذي كاد يقع بينهم ، مما يبين التميز الكبير للنبي ﷺ .

٣. إن الرأي الجماعي الذي صدر من القرشيين وهم حول الكعبة حينما أقبل محمد ﷺ وقالوا جميعاً : (رضينا جاء الأمين ، رضينا جاء محمد) هذا الرأي في محمد ﷺ لابد أن نقف عنده ونقول :

* إن اقتناع الناس بك مهم جداً للسماع منك ، فالاختلاط بالناس ، والتعرف عليهم والتعامل معهم ، أساس للداعية إلى الله ، ولو أن محمداً ﷺ دخل عليهم في هذه السن (٣٥ سنة) وهم لا يعلمون عنه شيئاً لما رحبوا به ، ولما فرحوا لمقدمه عليهم ، ولكنه كان ﷺ شخصاً معروفاً مشتهراً بالذكر الحسن ، والمخالطة المحمودة والثناء الجميل ، ولم يكن بالشخص المنعزل عن مجتمعه ، المنطوي على نفسه الذي لا يَعْرِفُ ولا يُعْرَفُ ، ثم يريد بعد ذلك الإصلاح ، ويريد القبول ، ويريد التأثير ، فالخطوة الأولى للداعية أن يكون في الميدان حاضراً عارفاً معروفاً مدركاً لأهمية الاختلاط بالمجتمع ، ولو كان هذا المجتمع يخالفه ، فالرسول ﷺ كان رافضاً لما عليه الجاهلية قبل البعثة ، كان رافضاً للأصنام ، والطواف حولها ، والذبح لها ، معرضاً عن شرب الخمر ، والزنا ، وسائر أقذار الجاهلية ، ولكنه لم يكن معتزلاً القوم ، بل كان يشاركهم فيما يحل ، ويعرفهم ، ويعرفونه بالصادق الأمين ، وهذا يبين لنا حدود الخلطة والعزلة ، فلا العزلة الكاملة مطلوبة التي تجعل الشخص نكرة لا يعرفونه ، ولا يقبلون منه ، ولا الخلطة التامة أيضاً مقبولة التي تجعل الشخص فرداً منهم ، يفعل كل ما يفعلون ، بل خلطة تقيم الصلة بهم ، وتؤسس العلاقة النافعة البانية للاحترام والتقدير والقبول ، وعزلة في سائر القضايا التي تخالف المعتقد والدين ، نفقه ذلك من خلال مشاركة النبي ﷺ لقومه مشاركة تجعله

معروفاً لديهم من كثرة تعامله ، وكثرة احتكاكه بهم ، حتى وصفوه نتيجة لذلك بالصدق والأمانة ، ولو كان في هذه الخلطة المتزنة خطأ أو خلل لنزه الله سبحانه وتعالى عنها نبيه محمداً ﷺ كما نزهه عن أدران الجاهلية التي كان معصوماً منها قبل البعثة [١] .

ثم كيف يكون الشخص ذا تأثير في المجتمع ؟! أذلك من خلال ثنائه على نفسه ، أم ماذا ؟ إن هذا التساؤل يقودنا إلى الفائدة الثانية من هذا الموقف وهي :

* إن من أهم الأسباب الدعوية المؤثرة : الأخلاق ، فخلق محمد ﷺ جعلهم يرحبون بمقدمه عليهم ، ويفرحون برؤيته ، ويُسَرون ؛ لكونه هو الحكم بينهم ، ويرضون بحكمه قبل أن يحكم وبعد أن حكم ، وهذه شبيهة جداً باللَّذيْنِ سُجِنَا مع يوسف عليه السلام ، فإنهما رأيا رؤيا ، فجاءا إلى يوسف عليه السلام يقصان عليه ما رأياه ، ويسوغان اختياره لعرض الرؤيا عليه دون غيره بقولهما : (إنا نراك من المحسنين) ، قال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْأَخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [٢] ، فجاءا إليه رغم أنه مسجون ، والسجن محل تهمة ، وسألاه ، وذكرا السبب وهو أنهما رأيا عليه سيما وعلامات الإحسان في سلوكه وأخلاقه ، وهذا

(١) انظر : منير الغضبان ، فقه السيرة ص ٦٠٨ .

(٢) سورة يوسف ، الآية رقم (٣٦) .

هو واجب الداعية : التميز في الأخلاق الحسنة والمعاملة الفاضلة ؛ ليعرفه الناس ، وليأتوا إليه ، وليسمعوا منه ويقبلوا رأيه ويتأثروا بدعوته .

٤. هذا الحدث يبين مكانة محمد ﷺ في قومه ، فقد تلقاه الجميع بالرضا وقالوا : رضينا ، جاء الأمين ، ولما بُعِثَ قالوا : ساحر ، كاهن ، كذاب إلى آخر الألقاب السيئة التي كانوا يصفون بها محمداً ﷺ ، فهو عندما يتحدث عن أمور دنياهم صادق ، مرضي ، وعندما يتحدث عن أمور دينهم ، يصبح الصادق الأمين كذاباً ساحراً كاهناً ، فقولهم هذا حجة عليهم أولاً ، وهو أيضاً يعطينا درساً أن المسلم إذا واجه الناس في أمور دينهم فلن يسكتوا ، فإذا كان كفار قريش قد قالوا للصادق الأمين لديهم أنه ساحر كذاب ، فماذا سيقولون لمن هو دون ذلك ؟ فلا ينزعج الشخص ، ولا يتأثر عندما يسمع كلمات وأوصاف الناس عنه ؛ لأنه تكلم في أمر من أمور دينهم .

٥. قلنا من قبل : إن حادثة الفيل أبرزت قريشاً على سائر القبائل وميزتها ، وأصبحت قريش رمزاً وعلماً من بين قبائل العرب ؛ لحماية الله لها ، واليوم في حادثة بناء الكعبة تتم الخطوة الثانية بتتويج محمد ﷺ على هذا الرمز ، فحادثة الفيل ميزت قريشاً ورفعتها ، وحادثة بناء الكعبة ميزت محمداً ﷺ على قريش ، ورفعته عليهم ، وذلك كله تمهيداً للبعثة التي دنت ، وأزف موعدها ، يقول محمد أبو شهبة في

السيرة : (وقد ازداد النبي ﷺ منزلة فوق منزلته ، وقدراً فوق قدره ، وأصبح أحدوثة العرب في كل ناد ومجلس)[١] .

٦. في حادثة الكعبة إرهاص ومقدمة من مقدمات النبوة ، فالذي حال بين إراقة الدماء اليوم هو الذي سيحول غداً ، والذي جمع القوم بعد نزاعهم وفرقتهم هو الذي سيجمع الأمة العربية ، وسيوحدها مع سائر الأمم تحت لواء الإسلام بإذن الله تعالى .

٧. فيما جرى للرسول ﷺ أثناء نقله للحجارة مع عمه العباس ـ رضي الله عنه ـ من وضعه لإزاره على رقبته ، ثم ما أصابه بعد ذلك ، يدلنا على ما للرسول ﷺ من حفظ وعناية منذ صغره ، قال ابن حجر : (وذكر ابن إسحاق في المبعث وكان رسول الله ﷺ فيما ذكر لي يحدث عما كان الله يحفظه في صغره أنه قال ...)[٢] ثم ذكر القصة ، وسيأتي مزيد تفصيل لهذا الموضوع في المبحث التالي .

❁❁❁

(١) محمد أبو شهبة ، السيرة النبوية ص ٢٢٩ .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ١٤٦/٧ .

المبحث الثالث عشر
صور من حفظ الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ قبل البعثة

كانت حياته ﷺ قبل البعثة حياة فاضلة شريفة ، فقد شب ﷺ في هذا المجتمع الجاهلي في عقيدته ، والجاهلي في أخلاقه ، ولكنه ﷺ لم يتأثر بما حوله من تلك المساوئ والرذائل :

١. كان ﷺ يحتقر هذه الأصنام التي يعبدها قومه ، ويدرك أنها لا تنفع ولا تضر ، فقد كان يوماً معه مولاه زيد بن حارثة ﷺ وكان صنم من نحاس يقال له : إساف ونائلة ، يتمسح به المشركون إذا طافوا ، فطاف رسول الله ﷺ يقول زيد : (وطفت معه ، فلما مررت مسحت به أي (بالصنم) فقال رسول الله ﷺ : « لا تمسه » ، فقلت في نفسي : لأمسنه حتى أنظر ما يكون ، فمسحته ، فقال رسول الله ﷺ : « ألم تنه ؟ » فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنماً حتى أكرمه الله بالذي أكرمه وأنزل عليه)[١] .

---

(١) البيهقي ، دلائل النبوة ٣٤/٢ ، وابن كثير ، البداية والنهاية ٢ / ٢٨٨ ، وانظر: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة للصوياني ص ٤٦ ، حيث قال : (حديث حسن) .

٢. لم يشرب خمراً قط ، ولا اقترف فاحشة ، ولا شارك في ميسر أو لهو عابث باطل ، مع أنه كان ﷺ يخالط قومه ، ويعيش معهم ، ويشاركهم في سائر أمورهم العادية المباحة .

٣. كانت هناك عصمة تحميه ﷺ من المساوئ الخلقية ، ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال : (لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة ، فقال عباس للنبي ﷺ : اجعل إزارك على رقبتك يقك من الحجارة ، فخر على الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق : إزاري ، إزاري ، فشد عليه إزاره)[١] .

٤. عن علي بن أبي طالب ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من الغناء إلا ليلتين ، كلتاهما عصمني الله سبحانه وتعالى فيهما ، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم أهلنا ، فقلت لصاحبي : أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر فيها كما يسمر الفتيان ، فقال : بلى ، قال : فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفاً فقلت : ما هذا ؟ فقيل : تزوج فلان فلانة فجلست وضرب الله تعالى على أذني ، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟ قلت : ما فعلت شيئاً ، ثم أخبرته بالذي رأيت

(١) صحيح البخاري المطبوع فتح الباري ٧ / ١٤٥ ، كتاب مناقب الأنصار .

، ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة ، ففعل ، فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة فسألت ، فقيل : فلان نكح فلانة ، فجلست أنظر وضرب الله على أذني ، فو الله ما أيقظني إلا مس الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟ فقلت : لا شيء ، ثم أخبرته الخبر ، فو الله ما هممت ولا عدت بعدها لشيء من ذلك حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته) [١] .

٥. يقول جبير بن مطعم : أضللت بعيراً لي يوم عرفة ، فخرجت أطلبه ، فرأيت النبي ﷺ واقفاً مع الناس بعرفة فقلت : (هذا من الحمس ، فما شأنه هاهنا) [٢] .

---

(١) البيهقي ، دلائل النبوة ٢/٣٤ ، وانظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، تحقيق التركي ٣ / ٤٤٧ وقال ابن كثير بعدها : (هذا حديث غريب وقد يكون عن علي نفسه ، ويكون قوله في آخره ، حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته مقحماً والله أعلم) ، والشامي ، سبل الهدي ٢ / ٢٠٠ ، وقال : (رواه ابن إسحاق وإسحاق بن راهويه والبزار وابن حبان ، قال الحافظ : وإسناده حسن متصل ، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٢٤٥ وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وقال الهيثمي في المجمع ٨ / ٢٢٦ : رواه البزار ورجاله ثقات ، وضعفه الألباني في كتابه (دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد على جهالات البوطي في فقه السيرة) ص١٣ و١٤ ، انظر : محمد الصوياني ، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة ص٣٨و٣٩ حيث حسن هذا الحديث .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٣ / ٥١٥ ، حديث رقم ١٦٦٤ ، كتاب الحج ، باب : الوقوف بعرفة ، وصحيح مسلم ، كتاب الحج ٢ / ٨٩٤ ، حديث رقم (١٢٢٠) ، والحمس بضم المهملة وسكون الميم بعدها مهملة : الأحمس

وذلك أن قريشاً كانوا يقفون بمزدلفة يوم عرفة ، ولا يخرجون خارج الحرم إلى عرفات يتميزون بذلك عن سائر الناس ، فوفق الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ للصواب قبل البعثة النبوية .

٦. كان الرسول ﷺ معروفاً بالصدق ، فلم يشهد عليه مرة واحدة بالكذب ، يؤكد هذا أن الرسول ﷺ صعد الصفا فهتف يا صباحاه ، فقالوا : من هذا ؟ فاجتمعوا إليه ، فقال : « أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً ، قال : فإني نذير لكم بين عذاب شديد »[(١)] ، فهم هنا يقولون في مشهد عام : ما جربنا عليك كذباً ، بل أنت معروف بالصدق من صغرك .

نأخذ مما سبق :

١) أن النبي ﷺ كان متمتعاً بخصائص البشر كلها ، فهو شاب كسائر الشباب ، يخالط القوم ويتعامل معهم ، ويشعر بما يشعر به الشباب ، وتحدثه نفسه بما تحدث به نفوس الشباب في الأمور العادية .

الشديد في دينه وكانت قريش تسمى الحمس ، وكانت لا تجاوز الحرم ويقولون : نحن أهل الله لا نخرج من الحرم وكان سائر الناس يقفون بعرفة ، وهم يقفون في مزدلفة ، ابن حجر ، فتح الباري ٣/٥١٦ .

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٨ / ٣٣٧ ، حديث رقم ٤٤٧١ ، كتاب التفسير ، باب سورة تبت يدا أبي لهب .

٢) أن الله سبحانه وتعالى قد عصمه من جميع مظاهر الانحراف ، فهو قبل أن تأتيه العصمة من قبل الوحي أيضاً لديه عاصم آخر من الله سبحانه وتعالى يحول بينه وبين ما قد تتطلع إليه نفسه ، أو قد يميل إليه بسبب ضغوط مجتمعه ، فيعصم منه ، ويحال بينه وبينه قبل الوقوع فيه .

٣) أنه عاش ﷺ في شبابه متميزاً بالأخلاق الحسنة الفاضلة وسلامة الفطرة الكارهة للوثنيات والشركيات والخرافات ، فنشأ نقياً نزيهاً نظيفاً معروفاً بالصدق والأمانة ، وكلها تمهد للرسالة التي سيحملها ﷺ .

٤) وجود هذه الصفات في الرسول ﷺ بعناية إلهيةٍ ، وارتباطها ببعثته ﷺ تدلنا على أهمية هذه الأخلاق للداعية ؛ ولذلك فاستقامة الداعية ، وحرصه على الصدق والأخلاق الفاضلة مهمان جداً في إصغاء الناس له ، فلا يجد الحاقد ولا الناقد مغمزاً يغمز به الداعية بشيء سابق في حياته[1] .

٥) كان من اليسير أن يولد الرسول ﷺ وقد نزعت منه محبة ما يحبه الشباب من الرغبة في اللهو، والتهاون في التعري ، وينشأ بعيداً عن ذلك ، ولكن قد يفهم هذا على أنه انطواء وانعزال عن المجتمع ، ومركب نقص في الشخص ، لكن أن توجد هذه الميول فيه ثم يعصم

---

(١) انظر : السباعي ، السيرة النبوية دروس وعبر ص ٣٩ - ٤٠ .

عن السوء ويحال بينه وبين الخطأ ، فهنا يتبين التمايز والكمال الخاص به ﷺ .

٦) أنكر العلماء الرواية التي تشير إلى أن الرسول ﷺ كان يشهد مع المشركين مشاهدهم وبينوا عدم ثبوت شيء منها ، ومع ذلك استدل القاضي عياض ـ رحمه الله تعالى ـ بدليل عقلي على عدم مشاركة الرسول ﷺ قومه قبل البعثة في جاهليتهم فقال : (إن قريشاً قد رمت نبينا عليه السلام بكل ما افترته ، وعيّر كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته ، مما نص الله عليه أو نقلته إلينا الرواة ولم نجد في شيء من ذلك تعييراً لواحد منهم برفضه آلهتهم وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه ، ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين ، وبتلونه في معبوده محتجين ، ولكان توبيخهم له بنهيهم عن ترك آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل ، ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليه ، إذ لو كان لنقل وما سكتوا عنه ، كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة وقالوا : (ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها) كما حكاه الله عنهم)[١] .

۞۞۞

---

(١) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٥٧ ، وانظر : سليمان بن حمد العودة ، قضايا ومباحث في السيرة ص ١٦٥ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الثاني

فقه السيرة من البعثة إلى هجرة الحبشة

تمهيد في خلوته وتعبده ﷺ قبيل البعثة

المبحث الأول : بدء الوحي .
المبحث الثاني : الرسالة .
المبحث الثالث : الدعوة السرية .
المبحث الرابع : الجهر بالدعوة .
المبحث الخامس : موقف قريش من الدعوة بعد الجهر بها .
المبحث السادس : أساليب المشركين في مواجهة الرسول ﷺ .
المبحث السابع : دار الأرقم .
المبحث الثامن : الهجرة إلى الحبشة .

رَفْعُ

عبد الرَّحمن النَّجْدِيِّ

أسكنه اللهُ الفردوس

تمهيد : في خلوته وتعبده ﷺ قبيل البعثة :

لما دنت بعثة الرسول ﷺ انتشر في الأمم أن الله سبحانه وتعالى سيبعث نبياً في هذا الزمان، وأن ظهوره قد قرب ، فكانت الأمة التي لها كتاب تعرف ذلك من كتابها والتي ليس لها كتاب ترى في الآيات المنذرة ما تستدل به على قرب هذا المبعث .

قال ابن إسحاق : وكانت الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، والكهان من العرب ، قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لما تقارب زمانه ، أما الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى فمما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه ، وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع ، وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره ، لا تُلقي العرب لذلك فيه بالاً حتى بعثه الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرونها فعرفوها [(١)] .

فمن الأمور التي تحدث بها اليهود والنصارى إخباراً عن الرسول ﷺ أن يهودياً من جيران بني عبد الأشهل في المدينة حدثهم عن البعث والحساب والميزان والجنة والنار فاستنكروا ذلك ، وطالبوه بآية ذلك ، فقال : نبي مبعوث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده إلى مكة واليمن [(٢)] .

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ٢٢١ .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١/ ٢٣٢ ، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث ، وانظر : الحاكم ، المستدرك ٣ / ٤١٧-٤١٨ وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي في التلخيص .

وقصة ابن الهيبان الذي قدم من الشام إلى المدينة قبيل البعثة بسنين ، وقال لليهود في المدينة : إن سبب قدومه توقع خروج نبي فيتبعه ودعا اليهود إلى اتباعه [١] .

وقصة سلمان الفارسي الذي جاء من بلاد فارس يبحث عن الدين حتى دله الأحبار على مكان بعثة محمد ﷺ وقرب زمانها [٢] .

وقُبَيْلَ بلوغ النبي ﷺ أربعين سنة حبب إليه الخلوة ، وذلك لما في الخلوة من صفاء النفس وهدوء البال والتفكر في ملكوت الله وعظيم خلقه ، وجليل قدرته ، فكان يخلو بغار حراء في رمضان من كل عام [٣] .

وإنما كان الرسول ﷺ يحب الخلاء ، والانفراد عن قومه ، لما يراهم عليه من الضلال المبين ، من عبادة الأوثان والسجود لها .

وقويت محبته ﷺ للخلوة عند مقاربة إيحاء الله له ، وإذا عاد من مجاورته بدأ بالطواف بالبيت ثم انصرف إلى منزله [٤] .

وقد تعددت الأقوال في كيفية تعبده ﷺ هذه المدة ، قال الزرقاني في شرح المواهب : (لم يأت تصريح بصفة تعبده ﷺ بحراء ، فيحتمل

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ٢٣٢ - ٢٣٣ ، وابن كثير ، البداية والنهاية ٢ / ٣١٠ .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ٢٣٤ .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١/ ٢٥٤ ، ومحمد أبو شهبة ، السيرة النبوية ١ / ٢٥٥ .

(٤) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٥ .

أنه أطلق على الخلوة بمجردها تعبداً ، فإن الانعزال عن الناس ، ولاسيما من كان على باطل ، عبادة ، وعن ابن المرابط وغيره كان يتعبد بالفكر وهذا على قول الجمهور)[١] .

وقال ابن كثير ــ رحمه الله تعالى ــ : (وقد اختلف العلماء في تعبده عليه الصلاة والسلام قبل البعثة هل كان على شرع أم لا ؟ وما ذلك الشرع ؟ فقيل : شرع نوح وقيل : شرع إبراهيم ، وهو الأشبه الأقوى ، وقيل : موسى ، وقيل : عيسى ، وقيل : كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به)[٢] .

قال الغزالي : (إنه ﷺ قبل مبعثه هل كان متعبداً بشرع أحد من الأنبياء ؟ فمنهم من قال : لم يكن متعبدا ، ومنهم من قال : كان متعبدا ، ثم منهم من نسبه إلى نوح عليه السلام ، وقوم نسبوه إلى إبراهيم عليه السلام ، وقوم نسبوه إلى موسى ، وقوم إلى عيسى عليهما السلام ، والمختار أن جميع هذه الأقسام جائز عقلاً ، لكن الواقع منه غير معلوم بطريق قاطع ، ورجم الظن فيما لا يتعلق به الآن تعبد عملي لا معنى له)[٣] .

قال ابن حجر ــ رحمه الله تعالى ــ : (ولم يأت التصريح بصفة تعبده ، لكن في رواية عبيد بن عمر عند ابن إسحاق (فيطعم من يرد عليه من المساكين) وجاء عن المشايخ أنه كان يتعبد بالتفكير ، ويحتمل

---

(١) الزرقاني ، شرح المواهب اللدنية للقسطلاني ١ / ٢٥٤ ، الطبعة الأولى (د.ت . د. ن).
(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٦ .
(٣) الغزالي ، المستصفى ١ / ١٣٢ ، الطبعة الأولى (مصر : المكتبة التجارية ١٣٥٦هـ) .

أن عائشة أطلقت على الخلوة بمجردها تعبدا ، فإن الانعزال عن الناس ، ولا سيما من كان على الباطل من جملة العبادة كما وقع للخليل عليه السلام حيث قال : ﴿ إني ذاهب إلى ربي ﴾) [١] .

وقال الشيخ محمد العثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ : (وكان يصعد إلى الغار عليه الصلاة والسلام ويتحنث ويتعبد لله عز وجل بما فتح الله عليه) [٢] .

وقال محمد صادق عرجون : (وقيل : كان يتعبد بالفكر ، وهذا هو قول الجمهور ، والذي نميل إليه أن تعبده ﷺ في خلواته قبل البعثة كان أساسه التفكر في آيات الله ، ومنها ما كان من ملة إبراهيم ، وإسماعيل عليهما السلام ، ودليل ذلك التزامه ﷺ بتعظيم الكعبة المشرفة ، والطواف بها) [٣] .

ومع هذه الإطالة في النقل من نصوص كلام أهل العلم ، إلا أنني أرى أن الصواب ما قاله الغزالي ـ رحمه الله ـ من أن الانشغال فيما ليس عليه دليل ، ولا تعلق له بأمر تعبدي ، لا معنى له ، ويكفي من ذلك ما قاله الشيخ محمد بن عثيمين : إنه كان يتعبد بما فتح الله عليه ، والله أعلم .

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٨ / ٧١٧ .

(٢) ابن عثيمين ، تفسير جزء عم ص ٢٥٦ .

(٣) محمد صادق عرجون ، السيرة النبوية ١ / ٢١٦ - ٢١٧ .

ماذا نستفيد من هذا التمهيد ؟ :

١. أن بعثة النبي ﷺ كان هناك من يتوقعها ويتحدث عنها ، وذلك من خلال أمرين :

أ. الوحي ، أي التوراة التي كانت أنزلت على موسى عليه السلام ، والإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام ، فكان يذكر فيهما أوصاف النبي الذي سيبعث ، وأوصاف زمانه ، ويضاف إلى ذلك بالنسبة للكهان ما كانوا يحصلون عليه من معلومات من خلال استراق السمع .

ب. معرفة الأحداث التي تجري ومقارنتها بما تحدثت عنه النصوص أو بما يسترق من السمع ، ومن الجمع بين هذا النص أو بما جاء من استراق السمع مع شواهد الواقع تظهر العلامة التي تدل على قرب بعثة النبي ﷺ ، وأن ما ورد أو استرق من سمع ظهرت دلائله في أرض الواقع ، وهذا يقودنا إلى الفائدة الثانية والثالثة .

٢. أهمية متابعة الأحداث التي تجري وربطها بالنصوص ، والاستفادة من ذلك في توقع بعض أمور المستقبل ، فالذين كان لديهم علم ومتابعة للأحداث كانوا يدركون قرب البعثة النبوية ، والذين لم يهتموا بالأحداث ولم يتابعوها كانت البعثة النبوية لهم حدثاً مفاجئاً غريباً (١) .

---

(١) ولعل مما يشبه هذا أيضاً قصة كعب الأحبار عندما جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأخبره بقرب وفاته شهيداً مما يجده في كتاب الله (أي التوراة) انظر : ابن سعد ، الطبقات ٣ / ٣٣٢ ، وابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٦٥ ، والمبرد ، التعازي والمراثي

٣. أن ما نلمسه حالياً من زيادة إقبال الناس على التمسك بالدين والحرص عليه والتمسك به لم يكن مفاجئاً ، فكما تحدث اليهود والنصارى والكهان عن البعثة وجدنا أيضاً من كتب عن هذا الإقبال ولم يكن هذا رجماً بالغيب ، ولكن المتابعة للأحداث والاستنتاج منها أوصله إلى هذا التوقع .

يقول أحد الكتاب : (ربما تكون الصحوة الإسلامية مفاجأة للعالم العربي الذي تعود ألا يقرأ ، ولكن بالنسبة للعالم الغربي لا . لم تكن مفاجأة ؛ لأن جميع القيادات الفكرية العالمية توقعت هذه الصحوة منذ ما لا يقل عن ثلاثين عاماً بل وهناك من توقعها منذ أكثر من ستين عاماً ، العالم الأمريكي سميث في جامعة مونتريال في كتاب له أسماه : (الإسلام اليوم) وصدر في الخمسينات لفت نظر المسؤولين في بلاده إلى هذه الصحوة ، والعالم الإنجليزي صاحب الشهرة الدولية (وات) في تحليله للإسلام في العصور الوسطى الذي تضمنه كتابه الصادر عام (١٩٦٤م) توقع هذه الصحوة ووصفها بأنها سوف تقود إلى أيديولوجية رابعة ستتحكم في العالم المعاصر في القرن الحالي على أن أخطر وثيقة بهذا الخصوص تعود إلى عالم روسي هو : (تروجانوسكي) كتب مجموعة مؤلفات في أعقاب الثورة الشيوعية محاولاً تقييم تلك الثورة ومتسائلاً متى وأين تأتي الثورة العالمية الثالثة ؟

ص٢٢١ ، فكيف كان كعب يتوقع الوفاة إلا من خلال معرفته للأمرين اللذين ذكرتهما إن صح ما ذكر عنه .

مشيراً بهذا إلى الثورتين العالميتين الفرنسية والشيوعية ، وإلى أن كلتيهما قد فشلتا في ناحية معينة ، وأن العالم في حاجة إلى ثورة قادمة تستطيع أن تصحح من مسارات الحركة الإنسانية ، ويجيب (تروجانوسكي) بأن تلك الثورة لن تأتي إلا من العالم الإسلامي ، كان ذلك في عام ١٩١٩م)[١] .

٤. أهمية الخلوة في حياة المسلم ، يخلو فيها إلى نفسه ، ويراجعها ويستشعر ضعفه أمام عظمة الله سبحانه وتعالى ويفكر في مظاهر الكون ، ويستفاد من هذه الخلوة في الآتي :

أ. الاطلاع على آفات النفس ، من عجب ، وكبر ، وحسد ، ورياء ونحوه ، ثم الاستغفار ، والتوبة ، والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى .

ب. ذكر الله سبحانه وتعالى والأنس به ، وتذكر الجنة والنار والآخرة ومصير الإنسان ، وما في ذلك من آثار على الطاعة ، والبعد عن المعصية .

٥. ما المقصود بهذه الخلوة ؟ .

إن الخلوة المطلوبة هي التفرغ لعبادة الله سبحانه والاستعانة بهذه العبادة لمزيد من الطاعة ومواجهة أمور الدنيا .

وقد كانت خلوته ﷺ في الغار قبل البعثة ، أما بعد البعثة فقد تغيرت وأصبحت خلوة من نوع آخر هي التهجد ، وقيام الليل حين

---

(١) انظر : لقاء أجرته مجلة الأمة القطرية في عددها رقم ٣٩ ، ص ٧٢ ، مع الدكتور/ حامد ربيع أستاذ العلوم السياسية في جامعة القاهرة .

ينام الناس ، وكان هذا التهجد فرضاً على محمد ﷺ وأمته ، ثم أصبح مستحباً بعد ذلك على الأمة [١] .

فالخلوة المقصودة هنا ليست خلوة الصوفية وطرقهم المنحرفة ، بل هي قيام الليل عندما ينام الناس وينزل الرب سبحانه وتعالى كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فأستجيب له ومن يسألني فأعطيه ومن يستغفرني فأغفر له » [٢] .

وقد قال تعالى للرسول ﷺ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾ [٣] ، فقيام الليل وترتيل القرآن هو خلوة المسلم الليلية ، وهو زاد له في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى . وقيام الليل هو دأب الصالحين ، يقول إبراهيم بن أدهم عن قيام الليل : (نحن في لذة لو عرفها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف) [٤] .

❁❁❁

(١) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ٣٤ ، والسباعي ، السيرة النبوية دروس وعبر ص ٤١ .
(٢) صحيح مسلم ١ / ٥٢١ ، حديث رقم ٧٥٨ .
(٣) سورة المزمل ، الآيات من (١ - ٥) .
(٤) انظر : ابن الجوزي ، صفة الصفوة ٤ / ١٥٤ .

المبحث الأول

بدء الوحي

عن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت : (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي : الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِّبَ إليه الخلاءُ ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع على أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة ـ رضي الله عنها ـ فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك ، فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني ، فقال : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم) فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ فقال : زملوني ، زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال ﷺ لخديجة ، وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك

لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة ـ رضي الله عنها ـ حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى (ابن عم خديجة) وكان امرءاً تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، قالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ أو مخرجي هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي)[١] .

وعن علقمة بن قيس قال : (إن أول ما يُؤْتَى الأنبياءُ في المنام ، حتى تهدأ قلوبهم ثم ينزل الوحي)[٢] ، قال ابن كثير : (وهذا من قبل علقمة نفسه وهو كلام حسن يؤيده ما قبله وما بعده)[٣] .

---

(١) صحيح البخاري ، المطبوع مع فتح الباري ١ / ٢٣ .
(٢) الشامي ، سبل الهدي والرشاد ٢ / ٣٠٦ .
(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٤ .

تاريخ البعثة النبوية :

قبل الحديث عن فوائد الحديث نشير إلى تحديد وقت البعثة النبوية :

أ. عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم الاثنين فقال : « ذلك يوم ولدت فيه ، ويوم أنزل علي فيه » [(١)] وحينئذ فبدء الوحي كان يوم الاثنين .

ب. أما تحديد الشهر فقد اختلف فيه ، يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى -: (واختلف في شهر المبعث فقيل : لثمان مضين من ربيع الأول ، سنة إحدى وأربعين من عام الفيل ، هذا قول الأكثرين ، وقيل : بل كان ذلك في رمضان، واحتج هؤلاء بقوله تعالى: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ [(٢)]، قالوا : أول ما أكرمه الله تعالى بنبوته ، أنزل عليه القرآن [(٣)] ، وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر ، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع في شهر مولده ، وهو شهر ربيع الأول بعد إكماله أربعين سنة ، ووحي اليقظة في رمضان [(٤)] .

---

(١) صحيح مسلم ١ / ٨١٩ .
(٢) سورة البقرة ، الآية رقم (١٨٥) .
(٣) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ١ / ٧٨ .
(٤) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ١ / ٢٧ ، والشامي ، سبل الهدى والرشاد ٢ / ٣٤٠.

فوائد حديث بدء الوحي :

وبعد أن تحدثنا عن تاريخ البعثة النبوية نعود إلى فوائد حديث بدء الوحي ؛ لنلحظ فيه ما يلي :

١. لقد غط جبريل عليه السلام الرسول ﷺ ثلاث مرات ، وانتزع شريح القاضي من هذا أن لا يضرب الصبي إلا ثلاثاً على القرآن الكريم كما غط جبريل الرسول ﷺ ثلاثاً [(١)] .

٢. أن العلم هو عنوان هذا الدين ، فقد استفتح الوحي بكلمة (اقرأ) ، فالمسلم إذاً مطالب بالقراءة والاطلاع ، تحقيقاً لهذا التوجيه الذي استفتح به الوحي الرباني لمحمد ﷺ بل والعجيب أن هذه السورة التي افتتح بها الوحي وكانت بدايتها الأمر بالقراءة تختم بالأمر بالسجود وذلك لأهمية القراءة وأهمية السجود ، وجاءت على منوال هذه السورة الصلاة ، فكل ركعة يركعها المسلم إنما تبدأ بالقراءة ، وتنتهي بالسجود ، مثل سورة اقرأ : بدأت بالقراءة وانتهت بالسجود ، وذلك لعظم مكانة هذين الأمرين في الإسلام .

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (وأشرف أفعالها (أي الصلاة) السجود ، وأشرف أذكارها القراءة ، وأول سورة أنزلت على النبي ﷺ افتتحت بالقراءة ، وختمت بالسجود، ووضعت الركعة على ذلك ، أولها قراءة وآخرها سجود) [(٢)] .

---

(١) انظر : العيني ، عمدة القارئ ١ / ٦٢ .

(٢) ابن القيم ، الكلام على مسألة السماع ص ٢٠٤ ، ونقل أيضاً كلاماً لشيخ الإسلام ابن تيمية حول المعنى ذاته في ص ٢١٩ من المرجع نفسه .

٣. عندما بدأ الوحي بالحث على القراءة وإبراز مكانة القلم ، ولم يكن الرسول ﷺ قارئاً ولا كاتباً بالقلم ، دل ذلك على أن القرآن ليس من عند محمد ﷺ وما كان محمد ﷺ ليبرز هذه الحقيقة وهذه الأهمية للقراءة والقلم منذ اللحظة الأولى لو كان هو الذي يتقول هذا القرآن ويختلقه .

٤. ربط القراءة باسم الله يوحي بأهمية ارتباط العلم بالإيمان وأن العلم الحق يدعو للإيمان .

٥. جاء الرسول ﷺ إلى خديجة ـ رضي الله عنها ـ فزعاً مذعوراً ، فلم تبادره بالسؤال ، وتلح عليه بالحديث والتفصيل ، بل أول ما بدأت هو طمأنته ، (والفازع لا ينبغي أن يسأل عن شيء حتى يزول عنه فزعه حتى قال الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن المذعور لا يلزمه بيع ولا إقرار ولا غيره) [1] .

٦. إن الشخص إذا واجه مشكلة أو أمراً أهمه ينبغي عليه أن لا يكتمه ، بل يستحب أن يطلع عليه من يثق بنصيحته وصحة رأيه [2] ؛ وذلك لأجل غرضين :

أ. هو التنفيس عن النفس ، فالمشكلة المكتومة تكبر في النفس وتنمو ، وتأخذ أكبر من مكانها ، وتُشغل صاحبها أكثر مما تستحق ،

---

(١) العيني ، عمدة القارئ ١ / ٦٣ .

(٢) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ١ / ٢٥ ، والعيني ، عمدة القارئ ١ / ٦٣ .

فإذا نفس عن نفسه بالحديث خفف الضغوط التي عليها ؛ لأنه جعل معه من يشاركه حمل هذا الهم ، وهذا أمر مشاهد مدرك لمن جربه ، ومن الخطأ أن يكتم الشخص المشكلة التي تواجهه ويتيح لها النماء في ذاكرته حتى تؤدي إلى عواقب ومواقف ضارة ، فالرسول ﷺ هنا بادر في هذا الأمر الذي أهمه وأفضى به إلى خديجة ـ رضي الله عنها ـ ؛ لتشاركه هذا الهم وتسعى معه في البحث عن حل مناسب (١) .

تقول الدكتورة (روز هلفردنج) المستشارة الطبية لمستشفى بوسطن : (إن من الأدوية الشافية للقلق إفضاء الشاكي بمتاعبه إلى شخص يثق به ، وحين يتحدث المرضى عن متاعبهم بإسهاب وتفصيل ينتفي القلق من أذهانهم ، فإن مجرد الشكوى فيه شفاء ، أما اختزانها في الذهن واستئثار المرء بها ، فإنه كفيل بخلق التوتر العصبي) .

وقد أنشئت أغرب مؤسسة في العالم تحت اسم : (رابطة إنقاذ الحياة) تهدف إلى إنقاذ حياة الذين أزمعوا التخلص من حياتهم بالانتحار ، وقد أصبحت ملجأ لكل من يشعر بالتعاسة والفشل ، وتعتمد هذه المؤسسة في علاجها على إفضاء المريض بما يعانيه ، ثم لا

---

(١) ولعل من هذا أيضاً الإباحة للمظلوم أن يدعو على ظالمه ويذكره بما فيه ؛ لأنه لابد للمصدور أن ينفّس قال تعالى : ﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ (سورة النساء ، الآية رقم (١٤٨) .

تملك المؤسسة إلا النصح والإرشاد بعد ذلك ، وعلى ذلك اعتبر الإفضاء من الوسائل العلاجية المعمول بها الآن في كل المستشفيات النفسية والعصبية بل العضوية والجراحية ومن وسائل الوقاية)[١] .

ب. الاستفادة من النصيحة التي سيقدمها له من استشاره ولذلك لا ينبغي له أن يتحدث إلا لمن يثق به وبنصحه ، حتى لا يؤدي إلى نتائج عكسية من إشاعة هذا الأمر وهو يرغب في حصره في دائرة محدودة ، ينقل محمود مهدي الإستانبولي ما يلي :

(وينصح أطباء النفس اختيار الشخص الذي تفضي إليه ، فليس كل شخص يمكن الإفضاء إليه ، و لا يشترط أن يكون الشخص المفضى إليه طبيباً أو من رجال القانون أو الدين ، إنما المهم الإحساس بأن هذا الشخص يسمع ويحسن ويعين ، فكيف إذا لجأ الإنسان إلى الله الذي يسمع ويرى ويملك الأمر ، بيده الخير كل الخير ، أفليس الإنسان إذا ما أقام الصلاة يكون بمنجاة من كل هذه الأمراض ؟!)[٢] .

٧. استحباب تأنيس من نزل به أمر أهمه وأشغله بذكر تيسيره عليه وتهوينه له[٣] وذكر أسباب السلامة له ، وقد يخطئ البعض عندما يأتي إليه زميل يخبره عن أمر أهمه ، فإذا به بدلاً من التخفيف

---

(١) محمود مهدي الاستانبولي ، دلائل النبوة المحمدية ص ٢٧٢ .

(٢) دلائل النبوة المحمدية ص ٢٧٢ .

(٣) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ١ / ٢٥ ، والعيني ، عمدة القارئ ١ / ٦٣ .

عنه يزيد من همه وغمه بتكبير الأمر عليه ، وغفل هذا الذي عرض عليه الأمر أن صاحبه جاء يعرض عليه مشكلته بحثاً عن علاج لا بحثاً عن استبعاد العلاج وتطوير المشكلة وتكبيرها ، وهذه الفائدة نأخذها من قول خديجة ـ رضي الله تعالى عنها ـ « كلا والله لا يخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ... » بعد أن جاءها وأخبرها بما حصل له ، ومثل هذا قصة موسى عليه السلام مع صاحب مدين حينما جاءه موسى عليه السلام خائفاً وقص عليه القصص قال له مسكناً روعه جابراً قلبه : (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) أي ليذهب خوفك وروعك ، فإن الله نجاك منهم حيث وصلت إلى هذا المحل)[١] .

٨. إن مكارم الأخلاق ، وخصال الخير سبب للسلامة من مصارع الشر والمكاره ، فمن كثر خيره حسنت عاقبته ، ورجي له سلامة الدنيا والدين[٢] ولذلك تقول خديجة ـ رضي الله تعالى عنها ـ : (كلا والله لا يخزيك الله أبداً) وتقسم على هذا ، وتبين السبب بأنه عليه السلام كان يصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويكسب المعدوم ، ويقري الضيف .

٩. جواز مدح الإنسان في وجهه لمصلحة ، ولا يعارضه قوله عليه الصلاة والسلام : « إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب »

---

(١) السعدي ، تفسير السعدي ٤ / ١٥ .

(٢) العيني ، عمدة القارئ ١ / ٦٣ .

[١] ؛ لأن هذا فيما يمدح بباطل أو يؤدي إلى باطل[٢] ، قال الإمام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ : (ذكر مسلم في هذا الباب الأحاديث الواردة في النهي عن المدح وقد جاءت أحاديث كثيرة في الصحيحين بالمدح في الوجه ، قال العلماء : وطريق الجمع بينها أن النهي محمول على المجازفة في المدح ، والزيادة في الأوصاف ، أو على من يخاف عليه من إعجاب ونحوه ، إذا سمع المدح ، وأما من لا يخاف ذلك لكمال تقواه ، ورسوخ عقله ومعرفته ، فلا نهي في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة ، بل إن كان يحصل بذلك مصلحة كنشطه على الخير والازدياد منه أو الدوام عليه ، أو الاقتداء به كان مستحباً)[٣] .

ونحن نرى كيف يمدح أصحاب الآراء والأفكار المتوافقة بعضهم بعضاً ، ويشجع بعضهم بعضاً في الصحف وفيما يتاح لهم من وسائل الإعلام ؛ ولذلك لماذا يتردد المسلم في تشجيع أخيه وتنشيطه من خلال الثناء عليه لعل في ذلك دفعاً له لمزيد العمل ، وحثاً لغيره للاقتداء والتأسي .

---

(١) الإمام مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب الزهد ، باب : النهي عن الإفراط في المدح ٤ / ٢٢٩٧.

(٢) العيني ، عمدة القارئ ١ / ٦٣ .

(٣) الإمام النووي ، شرح صحيح مسلم ١٨ / ٤١٧ ، طبعة دار الخير ، وانظر : ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٦٩ حيث قال : (النهي عن المدح في الوجه مخصوص بما إذا كان غلواً مفرطاً أو كذباً ظاهراً) .

١٠. من قول ورقة ﷺ : (لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي) وفي الرواية الأخرى قال ورقة : (لم يأت رجل بما جئت به إلا أوذي) [١] يتبين لنا أمر مهم جداً ، وهو أن الداعية إلى الله سبحانه وتعالى لا بد وأن يواجه أعداء عندما يزاول عمل الدعوة، لاحظ قوله : (لم يأت رجل قط) فلا بد من أن يواجه الداعية أعداء في طريقه ، والعداوة والإيذاء للداعية معلم من معالم طريق الدعوة يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾[٢] ويقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ ﴾ [٣].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: (ولابد أيضاً أن يكون حليماً صبوراً على الأذى ، فإنه لابد أن يحصل له أذى) [٤] ويقول الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ـ رحمه الله تعالى ـ : (من قام بدين الإسلام ودعا الناس إليه فقد تحمل أمراً عظيما وقام مقام الرسل في الدعوة ، وقصد أن يحول بين الناس وبين شهواتهم وأهوائهم

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب التفسير (٦٥) ، باب تفسير سورة اقرأ (٩٦) ٦ / ٨٨ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية رقم (٣١) .

(٣) سورة الأنعام ، الآية رقم (١١٢) .

(٤) مجموع الفتاوى ٢٨ / ١٣٦ .

واعتقاداتهم الباطلة ، فحينئذ لابد أن يؤذوه فعليه أن يصبر ويحتسب)[١] ويقول الشيخ عبد الحميد بن باديس - رحمه الله تعالى - عند تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾[٢] : « وكان التعليق بإذا ؛ لأن مخاطبة الجاهلين لهم بالسوء أمر محقق ، ومتى سلم أهل العلم والدين من الجاهلين ؟!! »[٣] .

ويقول الشيخ محمد العثيمين - رحمه الله تعالى - « ... لأن الداعية لابد أن يؤذى ، إما بالقول وإما بالفعل... » ويقول أيضاً : « إذن فكل داعية لابد أنه يناله أذى ولكن عليه أن يصبر » ويقول أيضاً : « ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾[٤] إشارة إلى أن كل من قام بهذا القرآن فلا بد أن ينال من الأمور التي تحتاج إلى صبر عظيم »[٥] .

ولا يعني هذا أن يعرض المسلم نفسه للبلاء ولكن يوطن نفسه ويصبر ويعلم أن طريق الدعوة إلى الله هذه صفته والله أعلم .

١١. لقد كانت عظمة هذا التشريع وهيمنته وقوته وتفرده وعلو منزلته واهتمام المؤمنين به ، وتسليمهم له وانقيادهم لما فيه ؛ لكونه

---

(١) حاشية الأصول الثلاثة ص ١٨ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية رقم (٦٣) .

(٣) تفسير ابن باديس ص ١٩٤ .

(٤) سورة الإنسان ، الآية رقم (٢٤) .

(٥) زاد الداعية ص ١١ و١٣ .

منزلا من عند الله جل شأنه ، ومنه جاءت كل الخصائص الأخرى ، وذلك كله يعتمد على ثبوت كونه وحيا من الله جل شأنه ، وأن ما جاء به الرسول ﷺ هو هذا الوحي ، وأنه لا أثر لهذا الإنسان فيه إلا التبليغ عن الله سبحانه وتعالى ، ولأجل هذا حاول المشركون وأهل الكتاب والمنافقون والمرتابون في القديم والحديث التشكيك والتكذيب وإثارة ما استطاعوا من الشبهات حول كون هذا التشريع وحيا من الله [(١)] ؛ لزعمهم أنه بمقدورهم إذا فعلوا ذلك ،أسقطوا هذه الخصيصة لهذا التشريع ، وأصبح عملا بشريا كسائر الأعمال الأخرى القابلة للاعتراض والتعديل والتبديل وفق الآراء ، بل وفق الأهواء والرغبات ، وعلى المسلم أن يعي هذه المحاولات المضللة من الأعداء .

۞۞۞

(١) انظر : ناصر العقل ، الاتجاهات العقلانية الحديثة ، الطبعة الأولى (الرياض : دار الفضيلة ، ١٤٢٢هـ) ص ١٥٧ .

المبحث الثاني

الرسالة

بعد فترة الوحي نزل جبريل على رسول الله ﷺ ، قال ابن شهاب : وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي ، فقال في حديثه : (بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملوني ، فأنزل الله تعالى : (يا أيها المدثر قم فأنذر) إلى قوله تعالى : (والرجز فاهجر) . فحمي الوحي وتتابع)[١] .

ماذا نستفيد من هذا الموقف :

١) المقصود من فتور الوحي عن الرسول ﷺ إنما هو ؛ ليذهب عنه الروع وليحصل له التشوق على العود ، فلما ذهب عنه الروع والخوف واطمأن الرسول ﷺ وظهرت الحقيقة له ، وبدأ رسول الله ﷺ في الترقب لمجيء الوحي والاستعداد له جاء جبريل بالوحي[٢] .

٢) وثمت أمر آخر من حكمة فترة الوحي وهو التأكيد على اختصاص الله وحده بالوحي متى شاء أنزله ، وأن محمداً ﷺ لا يملك تقديمه ولا تأخيره .

---

(١) صحيح البخاري ، المطبوع مع فتح الباري ١ / ٢٧ ، كتاب بدء الوحي .

(٢) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ١ / ٢٧ .

٣) في الحديث الأول الذي جاء فيه : أن جبريل عليه السلام قال للرسول ﷺ : (اقرأ) أصبح الرسول ﷺ به نبياً ، وفي هذا الحديث أصبح الرسول ﷺ رسولاً ، وحينئذ يكون ﷺ نبئ بـ (اقرأ) ، وأرسل بـ (المدثر)[١] ويستفاد من هذا : التدرج في تحقيق المراد ، فالرسول ﷺ بدئ بالخلوة ، ثم الرؤيا الصادقة ، ثم النبوة ، ثم الرسالة ، وهكذا الفرد وهو يتعلم أو يعلم أو يدعو إلى الله سبحانه وتعالى يتدرج ، يدل لهذا حديث معاذ ﷺ حينما بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن وقال له : « إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أنه قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ، فإذا فعلوا الصلاة فأخبرهم أن الله فرْض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم ، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم ، وتوق كرائم أموال الناس »[٢] .

٤) يقول سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ : (قم فأنذر) ولقد قام ﷺ وظل قائماً بعدها أكثر من عشرين سنة في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، وهذا الأمر لم يكن خاصاً بمحمد ﷺ ، فكما أن (اقرأ) لمحمد ولأمة محمد ﷺ وكما أن (وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر) ليست خاصة بمحمد ﷺ فكذلك : (قم فأنذر) ليست له

---

(١) انظر : الرفاعي ، تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ٤٤٧/٤ .

(٢) صحيح البخاري ، المطبوع مع فتح الباري ٣ / ٣٢٢ ، حديث رقم ١٤٥٨ .

ﷺ خاصة ، بل له ولأمته ، فكما يحرص الشخص على طهارة ثيابه انطلاقاً من قوله تعالى : (وثيابك فطهر) فلا بد أن يحرص على الدعوة انطلاقاً من قوله تعالى قبل ذلك : (قم فأنذر) ولابد أن ننتبه إلى أن قوله تعالى : (قم فأنذر) جاء متقدمًا في بداية الأوامر كلها ، فلماذا يغفل المسلم عنه ، ويتجاوزه إلى الأوامر الأخرى ؟ فلا بد من القيام بهذه الأعمال جميعها ، وتصور شخصًا يقال له : قم فأنذر ، ألا يقفز ؟ ألا يثب ويهب واقفًا فزعًا كأن هناك خطراً قادماً ؟ وهل هناك أخطر من أن يموت الفرد على الكفر ؟ فهلا استشعرنا هذا المعنى وهذا الأمر في القرآن ؟ .

٥) نخلص من هذا الموقف إلى أن البعثة النبوية قد بلغت أوجها ومرت خلال ذلك بالمراحل التالية :

أ. لما دنت بعثة الرسول ﷺ انتشر في الأمم أن الله تعالى سيبعث نبيا في هذا الزمان ، وأن ظهوره قد قرب ، فكانت كل أمة لها كتاب تعرف ذلك من كتابها والتي ليس لها كتاب ترى من الآيات المنذرة ما تستدل به على ذلك .

ب. لما دنا وقت النبوة حبب إليه ﷺ الخلاء ، فلم يزل في خلوته يهيئه الله لما قدر له .

ت. الرؤيا الصادقة في منامه ﷺ والتي امتدت ستة أشهر .

ث. نزول الوحي بـ ﴿ اقرأ ﴾ على الرسول ﷺ وهي مرتبة النبوة ، وهي الإخبار فقط دون الأمر بالإنذار .

ج. نزول الوحي على رسول الله ﷺ بالأمر بالإنذار وهي مرتبة الرسالة ، فأصبح بذلك مبعوثاً من الله سبحانه وتعالى بشيراً ونذيراً [١] .

❁❁❁

(١) انظر : محمد جاد المولى بك ، محمد المثل الكامل ص ٨٤ .

المبحث الثالث

الدعوة السرية

بدأ الرسول ﷺ دعوته سراً ، وكان من الطبيعي أن يتحدث مع ألصق الناس به من أهله وأصدقائه ، ومن يتوسم فيه الخير معتمداً طريق الاصطفاء والاختيار فيمن يتحدث معه ، فأجاب الرسولَ ﷺ أفرادٌ يأتي في مقدمتهم :

١. خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ أم المؤمنين زوج الرسول ﷺ.

٢. ورقة بن نوفل الذي يقول عنه رسول الله ﷺ : (لا تسبوا ورقة بن نوفل ، فإني قد رأيت له جنة أو جنتين)[1].

يقول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ : (وتوفي بعد هذه القصة بقليل (ورقة بن نوفل) ـ رحمه الله تعالى ورضي عنه ـ ، فإن مثل هذا الذي صدر عنه تصديق بما وجد ، وإيمان بما حصل من الوحي ، ونية صالحة للمستقبل)[2].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢ / ٦٠٩ وصححه ووافقه الذهبي ، وانظر : الألباني ، صحيح الجامع ، رقم ٧١٩٧ ، وسلسة الأحاديث الصحيحة رقم ٤٠٥ ، وقال : حديث صحيح .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٩ ، وانظر : القسطلاني ، المواهب اللدنية ١ / ٢١٧ ، والصوياني ، السيرة النبوية ص ٥٦ .

ويقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (وأسلم القس ورقة بن نوفل وتمنى أن يكون جذعاً إذ يخرج رسولَ الله ﷺ قومُه) [١] وقال الشيخ محمد بن عثيمين : (ولهذا نقول : أول من آمن به من النساء : خديجة ، ومن الرجال : ورقة بن نوفل) [٢] ولكنه مات مبكرا جدا مما أوجد خلافا حول إسلامه والله أعلم [٣] .

٣. أبو بكر الصديق ﷺ .

٤. علي بن أبي طالب ﷺ وهو أول من أسلم من الصبيان .

٥. زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ .

أما أول من آمن به ﷺ مطلقاً فأكثر الأقوال بل يكاد يكون إجماعا على أنه خديجة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ [٤] .

---

(١) ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٢١ ، وانظر : ابن تيمية ، منهاج السنة ٧ / ٢٦ و ٨ / ٣٨٩ ، وابن حجر ، فتح الباري ٧ / ١٣٧.

(٢) الشيخ محمد بن عثيمين ، شرح العقيدة الواسطية ٢ / ٢٨٠ .

(٣) ممن أطال في نقل الخلاف وذكر الأقوال ودراستها بشأن إسلام ورقة بن نوفل ، سليمان العودة في كتابه (السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق دراسة مقارنة في العهد المكي) ص ٢٦٩- ٢٧٢ .

(٤) انظر : ابن القيم ، جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام ص ١٢٣ ، والشامي ، سبل الهدى والرشاد ٢/ ٤٠٢ وقال : (قال أبو عمر : اتفقوا على أن خديجة أول من آمن ، وقال أبو الحسن بن الأثير : خديجة أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين ... وأقره الذهبي ، وقال محمد بن كعب القرظي : أول من أسلم من هذه الأمة برسول الله ﷺ خديجة ـ رضي الله عنها ـ ... وقال النووي : إنه الصواب عند جماعة من المحققين) .

وقد نشط هؤلاء السابقون في الدعوة إلى الله سراً ، فقد أسلم على يد أبي بكر الصديق ﷺ جمع من الصحابة منهم :

عثمان بن عفان ﷺ ، والزبير بن العوام ﷺ ، وعبدالرحمن بن عوف ﷺ ، وسعد بن أبي وقاص ﷺ ، وطلحة بن عبيدالله ﷺ ، وهؤلاء الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق ﷺ هم من العشرة المبشرين بالجنة .

وكان من أوائل المسلمين : أبو عبيدة عامر بن الجراح ﷺ ، وأبو سلمة ﷺ ، والأرقم بن أبي الأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وأخواه قدامة وعبد الله وسعيد بن زيد وغيرهم ـ رضي الله تعالى عنهم أجمعين ـ [١] .

وجميع هؤلاء أسلموا سراً ، وكان يجتمع بهم الرسول ﷺ متخفياً يتلو عليهم ما ينزل عليه من الوحي ، ويرشدهم إلى الدين .

ولنا هنا في هذه القصة من السيرة ثلاثة مواقف :

الموقف الأول : نطرح سؤالاً : لماذا بدأت الدعوة سرية ؟

الجواب عن ذلك :

١. لئلا يفاجأ أهل مكة بما يهيجهم ، ويثيرهم عليه ، فيئدون الدعوة في مهدها .

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١/ ٢٦٨-٢٦٩ .

٢. لكي يتكون للدعوة أنصار وأعوان يقفون معها ويحمونها إذا جهر بها الرسول ﷺ وظهر لها أعداء يحاولون القضاء عليها [١] .

ولكن هذا يحتاج إلى توضيح :

يقول الشيخ أبو بكر الجزائري : (لا دليل لمن يرى سرية الدعوة في بلاد المسلمين اليوم من سرية الرسول ﷺ لها ثلاث سنوات ؛ لأن الرسول ﷺ وأصحابه كان لا يسمح لهم أن يقولوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ولا أن يؤذنوا أو يصلوا ، ولما قويت شوكتهم أمروا بالجهر بالدعوة ، فجهروا ولاقوا من الأذى ما هو معروف بين المسلمين) [٢] ولذلك فالأصل في الدعوة الإعلان ، أما السرية فلا تكون إلا لضرورة يقدرها أهل العلم وهي استثناء وليست أصلاً [٣] .

من هذا الموقف نستفيد ما يلي :

١. أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، فإذا أمرت بأمر من أمور الدعوة فافعل منه ما تستطيع ، وفق المنهج .

٢. عدم تعجل النتائج ، فالرسول ﷺ وهو المكلف بهذه الدعوة كان المقتضي لحبه للدعوة ، وحماسه لها ، ورغبته في استجابة الناس وخوفه عليهم أن ينذر ويدعو كل من يلاقيه في الطريق أو عند الكعبة

---

(١) انظر : السيد الوكيل ، تأملات في السيرة النبوية ص ٤٢ / ٤٣ .
(٢) أبو بكر الجزائري ، هذا الحبيب يا محب ص ٩٩ .
(٣) انظر : ناصر العقل ، مناهج أهل الأهواء والافتراق والبدع وأصولهم وسماتهم ، الطبعة الثانية (الرياض ، دار الوطن ١٤١٧هـ) ص ١٤٣ .

أو في الاجتماعات ولكنه كان لا يتحدث إلا لأفراد معدودين مصبراً نفسه مؤجلاً الحديث العلني الجماعي الذي يحقق نتائج أكثر وأسرع إلى وقت آخر يكون أكثر ملاءمة .

ولابد أن يدرك الداعية أن الخير والفطرة السليمة موجودة في جميع الناس استناداً لحديث الرسول ﷺ : (كل مولود يولد على الفطرة)[١] ولكن هذه الفطرة تحجب بالذنوب والمعاصي ، وللوصول إلى هذه الفطرة لابد من الانتظار والصبر ، وقد ضرب لذلك بعض المشايخ مثالاً لهؤلاء فقال : إن من أوقد ناراً ثم تركها حتى خمدت وتجمع أكوام الرماد على أثرها ، فإن هناك من يستطيع أن يستخرج من داخل هذا الرماد البارد جمرة صغيرة يستوقدها مرة ثانية ؛ لتصبح ناراً ، وذلك بأن ينفخ في هذا الرماد قليلاً ؛ ليزيل شيئاً من الركام ثم ينتظر ، ثم يواصل النفخ مرة أخرى وهكذا حتى تظهر له شرارة صغيرة أسفل الرماد ، يضع عليها ورقة صغيرة تشتعل ثم تتحول إلى نار .

ولكن من الناس من يتعجل استخراج هذه الجمرة ، فينفخ بسرعة في الرماد ، فيتطاير على وجهه بقايا الرماد ، ويتناثر الجمر الذي يمكن الاستفادة منه ، وهكذا شأن الدعوة إلى الله من يتعجل يضر أكثر مما ينفع ، ومن يتأنى ويصبر ويعمل على إزالة الرين عن القلوب الذي هو كالرماد حتى يصل إلى جذوة القلب ؛ ليحركه نحو هذا النور

(١) صحيح البخاري ، المطبوع مع فتح الباري ٣ / ٢٤٥ ، حديث رقم ١٣٨٥ .

ويستضيئ به ، ويقبل عليه فيتحقق للداعي مراده بسبب أنه لم يتعجل النتائج [١] .

وقصة الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ في عدم تعجله حينما كان يرى الناس يطوفون على قبر زيد بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قرب مدينة الرياض يكتفي بالقول : (الله خير من زيد) وذلك في بداية دعوته ـ رحمه الله تعالى ـ وهذا من فقهه في الدعوة رحمه الله رحمةً واسعة [٢] .

الموقف الثاني : ماذا نستفيد من سبق خديجة - رضي الله تعالى عنها - بالإسلام ؟ :

١. نلحظ أن أول من وُجِّهت له الدعوة الإسلامية هو امرأة ، وهي خديجة ـ رضي الله عنها ـ ثم كانت خديجة ـ رضي الله عنها ـ أول من استجاب لهذا الدين ودخل في الإسلام وهذا يعني أن أول من دخل في الإسلام امرأة .

هذا الشرف العظيم شرف البدء بتوجيه الدعوة ، وشرف السبق في الاستجابة أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون من نصيب المرأة ، ثم يتبع

---

(١) هذا مثال سمعته من فضيلة الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى .

(٢) انظر : الشيخ عبد الرحمن بن حسن ، خمس رسائل في التوحيد والإيمان (الرسالة الأولى أصل دين الإسلام وقاعدته ص٣٣٩ ، مطبوعة ضمن مجموعة التوحيد وقال : (كما جرى لشيخنا محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ في ابتداء دعوته ، فإنه إذا سمعهم يدعون زيد بن الخطاب ﷺ قال : (الله خير من زيد) تمريناً لهم على نفي الشرك بلين الكلام نظراً للمصلحة وعدم المضرة والله سبحانه وتعالى أعلم) .

هذا الشرف العظيم ، شرف السبق ، شرف آخر ، وهو شرف نصرة رسول الله ﷺ ، فأول من نصر الرسول ﷺ هو خديجة - رضي الله تعالى عنها - عندما بشرته وطمأنته وهونت عليه ما جرى له في الغار ، وأخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وبالإضافة إلى هذا الشرف أيضا شرف رابع ، لا يقل عنه أهمية ، وهو شرف الموت في سبيل الله ، فأول من مات في سبيل هذا الدين هي سمية بنت خياط أم عمار - رضي الله عنها - التي آمنت فعذبت ؛ لأجل إيمانها ، حتى قتلها عدو الله أبو جهل ، فكانت أول شهيدة في الإسلام (١) .

ماذا بقي للرجال بعد ذلك ؟ أيقال : إن هذا الدين لا يقيم للمرأة اعتباراً وهي أول من دعيت إليه ؟ أليس البدء بالمرأة تشريفاً لها ؟ أليس سبقها في الاستجابة أيضاً تأكيدا لهذا التشريف ، وإثباتا أنها جديرة به ، وأن المرأة كما أنها كانت مستحقة للسبق في الخطاب ، فهي أيضاً تثبت جدارتها بكونها أول مستجيب ، ثم كونها أول نصير للرسول ﷺ ، ثم بعد ذلك شرفت بكونها أول من يلقى الله سبحانه وتعالى لأجل هذا الدين ، يكفي هذا البرهان برهاناً قاطعاً على أن للمرأة المكان الرفيع الكريم في هذا الدين الإسلامي ، ويكفي فيه رداً على من يقول : إن الإسلام انتقص المرأة وحطّ من مكانتها (٢) .

---

(١) انظر : ابن حجر ، الإصابة ٨ / ١١٤ .

(٢) انظر : مزيد تفصيل : زيد بن عبد الكريم الزيد ، كيف أنصف الإسلام المرأة ص ١٤ وما بعدها .

الموقف الثالث : جهود أبي بكر الصديق ﷺ في الدعوة :

أبو بكر الصديق ﷺ الذي أسلم على يديه خمسة من العشرة المبشرين بالجنة ـ كما سبق ـ وهو فرد واحد لكنه كان نشيطاً في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى .

فقد كان أول من دعا إلى الله من أمة محمد ﷺ [١] مما يدل على أن الفرد الواحد يمكن أن يعمل ويدعو ويحقق الكثير من النفع ، وهذه الدعوة الفردية التي يغفل عنها كثير من الناس .

فأساس الدعوة وبدايتها هو الدعوة الفردية التي لا تكلف شيئاً ، وإنما تقوم على الاستفادة من اللقاءات والزيارات والمقابلات ، يتحدث فيها فرد مع فرد ، ويعرض عليه الدين بهدوء وانفراد يتيح مجالاً للحوار ، والأخذ والعطاء بعيداً عن المؤثرات أو العوائق الأخرى .

هذه الدعوة الفردية التي يمكن أن يقوم بها الكبير والصغير ، الرجل والمرأة ، ويمكن أن تتم في المنزل وفي الطريق وأمام صاحب المحل التجاري ، أو المخبز ، أو في وسائل المواصلات أو في المطار أو من خلال الهاتف أو الرسائل ، وقد استدعى المندوب السامي الفرنسي في الجزائر وقت الاستعمار الشيخ عبد الحميد الجزائري ، وقال له : إما أن تقلع عن تلقين تلاميذك هذه الأفكار ، وإلا أرسلت جنوداً لإغلاق

---

(١) انظر : ابن تيمية ، منهاج السنة ٥ / ٢١ .

المسجد الذي تنفث فيه هذه السموم ضدنا ،فأجاب الشيخ عبد الحميد : (أيها المسيو الحاكم إنك لا تستطيع ذلك ...) ، فاستشاط غضباً ، وقال كيف لا أستطيع ؟ فقال له : (إذا كنتُ في عرس علمت المحتفلين ، وإذا كنت في مأتم وعظت المعزين ، وإذا جلست في قطار علمت المسافرين ، وإن دخلت السجن أرشدت المسجونين ، وإن قتلتموني التهبت مشاعر المواطنين ، وخير لكم أيها المسيو أن لا تتعرضوا للأمة في دينها ولغتها) [١] .

۞۞۞

(١) انظر : محمود محمد عمارة ، نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية ص ٩٢ .

المبحث الرابع

الجهر بالدعوة

مرت ثلاث سنوات على الدعوة وهي لا تزال سرية وفردية ، تكوَّن خلالها جماعة من المؤمنين استجابوا للرسول ﷺ واتبعوه ، ثم نزل على الرسول ﷺ الأمر بالجهر بالدعوة ، أمر أن يعلن دعوته ، وأنه نبي مرسل ، ولم يجهر بأسماء الصحابة ، ولا بمن اتبعه واستجاب له ولا كيف اتبعوه ، بل بقي هذا سراً لا يعلن خوفاً على من استجاب من إيذاء الكفار واعتداءاتهم .

كان أول ما نزل بشأن إعلان الدعوة هو قوله تعالى :﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[١] ، عن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ قالت : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال : « يا فاطمة بنت محمد ، يا صفية بنت عبد المطلب ، يا بني عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً ، سلوني من مالي ما شئتم »[٢] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : لما أنزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشا فاجتمعوا ، فعم وخص ، فقال : « يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني مرة ابن

---

(١) سورة الشعراء ، الآية رقم (٢١٤) .

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ١ / ١٩٢ ، رقم ٣٥٠.

كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد شمس ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة ، أنقذي نفسك من النار ، فإني لا أملك لكم من الله شيئا ، غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها » [(١)] ، عن علي بن أبي طالب ﷺ قال : (جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب ، فيهم رهط كلهم يأكل الجذعة [(٢)] ويشرب الفرق [(٣)] قال : فصنع لهم مداً من طعام فأكلوا حتى شبعوا ، قال : وبقي الطعام كما هو لم يمس ، ثم دعا بغمر [(٤)] فشربوا حتى رووا ، وبقي الشراب كأنه لم يمس ، أو لم يشرب ، فقال : يا بني عبد المطلب إني بُعثت لكم خاصة وإلى الناس عامة ، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم ، فأيكم يبايعني على

---

(١) متفق عليه : صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٨/٥٥١ ، رقم ٤٧٧١ ، وصحيح مسلم ١/١٩٢ ، رقم ٣٤٨ واللفظ له .

(٢) الجذعة لغة : من الضأن أو الماعز ما تم له سنة أو أكثر السنة ، أما في الاصطلاح الشرعي ففيه تفصيل ، انظر : سعدي أبو جيب ، القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً ص ٥٩ .

(٣) الفرق بفتح الفاء والراء : مكيال يسع ستة عشر رطلاً وهو اثنا عشر مداً ، أو ثلاثة آصع عند أهل الحجاز ، انظر : ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث ٣ /٤٣٧ وهذا يعني أنه إناء كبير يكفي لإرواء الجمع من الناس .

(٤) الغمر بضم الغين المعجمة ، وفتح الميم : القدح الصغير ، انظر : البناء ، بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني ٢٠/ ٢٢٤ .

أن يكون أخي وصاحبي؟ قال : فلم يقم إليه أحد ! قال : فقمت إليه ، وكنت أصغر القوم ، قال : فقال : اجلس ، ثلاث مرات كل ذلك أقوم إليه فيقول لي : اجلس ، حتى كان الثالثة ضرب بيده على يدي)[١] .

وتذكر كتب السير أن الرسول ﷺ دعا عشيرته من بني هاشم وبني عبد المطلب لوليمة ، حضرها أبو لهب ، وتكلم قبل أن يتكلم الرسول ﷺ قائلاً : هؤلاء عمومتك، بنو عمك ، فتكلم ودع الصباة ، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق من أخذك فحسبك بنو أبيك ، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب ، فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جئت به ، فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم في ذلك المجلس ، ثم دعاهم ثانية ، وقال : « الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأؤمن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ثم قال : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله ﷺ

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ، انظر : البناء ، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد ٢٠ / ٢٢٣ ، وقال البناء : (أورده الهيثمي مطولا ، وقال رواه البزار واللفظ له ، وأحمد باختصار ، والطبراني في الأوسط باختصار أيضا ، ورجال أحمد وأحد إسنادي البزار رجال الصحيح غير شريك وهو ثقة) بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني ٢٠/٢٢٤ ، وانظر : السيرة النبوية الصحيحة للصوياني ص ٧٢ ، وقال فيها : إسناده قوي .

إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وإنها الجنة أبداً ، أو النار أبداً » فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاونتك وأقبلنا لنصيحتك ، وأشد تصديقنا لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون وإنما أنا أحدهم غير أني أسرعهم إلى ما تحب ، فامض لما أمرت به ، فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب ، فقال أبو لهب : هذه والله السوأة ، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم ، فقال أبو طالب : والله لنمنعه ما بقينا (١) .

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : لما نزلت : (وأنذر عشيرتك الأقربين) خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا ، فهتف : (يا صباحاه) فقالوا : من هذا ؟ فاجتمعوا إليه ، فقال : « أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل ، أكنتم مُصَدِّقِيَّ ؟ » قالوا : ما جربنا عليك كذباً ، قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب : تباً لك ، ما جمعتنا إلا لهذا ؟ ثم قام ، فنزلت : (تبت يدا أبي لهب وتب) (٢) .

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (وأقام ﷺ بعد ذلك ثلاث سنين يدعو إلى الله تعالى مستخفياً ، ثم نزل عليه : ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ

---

(١) انظر : الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٢/ ٤٣١ - ٤٣٣ باختصار وتصرف .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع فتح الباري ٨ / ٧٣٧ ، كتاب (٦٥) ، باب (١١١) ، رقم ٤٩٧١.

وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[١] فأعلن ﷺ بالدعوة وجاهر قومه بالعداوة واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين)[٢].

نقف مع هذا الدرس من السيرة ؛ لنأخذ منه ما يلي :-

١) إن الرسول ﷺ قضى ثلاث سنوات يدعو إلى الله سبحانه وتعالى سراً ، ثم بعد ذلك أعلن دعوته ، وجهر بها للناس من عشيرته ومن غيرهم ، وكانت الدعوة سرية وجهرية تركز على ربط الناس بالله جل شأنه ، فلا تتعلق القلوب بغيره ، ولا ينفع الفرد قبيلته ، أو عشيرته ، كل ذلك فيه توجيه للناس إلى توحيد الله ، وإفراده بالعبودية ، وتلك قضية مهمة ، هي قضية العقيدة التي تعني تقرير العبودية لله سبحانه وتعالى ، فلا تعبد إلا إياه ، ولا تخضع إلا له سبحانه وتعالى وحده لا شريك له ، نأخذ هذا من قوله تعالى : (قم فأنذر) ، وقوله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) ، وقوله تعالى : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) ، فكلها آيات بيان ، آيات دعوة توضح أن أهم قضية وأول قضية دعا إليها الرسول ﷺ هي قضية التوحيد وهي قضية الرسل قبله ، برهان هذا قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[٣] وكذلك ينبغي أن تكون هي قضية كل داعية إلى الله سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة الحجر ، الآية رقم (٩٤) .
(٢) ابن القيم ، زاد المعاد ١ / ٨٦ .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية رقم (٢٥) .

فالتوحيد إذا صلح ، صلح ما بعده من الأعمال ، وإذا لم يتحقق التوحيد ، فلا قيمة لأي عمل بدونه : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [١] ، يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (كلما كان توحيد العبد أعظم كانت مغفرة الله له أتم ، فمن لقيه لا يشرك به شيئاً البتة غفر الله له ذنوبه كلها كائنة ما كانت ولم يعذب بها) [٢] .

ويقول أيضاً ـ رحمه الله تعالى ـ في زاد المعاد : (ولما كان المشرك خبيث العنصر خبيث الذات لم تطهر النار خبثه بل لو خرج منها لعاد خبيثاً كما كان ، كالكلب إذا دخل البحر ثم خرج منه ، فلذلك حرم الله على المشرك الجنة) [٣] .

فلذلك نقول لكل داعية إلى الله تعالى : عليك بالتوحيد ، ابدأ به وأصلح عقائد الناس ، فهي القضية الأساسية لكل مهتد بهدي الرسول ﷺ .

٢) في البدء بالأقربين مع أن رسول الله ﷺ رسول للأمة بكاملها توضيح لدرجات مسؤوليات الشخص [٤] التي تبدأ من الأهل والأقارب ، فالشخص مسؤول عن أهله زوجته ، وأولاده ، ووالديه

---

(١) سورة الفرقان ، الآية رقم (٢٣) .

(٢) عبد المنعم بن صالح العلي ، ، تهذيب مدارج السالكين لابن القيم ص ١٨٦ .

(٣) ابن القيم ، زاد المعاد ١ / ٦٨ .

(٤) انظر : البوطي ، فقه السيرة ص ١١٢ .

، وأقاربه ، كل من يتذكر قوله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) يعلم أنه مطالب هو أيضاً بدعوة عشيرته أكثر من غيرهم ، ومع ذلك تجد بعض الأفراد يقصر في حق أهله وينشط مع غيرهم ، وهذا قفز وتجاوز لدرجات المسؤولية التي هي آكد مع الأقارب منها مع سائر الناس .

وليسأل كل فرد منا نفسه : ماذا قدم لأولاده وزوجته الذين هم تحت يديه ؟ يأمرهم فيطيعون وينهاهم فينتهون ، هل أمرهم بالطاعات ، ونهاهم عن المعاصي أم هو غافل عنهم ؟ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [١] .

والرسول ﷺ قد قرر هذا المنهج وهو البدء بالأقرب فالأقرب في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، ثم ختمت هذه الآيات بقول الله تعالى : (وتوكل على العزيز الرحيم) لا يهمك عداوة أقاربك لك بسبب دعوتك بل اتكل على الله ، واعتمد عليه ، ولا تجامل أقاربك رجاء نصرة أو عون .

٣) نلحظ كلمة مهمة تكررت في الأمر بالدعوة وهي قوله تعالى : (قم فأنذر) كلمة (فأنذر) هذه وردت أيضاً في قوله تعالى : (وأنذر

(١) سورة التحريم ، الآية رقم (٦) .

عشيرتك الأقربين) ، ووردت أيضاً في قوله ﷺ لعشيرته وأهل مكة عندما اجتمعوا حيث قال : « إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد » .

فلا بد أن يذكر الناس بهذه الحقيقة وهي الإنذار بالعذاب والإنذار بشدة الحساب ، فمن استجاب يبشر بموعود الله سبحانه وتعالى للمستجيبين .

٤) يقول تعالى : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) ما هو الصدع ؟ تقول : انصدع الجبل ، أو الجدار : إذا انشق ، فالصدع فيه معنى القوة والصلابة والوضوح ، وهكذا يكون المسلم حينما يدعو إلى ربه دعوة الواثق من قوله الذي يعلو بها ويرفع بها صوته ، لا يخجل ولا يستحي من عرض دينه أو الحديث عنه .

إن بعض الشباب المسلم تجده قليل الثقة بدينه ، يستحيي من ذكر الله سبحانه وتعالى في المجالس ، يستحيي حتى من الصلاة على النبي ﷺ يجامل المجاملات الكثيرة على حساب هذا الدين ، يخشى أن يقال : إنه موسوس ، أو متزمت ، أو رجعي ، طاعته في انفراد جيدة ، لكنه إذا كان في المجالس ضعف ، تجده في المجلس ويؤذن المؤذن للصلاة ويخجل أن يأمر الناس بالصلاة ، يمر الوقت صعباً ، ويشعر بالخطأ والتقصير لكنه لا يستطيع المواجهة .

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ وقد صنف الناس إلى أربعة أصناف ، فقال : (من وجد أنسه بالله في الخلوة وفي الناس فهو المحب

الصادق ومن وجد أنسه بين الناس وفقده في الخلوة فهو معلول ، ومن فقده في الناس وفي الخلوة فهو ميت مطرود ، ومن فقد أنسه بالله بين الناس ووجده في الوحدة فهو صادق ضعيف) (١) .

إن مشكلتنا مع هذا الصادق الضعيف الذي نريد أن نذكره بقوله تعالى : (فاصدع بما تؤمر) هل معنى الصدع أن يستحيي من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن يستحيي من الدعوة إلى الله ؟ إن القرآن الكريم يربي في نفس المؤمن الاعتزاز بهذا الدين ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ (٢) .

وإني لأعجب من تلك العزة الإيمانية التي بدت جلية لسحرة فرعون جاؤوا يناصرون فرعون ويعادون موسى عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) ابن القيم ، الفوائد ص ٤٣ .

(٢) سورة النساء ، الآيات من (١٣٨ - ١٤٠) .

(٣) سورة الشعراء ، الآيتان رقم (٤١ - ٤٢) .

لكن لما ألقوا حبالهم وعصيهم ثم عرفوا الحق وآمنوا به هل أصبحوا مؤمنين ضعفاء ؟ لا ، بل قالوا الحق ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[١] .

هددهم بأنه سيقطع أيديهم وأرجلهم وسيصلبهم إن لم يرجعوا عن الإيمان بموسى عليه السلام ، فماذا قالوا ؟ : ﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[٢] .

هكذا آمنوا إيمان القوي الواثق من دينه ، فما كانوا مؤمنين ضعفاء يستحيون من دينهم وكأنهم على باطل وغيرهم على الحق .

٥) عندما صعد الرسول ﷺ على جبل الصفا ؛ ليجمع عشيرته حوله ؛ ليسمعوا كلامه قال : (وا صباحاه) وهذه كلمة جاهلية اعتاد عليها العرب في الجاهلية ، ولكنهم كانوا أيضاً مع قول هذه العبارة يخلع الرجل منهم ثيابه ، ويحثو التراب على نفسه ، وذلك لكي يجتمع الناس عليه ، ثم يخبرهم بالخطر الداهم الذي ينتظرهم .

---

(١) سورة الشعراء ، الآيات من (٤٦ – ٤٩) .

(٢) سورة الشعراء ، الآيتان رقم (٥٠ – ٥١) .

وهنا نلحظ أن الرسول ﷺ لم يتخل عن هذه الطريقة بكاملها فلم يصعد على الصفا وينادِ بطريقة جديدة ويترك طريقتهم ، ثم لما أراد الاستفادة لم يكن تقليداً كاملاً ، فلم يتعر ولم يحث على نفسه التراب ، وبالتالي فقد استفاد مما لدى الغير استفادة منضبطة بما لا يتعارض مع دينه ، فكلمة (واصباحاه) ليست ممنوعة ، وإنما الممنوع أن يتعرى الإنسان في مثل هذا الموقف أو أن يحثو على نفسه التراب ، فأخذ الذي لا يعارض الدين واستفاد منه وترك ما يعارضه ، وهكذا أيضاً المسلم يأخذ مما لدى الغير ما يكون حسناً لا يخالف الدين ويترك ما يخالف الدين ، فالاستفادة من الغير تكون وفق هذا المعيار ، فلا يكون الشخص منغلقاً رافضاً لكل ما لدى غيره، أو منفتحاً مقلداً لكل ما يجري لدى الآخرين ، وإنما الاعتدال وأخذ الحسن وترك السيئ .

٦) لماذا هذه المواجهة القوية من أبي لهب وهذا العداء المعلن في أول لحظة ؟ وذلك لكي يتضح للجميع أن هذه الدعوة ليست دعوة عشائرية أو عصبية قبلية ، بل هو دين ورسالة من الله تعالى إلى خلقه من الإنس والجن [١] .

٧) في قول أبي لهب : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فائدة كبيرة لكل من يدعو إلى الله ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ذلك أنه سيجد من يقول له مثل هذا الكلام ، فيتذكر قول أبي لهب لرسول الله ﷺ

(١) انظر : أبو زهرة ، خاتم النبيين ١ / ٤٠٦ .

أمام الناس ومع ذلك لم يمنع هذا الأمر الرسول ﷺ من المضي في دعوته ، فإذا أمرت بمعروف ، أو نهيت عن منكر ، أو نصحت ، أو تكلمت عن الدين فوجدت من يعارضك فلا تتضايق ، بل تذكر أن مثل هذا القول بل أشد منه قيل لرسول الله ﷺ ، فالعيب والنقص ليس فيك أيها الداعية ، وإنما الخطأ من القائل الذي قال ذلك .

٨) الإعجاز العظيم في هذه السورة : (تبت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب) إن أبا لهب لا يزال حياً وقت نزول هذه الآيات ، ومع ذلك حكم عليه القرآن الكريم بأنه لن يأتي إلى محمد ﷺ ويقول له : إني آمنت ، إن مثل هذا الحكم على رجل لا يزال حياً لا يمكن أن يصدر من بشر ؛ لأن بإمكان أبي لهب أن يأتي ويقول : إن محمداً حكم علي أني لن أؤمن ، وها أنذا أؤمن .

وكذلك من أخبر محمداً ﷺ أن أبا لهب سيموت على الكفر ؟ إن بعض أهل مكة كانوا يؤذون الرسول ﷺ ومع ذلك لم يحكم عليهم الرسول ﷺ بالنار ، ومنهم من جاء إلى الرسول ﷺ وأسلم ، من أخبر الرسول ﷺ أن أبا لهب لن يكون من هؤلاء ؟ إن هذا الحكم : (سيصلى ناراً ذات لهب) لا يمكن أن يصدر من محمد ﷺ إلا بخبرٍ ممن يعلم الغيب سبحانه وتعالى ، فكان في هذه الآية إعجاز عظيم ورد قوي على من يقول : إن القرآن الكريم من تأليف محمد ﷺ .

٩) في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [(١)] أمر عجيب ، ذلك أن من لديه سلطان قد يقول لك : أنا أحميك ، لا يستطيع أحد أن يمد يده إليك ، أحميك من اعتداء الناس عليك ، لكنه مهما كانت قوته لا يستطيع أن يقول : أنا أكفيك المستهزئين ؛ لأن الاستهزاء يأتي بإشارة بالعين أو بحركة باليد ، أو بكلمة أو بنكتة أو بضحكة أو بتعليق يفهمه البعض ولا يفهمه البعض الآخر ، ومن يستطيع أن يحصي هذا ؟!! .

لكن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ بصيغة الماضي الذي وقع وتحقق، والآية تقول : كفيناك ، ولم تقل : إنا نمنع ؛ لأن الاستهزاء وقع ، لكن الله سبحانه وتعالى كاف رسوله ، ثم في هذه الآية إشارة لطيفة وهي : أن الذي كفاك المستهزئين أقدر من باب أولى [(٢)] على كفايتك من أولئك الذين يؤذونك أذىً حسياً مشهوداً .

١٠) في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [(٣)] الآية تشير إلى أن الرسول ﷺ يضيق صدره بسبب أقوالهم المعاندة للدين وقد بين الله سبحانه وتعالى له الحل في ذلك في قوله تعالى : (ولقد نعلم أنك يضيق

(١) سورة الحجر ، الآية رقم (٩٥) .

(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير ١٤ / ٨٩ .

(٣) سورة الحجر ، الآيتان رقم (٩٧ - ٩٨) .

صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) ،فإذا ضاق صدرك فسبح ، وهذا هو أيضاً الحل لكل من يضيق صدره في كل أمور حياته ، وكثيراً ما نجد الشخص يشتكي ضيقة الصدر من قول قيل له ، أو من قول قاله ، أو عمل عمله ، أو من خطأ ارتكبه ، فما الحل لضيق الصدر هذا ؟ الحل هو في قوله تعالى : (فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) العلاج الذي نزل به الوحي لإزالة ضيق صدر الرسول ﷺ وهو أيضاً العلاج لكل من يواجه ضيقاً في صدره في وقتنا الحالي .



المبحث الخامس

موقف قريش من الدعوة بعد الجهر بها

كانت قريش تظن أن دعوة محمد ﷺ كسائر الدعوات التي ظهرت في مكة ، ثم لم تلبث أن انتهت وخبت ، مثل كلام زيد بن عمرو بن نفيل ، وأمية بن أبي الصلت ، وقس بن ساعدة ، وغيرهم ، ولكن لما جهر رسول الله ﷺ بدعوته ، وقام ﷺ يتحدث عن الشرك وأهله ويبين حقائق الأصنام وأنها لا تتجاوز أن تكون حجارة لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً فضلاً عن أن تنفع أو تضر غيرها ، لما وقف ﷺ هذا الموقف أدركت قريش أن هذه الدعوة ليست كسابقاتها من تلك الدعوات التي يتحدث أصحابها عن الأديان ، وإنما دعوة بدأت تدخل كل منزل، يسري أثرها كما يسري الماء في أغصان الشجر .

قامت قريش ؛ لأنها أدركت معنى الألوهية التي يدعو إليها محمد ﷺ ، فكانت أول خطوة سلكتها هي التحدث إلى عمه أبي طالب ؛ للسعي لإيقافه عن سب آلهتهم وتضليل آبائهم ، قال الزهري وابن إسحاق : (فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها . قال العتقي : وكان ذلك سنة أربع ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام وهم

قليل مستخفون ، وحَدِب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ، فمنعه وقام دونه ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهراً لأمره لا يرده شيء ، فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه ، وقام دونه ، ولم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشرافهم إلى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه وإما أن تخلي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه ، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه)[(١)] .

نقف عند هذا المقطع من السيرة النبوية الذي يمثل بداية المواجهة بين الرسول ﷺ والكفار من قريش ونلحظ ما يلي :

١) أن قريشاً في البداية سالمت الرسول ﷺ ولم تتعرض له ، لكنه لما تحدث عن الإلهية والتوحيد ، ونبذ كل ما يخالف ذلك هنا برزت المواجهة ، لما نال من معبوداتهم عرفوا معنى دعوته ، وأدركوا أن هذا الدين يعني أولاً التوحيد قبل كل شيء ، وأنه يقتضي أن القلب يتجه إلى الله والجوارح تتجه إلى الله وحده لا شريك له ، فهم فهموا الدين وعارضوه ، وللأسف أننا نجد في الأمة الإسلامية من لم يفهم بعد

---

(١) الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٢ / ٤٣٦ .

معنى هذا الدين فهو يشهد أن لا إله إلا الله صباحا و مساءا ، ومع ذلك يطوف على القبر ، أو يتوسل بولي ، أو يدعو غير الله ، أو يرجو أو يخاف غير الله سبحانه وتعالى ، قوله يتناقض مع فعله ، ولو قيل له : إن كفار قريش أعرف منك ، فقد أدركوا معنى لا إله إلا الله وأنت بعد لم تدرك معناها لنفر أشد النفور .

٢) ما الذي دفع هذا الجمع من قريش إلى رفض دعوة محمد ﷺ ؟ يقول تعالى :﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣ ﴾ (١) .

إنه تقليد الآباء ، وهذه مشكلة كبيرة لا تزال عقبة تعترض في طريق بعض الناس تحول دون تركه ما هو عليه من خطأ ، إن بعض الناس يتلقى دينه وراثة عن أبيه دون تفكير ، يرى أباه أو أهل بيته يفعلون شيئاً فيفعله ويتعود عليه ، ولا يكتفي بهذا ، بل إذا ذكر بأن هذا خطأ لا يتجاوب في تركه ؛ لأنه يستصعب مواجهة عادات بلده ، هناك عادات وأعراف وتقاليد في الزواج وفي القضايا الأسرية والحجاب ، تخالف الشرع ، وإذا عرف الأب أو الأخ أو الأخت الحكم الشرعي

(١) سورة الزخرف ، الآيتان رقم (٢٢- ٢٣) .

كان ثقيلاً عليهم جداً ؛ لأنهم لا يجرؤون على مخالفة ما عليه قومهم ، يقول ابن القيم : (وما على العبد أضر من ملك العادات له ، وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة الموروثة لهم عن الأسلاف الماضية ، فمن لم يوطن نفسه على مفارقتها والخروج عنها والاستعداد للمطلوب منه فهو مقطوع ، وعن فوزه وفلاحه ممنوع ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾)[1] .

يقول الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود ـ رحمهم الله تعالى ـ في رسالة له : (العادة ملاكة ، تقلب الشين زينا ولم تعادى الرسل بشيء أعظم من العادة قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾)[2] .

٣) لا يجوز تسمية شيء من الدين تقاليد ؛ لأن التقاليد تتغير وتتطور ، حسبما يرى الناس ، ولذلك فمن الممكن أن يأتي شخص فيغير بعض الأعراف والتقاليد ، فإذا سمينا شيئاً من الدين تقاليد

---

(١) عبد المنعم بن صالح العلي ، تهذيب مدارج السالكين لابن القيم ص ١٠٤ ، والآية رقم (٤٦) من سورة التوبة .

(٢) عبد الرحمن بن قاسم ، الدرر السنية ١ / ٢٧٨ ، والآية رقم (٢٣) من سورة الزخرف .

اختلط على الناس الدين بالتقاليد ، وإذا غيرت عليهم لم ينتبهوا ، ولهذا ينبغي الحذر من إطلاق كلمة : تقاليدنا الإسلامية على شيء من الشرع الإسلامي ، وإنما يقال : شريعتنا الإسلامية ، وديننا الإسلامي (١) .

٤) إن القارئ للسيرة ليعجب من موقف أبي طالب هذا ، كيف كان يعرف صدق محمد ويدافع عنه ويعرض نفسه للمتاعب ، ويستمر مع ذلك على شركه ؟! يقول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ :(وخالفه في ذلك عمه أبو طالب بن عبد المطلب ، وكان رسول الله ﷺ أحب خلق الله إليه طبعاً ، وكان يحنو عليه ويحسن إليه ويدافع عنه ويحامي ، ويخالف قومه في ذلك مع أنه على دينهم وعلى خلتهم إلا أن الله تعالى قد امتحن قلبه بحبه حباً طبعياً لا شرعياً وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى ومما صنعه لرسول الله ﷺ من الحماية ، إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة ، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه ولاجترؤوا عليه ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه) (٢) .

يؤيد هذا قول كفار قريش السابق لأبي طالب : (فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه) وهذه حكمة الله سبحانه التي سخرها لمحمد

(١) انظر : البوطي ، فقه السيرة ص ١١٥ .
(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٤١ .

ﷺ وسيأتي لهذه المسألة إضافة عند الحديث عن وفاة أبي طالب بإذن الله تعالى .

٥) في موقف نصرة أبي طالب وهو على شركه للرسول ﷺ وقبول الرسول ﷺ لهذه النصرة دلالة على جواز الاستعانة بالمشرك بضوابطها ، يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (الاستعانة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة)[1] .

۞۞۞

(١) ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٣٠١ ، وانظر : النووي شرح صحيح الإمام مسلم (وقال الشافعي وآخرون : إن كان الكافر حسن الرأي في المسلمين ودعت الحاجة إلى الاستعانة به استعين به وإلا فيكره) ١٢ / ١٩٩ ، و القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٨ / ٩٩ -١٠٠ ، وابن حجر ، تلخيص الحبير ٤ / ١٠١ .

المبحث السادس

أساليب المشركين في مواجهة الرسول ﷺ

لما رأت قريش أن محمداً ﷺ ماض في دعوته مستمر عليها لم يثنه عنها حديثهم مع عمه أبي طالب ولا غيره من المحاولات الأخرى لجأوا إلى أساليب أخرى ؛ لمواجهة الدعوة منها :

الأسلوب الأول : أسلوب السخرية والاستهزاء

المقصود من السخرية والاستهزاء هو تخذيل المسلمين وتحقيرهم ومواجهتهم بحرب نفسية توهن قواهم ، عن عروة عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال : (قلت له : ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت رسول الله ﷺ فيما كانت تظهر من عداوته ؟ قال : حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر ، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا : ما رأينا مثل صبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم أو كما قالوا : قال : فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالبيت ، فلما أن مر بهم غمزوه ببعض ما يقول ، قال : فعرفت ذلك في وجهه ، ثم مضى فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجهه ، ثم مضى ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ،

فقال : تسمعون يا معشر قريش : أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح [١] فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول) [٢] .

وكان أبو جهل فرعون هذه الأمة [٣] شديداً على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه ، ينال من رسول الله ﷺ ويستهزئ به ، ويسخر منه ومن القرآن الكريم ، ومن ذلك (لما ذكر الله عز وجل شجرة الزقوم تخويفاً بها لهم ، قال متهكماً ساخراً : يا معشر قريش تدرون ما شجر الزقوم التي يخوفكم بها محمد ؟ قالوا : لا ، قال : عجوة يثرب بالزبد ! والله لئن استمكنا منها لنتزقمنها تزقماً ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِى ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦ ﴾ [٤] أي ليس كما يقول [٥] .

---

(١) الذبح هنا مجاز من الهلاك ، فإنه من أسرع أسبابه ، البناء ، بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني ٢٠ / ٢١٩ .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده : البناء ، الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد ٢٠ / ٢١٩ .

(٣) انظر : ابن كثير ، تفسير ابن كثير ٣١٨/٢ ، وقد وردت أحاديث في مسند الإمام أحمد وصفت أبا جهل بأنه فرعون هذه الأمة ، انظر : مسند الإمام أحمد ، تحقيق وتخريج شعيب الأرناؤوط وزملائه ٧ / ٢٧٨ - ٢٨٠ ، رقم ٤٢٤٦ و٤٢٤٧ ، وقال المحقق عن كل من الحديثين : (إسناده ضعيف لانقطاعه) .

(٤) سورة الدخان ، الآيات رقم (٤٣- ٤٦) .

(٥) ابن هشام ، السيرة النبوية ١/ ٣٨٦ - ٣٨٧ .

وجاءت أم جميل زوجة أبي لهب فقالت للرسول ﷺ ساخرة مستهزئة : إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قربك منذ ليلتين ، أو ثلاثاً ، فأنزل الله عز وجل : (والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى) [١] .

وقال أبو جهل مستهزئاً بالرسول ﷺ : إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [٢] .

وقصة الأراشي الذي ابتاع منه أبو جهل الإبل ومطله ثمنها فجاء الأراشي إلى قريش في أنديتها ، فقال : من ينصرني على أبي جهل فقد مطلني مالي ؟ ، فأشار بعض كفار قريش إلى الرسول ﷺ استهزاء به ، فجاء الأراشي إلى الرسول ﷺ فقام معه الرسول ﷺ إلى أبي جهل وطرق عليه الباب ، وأمره أن يعطي الأراشي حقه ، فدفعه إليه وهو يرتعد من الخوف ، وعندما سألت قريش أبا جهل عن سبب ذلك

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٨ / ٧١١ ، حديث رقم ٤٩٥٠ ، وتسمية المرأة في الحديث من فتح الباري في شرحه للحديث .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٨ / ٣٠٨ ، حديث رقم ٤٦٤٨ ، والآيتان رقم (٣٢ - ٣٣) من سورة الأنفال .

قال : ويحكم ما هو إلا أن ضرب علي بابي وسمعت صوته ملئت رعباً ، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط والله لو أبيت لأكلني(١) .

وقفه مع الاستهزاء :

للاستهزاء أثر أشد وقعاً من غيره من أنواع الإيذاء ، يدل لذلك ما رواه البخاري عن عروة بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ حدثت أنها قالت للنبيﷺ : (هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال : لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب(٢) ، فرفعت رأسي ، فإذا

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ٤١٦- ٤١٧ ، والبلاذري ، أنساب الأشراف ١ / ١٢٨ – ١٢٩ .

(٢) قال ابن حجر : قرن الثعالب هو ميقات أهل نجد قرب الطائف وأصل القرن كل جبل ينقطع من جبل كبير ، فتح الباري ٦/ ٣١٥ ، ومثله النووي ، شرح صحيح مسلم ١٥٥/٢ ، وقال الشيخ محمد بن ابراهيم آل الشيخ : (إن قرن الثعالب جبل مشرف على أسفل منى) وقال : (إن من قال : إنه جبل قرب المغاسل التي يحرم منها جماهير أهل نجد والطائف فقد وهم إذ لا جبل هناك بهذا الاسم أصلاً) محمد بن قاسم ، فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم ٥/ ٢١٠ وقال سعد بن جنيدل : وقد اختلف في المراد بقرن الثعالب ، فقال قوم : هو قرن المنازل المعروف حالياً ، وهو ميقات أهل نجد ، يبعد عن مكة ثمانين كيلاً ، وعن الطائف ثلاثة وخمسين كيلاً وقال آخرون : هو جبل مشرف على أسفل منى داخل حدود منى ، بينه وبين مسجد

أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال ؛ لتأمره بما شئت فيهم) الحديث [١] .

(قال العلماء : جعل ﷺ ما ناله من الاستهزاء أو شماتة الأعداء أشد مما لاقاه يوم أحد من قتل حمزة في سبعين من أصحابه مع ما ناله في نفسه من الجراحة ، وما ذاك إلا لأن نفس الكريم تتأذى بالأذى بالقول والسب أشد مما تتأذى به من الطعن والضرب ، ولهذا عفا ﷺ عن كل من تعرض لقتله وأهدر دم كل من تعرض لشتمه) [٢] .

نقل الدكتور أحمد نوفل في كتابه (الحرب النفسية من منظور إسلامي) أن واشنجتون ارفنع قال : (كانت أعظم صعوبة واجهها محمد ﷺ هي استهزاء معارضيه... إلى أن قال : ولم يكن يهتم بمعرفة من هم مصدر هذا الإيذاء ، بل اهتم بأمر الذين يأمل في اعتناقهم للإسلام) [٣] .

الخيف بمنى ألف وخمسمائة ذراع ، وقيل له : قرن الثعالب ؛ لكثرة ما كان يأوي إليه من الثعالب ، وقد أزيل هذا الجبل منذ عدة سنوات توسعة للحجاج أثناء إقامتهم في منى ، ثم جزم سعد بن جنيدل بالقول الثاني ، وأن قرن المنازل غير قرن الثعالب ، انظر ملخصاً من : سعد بن جنيدل ، معجم الأمكنة الوارد ذكرها في صحيح البخاري ص ٣٦١ - ٣٦٤ ، ومحمد شراب ، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ص ٢٢٦.

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٦ / ٣١٢ ، رقم ٣٢٣١ .

(٢) ابن الديبع ، حدائق الأنوار القسم الأول ص ٣٤٥-٣٤٦ .

(٣) أحمد نوفل ، الحرب النفسية من منظور إسلامي ص ٢٢ .

وإن كان الاستهزاء شديداً على النفس ، فإنه لا شك أشد وقعاً وأعظم تأثيراً على الرجل الشريف الذي له المكانة الرفيعة في الخلق والعقل والأمانة والصدق ، ليس من السهل عليه أن يجد نفسه في موقف يسخر منه ، ويستهزأ به ، ويوصف بالسحر والجنون والكذب ، ولكن رسول الله ﷺ هان عليه ذلك في سبيل الله رغم ما فيه من القسوة والشدة عليه [١] وإذا عرفنا ألم الاستهزاء ومضاعفة هذا الألم عندما يكون موجهاً إلى شخص ذي مكانة ، عرفنا مدى ما يعانيه الرسول ﷺ من قومه وهم يستهزئون ويسخرون ، بخلاف الشخص الوضيع ، فإنه قد لا يعاني من الاستهزاء ، بل قد يفضله على الإيذاء البدني ، ولا يجد غضاضة أن تقال له كلمة لمز أو غمز ، أو سخرية ؛ لأن قائلها لم يبعد من الحقيقة ، أو على الأقل فإن المستهزأ به لم يجهد نفسه في البعد عن مواطن الضعف والنقص .

وقفة مع المستهزئين :

المعروف في قضايا الاختلاف في الرأي هو أن كل فرد يعرض أدلته التي تؤيد وجهة نظره ، ولكن عندما يضعف أحد الطرفين ويعوزه الدليل ويشعر برجحان جانب خصمه عليه إما أن يستسلم للحق وإما أن يستمر .

و إذا استمر فهو سيسلك إحدى طريقتين أو كلتيهما : إما أن يستخدم القوة ؛ لفرض رأيه إن كان صاحب قوة ، وإن لم يكن

---

(١) انظر : الشامي ، من معين السيرة ص ٤٧ .

صاحب قوة وقد أعوزه الدليل فليس أمامه إلا الاستهزاء والسخرية من خصمه .

وهذا ما نراه حصل من كفار قريش لما عجزوا أن يجدوا حجة أو برهاناً لجأوا إلى الاستهزاء والسخرية تارةً ، ولجأوا إلى السيف والقوة تارة أخرى ، فكان عدولهم إلى السيف وإراقة الدماء والاستهزاء والسخرية بالمؤمنين من أكبر الأدلة على صدق رسول الله ﷺ (١) ، يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (وهذا شأن المبطلين إذا غلبوا وقامت عليهم الحجة هموا بالعقوبة كما قال فرعون لموسى وقد أقام عليه الحجة : ﴿ لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾) (٢) .

ولقد كان توجيه القرآن الكريم للنبي ﷺ هو المضي مع الحجة يقول تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣) ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٤) ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا

---

(١) انظر : الشيخ عبدالرحمن السعدي ، القواعد الحسان في تفسير القرآن ص ٢٢ .
(٢) ابن القيم ، جلاء الأفهام ص ١٤٨ .
(٣) سورة البقرة ، الآية رقم (١١١) .
(٤) سورة الأنبياء ، الآية رقم (٢٤) .

كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾[١] وإذا كان هذا موقف الأنبياء مع قومهم المعتمد على الدعوة بالحجة والبرهان ، فلننظر ماذا يفعل هؤلاء الأقوام المنكرون لدعوات الأنبياء و ماذا يقولون إذا غلبتهم الحجة ؟ .

فهاهم هؤلاء قوم نوح قالوا لنوح عليه السلام : ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾[٢] وعيد بالرجم ، وليس عندهم حجة ولا برهان ، ويقول والد إبراهيم لإبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾[٣] .

آزر يتوعد إبراهيم عليه السلام بالرجم ، وقوم نوح يتوعدون نبيهم عليه السلام بالرجم ، فلا حجة ولا برهان وإنما القوة لإرغام الخصم ، وفرعون يقول لموسى عليه السلام : ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾[٤] وقوم شعيب عليه السلام قالوا لنبيهم : ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾[٥] .

---

(١) سورة القصص ، الآية رقم (٧٥) .

(٢) سورة الشعراء ، الآية رقم (١١٦) .

(٣) سورة مريم ، الآية رقم (٤٦) .

(٤) سورة الشعراء ، الآية رقم (٢٩) .

(٥) سورة هود ، الآية رقم (٩١) .

وعلى الجانب الآخر نجد أقوال أولئك الأقوام المكذبة للرسل كما ذكره الله جل شأنه في كتابه : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٢) فأعداء الرسل دائماً يراوحون بين استخدام القوة واللجوء إلى الاستهزاء والسخرية ، في حين أن مسلك الأنبياء هو الحجة والبرهان كما مر .

الموقف من المستهزئين :

نلاحظ أن من منهج القرآن الكريم ـ حسب ما يظهر لي والله أعلم ـ في مواجهة السخرية والاستهزاء التأكيد على الأمور التالية :

أولاً : أن السخرية والاستهزاء واجهها كل الأنبياء والدعاة فيما مضى وكفى بهم أسوة : ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ ﴾ (٣) .

ثانياً : الإكثار من الحث على الصبر ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ﴾ (٤) ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية رقم (٧) .

(٢) سورة يس ، الآية رقم (٣٠) .

(٣) سورة الزخرف ، الآيتان رقم (٦ — ٧) .

(٤) سورة ص ، الآية رقم (١٧) ، وهذه الآية جمعت الأمر بالصبر والتذكير بما واجهه داود عليه السلام.

(٥) سورة ق ، الآية رقم (٣٩) .

ثالثاً : الاستعانة على الدعوة والمضي فيها بالعبادة : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [1] ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠ ﴾ [2] ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩ ﴾ [3] .

رابعاً : بيان أن المستهزئ أدرك أنه مفلس، وأنه أقل درجة منك ، فاحذر النزول إلى مستواه ، يقول تعالى : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [4] ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [5] .

خامساً : إشعار المستهزأ به بأنه ليس وحده في الميدان ، وأن الاستهزاء لا يتجه إليه وحده، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ

---

(١) سورة طه ، الآية رقم (١٣٠) .
(٢) سورة ق ، الآيتان رقم (٣٩ - ٤٠) .
(٣) سورة الحجر ، الآيات (٩٧-٩٩) .
(٤) سورة الحجر ، الآية رقم (٩٤) .
(٥) سورة الروم ، الآية رقم (٦٠) .

تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾[١] مع أن الذي ورد في كتب التفاسير[٢] والسير أن سبب نزول الآية هو قول بعض المنافقين : ما رأينا أرغب بطوناً ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء من هؤلاء ومع ذلك يقول القرآن الكريم : (أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون) وذلك لأن الاستهزاء بالأمر استهزاء بالآمر ، والاستهزاء بالمؤمن بسبب إيمانه استهزاء بمن أمره بالإيمان[٣] .

ولذلك فالمستهزأ به ليس وحيداً بل معه ربه سبحانه وتعالى كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٤] .

ولاحظ كيف أن الاستهزاء كان سبباً في مزيد ربط المستهزأ به بربه سبحانه وتعالى وأعظم به من نفع وخير يعود على المسلم يوم يستهزأ به فيتذكر مثل هذه الأمور ، والله أعلم بالصواب .

الأسلوب الثاني : أسلوب مواجهة الدعوة بالقوة :

تحدثنا في الأسلوب الأول عن أسلوب السخرية والاستهزاء وهو أسلوب معنوي ، وهنا نتحدث عن الأسلوب المادي المتضمن لإيذاء الرسول ﷺ وإيذاء أصحابه واضطهادهم وقد سلك المشركون هذا

---

(١) سورة التوبة ، الآيتان رقم (٦٥ - ٦٦) .

(٢) انظر : محمد نسيب الرفاعي ، مختصر تفسير ابن كثير ٢ / ٣٥١ .

(٣) انظر : محمد متولي الشعراوي ، الإسراء والمعراج ص ٧٠.

(٤) سورة التوبة ، الآية رقم (٧٩) .

المسلك للعمل دون انتشار الدعوة ، ولمحاولة إعادة الداخلين فيها إلى حظيرة الكفر .

قال ابن إسحاق : كان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته أبو لهب ، والحكم بن أبي العاص بن أمية ، وعقبة بن أبي معيط ، وعَدِي بن حمراء الثقفي ، وابن الأصداء الهذلي ـ وكانوا جيرانه ـ وكان أحدهم يطرح على الرسول ﷺ رحم الشاة وهو يصلي ، وبعضهم يطرحها في برمته إذا نصبت له[١] .

(روى البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت ، وأبو جهل وأصحاب له جلوس ، إذ قال بعضهم لبعض : (أيكم يجئ بسلا جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم (وهو عقبة بن أبي معيط) فجاء به ، فنظر حتى إذا سجد النبي ﷺ وضعه على ظهره وبين كتفيه وأنا أنظر لا أغني شيئاً لو كانت لي منعة قال : فجعلوا يضحكون ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة ـ رضي الله عنها ـ فطرحته عن ظهره فرفع رأسه ، ثم قال : اللهم عليك بقريش ثلاث مرات فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم ، وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة ، ثم سمَّى : اللهم عليك بأبي جهل ، وعليك

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢ / ٢٥ ، والمراد بالبرمة : القدر الذي يطبخ فيه الطعام .

بعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، وعد السابع فلم يحفظه ، فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عد رسول الله ﷺ صرعى في القليب قليب بدر)[١] .

أخرج مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل : نعم ، فقال : واللات العزى لئن رأيته يفعل لأطأن على رقبته أو لأعفرن وجهه ، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ، زعم ليطأ على رقبته فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه ، فقالوا : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة ، فقال رسول الله ﷺ : « لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً ، عضواً »[٢] .

وأخرج البخاري عن عروة بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ قال : (سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ ؟ قال : رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي ، فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقا شديدا ، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه ، فقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم)[٣] .

---

(١) البخاري ، صحيح البخاري ١ / ٦٥ ، كتاب الوضوء ، رقم ٤ ، باب ٦٩ .

(٢) صحيح الإمام مسلم ٤ / ٢١٥٤ ، حديث رقم ٢٧٩٧ .

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٧ / ٢٢ ،كتاب فضائل الصحابة ، رقم ٣٦٧٨ .

وتطاول عتيبة بن أبي لهب على رسول الله ﷺ وشق قميص الرسول ﷺ ، فدعا عليه الرسول ﷺ أن يسلط عليه كلباً ، فخرج عتيبة في نفر من قريش ، فنزلوا في مكان يقال له الزرقاء ، فأطاف بهم الأسد تلك الليلة فجعل عتيبة يقول : ياويل أمي هو والله آكلي كما دعا محمد علي ، قتلني ابن أبي كبشة وهو بمكة ، وأنا بالشام ، فأخذ الأسد برأسه فذبحه [(١)] .

وكما أوذي الرسول ﷺ فقد أوذي صحابته ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ ، فقد قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه يخطب في المسجد الحرام فضربه المشركون ، وكان ممن ضربه عتبة بن ربيعة حيث جعل يضربه على وجهه بنعلين حتى ما يعرف وجهه من أنفه [(٢)] وجهر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بالقرآن بمكة فضربوه ضرباً أثر في وجهه [(٣)] .

أما مصعب بن عمير رضي الله عنه فإن أمه لما علمت بإسلامه أخرجته من منزله ، وكان فتى منعماً في بيت ثراء ، فأصبح لا يجد ما يسد جوعه حتى كان جلده يتخشف ويتطاير كما يتطاير جلد الحية من الجوع ، وكان يحمله الصحابة على أعواد القوس من شدة الجوع [(٤)] .

---

(١) انظر : البيهقي ، دلائل النبوة ٤ / ٣٣٩ ، والحاكم ، المستدرك ٢ / ٥٣٩ ، وصححه ووافقه الذهبي ، وسمي ابن أبي لهب هنا بأنه (لهب) ، وانظر: ابن تيمية ، منهاج السنة النبوية ٧ / ٣٠٥ وتعليق المحقق في الهامش .

(٢) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٣٠ .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ٣٣٧ .

(٤) انظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ١ / ١٤٨ .

أما بلال ﷺ فقد نال من العذاب ما لم ينله غيره ؛ لأنه كان من الموالي ، فقد كان أمية بن خلف يضع في عنقه حبلاً ، ثم يسلمه إلى الصبيان يطوفون به جبال مكة ، وكان يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ويقول له : لا تزال كذلك حتى تموت أو تكفر بمحمد ، فلا يزيد على قوله : أحد ، أحد حتى مر به أبو بكر فاشتراه وأعتقه (١) .

وكان عمار بن ياسر ـ رضي الله عنهما ـ مولى لبني مخزوم ، أسلم هو وأبوه وأمه فكان المشركون يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرها ، ومر النبي ﷺ وهم يعذبون فقال : « أبشروا آل عمار وآل ياسر ، فإن موعدكم الجنة » (٢) فمات ياسر في العذاب ، وطعن أبو جهل سمية في قبلها بحربة فقتلها ، فكانت أول شهيدة في الإسلام (٣) .

وكان خباب بن الأرت يذيقه المشركون أنواع العذاب ، وكانوا يضعونه على الجمر ويضعون عليه الحجارة ، فلا يطفىء الجمر إلا ودك ظهره يذوب عليها (٤) .

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ٣٤٠ ، والحاكم ، المستدرك ٣/٢٨٤ ، وصححه ووافقه الذهبي في التلخيص ، وأخرجه ابن ماجة في سننه بلفظ آخر ، الألباني ، صحيح سنن ابن ماجة ١/٣٠ ، رقم ١٢٢ وصححه الألباني .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ٣/٣٨٨ وقال : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي في التلخيص . و قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩ / ٢٩٢ : (رواه الطبراني ورجاله ثقات) .

(٣) انظر : ابن حجر ، الإصابة ٦/٣٣٣ و ٨/ ١١٤.

(٤) انظر : ابن سعد ، الطبقات ٣ / ١٦٥ .

وجاء خباب ﷺ يوماً إلى مجلس عمر ﷺ ، فقال : (ادن ، فما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا عماراً ، فجعل خباب يريه آثارا بظهره مما عذبه المشركون) (١) . وكان من المستضعفين الذين يعذبون : حمامة والدة بلال ـ رضي الله عنهما ـ ، وعامر بن فهيرة وغيرهم ، وكان أبو بكر ﷺ يشتري هؤلاء العبيد المستضعفين الذين يعذبون ويعتقهم لوجه الله سبحانه وتعالى (٢) .

عن سعيد بن جبير ﷺ قال : (قلت لعبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟ قال : نعم والله ! إن كانوا ليضربون أحدهم ويجوعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة ، حتى يقولوا له : اللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول: نعم ، حتى إن الجعل ليمر بهم فيقولون له : أهذا الجعل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم ، افتداء منهم مما يبلغون من جهد) (٣) .

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه وصححه الألباني : الألباني ، صحيح سنن ابن ماجة ١/ ٣١ ، رقم ١٢٤ .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ /٣٤٠ - ٣٤١ ، ومهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية ص ١٩٠ .

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ٣٤٢ .

نقف مع هذا الإيذاء العظيم الذي أصاب محمداً ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم - بسبب اتباعهم له ، واستجابتهم لدعوته ؛ لنلحظ ما يلي :

١. نعمة الله الواسعة عليك أيها المسلم عندما يتاح لك أداء شعائر العبادة بأمن واطمئنان ، فأداء شعائر الله بأمن أمنية عظيمة تمناها الصحابة ــ رضوان الله تعالى عليهم ــ ، وفرحوا بها لما هاجروا إلى الحبشة حيث استطاعوا هناك أن يعبدوا الله لا يعترض طريقهم أحد .

ومعرفة النعمة تتجلى بأمرين :

الأول : معرفة التاريخ ؛ لتعرف ما الذي واجهه المسلمون من قبل في سبيل المحافظة على دينهم .

الثاني : معرفة الواقع ؛ لتدرك أنك فريد ومتميز ، لم يضيق عليك وتسمع حولك الأخبار التي تنقل عما يواجهه المسلمون في العديد من البلاد من تضييق وتهجير وإيذاء يصل حتى التدخل في الاسم ، فلا يسمح للمسلم أن يسمي ولده أو بنته باسم إسلامي .

٢. أن الحياة الدنيا ليست معياراً لمكانة الشخص عند الله سبحانه وتعالى ، فقد يؤذى الشخص ويهان ويضرب وهو صالح تقي ، وقد يكرم وترفع درجته وهو شقي ضال هالك .

٣. أن الله سبحانه وتعالى قادر على حماية رسوله ﷺ ومنع المشركين من إصابته بأي أذى ، وحماية صحابة رسول الله ﷺ ولكن في إصابتهم بالإيذاء يتحقق عدة أمور منها :

أ. رفعة درجاتهم وزيادة حسناتهم وحط السيئات .

ب. أن هذا يسن لمن بعدهم كيفية مواجهة الإيذاء البدني ، وأن المؤمن يصاب ويؤذى ويضرب ، ومتى أصابه ذلك وتذكر أن الرسول ﷺ قد أوذي وأوذي خيار الصحابة هان عليه تحمل مشاق الأذى الذي يصيبه ، فكما نتأسى بالرسول ﷺ في الرخاء فكذلك نتأسى به في الشدة .

٤. أن الابتلاء بهذه الشدائد أنتج عدة أمور :

أ. يتميز الخبيث من الطيب ، فضعيف الإيمان لا يتحمل فلا يؤمن ابتداء ، أو إذا آمن لم يتحمل الاستمرار ، وعندها يتميز المؤمن الصادق في إيمانه ولذلك لم يظهر في مكة منافقون أبداً [١] ، أما في المدينة لما ذهب الإيذاء البدني كثر النفاق وصار يدخل في هذا الدين ظاهراً من يبحث عن مصلحة دنيوية .

ب. أن إيذاء الكفار للمؤمنين يحقق عكس مرادهم فهو يجعل الإيمان ينتشر ومن أمثلة ذلك :

١) إيذاء الصحابة جعلهم يهاجرون إلى الحبشة فوصل الدين إلى تلك البقاع .

---

(١) انظر : ابن تيمية ، منهاج السنة ٨ / ٤٧٦ ، وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ١ / ٤٧ ، قال : (لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه من الناس من كان يظهر الكفر مستتراً وهو في الباطن مؤمن) ، وانظر وجهة نظر أخرى للدكتور/ عبدالعزيز الحميدي في كتابه (المنافقون في القرآن) ص ١٠٠ .

٢) كان الطفيل بن عمرو الدوسي رجلاً شاعراً شريفاً فقدم مكة ورسول الله ﷺ بها وكان كفار قريش يحذرون كل قادم من الاستماع إلى الرسول ﷺ ويقولون : إنه ساحر فرق بين الرجل وأبيه ، والرجل وأخيه ، والرجل وزوجته ، فحذروا الطفيل من الاستماع إلى الرسول ﷺ ، قال الطفيل : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت على أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه ، فغدوت إلى المسجد وقد حشوت أذني قطناً ، فغدوت يوماً إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي إلى الكعبة ، فقمت قريباً منه فسمعت كلاماً حسناً فقلت في نفسي : إني لرجل لبيب شاعر فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فمكثت حتى انصرف إلى بيته حتى إذا دخل دخلت معه ، فقلت : يا محمد إن قومك قالوا لي كذا وكذا ، فاعرض علي أمرك ، فعرض عليه الرسول ﷺ الإسلام، وتلا عليه القرآن ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق(١) .

فكثرة إلحاح قريش في تشويه هذا الدين كانت سبباً في حرص الطفيل على السماع ثم الإيمان .

ت. أن إيذاء هؤلاء الكفار للمؤمنين ولد تعاطفاً مع المؤذى أدى إلى الوقوف معه ومناصرته ومن أمثال ذلك :

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١/ ٤٠٧ - ٤٠٨ ، وابن حجر ، الإصابة ٣ / ٢٨٧ .

١) كان حمزة ﷺ يخرج من الحرم فيصطاد ، فأقبل من رميه ذات يوم ، فلقيته امرأة ، فقالت : يا أبا عمارة ماذا لقي ابن أخيك من أبي جهل ، شتمه وفعل ، وفعل . فأقبل حتى انتهى إلى أبي جهل وهو في مجلس في الحرم فضربه بالقوس على رأسه ، ثم قال : أتشتمه ؟ فأنا على دينه ، أقول ما يقول فرد ذلك عليّ إن استطعت !! فثار قوم أبي جهل ، فقال أبو جهل : دعوه ، فقد سببت ابن أخيه ، وتم حمزة ﷺ على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله [١] .

٢) وعمر بن الخطاب ﷺ خرج يوماً متوشحاً سيفه يريد القضاء على النبي ﷺ ، فعلم أن أخته قد آمنت ، فمشى عمر إليها ، فلما أقبل على الدار سمع قراءتها مع زوجها وخباب بن الأرت للقرآن ، ولما سمعوا صوت عمر توارى خباب وأخفوا الصحيفة ، فلما دخل عليهم قال : ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم ، فقالا : ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا ، قال : لعلكما صبوتما ، فقال له ختنه : يا عمر أرأيت إن كان الحق في غير دينك ؟ فوثب عمر على ختنه ، فوطأه وطأ شديداً ، فجاءت أخته ؛ لتمنعه فضربها بيده ضربة أدمت وجهها ، فلما رأى الدم على وجه أخته ندم واستحيا ، وقال : أعطوني الصحيفة التي كنتم تقرأونها ، فقالوا له : إنك نجس ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل ، فقام واغتسل وقرأ الصحيفة فآمن [٢] .

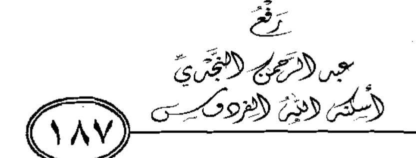
---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١/٣١٢-٣١٣ .
(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١/ ٣٦٥- ٣٦٧ .

٥) أن هـؤلاء الذيـن آذوا رسـول الله ﷺ أشـد الأذى أسـلموا واستجابوا ، فعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة الذي كان يؤذي رسول الله ﷺ وكـان يقسـم على نفسه أنه لن يصدق محمداً ، ومع ذلك لم تمضِ سنوات إلا ويسلم بتوفيق الله عـز وجـل وهذا يعلمنا ألا نيأس من أي شخص مهمـا كـان مستوى كفـره أو فسقه أو عداوته للدين ، وليست أيضاً بعيدة عنا قصة عمر بن الخطاب ﷺ الذي قال عنه أحد المسلمين ، والله لا يسلم عمر بن الخطاب حتى يسلم حمار الخطاب [١] ، وإذا بعمر بن الخطاب يسلم ويصبح أحد الخلفاء الراشدين .



(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ٣٦٥ .



المبحث السابع

دار الأرقم

كثر الداخلون في الإسلام وكان لابد من مكان يجتمع فيه هؤلاء مع رسول الله ﷺ يعلمهم أمور دينهم ، وكان الرسول ﷺ لا يتمكن من الاجتماع بهم علناً ، فاختار الرسول ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي للاجتماع فيها ، وكانت على جبل الصفا وبابها خلفي يدخله الداخل فلا يُرى ، وقد اتخذها الرسول ﷺ مقراً للدعوة في السنة الخامسة من البعثة [1] ، يجتمع فيها الصحابة إلى الرسول ﷺ فيتعلمون منه القرآن الكريم والسنة ويقتدون به .

نقف هنا : لنلاحظ مدى اهتمام الرسول ﷺ بجمع الصحابة في مكان واحد ؛ لنستفيد ما يلي :

١. أهمية صلاة الجماعة في المسجد ، فشتان بين صلاة الفرد في منزله وحيداً وصلاته مع إخوانه المسلمين يتعلم منهم الكيفية العملية للصلاة ، وينمو بينهم السلوك الحسن والخلق الجميل ، فبالإمكان أن يدع الرسول ﷺ أصحابه كلاً منهم يؤدي عباداته بمفرده ، ولكن هذا لا يحقق قيام المجتمع المسلم المترابط ، ومبادرة الرسول ﷺ إلى هذا الأمر تدل على وجوب صلاة الجماعة في المسجد مع المسلمين [2] .

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ٣٦٥ .

(٢) انظر : كتاباً مهماً قيماً للأستاذ الدكتور/ فضل إلهي ظهير ، أهمية صلاة الجماعة في ضوء النصوص وسير الصالحين ، أوضح فيه أن إقامة الصلوات الخمس مع الجماعات في المساجد من أوكد العبادات .

٢. أهمية الصحبة الصالحة في حياة المسلم ، والمسلم بحاجة إلى صحبة صالحة تذكره إذا نسي ، وتعلمه إذا جهل ، وتنبهه إذا غفل ، وقد قال رسول الله ﷺ : (إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة)[١] ، ولذلك حري بالآباء والمربين أن ينتبهوا لجلساء أبنائهم وتلاميذهم .

٣. أهمية الترابط والتواصل بين المسلمين ، ويتأكد هذا بخاصة إذا كانوا في بلاد الغربة بين مجتمع لا يدين بالإسلام ، فعلى هؤلاء مسؤولية الاهتمام بالاجتماع فيما بينهم تعاونا على الخير وتثبيتا على طريق الهدى ، وتقوية لأواصر الأخوة ، ومحافظة على الإيمان في القلوب من أن يخبو أو يضعف ، عندما تكون الغالبية المحيطة بالمسلم فئة كافرة .

٤. أهمية التربية والتعاهد المستمر في عملية الإصلاح والتوجيه ، فلا بد في الإصلاح من التربية ، وليست عملية التربية المطلوبة سهلة ولا ميسورة ، وليست كلمة تقال ، ثم ينتهي واجب المعلم أو المربي أو الداعية ، بل على الدعاة والمربين والمعلمين أن يلحظوا المقصد المهم من دار الأرقم ، حينما حرص الرسول الكريم ﷺ على تعاهد

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه ٤ / ٢٠٢٦ ، رقم ٢٦٢٨ .

صحابته ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم ؛ لتربيتهم وتوجيههم على عينه ، وهو درس مهم لكل من يقوم على التربية مسؤولاً كان أو أباً أو معلماً أو داعياً إلى الله جل شأنه .

❁❁❁

المبحث الثامن

الهجرة إلى الحبشة

قال ابن إسحاق : فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية من الله تعالى ، ثم من عمه أبي طالب وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق حتى يجعل الله تعالى لكم فرجاً مما أنتم فيه .

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله تعالى بدينهم ، فكانت أول هجرة في الإسلام [١] .

وكان فيمن هاجر عثمان بن عفان ﷺ ، وامرأته رقية بنت رسول الله ﷺ ـ رضي الله تعالى عنها ـ ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو حذيفة عتبة بن ربيعة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، وامرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة ، وعثمان بن مظعون ، وعامر بن ربيعة ، وامرأته ليلى بنت أبي حثمة ـ رضي الله عنهم ـ فخرجوا حتى

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق عادل عبد الموجود وزملاؤه ١ / ٣٤٥ .

أتوا الشعيبة [١] منهم الراكب ، ومنهم الماشي ، ووفق الله المسلمين ساعة جاءوا سفينتين للتجارة حملوهم فيها قالوا : وقدمنا أرض الحبشة فجاورنا بها خير جار ، أمنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه [٢] وكانت الهجرة إلى الحبشة في السنة الخامسة من البعثة ، ولم يطل بهم المقام في الحبشة فقد عادوا بعد أشهر قليلة إلى مكة [٣] .

---

(١) الشعيبة : تصغير شعبة ، مرفأ للسفن على البحر ، وكان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة ، ومكان الشعيبة اليوم جنوب جدة على مسافة ٦٨ كيلاً ، محمد شراب ، المعالم الأثيرة ص ١٥١ .

(٢) انظر : الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٢ / ٤٨٥ - ٤٨٦ .

(٣) تذكر بعض كتب السيرة هنا قصة الغرانيق وأنها سبب الرجوع ، وقد ذهب جمع من العلماء إلى القول بأن قصة الغرانيق قصة مفتراة دخيلة على السيرة النبوية الشريفة أبطلها العلماء وكتبوا فيها رسائل مستقلة تبين بطلانها سنداً ومتناً ومن هؤلاء : الشيخ الألباني في رسالته (نصب المجانيق في نسف قصة الغرانيق) وهي رسالة تقرأ من عنوانها ، وقد خرج فيها أحاديث القصة وحكم عليها بالضعف والبطلان ، وللأستاذ صالح بن أحمد الشامي بحث بعنوان (الغرانيق قصة دخيلة على السيرة النبوية) بين فيها بطلان هذه القصة من حيث السند والمتن ومن وجهة النظر التاريخية حيث ذكر أن سورة النجم تتحدث عن المعراج وقد نزلت بعده أي بعد العام العاشر من البعثة وهجرة الحبشة الأولى في السنة الخامسة ، وهناك من يرى صحة أصل قصة الغرانيق مثل ابن حجر (فتح الباري ٨/٤٣٩) فقد قال : (لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً) ثم قال : (وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر) ولعل أحسن ما يقال في هذه القصة هو أن من أنكرها قصد ما يستنكر منها ، ومن أثبتها فإنما

واشتد الأذى على المسلمين فأشار الرسول ﷺ على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة ثانية ، فهاجر قرابة ثلاثة وثمانين رجلاً ، وثماني عشرة امرأة ، ولما علمت قريش بهذه الهجرة بعثت رجلين من أصلب رجالها وأذكاهم ، وهم عمرو بن العاص ، وعبد ا لله بن أبي ربيعة ، وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة إلى النجاشي وبطارقته ، وجاء الرجلان إلى الحبشة ، وقدما رشوتهما إلى البطارقة ، طلباً للمساندة في الرأي عندما يعرض الأمر على النجاشي ، ولكي يُحَسّنا طرد هؤلاء المسلمين عند النجاشي .

ولكن النجاشي لم يتعجل في إعطاء الرأي ، بل طلب السماع من جميع أطراف القضية واستدعى لأجل ذلك المسلمين ولما حضروا وكانوا قد اتفقوا أن يكون المتحدث عنهم هو جعفر بن أبي طالب ﷺ ، فقال لهم النجاشي : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل ؟ فقال جعفر : أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله ؛لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ... إلخ .

أراد ما لا يتنافى مع العصمة النبوية والله أعلم بالصواب ، وانظر : سليمان العودة ، السيرة النبوية في الصحيحين ص ٢٨٥- ٢٩٥ .

واستمر الحوار بين النجاشي والصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ حتى انتهى بفشل مكيدة كفار قريش ، ورجوعهم خاسرين ، وبقاء المسلمين في الحبشة آمنين مطمئنين[١] .

نقف مع هذه الهجرة : لنستفيد منها ما يأتي :

١) لم يتمكن صحابة رسول الله ﷺ من عبادة ربهم بأمن وطمأنينة في مكة بسبب إيذاء قريش لهم ، ولم يبق أمام هؤلاء الصحابة إلا ترك الوطن والأهل والمال ، من أجل العقيدة ، أو ترك العقيدة من أجل الوطن والأهل والمال ، فاختاروا العقيدة وفارقوا أوطانهم وأهليهم من أجل المحافظة على دينهم ، وهكذا العقيدة فوق الأهل والمال والوطن .

---

(١) حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ الذي اختصرته هنا أخرجه بطوله الإمام أحمد في مسنده ١ / ٢٠٢ و ٥ / ٢٩٠- ٢٩٢ وقال الحافظ الهيثمي في المجمع ٦ / ٢٤- ٢٧ : (رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع) وقال عنه أحمد محمد شاكر : (إسناده صحيح) انظر : مسند الإمام أحمد ، تحقيق أحمد شاكر ٣ / ١٨٠ ، رقم ١٧٤٠ . وقد ذكر ابن إسحاق وغيره ردة عبيد الله بن جحش وكان أحد المهاجرين إلى الحبشة وموته في الحبشة على النصرانية، إلا أن محمد بن عبد الله العوشن في بحث له بعنوان (تحقيق دعوى ردة عبيد الله بن جحش) منشور في مجلة البيان الصادرة عن المنتدى الإسلامي بلندن عدد (١٨٢) شوال ١٤٢٣هـ ، ص٢٢- ٢٤ قال في نهاية البحث : (مما سبق يتبين – والله أعلم – أن قصة ردة عبيد الله بن جحش لم تثبت لعدة أدلة منها ...) وذكر أربعة أدلة ، والحكيم بالردة على شخص ليس بالأمر السهل فضلاً عن أن يكون صحابياً ومن المهاجرين الأوائل ، ونسأل الله السلامة .

٢) ماذا نقول لأولئك الذين تركوا أوطانهم الإسلامية وهجروها إلى بلاد الكفر إعجاباً بالكفار ، وتركوا بلادهم المسلمة ؟ ماذا يقال لهؤلاء ونحن نتذكر هجرة هؤلاء الصحابة إلى بلاد الحبشة بحثاً عن مكان آمن يعبدون الله فيه ، وصحبة صالحة ولتكوين مجتمع مسلم يكون فيه الجار مسلماً والحي بأكمله مسلماً ؟ .

٣) إن هؤلاء الصحابة الذين خرجوا من مكة إلى الحبشة بينوا لنا عملياً كيف أن المسلم لا يتكيف مع المجتمعات غير المسلمة فيما يخالف دينه ، بل هو الذي يسعى إلى تكييف تلك المجتمعات ؛ لتصبح إسلامية .

ومثل هذا ينطبق حتى على المجالس التي يجلس فيها المسلم ويرى فيها بعض المنكرات ، فهو إما أن يجاري ويسكت ويصبح بالتالي كيَّف نفسه فيها بما يخالف أمر الله سبحانه وتعالى ، أو ينكر وإذا لم يستطع الإنكار يخرج عنها ويتركها ، فهجرة الصحابة إلى الحبشة درس لنا في التعامل مع المجتمعات غير الإسلامية بل وحتى مع المجالس التي تقوم على المعاصي والمنكرات .

٤) في ملاحقة كفار قريش للصحابة في الحبشة ومحاولة ردهم إلى مكة دلالة واضحة على أن العداوة بين الكفار والمسلمين ليست عداوة شخصية ، بل هي عداوة دينية ، ولو كانت عداوة شخصية لفرح الكفار بخروج المسلمين وابتعادهم عنهم ، ولكن العداوة هنا عداوة

دين ، والذي يخالفك في الدين لا يريد منك أن تبقى آمناً مطمئناً أبداً أينما كنت ، أما الذي يعاديك شخصياً فهو يريد أن تبتعد عن وجهه ثم ينساك .

٥) قال عثمان بن حسن : (وكان السلف إذا سئل أحدهم عن مسألة من مسائل الاعتقاد أجاب بنصوص الكتاب والسنة كما فعل جعفر بن أبي طالب ﷺ مع النجاشي (ملك الحبشة) وقد سأله النجاشي عن حقيقة عيسى عليه السلام فأجاب جعفر بما في سورة (مريم) فعقل النجاشي ذلك عنه وكان سبباً في إسلامه)[١] .

٦) في الهجرة إلى الحبشة وما جرى فيها نأخذ جواز الاستعانة بغير المسلم المأمون عند الحاجة كما سبق أن أشرت إلى ذلك من قبل نقلاً عن شيخ الإسلام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ[٢] .

٧) لقد كان في كلمات جعفر الطيار عبرة ، حينما بدأ يصف المجتمع الجاهلي بقوله : (كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف) هل جعفر ﷺ يصف المجتمع الجاهلي في عصره ، أم يصف بعض المجتمعات الكافرة في عصرنا ، أعد النظر في قول جعفر

---

(١) عثمان بن علي حسن ، منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد ١ / ١٨٢ .

(٢) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٣٠١ ، وانظر : ما يأتي في قصة الهجرة وقصة غزوة حنين ففيهما مزيد توضيح .

ﷺ تجد تلك العبارات تنطبق على بعض المجتمعات الكافرة الغربية المعاصرة ، إنه في الواقع يصف كل مجتمع يبتعد عن دين الله ، ذلك أن كل مجتمع يضيع دين الله يصبح بهذه الصفة .

٨) في كلمة جعفر ﷺ عندما سأله النجاشي عن هذا الدين بدأ بعرض المنهيات وأعظمها الشرك بالله ، ثم المأمورات وأولها التوحيد ، فالتخلية مقدمة التحلية ، فأولاً وقبل كل شئ نبذ الشرك والتخلي عنه ، ثم توحيد الله سبحانه وإفراده بالعبادة كما قال تعالى : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ [1] فأولاً الكفر بالطاغوت ، فالذين يشهدون أن لا إله إلا الله ولا يزالون على شركياتهم ووثنياتهم غافلون عن هذا المعنى العظيم الذي أشار إليه جعفر ﷺ .

٩) أن جعفر ﷺ لما بدأ يعدد ما دعاهم إليه الرسول ﷺ بدأ بالتوحيد وهذا الذي يجب أن يبدأ به الدعاة إلى الله في دعوتهم ويمضوا معه ويركزوا عليه ويكثروا من تجليته وتوضيحه للناس .

١٠) في غزوة خيبر ـ كما سيأتي ـ عاد آخر المهاجرين إلى الحبشة فكان بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يفخر على مهاجري الحبشة بأنهم سبقوهم بالهجرة إلى المدينة ، فأخبروا الرسول ﷺ بذلك فقال الرسول ﷺ حينئذ : « ليس بأحق بي منكم ، وله ـ أي القائل ـ

---

(١) سورة البقرة ، الآية رقم (٢٥٦) .

ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة [١] هجرتان » [٢] وقد فرحوا بهذا الحديث أي فرح ، تقول أسماء بنت عميس - رضي الله عنها - وهي التي سألت الرسول ﷺ : (فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني أرسالاً يسألونني عن هذا الحديث ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ) [٣] وهذا فيه فضيلة ظاهرة لمهاجري الحبشة - رضي الله عنهم - يقول ابن حجر - رحمه الله تعالى - : (وظاهره [٤] تفضيلهم على غيرهم من المهاجرين ولكن لا يلزم منه تفضيلهم على الإطلاق) [٥] .

۞۞۞

---

(١) أهل السفينة : هم مهاجرو الحبشة الذين قدموا بالسفينة .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٧ / ٤٨٥ ، رقم ٤٢٣١ .

(٣) صحيح البخاري ، المرجع السابق ، الموضع نفسه .

(٤) أي ظاهر الحديث الذي أشرت إليه .

(٥) ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٤٨٦ .

رَفْعُ

عبد الرَّحمن النَّجْدِيّ

أسكنه اللهُ الفردوس

الفصل الثالث

فقه السيرة من إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما إلى نهاية الإسراء .

ويتكون من :

تمهيد .

المبحث الأول : فقه السيرة في قصة إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما .

المبحث الثاني : فقه السيرة في المقاطعة العامة ودخول الرسول ﷺ شعب أبي طالب .

المبحث الثالث : فقه السيرة في وفاة أبي طالب في هذا الوقت .

المبحث الرابع : فقه السيرة في خروجه ﷺ إلى الطائف للدعوة إلى الله .

المبحث الخامس : فقه السيرة في الإسراء والمعراج .

تمهيد :

تحدثت في الفصلين السابقين من السيرة النبوية العطرة من بدايتها إلى الهجرة إلى الحبشة ، وفي هذا الفصل نقف مع حلقة متكاملة من حلقات السيرة ، تبدأ هذه الحلقة ، والمسلمون لا يزالون في ضعف ، لكنها تتوج بنصر من الله سبحانه وتعالى مبين .

فقد ضيقت قريش على الرسول ﷺ ولم تكتف بالإعراض عن الدعوة ، بل صدت عنها وآذت من دخل فيها بشتى أنواع الإيذاء ، وكانت كل يوم تزداد شراسة وعناداً ، ولم تحصر أذاها في الداخلين في الإسلام ، بل شمل أسرهم ونساءهم وأطفالهم ، بل وأقاربهم ، فقد ألجأت الرسول ﷺ إلى الدخول في شعب أبي طالب هو ومن ناصره وآزره من المؤمنين ومن أقاربهم ، ومنعت عنهم المؤونة ، ولما انتهى الحصار تتابعت الشدائد على الرسول ﷺ بوفاة عمه أبي طالب ، ثم وفاة خديجة أم المؤمنين ـ رضي الله تعالى عنها ـ ثم صدود أهل الطائف وإعراضهم بل وإيذائهم ؛ لينتهي هذا الفصل بتكريم من الله سبحانه لنبيه محمد بن عبد الله ﷺ حينما أُسْرِيَ به إلى المسجد الأقصى وعُرِجَ به إلى السموات ؛ ليبلغ منزلة لم يبلغها أحد من قبله . فهذا الفصل وإن ابتدأ بالمقاطعة والحصار من قريش لكنه انتهى بالمعراج العظيم الذي بلغ فيه ﷺ منزلة سمع فيها صريف الأقلام ، وهذه الحلقة من السيرة بفقهها الدعوي ، هي موضع الدراسة هنا وبالله التوفيق .

المبحث الأول
فقه السيرة في قصة إسلام
حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب
رضى الله تعالى عنهما

في هذا المقطع المهم من السيرة النبوية المباركة لا يمكننا أن نتجاوز حدثاً مهماً فيها ، بل بالغ الأهمية ، متمثلاً بإسلام رجلين من خيرة قريش وأعظمها بأساً ، كان لهما المكانة فيها في الجاهلية ، وكان لهما الأثر المبين على المسلمين بإسلامهما ، أولهما سيد الشهداء عم الرسول ﷺ حمزة بن عُبد المطلب ﷺ ، وثانيهما الفاروق أمير المؤمنين الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ .

إسلام حمزة بن عبد المطلب ﷺ :

حمزة هو عم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة ، وكان إسلامه في البداية ـ كما تذكر كتب السيرة ـ حمية للرسول ﷺ ، فقد ورد في كتب السير أن أمة لعبد الله بن جدعان كانت في مسكن لها حينما مر أبو جهل بالرسول ﷺ عند الصفا ، فآذاه وشتمه ونال منه ، فلم يكلمه الرسول ﷺ ، فلم يلبث أن أقبل حمزة بن عبد المطلب ﷺ من صيد له متوشحاً قوسه ، فأخبرته أمة ابن جدعان بما سمعت ، وكان أعز فتى في قريش وأشد شكيمة ، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به

من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد معداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم ، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجةً منكرة ، ثم قال : أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول فرد علي ذلك إن استطعت ، فقامت رجال من بني مخزوم ؛ لنصرة أبي جهل ، فمنعهم أبو جهل وتم حمزة ﷺ على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله (١) .

إسلام عمر بن الخطاب ﷺ :-

كان عمر بن الخطاب ﷺ شديد العداوة على المسلمين ، مؤذياً لهم ، تقول ليلى بنت حثمة بن عبد الله زوجة عامر بن ربيعة ﷺ : والله إنا لنرتحل إلى أرض الحبشة ، وقد ذهب عامر في بعض حاجته ، إذ أقبل عمر وهى على شركه حتى وقف عليّ وكنا نلقى منه البلاء ، أذى لنا وشدة علينا ، فقال : إنه الانطلاق يا أم عبد الله ، قالت : فقلت : نعم والله لنخرجن في أرض الله ، آذيتمونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا مخرجا ، قلت : فقال : صحبكم الله ، ورأيت له رقة لم أكن أراها ، ثم انصرف وقد أحزنه ـ فيما أرى ـ خروجنا ، قالت :

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١/ ٣١٢ ، وأورده الحاكم في المستدرك ٣/ ١٩٢-١٩٣ وسكت عنه هو والذهبي ، وانظر : الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٢ / ٤٤٣-٤٤٤ ، وانظر رواية أخرى تتفق في المعنى : إبراهيم العلي ، صحيح السيرة النبوية ص ٦٠ .

فجاء عامر بحاجته تلك ، فقلت له : يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا ، قال : أطمعت في إسلامه ؟ قالت : قلت : نعم ، قال : فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب ، قالت : يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام (١) . لقد ظهر من عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا الموقف رقة غير معهودة منه وخاصة مع المسلمين ، ولذلك استنكر عامر هذا القول وقد عهد من عمر رضي الله عنه الغلظة و الشدة ، واستبعد بناء على ذلك أن يسلم عمر .

ولمكانة عمر رضي الله عنه فقد كان الرسول ﷺ يدعو الله سبحانه وتعالى دعوة خاصة لعمر وأبي جهل أن يهدي الله أحبهما إليه للإسلام ، فعن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك : بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب » قال : وكان أحبهما إليه عمر (٢) وعن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ قالت : قال رسول الله ﷺ : (اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة) (٣) .

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ١/ ٣٦٥ ، وابن حجر ، الإصابة ٨ / ١٨٠-١٨١ ، وقال الهيثمي في المجمع ٦/ ٢٤ : (رواه الطبراني وقد صرح ابن إسحاق بالسماع فهو صحيح) ، وانظر : إبراهيم العلي ، صحيح السيرة ص ١٠١ .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، وصححه الألباني ، صحيح سنن الترمذي ، الألباني ٣/ ٢٠٤ ، رقم الحديث ٢٩٠٧ .

(٣) أخرجه ابن ماجة في سننه ، وصححه الألباني دون كلمة (خاصة) : صحيح سنن ابن ماجة ، الألباني ، المقدمة ١ / ٢٤ ، حديث رقم (٨٥) .

وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء نبيه عليه الصلاة والسلام ، فآمن عمر بن الخطاب ﷺ عقب الهجرة الأولى إلى الحبشة [١] ويُروى أن ذلك كان بعد إسلام حمزة ﷺ بثلاثة أيام [٢] ، وقد ورد أكثر من قصة في سبب إسلامه ﷺ لكن الذي يهمنا هنا هو أن هذا الصحابي الجليل قد تحولت شدته منذ اللحظات الأولى من إسلامه إلى شدة في نصرة الحق ومعاداة الباطل يتمثل ذلك في عدة مواقف لعمر ﷺ منها :

١) قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الرحمن بن الحرث ، عن بعض آل عمر أو بعض أهله قال : قال عمر : لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أي أهل مكة أشد عداوة لرسول الله ﷺ حتى آتيه ، فأخبره أني أسلمت ؟ قال : فقلت : أبو جهل ، فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه ، فخرج أبو جهل ، فقال : مرحبا وأهلا يا ابن أختي ما جاء بك ؟ قلت : جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله ورسوله وصدقت بما جاء به ، فضرب الباب في وجهي وقال : قبحك الله وقبح

---

(١) انظر : الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٣ / ٤٩٣ ، وابن حجر ، فتح الباري ٧ / ١٧٨ و ١٨٢ .

(٢) انظر : الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٢ / ٤٩٣ ، والذهبي ، السيرة النبوية ص ١٠٧ ، و ابن سعد ، الطبقات ٩/٣ ، وانظر : مهدي رزق الله ، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص ٢١٢ .

ما جئت به [١] قال ابن إسحاق : وحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر عن ابن عمر قال : لما أسلم عمر رضي الله عنه قال : أي قريش أنقل للحديث ؟ قيل له : جميل بن معمر الجمحي ، قال : فغدا عليه ، قال عبد الله : وغدوت معه [٢] أتبع أثره وأنظر ماذا يفعل ؟ حتى جاءه ، فقال له : أعلمت يا جميل أني أسلمت ودخلت في دين محمد ؟ قال : فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه وتبعه عمر ، واتبعت أبي حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ـ وهم في أنديتهم حول الكعبة ـ ألا إن ابن الخطاب قد صبأ ...) [٣] .

هذا موقفه مع كفار قريش منذ بداية إسلامه ، فقد كان إسلامه رضي الله عنه نصراً للمسلمين وذلاً وخزيا على أعدائهم يدل لهذا :

١) روى البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر) [٤] .

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ١/٣٧١ وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث كما ترى .

(٢) في صحيح البخاري أن ابن عمر رضي الله عنه ـ رضي الله عنهما ـ قال في قصة إسلام والده عمر رضي الله عنه : (لما أسلم عمر اجتمع الناس عند داره وقالوا صبأ عمر وأنا غلام فوق ظهر بيتي) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ١٧٧ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب إسلام عمر رضي الله عنه ، رقم ٣٨٦٥ ، وقال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (في رواية أخرى أنه كان ابن خمس سنين) فتح الباري ٧/ ١٧٨ .

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ١/٣٧٠ ، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع كما ترى .

(٤) البخاري ، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٧ / ٤١ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر ، حديث رقم (٣٦٨٤) .

٢) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لعمر رضي الله عنه : « والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجا قط إلا سلك فجاً غير فجك » [١] .

٣) رُوي أنه لما أسلم خرج ورسول الله ﷺ بينه وبين حمزة وأصحابه الذين كانوا اختفوا في دار الأرقم ، فعلمت قريش أنه امتنع ، فلم تصبهم كآبة مثلها ، قال عمر : فسماني رسول الله ﷺ يومئذ الفاروق [٢] .

وقفات مع هذا المقطع من السيرة :

١) سبق أن ذكرنا أن إسلام حمزة رضي الله عنه كان سببه إيذاء أبي جهل لرسول الله ﷺ وهكذا كان ذلك الشر سبباً لخير عظيم لحمزة رضي الله عنه وقد يجعل الله سبحانه وتعالى في الشر خيراً كبيراً ، فسبحان من يعلم عواقب الأمور ونتائجها ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [٣] ويقول تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ [٤] .

---

(١) المرجع السابق الحديث رقم (٣٦٨٣) .

(٢) انظر : ابن حجر ، الإصابة ٤/ ٢٨٠ ، والذهبي ، السيرة النبوية ١٠٧ / ١٠٨ ، وقال في بدايتها : (وروي عن ابن عباس بسند ضعيف) .

(٣) سورة النساء ، الآية رقم (١٩) .

(٤) سورة البقرة ، الآية رقم (٢١٦) .

٢) تذكر كتب السيرة أن إسلام حمزة ﷺ كان أول الأمر أنفة رجلٍ أبى أن يؤذى قريبه ، ثم شرح الله صدره ، فاستمسك بالعروة الوثقى [١] .

فقد يكون الإسلام في ابتدائه لغير الله لكن هذا لا يمنع من صلاح النية فيما بعد ، (قال أنس : إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا ، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها) [٢] .

وهكذا (قد يبتدئ الطالب للعلم يريد به المباهاة والشرف في الدنيا ، فلا يزال به فهم العلم حتى يتبين أنه على خطأ في اعتقاده ، فيتوب من ذلك ويخلص النية لله تعالى ، فينتفع بذلك ويحسن حاله ، قال الحسن : كنا نطلب العلم للدنيا فجرنا إلى الآخرة ، وقال سفيان الثوري : وقال حبيب بن أبي كاتب : طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نية ثم جاءت النية بعد) [٣] .

٣) أن العصبية القبلية ليست ممقوتة دائما ، فإذا سخرت لخدمة الدين وإعلاء كلمة الله وردع الظالمين فهذا أمر حسن ، وقد قلنا من قبل : إن من أسباب اختيار الجزيرة العربية منطلقا للرسالة الخاتمة وجود العصبية القبلية فيها ، وإذا ضعفت العصبية تطاول السفهاء على

---

(١) انظر : الغزالي ، فقه السيرة ص ١١٦.

(٢) صحيح مسلم ٤ / ١٨٠٦ ، رقم ٢٣١٢ ، وانظر : ابن تيمية ، السياسة الشرعية ص ١٤٠ .

(٣) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ /٢٢ .

الأنبياء ، وعلى الدعاة من باب أولى ، يقول تعالى حكاية عن هؤلاء : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ (١) .

٤) فضيلة نصرة الرسول ﷺ ، فببركة هذا العمل العظيم ، فتح الله على قلب حمزة ﷺ وهداه للإسلام .

٥) في قصة ليلى بنت أبي حثمة زوجة عامر بن ربيعه نستفيد عدم اليأس من إيمان شخص من الناس ؛ لشدة عداوته أو لكثرة وقوعه في المعاصي ، فإن عمر بن الخطاب ﷺ كان شديد الإيذاء للمسلمين حتى جزم عامر ﷺ أنه لن يسلم حتى يسلم حمار الخطاب ، ومع ذلك كتب الله سبحانه وتعالى لعمر ﷺ الهداية ، بل أصبح من أقوى الناس أثراً في الإسلام .

٦) مشروعية الدعاء بالهداية لغير المسلمين وبخاصة من كان ذا تأثير وفائدة للمسلمين ، فالرسول ﷺ مع فعله الأسباب ، ودأبه في الدعوة إلى الله ، وحرصه فهو أيضا يدعو الله سبحانه أن يستجيب قومه بصفة عامة ، ويدعو لبعضهم بصفة خاصة بالهداية (٢) .

---

(١) سورة هود ، الآية رقم (٩١) ، قاله أهل مدين لرسولهم شعيب عليه السلام .

(٢) من ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال : قدم طفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه على النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إن دوساً عصت وأبت ، فادع الله عليهم ، فقيل : هلكت دوس ، قال : اللهم اهد دوساً وائت بهم ، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٦ / ١٠٧ ، حديث رقم (٢٩٣٧) وكذلك دعاء الرسول ﷺ لأم أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنهما ـ بالإسلام وفيه : فقال رسول الله

وحينئذ فمطلوب من المسلم أن يدعو بالهداية وبمزيد التوفيق لمن له حق خاص كالوالدين والأقارب ، أو لمن له نفع عام بهدايته أو مزيد توفيقه كولاة الأمر ، وكرجل معروف بالمكانة في المجتمع ، وله تأثيره على غيره فهذا يدعى له رجاء إسلام وصلاح من وراءه .

٧) أن عداوة الكافر ليست لشخصه و إنما لما يحمله من معتقد باطل ، يدل لهذا : الدعاء له بالهداية ، فإن من تبغضه لشخصه لا تحب له الخير ، ومن تبغضه لأمر معين اقترن به تبغضه لهذا الأمر ومتى تجرد من هذا الأمر عادت الولاية والمحبة .

٨) مشروعية إغاظة الكافر ، وإدخال الكآبة والحزن عليه - ولكن بدون اعتداء عليه - فإن عمر ﷺ بادر إلى الجهر بالإسلام والصلاة بجوار الكعبة ، فأصاب قريشا من ذلك كآبة وحزن وأسى لا يوصف ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا ﴾(١) ويقول الله تعالى : ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾(٢) .

ﷺ : « اللهم اهد أم أبي هريرة » ، فأسلمت كما في صحيح مسلم ٤ / ١٩٣٨ ، رقم ٢٤٩١ .

(١) سورة التوبة ، الآية رقم (١٢٠) ، وانظر في تفسيرها : تفسير الطبري ١١ / ٦٥ .

(٢) سورة الفتح ، الآية رقم (٢٩) وانظر في تفسيرها : تفسير الطبرى ٢٦ / ١١٥ .

٩) معرفة الفضل لأصحابه والاعتراف لهم بذلك ، فإن ابن مسعود ﷺ يذكر لعمر ﷺ فضله على المسلمين ويذكر ذلك ويحدث :(مازلنا أعزة منذ أسلم عمر) .

١٠) أن بداية إسلام عمر ﷺ كان سببها سماعه لبعض آيات القرآن الكريم [١] وهذا يدلنا على عظم تأثير القرآن الكريم على القلوب ، قال الحافظ أبو نعيم عن قصة إسلام عمر ﷺ : (وهذه القصة وإن اختلف فيها بعض الألفاظ ، فقد اتفقت أن الذي أمال عمر إلى الإسلام ما قرع سمعه من القرآن وأخذ بقلبه) [٢] .

ولذلك على الدعاة إلى الله والخطباء أن يولوا هذا الجانب أهميته ، فلا يسوغ خلو كلمة أو موعظة من آيات من كتاب الله الكريم ، بل لا يسوغ أن تطغى عبارات الواعظ على آيات القرآن الكريم وليتذكر عظم تأثير هذه الآيات عندما كان يتلوها رسول الله ﷺ ، ثم الصحابة والسلف الصالح من بعدهم فتؤثر في السامعين وتكون تلك الآيات الكريمة سببا في استجابة الشخص أو ارتداعه عن المنكر المنهي عنه .

١١) لما أسلم عمر ﷺ وذهب إلى الرسول ﷺ في دار الأرقم وطرق عليهم الباب خاف الصحابة ؛ لرؤية عمر يطرق عليهم الباب

---

(١) انظر تفاصيل الروايات التي وردت في قصة إسلام عمر ﷺ : في إتحاف الورى بأخبار أم القرى للنجم عمر بن فهد ١ / ٢٧١-٢٨١ بالإضافة إلى ما سبق أو أوردته في بداية هذا المبحث .

(٢) المرجع السابق ص٢٨٢ .

، ولم يعلموا بعد بإسلامه ، فذهب الرسول ﷺ وفتح له الباب وجذبه من ثوبه ، فأعلن عمر ﷺ شهادة أن لا له إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فلما سمع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ذلك بادروا بالتكبير وهكذا عند رؤية أو سماع ما يسر المشروع هو التكبير [(١)] لا التصفيق كما يفعله البعض تقليدا للآخرين ، يقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين لما سئل عن الحكم فيما يفعله الناس في الحفلات من التصفيق والصفير قال : (الحكم في هذا أنه متلقى من غير المسلمين فيما يظهر ، فلذلك لا ينبغي للمسلم أن يستعمله ، وإنما إذا أعجبه شيء يكبر أو يسبح [(٢)] الله عز وجل وليس أيضا على سبيل التكبير الجماعي كما يفعله بعض الناس ، إنما يسبح الإنسان بينه وبين نفسه ، أما التكبير الجماعي أو التسبيح الجماعي عندما يأتي شيء يدعو للعجب ، فهذا لا أعلم له أصلا) [(٣)] .

وقد ثبت أن الرسول ﷺ لما أخبر الكفار بقصة الإسراء والمعراج كانوا (بين مصفق ، و بين واضع يده على رأسه متعجبا للكذب زعم

---

(١) انظر : الدرر السنية في الأجوبة النجدية ، جمع ابن قاسم ٨/ ١٠٩ ، وعبد العزيز الحميدي ، التاريخ الإسلامي مواقف وعبر ٢ /١٦١ .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٦ / ٥١٢ ، رقم ٣٤٧١ ، والبخاري ، الأدب المفرد ص ٣٩٣ ، رقم ٩٠٢ .

(٣) محمد العثيمين ، فتاوى الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، جمع أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ٢/ ٩٣٤ .

!) [١] ، فالتصفيق عند التعجب كما في هذا الموقف من فعل المشركين ، وسيأتي لهذا الموضوع مزيد إيضاح وتفريق بين التصفيق في العبادات والعادات في قصة الإسراء والمعراج بإذن الله تعالى .

❁❁❁

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ، تحقيق أحمد شاكر ٤/ ٢٩٣ ، رقم ٢٨٢٠ وقال محققه : إسناده صحيح ، وهو عند الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٦٤- ٦٥ وقال : (رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ، ورجاله رجال الصحيح) .

المبحث الثاني

فقه السيرة في المقاطعة العامة

ودخول الرسول ﷺ شعب أبي طالب

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (قال النبي ﷺ من الغد يوم النحر - وهو بمنى - : نحن نازلون غدا بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر) يعني بذلك المحصب ، وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب - أو بني المطلب - أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ)[1] .

في هذا الحديث دلالة على أصل القصة ، وما أورده أهل المغازي كالشرح لقول الرسول ﷺ السابق : « تقاسموا على الكفر »[2] وبيان ذلك أن قريشاً لما رأت إسلام حمزة وعمر - رضي الله عنهما - وفشو الإسلام في القبائل ، ثم تواثق بني المطلب وبني هاشم على حياطة الرسول ﷺ ، ومنعه مسلمهم وكافرهم ، مسلمهم إيماناً ، وكافرهم حمية ، لما رأت قريش ذلك اجتمعوا وتحالفوا على أن لا يناكحوا بني هاشم وبني المطلب ولا يبايعوهم ولا يكلموهم حتى يسلموا إليهم

(١) متفق عليه : الإمام البخاري ، صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٤٥٣/٣ ، رقم ١٥٩ ، واللفظ له ، والإمام مسلم ، صحيح مسلم ٩٥٢/٢ ، رقم ١٣١٤ .

(٢) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ١٩٣/٧ .

رسول الله ﷺ وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في الكعبة [١] ، قال ابن إسحاق : فانحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب وكانوا معه كلهم إلا أبا لهب فكان مع قريش [٢] ، وكان ابتداء حصرهم في أول يوم من المحرم سنه سبع من البعثة [٣] .

واشتد الحصار وقطعت عنهم الطعام ، فلم يكن المشركون يتركون شيئاً يصل إليهم في الشعب ، يقول ابن القيم :(وبقوا محبوسين ومحصورين مضيقاً عليهم جدا مقطوعاً عنهم الميرة والمادة نحو ثلاث سنين حتى بلغهم الجهد وسمع أصوات صبيانهم بالبكاء من وراء الشعب) [٤] واستمر الحال على ذلك حتى سعى في نقض الصحيفة ورفع هذا الظلم بعض أقارب من كان في الشعب وكان في مقدمة هؤلاء هشام بن عمرو بن الحارث والمطعم بن عدي وزهير بن أمية وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود ، فاتفقوا فيما بينهم على نقض الصحيفة ، وروي أن الله سبحانه وتعالى أطلع رسوله ﷺ على أمر صحيفتهم وأنه أرسل عليها الأرضة فأكلت جميع ما فيها من جور وظلم وقطيعة ، فأخبر بذلك عمه فأخبر كفار قريش ، فلما رأوا الأمر

---

(١) انظر: ابن هشام ، السيرة النبوية ١/٣٧٢ ، والنجم عمر بن فهد ، إتحاف الورى بأخبار أم القرى ١/ ٢٨٢ .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١/٣٧٢ ، وابن حجر ، فتح الباري ٧ / ١٩٢.

(٣) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٧/١٩٢ .

(٤) ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٣٠ .

كما أخبرهم أبو طالب زادوا كفراً على كفرهم ، وخرج الرسول ﷺ ومن معه من الشعب في العام العاشر من المبعث ، بعد أن مكثوا في الشعب ثلاث سنوات [١] .

نقف مع هذا المقطع من السيرة ؛ لنستفيد منه ما يلي :

أولاً : يكشف لنا هذا الحدث مدى ما وصلت إليه قريش في عداوتها للرسول ﷺ وأصحابه ، ومدى ظلمها وجورها ، فلم يقتصر أذاها على أمور معدودة ، بل أذى شديد متواصل يمتد ثلاث سنين في شعب من الشعاب ، يشمل الصغير والكبير ، والمرأة والرجل ، والرضيع والشيخ الكبير ، كلهم دخلوا الشعب وحصروا ، ومنع عنهم الطعام والشراب ، فأي قسوة ، وأي جور أعظم من هذا الجور والظلم ؟!.

الإسلام ـ هذا الذي واجهوه بهذا العنف الشديد ـ دين الشفقة والرحمة حتى مع المخالفين ، بل حتى مع بعض فئات المحاربين ، فعن نافع عن ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أخبر أن امرأة وجدت في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة ، فأنكر رسول الله ﷺ ذلك ،

---

(١) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٢ / ٣٠- ٣١ ، وابن حجر ، فتح الباري ٧ / ١٩٢ ، والشامي ، سبل الهدى والرشاد ٢ / ٥٠٢- ٥٠٦ ، وقال الدكتور مهدي زرق الله أحمد في السيرة النبوية ص ٢١٩ : (ولم يرد خبر أكل الأرضة للصحيفة بسند يحتج به) .

ونهى عن قتل النساء والصبيان [١] ونهى الإسلام عن قتل الشيخ الكبير والراهب في صومعته ، أما أعداء الدين فيقول الله سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [٢] .

ثانياً : من مواقف المقاطعة هذه تتبين صورة جلية لما لاقاه الرسول ﷺ وأصحابه ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ من أذى واضطهاد في دين الله ، والرسول ﷺ لا يقدم لأمته الأسوة في السراء فقط ، بل يقدمها لهم في السراء وفي الضراء ، فكما يُقْتَدَى به ﷺ في السراء يُقْتَدَى به في الضراء وفي مواجهة الشدائد .

ثالثاً : نأخذ من ظهور أفراد من كفار قريش يستنكرون أمر المقاطعة ، ويطالبون بنقض الصحيفة ، ويحتجون ، ويعترضون على استمرارها ، أن الباطل مهما طال الزمان فسينكشف ، فالزمان يزيد الحق وضوحا ويزيد الباطل زيفا ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [٣] ولقد انتهت المقاطعة على نحو فرق كلمة قريش وأوقع الصدام والنزاع بينهم ، وأظهر صبر الرسول ﷺ وأصحابه وقوتهم وثباتهم على نحو أقوى مما كانوا عليه من قبل .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، وصححه الألباني ، الألباني ، صحيح سنن الترمذي ٢ / ١١٠ ، حديث رقم ١٢٧٥ .
(٢) سورة التوبة ، الآية رقم (٨) .
(٣) سورة الإسراء ، الآية رقم (٨١) .

رابعاً : أن أهل المروءة والكرم قلما يخلو منهم زمان من الأزمنة ، وهؤلاء يمكن الاستفادة منهم في نصرة هذا الدين ، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، فعن أبي هريرة ﷺ أن الرسول ﷺ قال : « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر »(١) .

خامساً : من مقاطعة الكفار للمسلمين نرى صورة من صور الحرب التي كانت تكيدها قريش للرسول ﷺ ، وهي الحرب الاقتصادية ، فكفار مكة حينما أرادوا أن يحاربوا النبي ﷺ لم يحاربوه بالسلاح وإنما كانت حربهم له حرباً اقتصادية بالمقاطعة ، قاطعوه وقاطعوا أهله وقبيلته ومن تابعه ، بيعاً وشراء وتزويجاً ، والمسلمون أولى أن يعرفوا قيمة هذه الحرب وأن يقاطعوا كل أعداء الله المحاربين للمسلمين ، وليس بالضرورة أن يكون جهاد الأعداء المحاربين للمسلمين بالسلاح ، فعلى الأقل بالمقاطعة الاقتصادية في كل ما ينفعهم اقتصادياً أو مادياً أو تجارياً ؛ لأن عدم المقاطعة مع العدو المحارب للمسلمين مؤداه التأييد المادي لحربه للمسلمين ، ولا يكون المسلم عونا لكافر في حرب على المسلمين .

❁❁❁

(١) متفق عليه : الإمام البخاري ، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٦ / ١٨٩ ، كتاب الجهاد ، باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر ، رقم ٣٠٦٢ ، والإمام مسلم ، صحيح مسلم ١ / ١٠٥ ، حديث رقم ١٧٨ .

المبحث الثالث

فقه السيرة في وفاة أبي طالب

في هذا الوقت من الدعوة

لما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشاً خبر مرضه ، وقد أسلم حمزة وعمر - رضي الله عنهما - وفشا أمر الرسول ﷺ في قبائل قريش ، مشى وفد من قريش إلى أبي طالب وقالوا له : يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك، وطلبوا من أبي طالب أن يكف محمداً ﷺ عن دعوتهم ، فلما حضر الرسول ﷺ قال : أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم ، فقال أبو جهل ما هي ؟ وأبيك نعطيك عشر كلمات قال : تقولون : لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دون الله ، فقالوا : أجعل الآلهة إلهاً واحداً ، فنزل قول الله تعالى : ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ (١) .

---

(١) انظر : سنن الترمذي ٥ / ٤٤ ، حديث ٣٢٨٥ وقال عنه : هذا حديث حسن صحيح . وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي وقال : (ضعيف الإسناد) ص ٤٠٩ ، رقم ٦٣٦ ، والآيات من أول سورة (ص) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ لعمه : « قل لا إله إلا الله ، أشهد لك بها يوم القيامة » قال : لولا أن تعيرني قريش ، يقولون : إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ (١) (٢) .

وعن ابن المسيب عن أبيه : (لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أمية بن المغيرة ، فقال رسول الله ﷺ : يا عم قل : لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : أما والله لأستغفرن لك ، ما لم أنه عنك ، فأنزل الله تعالى : (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنه أصحاب الجحيم) وأنزل الله تعالى في أبي طالب ، فقال لرسول الله ﷺ : (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) (٣) .

---

(١) سورة القصص ، الآية رقم (٥٦) .

(٢) الإمام مسلم ، صحيح مسلم ١/٥٥ ، رقم الحديث (٢٥) .

(٣) متفق عليه : الإمام البخاري ، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٧ / ١٩٣ ، حديث رقم ٣٨٨٤ ، والإمام مسلم ، صحيح مسلم ١ / ٥٤ ، رقم ٣٩ واللفظ له .

وعن العباس بن عبد المطلب ﷺ أنه قال للنبي ﷺ : ما أغنيت عن عمك ، فإنه كان يحوطك ويغضب لك ، قال : « هو في ضحضاح [١] من النار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار » [٢].

وعن عبد الله بن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال : « أهون أهل النار عذابا أبو طالب ، وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه » [٣].

وكان موت أبي طالب في السنة العاشرة من البعثة [٤] ، وعمره حينئذ بضع وثمانون سنة [٥] وكان يذب عن النبي ﷺ ويرد عنه كل من يؤذيه ، وهو مقيم مع ذلك على دين قومه ومات على ذلك [٦].

---

(١) الضحضاح من الماء ما يبلغ الكعب ، وهو هنا استعارة والمعنى أنه خفف عنه العذاب . انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ١٩٤ .

(٢) أخرجه البخاري ، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٧ / ١٩٣ ، حديث رقم ٣٨٨٣ .

(٣) أخرجه الإمام مسلم ، صحيح مسلم ١ / ١٩٦ ، حديث رقم ٣٦٢ .

(٤) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ١٩٤ ، وابن حجر ، الإصابة ٧ / ١١٥ – ١١٦ ، وقال في الفتح : (في آخر السنة العاشرة) .

(٥) انظر : ابن حجر ، الإصابة ٧ / ١١٦ .

(٦) يدل على ذلك الأحاديث الصحيحة التي مرت والتي ذكرت أنه في النار وأنه لولا شفاعة الرسول ﷺ لكان في الدرك الأسفل من النار والعياذ بالله .

نقف مع هذا المقطع من السيرة : لنأخذ منه الفوائد التالية :

الأولى : عظم هذه الكلمة (لا إله إلا الله) التي تدين بها العرب والعجم ، ويحاج بها الرسول ﷺ لعمه لو قالها ، هذه الكلمة هي شهادة التوحيد التي هي إفراد الله بالعبادة ، فمن أفرد الله سبحانه وتعالى بالعبادة فقد استراح من عبودية الخلق والنظر إلى ما في أيديهم ، (وتحقيق التوحيد هو معرفته ، والاطلاع على حقيقته والقيام بها علما وعملا ، وحقيقة ذلك انجذاب الروح إلى الله محبة وخوفا وإنابة وتوكلا ودعاء وإخلاصا وإجلالا وهيبة ، وتعظيماً وعبادة ، وبالجملة فلا يكون في قلبه شيء لغير الله ، ولا إرادة لما حرم الله ، ولا كراهة لما أمر الله وذلك هو حقيقة لا إله إلا الله)(١) .

الثانية : من موقف الكفار حينما قبلوا إعطاء الكلمة التي طلبها الرسول ﷺ ، فلما أدركوا أن المطلوب هو قول : (لا إله إلا الله) نكلوا وتراجعوا وقالوا : أتريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ؟ فهم يدركون معناها ، ويعلمون ما يترتب على القول بذلك من ترك الأوثان التي يطوفون حولها ويدعونها من دون الله .

فهؤلاء المشركون أعرف بهذه الكلمة من كثير من الناس الذين يقولون : لا إله إلا الله ثم ينقضونها بعملهم ، حينما يطوفون حول

---

(١) الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن الوهاب ، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص ٩٩ .

القبور أو يدعونها أو يقدمون لها القرابين أو يرجون نفعها أو يخافون ضرها ، بل من هؤلاء من يطوف حول القبر وهو يقول : لا إله إلا الله ولا يدري مدى التناقض بين القول والعمل ، التوحيد هو خلاصته دعوة الأنبياء كافة ، من جاء به نجا ومن أشرك بالله فإن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (١) .

الثالثة : لعلنا نتساءل عن الحكمة من بقاء أبي طالب على دين قومه ، وموته على ذلك ، رغم ما قام به من نصرة ودفاع عن الرسول ﷺ ، يقول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن الله امتحن قلبه ـ أي قلب أبي طالب ـ بحب محمد ﷺ حبا طبيعياً لا شرعيا ، وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى ، ومما صنعه لرسوله من الحماية ، إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة ، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه ، ولتجرؤا عليه ، ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه ، وربك يخلق ما يشاء ويختار) (٢) وقال ابن القيم : (وكان من حكمة أحكم الحاكمين بقاؤه على دين قومه ؛ لما في ذلك من المصالح التي تبدو لمن تأملها) (٣) يعني بذلك أبا طالب .

---

(١) سورة النساء ، الآية رقم (٤٨) .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٤٥ - ٤٦ ، وانظر : الشيخ محمد بن عثيمين ، شرح العقيدة الواسطية ٢ / ١٧٦ .

(٣) ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٢٢ .

الرابعة : لقد حرص الرسول ﷺ على عمه وبذل ما استطاع من جهد لهدايته ، ولكن في اللحظات الأخيرة حضر جليس السوء ، فكان كلما دعاه الرسول ﷺ لقول : لا إله إلا الله ، ذكره جلساء السوء ملة عبد المطلب ، فأصر عليها ، وتمسك بها ، ومات عليها ، ولم يقل : لا إله إلا الله ، وأي حرمان أشد من هذا الحرمان بسبب جلساء السوء الذين كثيراً ما أضلوا وأفسدوا دون أن يشعر المجتمع بأثرهم إلا بعد فوات الأوان ، ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾(١) .

الخامسة : قاتل الله أصحاب السوء ، فهم يجرمون في حق من يصاحبون ، وبقدر ما كان لأهل السوء من أثر في الختام السيئ لأبي طالب فقد كان للعادات والتقاليد أثرها في ميتته على الشرك(٢) ، وقد صرح بهذا الأثر عندما قال للنبي ﷺ : (لولا أن تعيرني قريش لأقررت بها عينك) كما مر قبل قليل .

---

(١) سورة الفرقان ، الآيات رقم (٢٧ - ٢٩) .

(٢) انظر : سليمان العودة ، السيرة النبوية في الصحيحين عند ابن إسحاق دراسة مقارنة في العهد المكي ص ١٩٩ .

السادسة : أن العبرة بالخواتيم ، فأبو طالب مع كفره طول عمره لو ختم له بالتوحيد لكان الحكم له ، وهذا يذكرنا بأهمية الخاتمة فإن العبرة بها ، ومن أدرك قيمة الخاتمة في حياته لم يقترف معصيةً خشية أن يختم عمره بها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [١] .

السابعة : مضرة تقليد الآباء والأجداد والتأسي بما كانوا عليه من عادات وتقاليد دون ضابط من الشرع ، وأبو طالب كلما دعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام أجاب بالتمسك بما عليه الآباء والأجداد ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [٢] يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (وما على العبد أضر من ملك العادات له ، وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين ، فمن لم يوطن نفسه على مفارقتها والخروج عنها والاستعداد للمطلوب منه فهو مقطوع وعن فلاحه وفوزه ممنوع) [٣] .

الثامنة : أن الهداية بيد الله سبحانه وتعالى ، وليست بيد أحد من البشر ، وليس على الشخص إلا أن يبذل جهده ، أما التوفيق للخير

---

(١) سورة آل عمران ، الآية رقم (١٠٢) .

(٢) سورة الزخرف ، الآية رقم (٢٢) .

(٣) عبد المنعم العلي ، تهذيب مدارج السالكين لابن القيم ص ١٠٤ .

فهذا بيد الله سبحانه وتعالى ، فمسؤولية المسلم هي هداية الدلالة والإرشاد كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾ (١) ، وليس عليه هداية التوفيق كما قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (٢) وفي هذا عزاء للمسلم حينما يرى أحيانا جهوده تذهب سدى ، فيذكر بموقف الرسول ﷺ مع أبي طالب الذي دعاه وكرر الدعوة ولكن لم يستجب ولم يكتب له الفلاح .

التاسعة : شدة عذاب النار فأبو طالب في ضحضاح من النار تبلغ كعبيه يغلي من حرها دماغه ومع ذلك فهو أهون أهل النار عذابا ، فكيف بما فوق ذلك ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ (٣) .

العاشرة : أن أبا طالب مات على الكفر ، يدل لذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ (٤) قال النووي : (أجمع المفسرون على أنها نزلت في أبى طالب) (٥) ولقوله تعالى :

---

(١) سورة الشورى ، الآية رقم (٥٢) .

(٢) سورة القصص ، الآية رقم (٥٦) .

(٣) سورة الذاريات ، الآيتان رقم (٥٠ - ٥١) .

(٤) سورة القصص ، الآية رقم (٥٦) .

(٥) النووي ، شرح صحيح مسلم ١ / ٢١٥ .

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾[(١)].

فقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت لما قال الرسول ﷺ عن أبي طالب : (أما والله لاستغفرن لك ما لم أنه عنك)[(٢)].

الحادية عشرة : في هذه القصة دلالة على صحة إسلام أو توبة من حضرته الوفاة ، فلولا أن الإسلام يصح منه ما طلبه منه الرسول ﷺ ، وذلك قبل المعاينة والنزاع ، ولو كان في حال المعاينة والنزاع لما نفعه الإيمان ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾[(٣)].

الثانية عشرة : جاء في الحديث الذي سبق الإشارة إليه (قال أبو طالب آخر ما كلمهم به هو على ملة عبد المطلب) قال النووي ـ رحمه الله تعالى ـ : (فهذا من أحسن الآداب والتصرفات وهو أن من حكى قول غيره القبيح أتى به بضمير الغيبة ؛ لقبح صورة لفظه الواقع)[(٤)].

---

(١) سورة التوبة ، الآية رقم (١١٣).

(٢) متفق عليه : الإمام البخاري ، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٧/ ١٩٣ ، رقم ٣٨٨٤ ، والإمام مسلم ، صحيح مسلم ١/ ٥٤ ، رقم ٣٩ وسبق إيراده كاملاً قبل عدة صفحات .

(٣) سورة النساء ، الآية رقم (١٨)، وانظر : النووي ، شرح صحيح مسلم ١ / ٢١٤ .

(٤) النووي ، شرح صحيح مسلم ١ / ٢١٤ .

الثالثة عشرة : حقوق الأقارب ظاهرة في هذه القصة ، فقد بذل الرسول ﷺ مزيد اعتناء وحرص على إسلام أبى طالب وذلك لقرابته منه ﷺ ، وحق القريب أكثر من حق غيره ، قال تعالى : ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾[1] ، وقال تعالى للرسول ﷺ : ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾[2] ، فعلى المسلم أن يعطى أقاربه مزيد عناية واهتمام بالدعوة والتوجيه والنصح ، ونحن نرى كثيراً من الناس لهم جهود في الدعوة إلى الله لكنهم مع أقاربهم في غفلة كبيرة عنهم وهذا من التقصير الذي ينبغي أن ينتبه إليه ؛ ليتم تلافيه .

الرابعة عشرة : الوفاء من الرسول ﷺ لأبي طالب الذي ساند الرسول ﷺ ، وكانت له المواقف الكثيرة التي يحمد عليها ، ولما سأل العباس رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن نفع الرسول ﷺ لأبي طالب مقابل ذلك بين الرسول ﷺ لعمه أنه لم ينس هذا الصنيع وأنه قد شفع له شفاعة خاصة[3] جعلته في ضحضاح من النار وهو أهون أهل النار عذابا ولولا شفاعة الرسول ﷺ لكان في الدرك الأسفل من النار[4] .

---

(١) سورة النساء ، الآية رقم (٣٦) .

(٢) سورة الشعراء ، الآية رقم (٢١٤) .

(٣) انظر : ابن عثيمين ، شرح العقيدة الواسطية ٢ / ١٧٥ .

(٤) سبق تخريج هذه الأحاديث في بداية هذا المبحث .

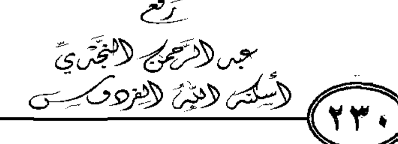
وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم من الوفاء لأصحاب الفضل والاعتراف لهم بالجميل والسعي في مكافأتهم بما يسوغ شرعا وفق استطاعته .

الخامسة عشرة : أن سبب التخفيف عن أبي طالب مع أنه مات مشركا إنما هو النبي ﷺ (أي شفاعته) وليس عمل أبى طالب ، فلا تعارض حينئذ بين حديث شفاعته ﷺ لعمه وبين بطلان عمل المشركين .

فالتخفيف هنا خصوصية للرسول ﷺ وكرامة أكرمه الله بها جل شأنه حيث قبل شفاعته في عمه أبى طالب وقد مات على الشرك والله يختص بفضله من يشاء ومن أحق بذلك من رسول الله ﷺ سيد الأنبياء ـ عليهم جميعاً أفضل الصلاة والتسليم ـ ؟ [1] .

❁❁❁

(١) انظر :الألباني ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، المجلد الأول ، حديث رقم (٥٥) .



المبحث الرابع

فقه السيرة في خروجه ﷺ إلى الطائف للدعوة إلى الله سبحانه وتعالى

بعد موت أبي طالب و خديجة ـ رضي الله تعالى عنها ـ اشتد البلاء على رسول الله ﷺ من سفهاء قومه ، وتجرؤوا عليه ، وكاشفوه بالأذى ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف [1] ، وهي تبعد نحو ثمانين كيلا من مكة ، خرج سيراً على الأقدام ذهابا وعودة ، ومعه مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه ، يبتغي الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، والإيواء والنصرة على قومه والمنعة منهم .

وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الله سبحانه وتعالى ، فلم تجب إليه واحدة منها .

ولما انتهى إلى الطائف عمد إلى ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف وهم : عبدياليل [2] ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي ، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله سبحانه وتعالى ، فقال أحدهم : هو يمرط [3]

---

(١) انظر : النجم عمر بن فهد ، إتحاف الورى ١ / ٣٠٩ ، وفيه أن خروجه ﷺ إلى الطائف كان في شوال السنة العاشرة من البعثة ، والعلم عند الله جل شأنه .

(٢) الذي في صحيح البخاري ـ كما سيأتي ـ ابن عبد ياليل وما في الصحيح هو الصحيح .

(٣) يمرط : المرط : نتف الشعر والريش والصوف عن الجسد ، والمراد هنا أي : يمزق ، ابن منظور ، لسان العرب ٣٩٩/٧ ، مادة (مرط).

ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ، وقال الآخر : أما وجد الله أحداً غيرك ، وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، إن كنت رسولاً لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، فقام عنهم رسول الله ﷺ وقال لهم : إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني .

وأقام الرسول ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام لا يدع أحداً من أشرافهم إلا دعاه إلى الله سبحانه وتعالى ، فقالوا : اخرج من بلادنا ، وأغروا به سفهاءهم ، فوقفوا له سماطين [1] وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه ، وزيد بن حارثة رضي الله عنه يقيه بنفسه حتى أصابه شجاج في رأسه ، فانصرف راجعا من الطائف إلى مكة محزونا ، والتجأ إلى حائط لعتبة وشيبة ابْنَيْ ربيعة ، وهناك جلس تحت ظل شجرة ودعا بالدعاء المشهور « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني ؟ أو إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل علي غضبك أو أن ينزل بي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » [2] .

---

(١) سماطين : سماط القوم أي صفهم ، يقال : قام القوم حوله سماطين أي صفين ، و كل صف من الرجال سماط ، ابن منظور ، لسان العرب ٣ / ٣٢٥ ، مادة (سمط) .

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦ / ٣٥ : رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق مدلس وبقية رجاله ثقات ، وأخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي ٢ / ٢٧٥ ،

فلما رآه ابنا ربيعة على هذه الحال بعثا إليه غلاماً لهما اسمه عداس بقطف عنب، فلما مد يده ﷺ ؛ ليأكل قال : « بسم الله » ثم أكل ،فقال عداس : إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له الرسول ﷺ : « من أي البلاد أنت ؟ وما دينك ؟ » قال: نصراني من أهل نينوى ، فقال الرسول ﷺ : « من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى » ، فقال له وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال رسول الله ﷺ : « ذاك أخي كان نبيا وأنا نبي » ، فأكب عداس على رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبلهما [(١)] ، فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر : أما غلامك فقد أفسده الرجل ، فلما جاء عداس قالا له : ويحك ما هذا ؟ قال : يا سيدي ما في الأرض شئ خير من هذا الرجل ، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي ، قالا له : ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير لك [(٢)] .

ورجع رسول الله ﷺ في طريقه إلى مكة ، فلما بلغ قرن الثعالب بعث إليه جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبل يستأمره بأن يطبق الأخشبين [(٣)] على أهل مكة .

رقم ١٨٣٩ ، وضعف الألباني هذا الحديث في تعليقه على فقه السيرة للغزالي ص ١٢٦ .

(١) ذكر ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ عداس هذا في القسم الأول من الإصابة ، انظر : ٤ / ٢٢٧ ، وانظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ١٣٦ ، والبيهقي ، دلائل النبوة ٢ / ٤١٦ ، وأكرم العمرى ، السيرة النبوية الصحيحة ١ / ١٨٥ - ١٨٦ .

(٢) انظر : السهيلي ، الروض الأنف ٢ / ١٧٢ ، وابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٣١ ، والشامي ، سبل الهدى ٢ / ٥٧٦ ، والقسطلاني ، المواهب اللدنية ١ / ٢٦٧ .

(٣) الأخشبان : الأخشب هو الجبل الخشن الغليظ ، والأخشبان : هما الجبلان اللذان عن يمين المسجد الحرام ويساره ، والمراد بهما ، قعيقعان وأبو قبيس ، انظر : محمد شراب، المعالم الأثيرة ص ٢٣ .

ففي الصحيحين عن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقْبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبل ؛ لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبل فسلم علي ثم قال : يا محمد ، فقال : ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبي ﷺ : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً »(١) .

وقام في تلك الليلة يصلي ، فصرف إليه نفر من الجن ، فاستمعوا قراءته(٢) ، ولم يشعر بهم الرسول ﷺ حتى نزل عليه قول الله تعالى :

---

(١) متفق عليه . صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٦ / ٣١٢ ، حديث رقم ٣٢٣١ ، وصحيح مسلم ٣ / ١٤٢٠ ، حديث رقم ١٧٩٥.

(٢) جرينا في هنا على ما ورد في كثير من كتب السيرة : أن استماع الجن لقراءة القرآن الكريم ، كانت تلك الليلة مرجعه من الطائف ، وإن كان في المسألة خلاف بين العلماء : ويرجع في ذلك إلى : ابن كثير ، تفسير ابن كثير ٤/١٦٣ وقال : (... ولكن قوله إن الجن كان استماعهم تلك الليلة ـ أي ليلة الرجوع من الطائف ـ فيه نظر ، فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء) ، وابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٣٢ وقال : (فلما مر بنخلة مرجعه ، قام يصلي من الليل ، فصرفت إليه نفر من الجن فاستمعوا

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (١)

ولما أقبل على مكة قال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟ يعني قريشا ، فقال : « يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه » .

فأرسل إلى الأخنس بن شريق ؛ ليجيره ، فاعتذر ثم أرسل إلى سهيل بن عمرو فاعتذر ، ثم أرسل إلى المطعم بن عدي فأجاره (٢) ، وقد حفظ الرسول ﷺ للمطعم هذا الصنيع ، فقال في أسارى بدر : « لو كان المطعم بن عدي حياً ، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له » (٣) .

قراءته ...) ، وابن حجر ، فتح الباري ٨ / ٦٧٠ ، والسهيلي ، الروض الأنف ٢ / ١٧٣ ، والقسطلاني ، المواهب اللدنية ١ / ٢٧٠ .

(١) سورة الأحقاف ، الآيات رقم (٢٩ - ٣٢) .

(٢) انظر : الشامي ، سبل الهدى ٢ / ٥٨٠ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٦ / ٢٤٣ ، رقم الحديث ٣١٣٩ .

نقف مع هذا الجزء من السيرة النبوية ؛ لندون الفوائد التالية :

الأولى : نلحظ أن الرسول ﷺ عندما دخل الطائف بدأ بأكابرها ، وحينئذ فالشخص يبدأ في دعوته إلى الله مع الأب في المنزل ؛ لأن له تأثيراً على من في منزله ، وفي القرية أو البلدة ينبغي على الداعية إلى الله أن يقدر أميرها ويبدأ بالذهاب إليه ، وزيارته ، بل ويستحسن الاستئذان منه ، والذي لا يفرق في الدعوة بين كبير وصغير ، وأمير ووضيع ، يقع في أخطاء كثيرة والرسول ﷺ يبدأ مع كبار الطائف ووجهائها ولما لم يستجيبوا له رجع وتركهم .

الثانية : نلحظ أيضا أن الرسول ﷺ لما رأى إعراض القوم عن الاستجابة ، قال : « اكتموا عني » ، وهذا يدلنا على أن الحكمة تقتضي أن لا يتحدث الشخص عن كل شيء ، بل إن بعض الأمور يكتمها الشخص ويسعى إلى كتمها ، وعدم نشرها ؛ لما في ذلك من الضرر ، وفي الحديث عن الرسول ﷺ « استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود » [1] و إنما طلب كتم إساءتهم له ؛ لأن هذا مما يسر به الأعداء في مكة .

---

(١) أخرجه الطبراني : الطبراني ، المعجم الكبير ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، الطبعة الثانية (الموصل : مكتبة العلوم والحكم ١٤٠٤هـ) ٢٠ / ٩٤ ، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٥/٢١٥ ، وقال الهيثمي في المجمع ٨ / ١٩٥ : (رواه الطبراني في الثلاثة وفيه سعيد بن سلام العطار ، قال العجلى : لا بأس به ، كذبه أحمد وغيره وبقية رجاله ثقات

الثالثة : لما خرج الرسول ﷺ من الطائف واصطف له سفهاء الطائف يرمونه بالحجارة ، كان زيد بن حارثة رضي الله عنه يقي الرسول ﷺ بنفسه ، فكانت الحجارة تصيب زيداً رضي الله عنه حتى شج عدة شجاج .

لقد كان زيد رضي الله عنه يقي الرسول ﷺ بنفسه ، ونحن اليوم نقي سنة رسول الله ﷺ ، كان زيد رضي الله عنه يدافع عن الرسول ﷺ وعلينا اليوم أن ندافع عن سنة الرسول ﷺ ، والدفاع عنها يكون بالمحافظة عليها ، والعمل بها ، والحرص كل الحرص على التأسي به ﷺ ، وإحياء سنته في أمور حياتنا ، والرد على كل زائغ عنها ، أو مبتدع ما ليس منها ، ونعلم أن السعادة كل السعادة والفوز كل الفوز في التمسك بهذه السنة والعض عليها بالنواجذ .

الرابعة : عندما خرج الرسول ﷺ من الطائف بعدما واجه الأذى منهم ، وقد أجهد أيما إجهاد ، ونال منه التعب كل منال ، رفع يديه إلى ربه يدعو ـ كما ورد في كتب السير ـ ولذلك فاللجوء إلى الله في الشدائد هو المنهج الصحيح ، ثم إن الدعاء والإلحاح في الدعاء لا يعارض الصبر ، بل يصبر المسلم على ما يلاقي ويرفع يديه يرجو الفرج من الله تعالى .

إلا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع وزياداته ١/ ٣٢٠ ، رقم ٩٥٦ .

الخامسة : في قبول الرسول ﷺ هدية ابني ربيعة شيبة وعتبة لما بعثا إليه بعنقود العنب نأخذ منه جواز قبول هدية الكافر واستعمالها حيث أكل الرسول ﷺ قطف العنب الذي بعثوا به إليه [١] .

السادسة : في قصته الرسول ﷺ مع عداس عدة فوائد منها :

أ. أن الرسول ﷺ لا يحقر أحداً في تبليغه رسالة ربه [٢] ، فقد دعا الغلام النصراني (عداس) إلى الله سبحانه وتعالى وحاوره حتى أسلم كما يظهر من الحوار الذي أوردته كتب السير [٣] .

ب. أن سبب إسلام عداس ، بل بداية الحوار كان بسبب تسمية الرسول ﷺ عندما أراد الأكل ، وهكذا المسلم يدعو إلى الله سبحانه بعمله كما يدعو بقوله ، ويحرص على الالتزام بالآداب الإسلامية ، لنفسه وتعليماً ودعوة لغيره ، وليعلم أن سلوكه مؤثر خيراً أو شراً .

ت. أن عداس لما عرف الرسول ﷺ أكب عليه يقبل رأسه ويديه ورجليه ، فهو غلام نصراني مطلع على الكتب [٤] يعرف الرسول

---

(١) انظر : عبد الرحمن بن قاسم ، الدرر السنية ٧ / ٨٣ (الرياض : د. ن ١٤١٤هـ) الطبعة الخامسة .

(٢) انظر : النجم عمر بن فهد ، إتحاف الورى ١ / ٣١٢ ، والبيهقي ، دلائل النبوة ٢ / ٤١٦ .

(٣) انظر : ابن حجر ، الإصابة ٤ / ٢٢٧ ، فقد نقل عن التيمي في السيرة أنه قال للنبي ﷺ : (أشهد أنك عبد الله ورسوله) ، والقسطلاني ، المواهب اللدنية ١ / ٢٦٩ وقال : (فأكب عداس على يديه ورأسه ورجليه يقبلها وأسلم) ، ومهدي رزق الله ، السيرة النبوية ص ٢٣٢ ، هامش رقم (٢) .

(٤) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٢ / ١٥ ، وابن حجر ، الإصابة ٤ / ٢٢٧ .

ومنزلته ، وهو درس لنا في توقير الرسول ﷺ ، وتوقيره اليوم يكون باتباع سنته والعمل بها والدعوة إليها وعدم معارضتها بالآراء والعقول .

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في تهذيب مدارج السالكين : (رأس الأدب معه ـ أي مع الرسول ﷺ ـ كمال التسليم له والانقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسميه معقولا ، أو يحمله شبهة أو شكاً ، أو يقدم عليه آراء الرجال وزبالات أذهانهم ، فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان كما وحد المرسِل سبحانه تعالى بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل)[(١)].

السابعة : في موقف الرسول ﷺ بعد خروجه من الطائف ومجيء جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبل نستفيد ما يلي :

١) إكرام الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ ، فقد أذن الله تعالى لملك الجبال أن لو شاء النبي ﷺ أن يطبق على أهل مكة جبليها لفعل ، فأعظم بها من منزلة رفيعة للنبي ﷺ[(٢)].

٢) من قول الرسول ﷺ لملك الجبال يتضح لنا الهدف الذي يسعى إليه الرسول ﷺ وهو هداية الناس وإخراجهم من ظلمات

---

(١) عبد المنعم العلي ، تهذيب مدارج السالكين لابن القيم ص ٤٥١ .

(٢) انظر : الأصبهاني ، دلائل النبوة ٣ / ٨٩٧ ، الهامش تعليق المحقق الحميد .

الشرك إلى نور التوحيد ، أما الانتقام ممن اعتدى عليه وآذاه فلم يكن يلتفت إلى ذلك ، إذ لو كان هذا غاية عند الرسول ﷺ لبادر إلى طلب هلاكهم عندما عرض عليه ملك الجبال ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى .

الثامنة : في طريق عودة الرسول ﷺ مهموماً نجده ﷺ يلتجئ إلى ربه ويقوم الليل يصلى ويتلو كتاب الله سبحانه وتعالى ، لقد قام ﷺ يصلى وهو في سفر وعناء ومشقة وإيذاء ، وهذا يدعونا إلى أن نتذكر قيام الليل ، فلا نغفل عنه ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ (١) ، وقيام الليل شرف المؤمن ، يقول الرسول ﷺ في الحديث الحسن الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام قال للرسول ﷺ : (يا محمد شرف المؤمن قيام الليل) (٢) .

التاسعة : من حضور الجن قراءة الرسول ﷺ القرآن نلمس أمرين مهمين :

أ. أدب الجن في استماعهم للقرآن الكريم ، فإنهم لما حضروا التلاوة قال بعضهم لبعض أنصتوا : (فلما حضروه قالوا أنصتوا) وهذا من الآداب المهمة عند تلاوة كتاب الله سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية رقم (٢١) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤ /٣٢٥ ، وصححه ، ووافقه الذهبي في التلخيص ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته ٣ / ٢٢٩ ، رقم ٣٦٠٤ .

ب. وصفه سبحانه وتعالى لحال الجن بعد استماعهم للقرآن الكريم بقوله سبحانه : ﴿ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ (١) وهذه مسؤولية الدعوة إلى الله التي نتذكرها ونحن نقرأ مبادرة الجن إلى إنذار قومهم فور سماعهم لآيات الله سبحانه وتعالى .

العاشرة : أن الرسول ﷺ رغم ما واجهه من أذى في مكة والطائف وما لاقاه من عنت ، ومع ذلك يقول لزيد ـ كما روت ذلك كتب السير ـ : « إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه » ، فالمؤمن لا يعرف اليأس ، ولا يصيبه الإحباط ، يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ : (وهذا المذهب المهين وهو التشاؤم والكسل لا يعرفه الإسلام ولا يرتضيه ، بل يحذر منه أشد تحذير ويبين للناس أن النجاح مأمول ، وأن مع العسر يسرا وأنه سيجعل الله بعد عسر يسرا ، ويبين أنه لا أضر عليهم من اليأس والقنوط) (٢) .

الحادية عشرة : حفظ الرسول ﷺ للجميل ، وحرصه على الوفاء ، فقد حفظ الرسول ﷺ للمطعم موقفه وعونه للرسول ﷺ في دخول مكة ، وذكر له هذا الموقف يوم انتصر على الكفار ، وأخذ

---

(١) سورة الأحقاف ، الآية رقم (٢٩) .

(٢) الشيخ السعدي ، الجهاد في سبيل الله ص ١٧٣ ، مطبوع ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن السعدي ، القسم الخامس ، الجزء الأول .

الأسرى معه ، وأخبر أن المطعم لو كان حيا وطلب منه ترك هؤلاء الأسرى لأطلقهم لأجله ، والوفاء وحفظ الجميل من شيم الرجال الكرام ، والرسول ﷺ يقول : « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » (١) .

❁❁❁

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢ / ١٨٥ ، حديث رقم ١٥٩٢ عن أبي هريرة .

المبحث الخامس

فقه السيرة في الإسراء والمعراج

(كانت حادثة الإسراء والمعراج معجزة باهرة ، ومعلمة للنبوة جلية ظاهرة ، وهي من خصوصيات نبينا محمد ﷺ ، فلم يقع لغيره من الأنبياء والرسل مثلها أو شبيه بها [١] وهي من الآيات المكية التي وقعت للنبي ﷺ قبل الهجرة ، والمتتبع لسيرة النبي ﷺ يرى أن ثمة أحوالاً أليمة وحوادث قد سبقت الإسراء والمعراج ، فموت أبي طالب عمه الذي كان حصناً له أمام الكفار وناصراً ، وموت خديجة ـ رضى الله تعالى عنها ـ الزوجة الوفية ، سكن النبي ﷺ ، وهجرة من هاجر من أصحابه إلى الحبشة فراراً بدينهم ، وخروجه ﷺ إلى الطائف [٢] داعياً أهلها للإيمان والإسلام ونصرة الدين ، فما كان منهم إلا أن رفضوه وما جاء به ، فلما اجتمعت هذه الصعاب أكرمه الله تبارك وتعالى بالمعجزة الساطعة والمكرمة الناصعة : الإسراء والمعراج) [٣]

---

(١) انظر : ابن تيمية ، الجواب الصحيح ٤ /١٦٥ ، والقسطلاني ، المواهب اللدنية ٣ / ١٥ ، والنووي ، شرح صحيح مسلم ٢ / ٢٢١ .

(٢) هذا الذي جرى عليه ابن القيم ٣١/٣ و ٣٤ وغيره وهو ما مال إليه المباركفوري في الرحيق المختوم بعد عرضه للخلاف ص ١٥٥ أن الخروج إلى الطائف سابق للإسراء ، وفي المسألة خلاف أشار إليه ابن كثير في البداية والنهاية ١٠٨/٣ وغيره .

(٣) مساعد الحميد ، دلائل النبوة للأصبهاني ١ / ٢٥٨ - ٢٥٩ (تعليق المحقق) .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1] هذا في شأن الإسراء ، أما المعراج فقد أخرج البخاري ومسلم واللفظ للبخاري عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة ﷺ « أن نبي الله ﷺ حدثه عن ليلة أسري به قال : بينما أنا في الحطيم ـ وربما قال في الحجر ـ مضطجعاً إذ أتاني آت فقد - قال وسمعته يقول : فشق - ما بين هذه إلى هذه ، فقلت للجارود وهو إلى جنبي : ما يعني به ؟ قال : من ثغرة نحره إلى شعرته ـ وسمعته يقول من قصه إلى شعرته ـ فاستخرج قلبي ، ثم أتيت بطشت من ذهب مملوءة إيمانا فغسل قلبي ، ثم حُشي ، ثم أعيد ،ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض ، فقال له الجارود : هو البراق يا أبا حمزة ؟ قال أنس : نعم ، يضع خطوه عند أقصى طرفه ، فحملت عليه ، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال: محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً ، فنعم المجيء ، جاء ففتح ، فلما خلصت إليه فإذا فيه آدم فقال : هذا أبوك آدم ، فسلم عليه ، فرد السلام ، ثم قال : مرحباً بالابن الصالح والنبي

---

(١) سورة الإسراء والمعراج ، الآية رقم (١) .

الصالح ،ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية ، فاستفتح ،قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل: مرحباً به ، فنعم المجيء جاء ، ففتح فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة ، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما ، فسلمت ، فردا ، ثم قالا : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح ، قيل من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح ، فلما خلصت إذا يوسف ، قال : هذا يوسف فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، ثم صعد بي حتى أتى السماءُ الرابعة فاستفتح ، قيل من هذا ؟ قال جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد، قيل : أوقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبا به فنعم المجيء جاء ، ففتح فلما خلصت فإذا إدريس ، قال : هذا إدريس فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ﷺ ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت فإذا هارون ، قال : هذا هارون فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ،

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل من معك ؟ قال محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قال مرحباً به فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت فإذا موسى ، قال : هذا موسى فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، فلما تجاوزت بكى قيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكى ؛ لأن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي ، ثم صعد بي على السماء السابعة فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم ، قال : مرحباً به ، ونعم المجيء جاء فلما خلصت فإذا إبراهيم ، قال : هذا أبوك فسلم عليه ، قال فسلمت عليه ، فرد السلام ، ثم قال : مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح ، ثم رفعت لي سدرة المنتهى ، فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة قال : هذه سدرة المنتهى ، وإذا أربعة أنهار : نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، فقلت : ما هذان يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران في الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات ، ثم رفع لي البيت المعمور ، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل فأخذت اللبن ، فقال : هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك ، ثم فرضت عليّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم ، فرجعت فمررت على موسى ، فقال : بما أمرت ؟ قال : أمرت بخمسين صلاة كل يوم ،

قال : إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، وإني والله قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك ، فاسأله التخفيف لأمتك ، فرجعت ، فوضع عنى عشراً فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عنى عشراً فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عنى عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم ، فرجعت فقال مثله ، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم ، فرجعت إلى موسى فقال : بما أمرت ؟ قلت : أمرت بخمس صلوات كل يوم ، قال : إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم ، وإني قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، قال سألت ربى حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم ، قال فلما جاوزت نادى مناد : أمضيت فريضتي ، وخففت عن عبادي »[1] .

وفي المسند عند الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أن الرسول ﷺ أخبر الناس بالإسراء [قالوا إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس ، قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم ، قال : فمن بين مصفق ، ومن بين واضع يده على رأسه

---

(١) متفق عليه : واللفظ للبخاري ، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٧ / ٢٠١-٢٠٢ ، رقم ٣٨٨٧ ، وصحيح مسلم ١ / ١٤٩ ، رقم ٢٦٤ .

، متعجبا للكذب زعم ! قالوا : وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد ، فقال رسول الله ﷺ : فذهبت أنعت ، فما زلت أنعت حتى التبس علي بعض النعت ، قال : فجيء بالمسجد وأنا أنظر ، حتى وضع دون دار عقال أو عقيل ، فنعته ، وأنا أنظر إليه ، قال : وكان مع هذا نعت لم أحفظه ، قال : فقال القوم : أما النعت فو الله لقد أصاب)[١] .

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (فلما أصبح رسول الله ﷺ في قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته الكبرى فاشتد تكذيبهم له ، و أذاهم ، وضراوتهم عليه ، .... وأخبرهم عن عيرهم في مسراه ورجوعه ، وأخبرهم عن وقت قدومها ، وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها وكان الأمر كما قال فلم يزدهم ذلك إلا نفورا ، وأبى الظالمون إلا كفورا)[٢] وإن كان هذا موقف الكفار من حادث الإسراء والمعراج فقد ارتد أيضا ناس ممن كانوا قد أسلموا ، ممن كانوا ضعفاء الإيمان[٣]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ، تحقيق أحمد شاكر ٤/ ٢٩٣ ، رقم ٢٨٢٠ وقال محققه : إسناده صحيح وهو عند الهيثمي في مجمع الزوائد ١/٦٤- ٦٥ وقال : (رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ، ورجاله رجال الصحيح) .

(٢) ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٣٩ .

(٣) انظر : الحاكم ، المستدرك ٣ / ٦٢ وقال عن الحديث : (صحيح الإسناد) ووافقه الذهبي ، وابن كثير ، تفسير ابن كثير ٣ / ٢٣ ، وانظر : الألباني ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، رقم (٣٠٦) المجلد الأول ، وأكرم ضياء العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ١ / ١٩٢ وقال : (وقد صح أن بعض المسلمين ارتدوا) .

، فاهتز إيمانهم لأدنى حدث ، وثبت على الإيمان الفئة الراسخة في إيمانها يتقدمهم أبو بكر الصديق ﷺ ، فإنه لما بلغه الخبر صدق دون تردد ، فعن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ قالت : (لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك ، فارتد ناس ممن كان آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبي بكر الصديق ﷺ ، فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أُسْرِيَ به الليلة إلى البيت المقدس ؟ قال : أَوَ قال ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق ، قالوا : أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم ، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة ، فلذلك سُمي أبو بكر الصديق)[١] .

يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (وقد اختلف السلف بحسب اختلاف الأخبار الواردة (في الإسراء والمعراج) فمنهم من ذهب إلى أن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسد النبي ﷺ وروحه بعد المبعث ، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة ولا ينبغي العدول عن ذلك)[٢] .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣ / ٦٢ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي في التلخيص .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ١٩٧

أما رؤية النبي ﷺ للأنبياء ليلة الإسراء ، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ : (وأما رؤيته ـ أي موسى عليه السلام ـ ورؤية غيره من الأنبياء ليلة المعراج في السماء لما رأى آدم في السماء الدنيا ، ورأى يحيى وعيسى في السماء الثانية ، ويوسف في الثالثة ، وإدريس في الرابعة ، وهارون في الخامسة ، وموسى في السادسة ، وإبراهيم في السابعة أو بالعكس ، فهذا رأى أرواحهم مصورة في صور أبدانهم)[١] .

هذا هو مختصر خبر الإسراء والمعراج ، اكتفيت في إيراد قصته من الصحيحين والمسند ـ كما مر قبل قليل ـ مع نقل لابن تيمية وابن القيم وابن حجر ـ رحمهم الله تعالى ـ وإلا فمرويات الإسراء والمعراج من أكثر أحداث السيرة في مكة ذكرا مع اشتمال كل رواية علي زيادة أو نقص عن الأخرى .

نقف مع خبر الإسراء والمعراج ؛ لنستفيد منه الفوائد التالية :-

الأولى : لم يرد في تحديد تاريخ الإسراء والمعراج مستند يعول عليه ، ولذلك كثر الخلاف في هذه المسألة ، وتعددت الأقوال فيها وهذا يدلنا - كما قلنا في تاريخ مولده ﷺ - أن ليلة الإسراء والمعراج ليست لها أفضلية على سائر الليالي في العمل ، فلا يشرع في تلك

(١) ابن تيمية ، الفتاوى ٤ / ٣٢٨ ، وانظر : ابن حجر ، فتح الباري ٣ / ٤١٤ .

الليلة مزيد عبادة سواء أكانت تلك العبادة صلاة أم عمرة أم صدقة ، ولو كان لتلك الليلة أفضلية خاصة في العبادة لبينت لنا بياناً يقطع الشك ويزيل الخلاف .

قال القسطلاني نقلا عن الشيخ أبي أمامة بن النقاش : (وأما ليلة الإسراء فلم يأت في أرجحية العمل فيها حديث صحيح ولا ضعيف ، ولذلك لم يعينها النبي ﷺ لأصحابه ، ولا عينها أحد من الصحابة بإسناد صحيح ، ولا صح إلى الآن ولا إلى أن تقوم الساعة فيها شيء ، ومن قال فيها شيئا فإنما قاله من كيسه لمرجح ظهر له استأنس به ، ولهذا تصادمت الأقوال فيها وتباينت ، ولم يثبت الأمر فيها على شيء ولو تعلق بها نفع للأمة ـ ولو بذرة ـ لبينه لهم نبيهم ﷺ)[(١)] ونقل ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ عن شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ قوله : (لم يقم دليل معلوم على ليلة الإسراء ولا على شهرها ولا على عشرها ولا على عينها ، بل النقول في ذلك منقطعة مختلفة ليس فيها ما يقطع به ، ولا شرع للمسلمين تخصيص الليلة التي يظن أنها ليلة الإسراء بقيام ولا غيره)[(٢)] وما يعتقده بعض العامة أن الإسراء كان في رجب فقد قال الشيخ الشنقيطي : (لم يثبت من طريق صحيح ولا حسن ، أن الإسراء كان في رجب ، والوارد في ذلك لا أصل له)[(٣)] .

---

(١) القسطلاني ، المواهب اللدنية ٣ / ١٤ .

(٢) ابن القيم ، زاد المعاد ١ / ٥٧ .

(٣) محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، منهج التشريع الإسلامي وحكمته (المدينة ، المكتبة العلمية د. ت) ص ٣١ .

الثانية : الذين كذبوا الرسول ﷺ في قصته الإسراء واستبعدوا وقوعه ، غفلوا عن شيء مهم في الآية ، فالله سبحانه وتعالى يقول : (سبحان الذي أسرى بعبده) فالله جل شأنه هو الذي أَسْرَى بعبده ، ولم ينسب الرسول ﷺ الإسراء إلى نفسه [١] فالذي يكذب بالإسراء ويستبعده ، إنما يطعن في قدرة الله سبحانه وتعالى ، وليس في قدرة الرسول ﷺ .

الثالثة : وقع في الإسراء والمعراج العديد من الآيات الخارقة للعادة وفي ذلك يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (وجميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة ، فلا يستحيل شيء من ذلك) [٢] .

الرابعة : كان من حكمة الإسراء قبل المعراج (إرادة إظهار الحق لمعاندة من يريد إخماده ؛ لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلاً إلى البيان والإيضاح ، فلما ذكر أنه أسري به إلى بيت المقدس سألوه عن تعريفات جزئيات من بيت المقدس كانوا رأوها وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك فلما أخبرهم بها ، حصل التحقيق

---

(١) انظر : القسطلاني ، المواهب اللدنية ٣ / ١٥ .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٢٠٥ .

بصدقه فيما ذكر من الإسراء إلى بيت المقدس في ليلة ، وإذا صح خبره في ذلك لزم تصديقه في بقية ما ذكره)[١] .

الخامسة : في الإسراء إلى بيت المقدس ثم العروج منه إلى السماء دلالة على ما لهذا المسجد من مكانة وأهمية خاصة ينبغي أن يدركها المسلمون في كل مكان ، فلا يتهانوا بالمسجد الأقصى أولى القبلتين ومسرى رسول الله ﷺ .

السادسة : (تضمنت قصة المعراج العديد من الخوارق ، وقد سلك البعض في محاولة الرد على منكريها إقامة الدليل على أن ذلك الأمر جار على ناموس الطبيعة المطردة ، وأنه مألوف في الخلق معروف ، وفي الواقع حينما نسلك هذا المسلك نكون قد أخرجنا هذا الأمر عن أن يكون معجزا ، وأن يكون من خصائص النبوة .

والطريقة الصحيحة أن يكون المعترض إما مؤمنا بالله وبالرسالة وبالرسول ﷺ ، أو يكون منكرا ذلك .

فإن كان الأول لم يكن علينا أكثر من أن نبين له أن هذا الأمر قد جاء بسند صحيح عن صاحب الرسالة .

وإن كان الآخر ، فهو إلى إقامة الدليل على الله وعلى رسوله أحوج منه إلى إقامة الدليل على المعراج وما فيه .

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٢٠٠ - ٢٠١ ونسبه إلى ابن أبي جمرة ، وانظر : ابن تيمية ، الجواب الصحيح ٤ / ١٦٤ — ١٦٥.

وليس من الأسلوب الصحيح أن نأتي على من ينكر الله وينكر أنبياءه وكتبه ، ونتعب أنفسنا في سبيل إقناعه بأن المعراج ونحوه لم يكن خارجا عن ناموس الطبيعة ، فإن هذا لا يحقق النتيجة التي نحاول الوصول إليها ، وهي أن نثبت أن محمدا رسول الله ﷺ ، بل نحن نسعى إلى صد الناس عن الإيمان بذلك ؛ لأننا إذا أقنعنا المخالف بأن المعراج ليس مما يخص رسول الله ﷺ ، بل يكون ذلك له ولغيره حسب نواميس الطبيعة نزعنا الإعجاز عنه ، وهل يكون الرسول رسولا إلا بالمعجزات ؟ وهذا الرأي الذي يسلكه البعض عقيم الإنتاج ، لا ينصر إيماناً ولا يكسر كفراناً .

والطريقة الصحيحة أن نقيم الدليل قبل كل شيء على الإله ، الذي يقول لشيء كن فيكون ، فإذا ما اعترفوا به ، لم يجدوا مانعا من أن يؤمنوا بالدين ، وما جاء به الدين من أمور تحار فيها العقول الجبارة ، ومن ضمنها ما علمناه من تفاصيل أخبار الإسراء والمعراج وغيرها من المعجزات)[1] .

السابعة : لما علم كفار قريش بخبر الإسراء ، كانوا بين مصفق ، و بين واضع يده على رأسه مستعجبا للكذب زعم ! ، والتصفيق عند التعجب في الاحتفالات والاجتماعات هو مما دخل على المسلمين في

---

(١) عبد الله القصيمي ، مشكلات الحديث النبوية وبيانها ص ١٨٦ – ١٩٥ (باكستان ، دار الدعوة السلفية ، ١٤٠٦هـ) .

الأزمان المتأخرة (تشبها بما لدى المشركين من التصفيق للتشجيع والتعجب)[١] ، والتصفيق إما أن يكون على وجه العبادة كما يفعله الصوفية ونحوهم أو أن يكون على وجه العادة كالتصفيق في الاحتفالات للتعجب والتشجيع ونحوه ، فـ(إن وقع على وجه التعبد فهو بدعة محرمة شرعاً ؛ لأن التصفيق لم يتعبدنا الله به ، وهو نظير ما ابتدعه المتصوفة من التصفيق حال الذكر والدعاء ، وإن وقع التصفيق المذكور على وجه العادة ، فهو منكر محرم ؛ لأنه تشبه)[٢] وسبق أن أشرنا إلى التصفيق وحكمه في قصة إسلام عمر ﷺ .

الثامنة : في ترحيب أهل السماوات بالرسول ﷺ دليل على استحباب تلقي أهل الفضل بالبشر والترحيب والثناء والدعاء[٣] ، وأهل الفضل ممن لهم فضل خاص كالوالدين ونحوهم أو فضل عام كالعلماء ونحوهم ، فهؤلاء يستقبلون ويتلقون بالبشر والترحيب والثناء والدعاء مما يدل على توقيرهم وتقديرهم واحترامهم .

التاسعة : لقد كان موسى عليه الصلاة والسلام ناصحا للرسول ﷺ وأمته حينما عرض عليه أن يعود ؛ ليطلب التخفيف ، ويؤخذ من هذا (بذل النصيحة لمن يحتاج إليها وإن لم يستشر الناصح في ذلك)[٤] .

---

(١) بكر أبو زيد ، تصحيح الدعاء ص ٨٧ .
(٢) بكر أبو زيد ، تصحيح الدعاء ص ٨٨ .
(٣) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٢١٧.
(٤) المرجع السابق ص ٢١٨ .

العاشرة : هناك من يحتج بما جرى بين الرسول ﷺ وموسى عليه الصلاة والسلام على انتفاع الحي بالميت والجواب على هذا ما يلي :

١) إن معراج الرسول ﷺ ومشاهدته ما شاهده في هذا المعراج كله معجزة للرسول ﷺ لا يصح أن يقاس عليه أحوال الناس ، فهل يسوغ لشخص الآن أن يستدل بإمكان وصول البشر إلى السماء السابعة ؛ لأن الرسول ﷺ عرج به إلى هناك ؟ .

٢) أن ما جرى في المعراج حوار ومراجعات ومشاورات بناء على رؤية محسوسة متبادلة بين الطرفين ، شاهد وكلم كل واحد منهما الآخر كما لو كانا يتكلمان في الدنيا ، وليست دعاء حي لميت يرجو نفعه ، بل كانوا جميعا أحياء بقدرة الله جل شأنه ، والرسول ﷺ لم يذهب إلى قبر موسى عليه السلام ؛ ليطلب نفعه ، و إنما أحيا الله جل شأنه الأنبياء الذين قابلهم الرسول ﷺ ومنهم موسى عليه السلام ، فكلا الطرفين أحياء ، ولو كان ما جرى مثل ما يفعله بعض الناس عند القبور لم يكن في الأمر معجزة [١] .

الحادية عشرة : في اختصاص الصلاة بتشريعها في المعراج بهذه الصورة ، بيان لمكانة هذه الصلاة في الإسلام [٢] ، فهي عمود الإسلام وركن مهم فيه ومن ضيّعها فهو لما عداها أكثر تضييعاً ومن حافظ على

---

(١) انظر : عبد الله بن منيع ، مجموع فتاوى وبحوث ١ / ١٩٥ بتصرف .

(٢) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٢١٦ .

هذه الخمس صلوات في اليوم و الليلة فكأنما حافظ على خمسين صلاة، وذلك من فضل الله سبحانه وتعالى .

يقول فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ : (وتأمل كيف أخر فرضيتها إلى تلك الليلة إشادة بها وبياناً لأهميتها ؛ لأنها :

أولاً : فرضت من الله عز وجل إلى رسوله ﷺ بدون واسطة .

ثانياً : فرضت في ليلة هي أفضل الليالي لرسول الله ﷺ .

ثالثاً : فرضت في أعلى مكان يصل إليه البشر .

رابعاً : فرضت خمسين صلاة وهذا يدل على محبة الله لها وعنايته بها سبحانه وتعالى ، لكن خففت فجعلت خمساً بالفعل وخمسين بالميزان ، غير الخمسين التي الحسنة بعشر أمثالها ؛ لأنه لو كان المراد الحسنة بعشر أمثالها ، لم يكن لها مزية على غيرها من العبادات ، إذ كل عبادة الحسنة بعشر أمثالها لكن الظاهر أنه يكتب للإنسان أجر خمسين صلاة وهذا فضل عظيم من الله عز وجل بالنسبة لهذه الأمة) [١] .

الثانية عشرة : في قول موسى عليه السلام : (وإني والله قد جربت الناس قبلك) دليل على أن التجربة - كما يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ أقوى في تحصيل المطلوب من المعرفة الكثيرة [٢] .

---

(١) محمد بن صالح العثيمين ، الشرح الممتع على زاد المستقنع ٢ / ٦ ، وشرح رياض الصالحين ٢ / ٣٢٦ – ٣٢٧ .

(٢) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٧/٢١٨ .

الثالثة عشرة : كانت حادثة الإسراء والمعراج من فتنة الشبهات التي يبتلى بها المسلم والتي كثيراً ما يثيرها الأعداء [١] ، ولما أثار الأعداء هذه الشبهة سقط فيها من سقط ، ولا يزال الأعداء يثيرون الشبهات على المسلمين في كل وقت صداً للمسلمين ولغيرهم عن الإسلام ، ورد الشبهات يكون بالعلم الشرعي الذي يبطل كيد الأعداء ويرده في نحورهم .

الرابعة عشرة : كان الإسراء والمعراج تمحيصا للناس ، فمن كان مؤمنا صدق وثبت وازداد إيمانه ويقينه ، ومن كان متردداً ضعيفا انتكس وارتكس ، وهذا يدلنا على أمر مهم هو أن الدين ليس بالعقل و إنما بالوحي والنص (وأصل الشر من تقديم الرأي على النص ، والهوى على الشرع ، فمن نور الله قلبه ، فرأى ما في النص والشرع من الصلاح والخير وإلا فعليه الانقياد لنص رسول الله ﷺ وشرعه وليس له معارضته برأيه وهواه) [٢] (فالعقول لا تستقل بإدراك مصالحها دون الوحي) [٣] ، فمن استعمل عقله في خبر الإسراء والمعراج وتجاهل النص أضله عقله ، ومن سلم للنص واستسلم له ، وفق وهدي ، وقدوة الفريق الثاني الصديق رضي الله عنه الذي بادر إلى تصديق

---

(١) انظر : عبد العزيز الحميدي ، المنافقون في القرآن الكريم ص ١٠٦.

(٢) ابن تيمية ، منهاج السنة ٨ / ٤١١ .

(٣) الشاطبي ، الاعتصام ١ / ٤٧ .

الرسول ﷺ دون تردد ، مؤكداً أن أهم أمر هو صحة نسبة الخبر إلى الرسول ﷺ ، فإذا ثبتت هذه النسبة وتحقق من قول الرسول ﷺ فليس بعد ذلك إلا التصديق والامتثال وعندها كان جديراً بهذا الوصف العظيم (الصديق) وحرياً بالاقتداء به ﷺ في كل موقف مشابه .

الخامسة عشرة : يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (قول الملائكة للنبي ﷺ : « مرحبا به » أصل في استعمال هذه الألفاظ وما ناسبها عند اللقاء نحو أهلا وسهلا ومرحبا وكرامة وخير مقدم وأيمن مورد ونحوها ، ووقع الاقتصار منها على لفظ (مرحبا) وحدها لاقتضاء الحال لها ، فإن الترحيب هو السعة ، وكان قد أفضى إلى واسع الأماكن ولم يطلق فيها سهلا ؛ لأن معناه وطئت مكانا سهلا ، والنبي ﷺ كان محمولاً إلى السماء)[١] .

۞۞۞

(١) بدائع الفوائد ٣ / ٢٠٥ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الرابع

فقه السيرة من العرض على القبائل إلى الهجرة

ويتكون من :

تمهيد .

المبحث الأول : فقه السيرة في العرض على الأفراد والقبائل .

المبحث الثاني : فقه السيرة في بيعة العقبة الأولى .

المبحث الثالث : فقه السيرة في بيعة العقبة الثانية .

المبحث الرابع : فقه السيرة في الهجرة النبوية .

تمهيد :

تحدثنا في الفصل السابق عن فقه السيرة من إسلام حمزة وعمر إلى الإسراء والمعراج وكانت تلك الفترة تُمَثِّلُ إحدى مراحل السيرة النبوية العطرة ، والتي واجه فيها الرسول ﷺ العنتَ والمزيدَ من المضايقة من قريش بدءاً من محاصرة الرسول ﷺ في شِعب أبي طالب ، ثم بعد خروجه من الشِّعب أُصِيْبَ بوفاة عمه أبي طالب سنده وظهيره وناصره على قومه ، ثم وفاة زوجته أم المؤمنين خديجة ـ رضي الله عنها ـ التي كانت تواسيه وتؤانسه وتخفف عنه .

وبحثاً عن مخرج من هذه الضائقة خرج ﷺ إلى الطائف ، فلم يجد عندهم خيراً ، بل عاد ﷺ مكلوم الفؤاد من الاستهزاء والإعراض ومجروح القدمين من الحجارة ، وحينما اشتدت عليه الأمور جاءه تكريم الإسراء والمعراج ؛ ليمثل هذا المقطع من السيرة حلقة متكاملة من حلقات السيرة النبوية العطرة .

وفي هذا الفصل أيضاً نجد حلقة أخرى تبدأ بالعرض على القبائل والأفراد بحثاً عن مخرج آخر للدعوة بين الوافدين إلى مكة مع إعراض القبائل وصدودهم إلا أننا نجد من بين هذه الأصوات الْمُنْكِرَةِ لما يقول الرسول ﷺ أصواتاً أخرى ترحِّب به من الأفراد والقبائل حيث استجاب له عدد من الأفراد ورحَّب به حجاج الأوس والخزرج وبايعوه ، وكانوا له أعواناً وأنصاراً ؛ لتنهي هذه الحلقة من السيرة

بنصر كريم من الله سبحانه وتعالى حينما يَسَّرَ لرسوله ﷺ الهجرةَ إلى المدينة ، وبالتالي فهي حلقة أيضاً متكاملة تبدأ بالتجول بين القبائل وتحمل ما يواجهون به الرسول ﷺ من صدود وإعراض وتنتهي بتاج الهجرة النبوية الشريفة ، وهذا ما سنسعى إلى توضيحه في مباحث هذا الفصل بإذن الله تعالى .

المبحث الأول

فقه السيرة في العرض على الأفراد والقبائل

كان الرسول ﷺ حريصاً على إبلاغ الدعوة ، وكان لا يدع وافداً من العرب له اسم وشرف إلا دعاه وعرض عليه ما عنده (١) ، وقد حصل من بعضهم على ردود طيبة ومن هؤلاء :

١) سويد بن صامت : كان شاعراً لبيباً من سكان يثرب ، يُسَمِّيهِ قومُه الكاملَ ؛ لجلده وشعره وشرفه ونسبه ، جاء مكة حاجاً أو معتمراً ، فدعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام ، فقال : لعل الذي معك مثل الذي معي ، فقال الرسول ﷺ : « وما الذي معك ؟ » قال : حكمة لقمان ، قال : « اعرضها علي » فعرضها ، فقال الرسول ﷺ : « إن هذا الكلام حسن والذي معي أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى علي هو هدى ونور » ، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد منه وقال : إن هذا القول حسن ، ثم انصرف عنه إلى المدينة ، فلم يلبث أن قتله الخزرج ، فكان رجال من قومه يقولون : إنا لنراه قُتِلَ وهو مسلم (٢) .

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/ ٣٦ ، و ابن الجوزي ، الوفاء بأحوال المصطفى ١ / ٣٤٤ ، وابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ١٤٧ .

(٢) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ١٤٧ ، والمباركفوري ، الرحيق المختوم ص ١٤٨ - ١٤٩ وجزم بإسلامه ، ولكن ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ قال في الإصابة ٣/

٢) الطفيل بن عمر الدوسي : كان سيداً مطاعاً في دوس ، فلما قدم مكة اجتمع به أشراف قريش وحذروه من رسول الله ﷺ ، قال : فو الله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ، حتى حشوتُ أذني قطناً ، قال : فغدوتُ إلى المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي ، قال: فقمتُ قريباً منه ، فأبى الله إلا أن يسمعني بعضَ قوله ، فسمعتُ كلاماً حسناً ، قال: فقلتُ في نفسي : إني لَرَجُلٌ لبيبٌ شاعرٌ ما يخفى علي الْحَسَنُ من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقوله ... فلما انصرف محمد ﷺ تبعته وأخبرته ما قالت قريش ، فأبى الله إلا أن يسمعني قولَك ، فسمعت قولاً حسناً ، فاعرض علي أمرَك ، فعرض عليه الرسولُ ﷺ الإسلامَ وتلا عليه القرآنَ ، قال : فأسلمتُ وقلتُ : يا نبي الله ، إني امرؤ مطاع في قومي وإني راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لي آية تكون عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه... إلخ القصة [١] .

وكما كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الأفراد ، فقد كان يعرضها على القبائل الوافدة إلى مكة للحج أو العمرة أو المواسم ، وذلك ليؤووه وينصروه ويدعوهم إلى التوحيد [٢] .

---

١٨٩ : (ذكره ابن شاهين ـ أي سويد بن الصامت ـ وقال شك في إسلامه ، وقال أبو عمر : أنا أشك فيه كما شك غيري) والله أعلم .

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٩٩ ، وابن حجر ، الإصابة ٣ / ٢٨٧ ، ونقل عن الأصبهاني أن النبي ﷺ تلا عليه الإخلاص والمعوذتين ، فأسلم في الحال ، لكن هل نزلت الإخلاص والمعوذتان في ذلك الوقت ؟.

(٢) انظر : الشامي ، سبل الهدى ٢ / ٥٩٣ .

قال جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف فقال : « ألا رجل يحملني إلى قومه ، فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي »(١) .

وكان يسأل عن القبائل قبيلة ، قبيلة ويقول : « يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » ، وكان لا يفترعن قول : « يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، وكان وراءه أبو لهب يسير خلفه ويقول : إنه صابئ كاذب »(٢) ولم يكن أبو لهب يكتفي بالقول ، بل كان يؤذي رسول الله ﷺ ويرميه بالحجارة حتى أدمى كعبيه الشريفتين(٣) وكان ﷺ يفر منه(٤) ويعرض عنه ولا يلتفت إليه(٥) .

ومن أبرز القبائل التي عرض الرسول ﷺ نفسه عليها ، بنو عامر ابن صعصعة، ومحارب بن فزارة ، وغسان ، ومرة ، وحنيفة ، وسليم ، وعبس ، وبنو نصر ، وكندة من قبائل اليمين وكلب ، والحارث ابن

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، وصححه الألباني ، صحيح سنن أبي داود للألباني ٣ / ٨٩٧ ، رقم ٣٩٦٠ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد ، مسند الإمام أحمد ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط وزملائه ، إشراف عبد الله التركي ٢٥/٤٠٤ ، رقم ١٦٠٢٣ ، وقال المحقق : (صحيح بغيره) ، والبيهقي ، السنن الكبرى ٦ / ٢١ .
(٣) انظر : البيهقي ، السنن الكبرى ٦ / ٢١ .
(٤) انظر : الإمام أحمد ، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد للبناء ٢٠ / ٢١٧ .
(٥) انظر : الشامي ، سبل الهدى ٢ / ٥٩٥ .

كعب ، وعذرة ، والحضارمة ، وبكر بن وائل ممن سكن جوار فارس ، وبني شيبان بن ثعلبة ، وفيهم المثنى بن الحارث الشيباني وكان كبيراً فيهم ولكنهم لم يستجيبوا وإن تفاوتت ردودهم بين رد قبيح كما فعل بنو حنيفة أو رد غير سيئ كما فعل بنو شيبان [١] وكانت هذه المواسم فرصة للنبي ﷺ ؛ ليلتقي بكثير من القبائل العربية من شمال البلاد العربية ومن جنوبها وممن جاوروا الروم أو جاوروا الفرس [٢] .

نقف مع هذا المقطع من السيرة النبوية ؛ لنأخذ منه الفوائد التالية :

أولاً : نلحظ أن الرسول ﷺ يدعو الناسَ من خلال تلاوة آيات من القرآن الكريم ، فسويد بن صامت تلا عليه شيئاً من القرآن الكريم ، والطفيل بن عمر الدوسي رضي الله عنه أيضاً تلا عليه شيئاً من القرآن الكريم ، فأسلم في الحال ، وكان يتلو القرآنَ الكريمَ أثناء عرض دعوته على القبائل [٣] ، وكان مصعب رضي الله عنه في المدينة ـ كما سيأتي ـ يكثر من تلاوة القرآن الكريم أثناء دعوته قبل هجرة الرسول ﷺ .

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ١٣٨- ١٤٤ .

(٢) انظر : أبو زهرة ، خاتم النبيين ١ / ٥٨٨ .

(٣) انظر مثالاً على ذلك : قصة وفد إياس بن معاذ مع قومه عندما قدموا من المدينة وعرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام وتلا عليهم القرآن ، أحمد البناء ، الفتح الرباني ٢٠ / ٢٦٦- ٢٦٧ ، وقصة وفد الأوس والخزرج الذين قابلهم الرسول ﷺ لأول مرة في السنة الحادية عشرة من البعثة أيضاً وتلا عليهم القرآن الكريم ، انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ١٤٨ .

إن للقرآن الكريم تأثيراً عجيباً على النفوس ، روى البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ عن جبير بن مطعم ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون) كاد قلبي يطير [١] ، وكان جبير وقتها على شركه ، وكان سماعه لهذه الآيات من جملة ما حمله على الإسلام .

ومر معنا أن عمر ﷺ لما سمع آيات في أول سورة (طه) أذعن وآمن بعد أن ضرب ختنَه ولطم أختَه ولذلك نلحظ أن كفار قريش كانوا يخشون هذا القرآن ، ويحذِّرون كل قادم إلى مكة من الاستماع إليه ـ كما مر معنا قبل قليل في قصة الطفيل وغيره ـ ؛ لأنهم يعلمون قوة تأثيره على النفوس .

لذلك فالمنهج الصحيح في الدعوة هو التركيز على تلاوة آيات الله والإكثار منها ، والاعتماد عليها في الخطب والمحاضرات ، والابتعاد عن الكلام المنمق المجرد من كلام الله وكلام رسوله ﷺ فهو وإن بدا جميلاً فخيره قليل وتأثيره أقل ، وعليك أيها المسلم أن تعرف لهذا القرآن العظيم مكانته ، تلاوةً واتباعاً وعملاً ، تَعَلَّمْ أحكامَه وركِّزْ عليه في دعوتك للناس فهو كلام الله ، وشَتَّانَ بين كلام الله جل شأنه وكلام الناس .

---

(١) صحيح البخاري ، المطبوع مع فتح الباري ٨ / ٦٠٣ ، رقم ٤٨٥٤ .

ثانياً : نلحظ سهولة بعض الناس وقربهم للاستجابة ، فما أن سمعوا آيات تُتْلَى من هذا الكتاب الكريم حتى نسوا كل عبارات التحذير التي أُلْقِيَتْ عليهم ، وأدركوا بفطرتهم أنه الحق ، وأن أقوال الناس تلك وإن كانت تلبس لبوس الناصح المشفق فهي في الحقيقة زيف وباطل ، وقال تعالى :﴿ وقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾(١) .

ثالثاً : مر معنا أن الرسول ﷺ كان يقول للناس وهو يتجول على القبائل العربية في المواسم : « يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » ، فأول كلمة يدعو إليها الرسول ﷺ هي كلمة التوحيد وهي أعظم كلمة وأهم كلمة وأولاها بالعناية والرعاية ، من جاء بها يوم القيامة دخل الجنة ، ومن لم يؤمن بها ، فهو من أهل النار مهما كان عمله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (٢) .

والمسلمون اليوم عليهم أن يَتَأَسَّوْا بالرسول ﷺ ، فيتمسكوا بما بدأ بالدعوة إليه ، ويعطوا التوحيدَ قيمتَه وأهميتَه ومكانتَه ، سواء في عباداتهم أو دعوتهم لغيرهم ، والتوحيد لا يقبل التأجيل أو التأخير أو التسويف ، فهو حق الله سبحانه على عباده الذي افترض عليهم ووعدهم عليه بأعظم الأجر والمثوبة .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية رقم (٨١) .
(٢) سورة النساء ، الآية رقم (٤٨) .

رابعاً : كان الرسول ﷺ وهو يعرض نفسه على القبائل يدعوهم إلى الله بالحكمة ويتحدث معهم بالرفق « ألا رجل يحملني إلى قومه ، فإن قريشاً منعوني أن أُبَلِّغَ رسالةَ ربي » مثيراً في نفوسهم النخوةَ التي عُرِفَ عن العرب الاهتمامُ بها والمبادرةُ إليها .

خامساً : رغم الإعراض الذي كان واجهه الرسول ﷺ من القبائل العربية مع تعدد سنوات العرض ، إلا أن الرسول ﷺ لم ييأس منهم ، بل استمر ﷺ يغشى القبائل في المواسم والمجامع والمنازل كل عام يفدون فيه حتى قيض الله له نصيراً ، ولذلك لا ينبغي أن يجد اليأسُ طريقَه إلى المؤمن في نصحه لشخص معين أو في دعوته عموماً ، ولقد ورد التحذير من اليأس من روح الله ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (١) .

سادساً : من كلام الرسول ﷺ للقبائل العربية نلحظ أنه يبحث عن مكان يستطيع فيه أن يبلغ رسالة ربه ويدعو إلى الله وهو آمن ، وأن يعبد الله تعالى آمناً من الإيذاء وهذا يُنَبِّهُنَا إلى مكانة الأمن في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، فمن تحققت له هذه النعمة فليشكر الله وليحافظ عليها ويسخرها في خدمة دين الله جل شأنه .

سابعاً : أن الاستجابة للداعي إلى الله سبحانه وتعالى قد لا تكون فوريةً ، وكذلك عدمُ الاستجابة الفورية لا يعني عدمَ وجودِ التأثيرِ في

---

(١) سورة يوسف ، الآية رقم (٨٧) .

المدعوِّ ، فمثلاً عندما عرض الرسولُ ﷺ دعوتَه على بني شيبان لم يجد منهم القبول وكان فيهم المثنى بن حارثة الشيباني ، ولكن كان لهذا اللقاء أثره الذي ظهرت نتائجه فيما بعد ، فإن المثنى أسلم بعد حين ، وأصبح قائداً كبيراً من قواد المسلمين ، وبه ابتدأت فتوح العراق وفارس[1] .

ثامناً : كان أبو لهب دؤوباً في متابعة الرسول ﷺ وكلما تكلم الرسول ﷺ تبعه أبو لهب وتحدث محذِّراً القبائلَ من الاستجابة له ، ومع ذلك فالرسول ﷺ لا ينشغل بالرد عليه ولا بمجادلته ، بل يمضي في العرض على القبائل تاركاً أبا لهب وشأنَه .

ولعل في هذا تقليلاً من شأنه ، وأنه لا يستحق الجدال أو الرد ، وأن وقته الثمين ينبغي أن يشغل في العرض على قبيلة أخرى بدلاً من الوقوف مع هذا المبطل ، ولكن مع ذلك ليس هذا منهجاً ثابتاً مع كل فرد ، فقد تستدعي بعض الحالات الوقوف والرد ، كما في بعض اعتراضات الكفار ، وإنما لأن هذا موقف يستدعي عدم الرد . وتلك حالة يقدرها الداعي إلى الله ، وفق ما تقتضيه المصلحة ، فإن كانت المصلحة في الإعراض أعرض ومضى في طريقه ، وإن كانت المصلحة في الرد وذلك ـ مثلاً ـ حين يوجد تأثير لهذا المبطل ، فالمصلحة في الرد عليه وإبطال عمله .

---

(١) انظر في ترجمة المثنى : ابن حجر ، الإصابة ٦ / ٤١ .

تاسعاً : أن العرض على الناس والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى لابد أن يصاحبه أذى [١] ولكن على الداعية إلى الله سبحانه وتعالى أن يصبر ويحتسب الأجر ولا يواجه ما يقال له من كلمات سيئة واعتراضات نابئة ـ من هذا أو ذاك ـ بمثلها ، بل يصبر ويتحمل الأذى ، ومن استجاب شرح له أكثر ، ومن أعرض أو سَخِرَ أو استهزأ قابله بالسكوت والإعراض عنه ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [٢] .

عاشراً : في العرض على القبائل التي كانت تفد إلى مكة من مختلف البِقَاع دليل على عالمية الدعوة ، وأنها للعالمين أجمعين ، فقد كان الرسول ﷺ يتحدث أثناء العرض على قبائل وفدت من اليمن وأخرى وفدت من أعالي الجزيرة ، ممن كان مجاوراً للفرس أو مجاوراً للروم ، وكان يعرض عليهم دعوته في وقت مبكر من تاريخ الدعوة ، وهذا برهان جلي على أن الرسول ﷺ كان مُرْسَلاً إلى الناس جميعاً كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [٣]

---

(١) انظر : الفائدة العاشرة في قصة بدء الوحي في الفصل الثاني من هذا الكتاب ، فقد ذكرت الأدلة على أن الداعية إلى الله لا بد أن يصيبه أذى .

(٢) سورة الفرقان ، الآية رقم (٦٣) .

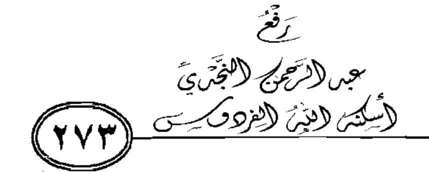
(٣) سورة الأعراف ، الآية رقم (١٥٨) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [1] ، وإن ادَّعى مُدَّعٍ خصوص رسالته ﷺ إلى العرب فقط ، فقد اعترف بنبوته ، والكذب ممتنع على الأنبياء اتفاقاً [2] .

❁❁❁

(١) سورة الأنبياء ، الآية رقم (١٠٧) .

(٢) محمد بن عمر بحرق ، حدائق الأنوار ص ١٣٢ .



المبحث الثاني

فقه السيرة في بيعة العقبة الأولى

تميز القادمون من المدينة الذين عرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام بحُسْن الرد عليه ـ غالباً ـ فقد مر معنا قصة سويد بن الصامت ، ومثله إياس بن معاذ الذي قدم ضمن وفد من بني عبد الأشهل يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ أتاهم ، فقال لهم : « هل لكم إلى خير مما جئتم به ؟ » قالوا : وما ذاك ؟ قال : « أنا رسول الله ، بعثني الله إلى العباد ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن » فقال إياس : يا قوم ، هذا والله خير مما جئتم له : فأخذ أبو الحيسر ـ رئيس الوفد ـ حفنة من الحصباء وضرب بها إياس وقال : دعنا منك ، فسكت ، فلما عادوا إلى المدينة لم يلبث إياس أن هلك ، وقد ذكر من حضره من قومه أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلّل الله ويكبِّره ويحمده ويسبِّحه حتى مات ، وكانوا لا يشكون أنه مات مسلماً (١) .

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده : أحمد البناء ، الفتح الرباني ٢٠ / ٢٦٦-٢٦٧ وقال عنه البناء في بلوغ الأماني : (رواه محمد بن إسحاق في المغازي وأورده الحافظ في الإصابة وصححه) ، المرجع السابق ، الصفحة ذاتها .

وقال ابن إسحاق : فلما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ في الموسم ، وإنجاز موعده له ، خرج رسول الله ﷺ (في السنة الحادية عشرة من البعثة)[1] ، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا : لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : أمن موالي يهود ؟[2] قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن ، قال : وكان مما صنع الله لهم في الإسلام أن يهوداً كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك أصحاب أوثان وكانوا قد غزوهم في بلادهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا : إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبعه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلمون والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرضه عليهم من الإسلام ، وقالوا له

---

(١) انظر : المباركفوري ، الرحيق المختوم ص ١٥٢ .

(٢) أي حلفاؤهم ، وهم سُمُّوْا حلفاءَ ؛ لأنهم تحالفوا على التناصر والتعاضد ، الشامي ، سبل الهدى ٣ /٢٦٩.

: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا [(١)] .

وكان عدد هؤلاء ستة نفر من الخزرج وهم أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث بن رفاعة ورافع بن مالك بن العجلان وقطبة بن عامر بن حديدة وعقبة بن عامر بن نابي وجابر بن عبد الله بن رئاب ـ رضي الله تعالى عنهم ـ [(٢)] .

وكان الأوس والخزرج إخواناً لأم وأب ، فوقعت بينهم العداوة بسبب قتيل ، فلبثت الحرب بينهم مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأها الله بالإسلام ، وألَّفَ بينهم برسول الله ﷺ [(٣)] .

ثم رجع هؤلاء إلى المدينة دعاةً إلى الإسلام ، ففشا الإسلام فيها حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ [(٤)] .

فلما كان العام المقبل جاء منهم اثنا عشر رجلاً ، الستة الأول خلا جابر بن عبد الله ومعهم معاذ بن الحارث بن رفاعة وذكوان بن عبد

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/٣٧-٣٨ .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/ ٣٨-٣٩ .

(٣) الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، مختصر سيرة الرسول ﷺ ص ٨٥ .

(٤) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/٣٩ .

القيس [١] وعبادة بن الصامت ويزيد بن ثعلبة وأبو الهيثم بن التيهان وعويمر بن مالك [٢] .

وعن عبادة بن الصامت ﵁ أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: « بايعوني [٣] على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف ، فمن وفى منكم ، فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعُوْقِبَ في الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه » فبايعناه على ذلك [٤] .

ويرى جمهور أهل السير أن هذه هي بيعة العقبة الأولى وأن هؤلاء النفر أسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء أي على وفق بيعتهن التي نزلت بعد ذلك عند فتح مكة [٥] .

---

(١) وقد أقام ذكوان بمكة حتى هاجر إلى المدينة فيقال : إنه مهاجري أنصاري ، زاد المعاد ٣ / ٤٥ .

(٢) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٤٥ .

(٣) المبايعة : المعاهدة ، وسميت المعاهدة هنا مبايعة تشبيهاً بالمعاوضة المالية ، الحلبي ، إنسان العيون ٢/١٦١ .

(٤) متفق عليه : صحيح البخاري ، المطبوع مع فتح الباري ١ / ٦٤ ، رقم ٨ ، كتاب الإيمان ، وصحيح مسلم ٣٠ / ١٣٣٣ ، حديث رقم ١٧٠٩ .

(٥) انظر : أحمد البناء ، الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد ٢٠ / ٢٦٨ ، والقسطلاني ، المواهب اللدنية ١ / ٢٧٩ ، وابن هشام ، السيرة النبوية المطبوعة مع

يقول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ : (وكان هذا مما نزل على وفق ما بايع عليه أصحابه ليلة العقبة ، وليس هذا بعجيب ، فإن القرآن نزل بموافقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في غير موطن ، و إن كانت هذه البيعة وقعت عن وحي غير متلو فهو أظهر والله أعلم)(١) .

ولكن ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ رَجَّحَ أن المبايعة التي تمت ليلة العقبة إنما كانت على الإيواء والنصرة وليست على الصفة التي وردت في حديث عبادة رضي الله عنه وأن ما ذكره عبادة رضي الله عنه يعني به بيعة أخرى بعد فتح مكة ؛ لأدلة ذكرها(٢) .

وبعد أن تمت هذه البيعة وانتهى الموسم عاد أولئك النفر إلى المدينة ، وبعث معهم الرسول ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه ؛ ليعلمهم الإسلام ويقرئهم القرآن وليدعو من هنالك إلى الإسلام ، فأسلم على يد مصعب رضي الله عنه خلق كثير من الأنصار (٣) ؛ وأسلم في جماعتهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ـ رضي الله عنهما ـ وأسلم بإسلامهما جميع بني عبد الأشهل في يوم واحد ، الرجال والنساء ، ولم يتبق منهم أحد إلا الأصيرم ، فإنه تأخر وأسلم يوم أُحُد وفيها قُتِلَ(٤) .

الروض الأنف ١٨٥/٢ ، وابن سيد الناس ، عيون الأثر ١ / ٥٧ — ١٥٨ ، والشامي ، سبل الهدى ٣ / ٢٧٠.

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ١٥١ .

(٢) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٦٦ ، والحلبي ، إنسان العيون ٢ / ١٦٢ .

(٣) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٢٢٣ .

(٤) انظر تفصيل قصة إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ـ رضي الله عنهما ـ في : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢ / ٤٣- ٤٥ ، وابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ١٥٢- ١٥٣ ، ولمزيد دراسة دعوية لقصة مصعب بن عمير مع أسيد ، يمكن الرجوع إلى

ويقول النووي ـ رحمه الله تعالى ـ : (وأسلم على يديه ـ أي مصعب بن عمير رضي الله عنه ـ سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وكفى بذلك فضلاً وأثراً في الإسلام)[(١)] .

ومع حلول الموسم التالي عاد مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى مكة ، بخبر انتشار الإسلام في المدينة وكثرة الداخلين فيه منها[(٢)] .

الفوائد الدعوية المستخلصة من هذا المقطع من السيرة النبوية :

الأولى : أن الرسول ﷺ لما عرض الإسلام على أهل المدينة في العقبة قال بعضهم لبعض : (إنه النبي الذي توعدكم به يهود) ، وكان هذا بداية الاستجابة للرسول ﷺ .

فرغم كونهم مشركين إلا أن هذه المعرفة ـ مع قلتها ـ نفعتهم في الهداية والاستجابة ، وهذا مؤشر إلى أهمية العلم ومكانته وفائدته ، وإن كان العلم لم ينفع اليهود في الاستجابة ، لكنه نفع هنا ونفع عند بعض اليهود في التصديق والإيمان بالرسول ﷺ في أول لقاء كما سيأتي .

يقول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ : (ولم يكن حي من العرب أعلم بالرسول ﷺ حين ذكر وقبل أن يذكر من هذا الحي من الأوس

كتيب للمؤلف بعنوان : (وقفات دعوية في رحلة سفير الدعوة الأول إلى المدينة مصعب بن عمير رضي الله عنه) .

(١) النووي ، تهذيب الأسماء واللغات ٢ / ٩٦ .

(٢) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٤٧/٣ .

والخزرج وذلك لما كانوا يسمعون من أحبار يهود) [١] فسعة إطلاع المسلم وثقافته عون له في العبادة والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى .

الثانية : عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : كان يوم بُعَاث [٢] يوماً قدمه الله لرسوله ﷺ ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم وقُتِلَتْ سراتُهم ، وجُرِحُوْا ، فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام) [٣] .

يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ عن يوم بُعَاث : (فقُتِلَ فيها من أكابرهم من كان لا يؤمن ، أي يتكبر أن يدخل في الإسلام حتى لا يكون تحت حكم غيره ، وقد كان بقي منهم من هذا النحو عبد الله بن أبي بن سلول) [٤] وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الواقعة العظيمة قُبَيْلَ مَقْدَمِ النبي ﷺ إلى المدينة ؛ ليتحقق أمران :

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ١٥٣ .

(٢) بُعَاث : بضم الموحدة وتخفيف المهملة مكان ، ويقال : حصن ، وقيل : مزرعة عند بني قريظة كانت به وقعة بين الأوس والخزرج ، فقتل فيها كثير منهم وذلك قبل الهجرة بخمس سنين ، ابن حجر ، الفتح ٧ / ١١١ ، وحددها كتاب معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية بأنها : (في الشمال الشرقي من المدينة في الطرف الغربي الشمالي من نخل العوالي اليوم) ، عاتق البلادي ص ٤٧ .

(٣) صحيح البخاري ، المطبوع مع فتح الباري لابن حجر ٧ / ١١٠ ، حديث رقم ٣٧٧٧ .

(٤) ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ١١١ ، وانظر : السمهودي ، وفاء الوفاء ١ / ٢١٨ ، والشامي ، سبل الهدى ٣ / ٢٦٦ ، وأحمد البناء ، بلوغ الأماني ٢٠ / ٢٦٧ .

الأول : نعمة الله سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ الذي أزال من طريقه أولئك الرؤساء الذين قد يكون في بقائهم معارضة كبيرة للدعوة ، شبيهاً بما جرى في مكة ، حتى أصبحوا عقبة عاتية دون دخول من يرغب في الإسلام ، فأصبح طريق الدعوة في المدينة قد سلم من أولئك الأكابر الذين منهم من يتكبر عن الدخول في الإسلام ويأنف من الانضواء تحت حكم غيره ، وتلك تقدمة قدمها الله جل شأنه لنبيه ﷺ ـ كما قالت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ وأبقى الله جل شأنه نموذجاً واحداً من هؤلاء يُذَكِّرُ بهم ، وبنعمة الله على نبيه في زوالهم قبل مجيئه ، وهذا النموذج الذي بقي هو عبد الله بن أبي بن سلول .

الثاني : لتتهيأ النفوس لقبول الإسلام وليظهر فضل الإسلام على الأنصار ، فقد جمعهم بعد فُرْقَةٍ ، وغرس في قلوبهم المحبةَ بعد العداوةِ ، والوئامَ بعد الشقاقِ [١] .

الثالثة : نعمة الله بهذا الدين الذي يجمع القلوب ويُوَحِّدُها ويوجد الألفة ، فالأوس والخزرج كانوا أعداء ، وهم في قتال دام مائة وعشرين سنة ، ولم تتوقف الدماء وتتحد القلوب إلا بعد إسلامهم ، واليوم ونحن نرى الحروب والنزاعات والاقتتال فنقول : إن الإسلام كما جمع الأوس والخزرج وأَلَّفَ بين قلوبهم ، فكذلك لن يؤلّف بين قلوب الناس اليوم إلا التمسك بالإسلام والانضواء تحت لوائه ؛

(١) انظر : أبو شهبة ، السيرة ١ / ٤٣٢- ٤٣٣ .

ليصبح الناس حينئذ إخواناً كما قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ (١).

الرابعة : أن الرسول ﷺ يُبْعَثُ في مكة بين قبيلته ويستمر يعرض عليهم ﷺ نفسَه أكثر من عشر سنوات ولم يجد منهم إلا استجاباتٍ فرديةً ، ويجد العداوة الجماعية من غالبيتهم ، ولكن النصرة تأتي من قبيلة أخرى خارج مكة ؛ ليدلنا هذا على أن دعوة محمد ﷺ ليست دعوة خاصة بل هي دعوة عالمية للناس كافة ، يعرضها الرسول ﷺ على ابن مكة كما يعرضها على سائر القبائل الوافدة إلى مكة ومن استجاب لها وناصرها فهو أولى بها .

الخامسة : من هذا الموقف ندرك الجهود الكبيرة التي كان يبذلها الرسول ﷺ في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، فقد كان يتجول ليلاً ونهاراً ، دون أن يؤثر فيه كثرة الإعراض ، أو يتسرب إليه شيء من اليأس .

السادسة : أن الفرج يأتي في زمان أو مكان قد لا يتوقعه الشخص ، فالرسول ﷺ كان يعرض على القبائل ، ثم مر على نفر من الخزرج ، فعرض عليهم نفسه كما كان يعرض على سائر القبائل ، فإذاً بهذه الفئة تكون بدايةُ الفرج ونواةُ الخير التي قبلت هذه الدعوة وناصرتها ،

---

(١) سورة آل عمران ، الآية رقم (١٠٣) .

وكانت هي الفئة التي يبحث عنها الرسول ﷺ في سنوات عرض دعوته على القبائل .

السابعة : من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه الذي قال عنه جمهور أهل السير : إنه في بيعة العقبة الأولى ، نرى أن الرسول ﷺ عندما دعا إلى البيعة بدأ بالدعوة إلى عدم الإشراك بالله « بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً » ، فهذا أول شرط ، وهو ترك الشرك بالله سبحانه وتعالى ، وإفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة وتوحيده ، وهذه هي خلاصة دعوته ﷺ ودعوة الأنبياء كافة ودعوة الدعاة إلى الله في كل مكان وزمان ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ (١) وهذا ما نُذكِّرُ به كُلَّ مسلمٍ ، فالتوحيد هو الأساس وإفراد الله بالعبادة هو أول مطلوب ، ولا يصح من المسلم أن يتهاون في الشركيات أو البدعيات أو الخرافيات ، أو أي عمل ينافي التوحيد أو ينافي كماله .

ومن جاء بالتوحيد رُجيَ له المغفرةُ ، ومن جاء بكل الأعمال بلا توحيد فلا قيمة لعمله ، يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية رقم (٢٥) .

(٢) سورة الزمر ، الآية رقم (٦٥) .

الثامنة : أن النفر الستة الذين لقوا الرسول ﷺ في منى وتحدث معهم الرسول ﷺ وآمنوا به وصدقوه لم يكتفوا بذلك ، بل انقلبوا إلى قومهم دعاةً إلى الله سبحانه وتعالى ، ولذلك فمسؤولية المسلم في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى مسؤولية عظيمة ، ولا يصح من المسلم أن يكتفي بالقيام بما يجب عليه من عبادات ، بل عليه أيضاً أن يدعو غيره إلى هذا الدين ، ويستشعر مسؤوليته ، ويدرك واجبه كما أدركه أولئك النفر من الخزرج سواء في اللقاء الأول بالرسول ﷺ أو اللقاء الثاني الذي يُسَمَّى (بيعةَ العقبةِ الأولى) .

التاسعة : مشروعية بعث الدعاة إلى الله وإرسالهم إلى المناطق ؛ لتعليم الناس ودعوتهم إلى الله سبحانه وتعالى أسوة بفعل الرسول ﷺ حينما بعث مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى المدينة ؛ لدعوة الناس وتعليمهم .

❁❁❁

المبحث الثالث

فقه السيرة في بيعة العقبة الثانية

عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال : مكث رسول الله ﷺ عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعُكَاظ ومجنة [(١)] وفي المواسم بمنى يقول : « من يؤويني ؟ ، من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة ؟ » حتى إن الرجل لَيَخْرُجُ من اليمن أو من مضر فيأتيه قومه فيقولون : احذر غلام قريش ، لا يَفْتِنْكَ عن دينك ، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع ، حتى بعثنا الله إليه من يثرب ، فآويناه وصدقناه ، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن ، فينقلب إلى أهله ، فيسلمون بإسلامه حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام ، ثم ائتمروا جميعاً فقلنا : حتى متى نترك رسول الله ﷺ يُطْرَدُ في جبال مكة ويخاف ، فرحل إليه منا سبعون [(٢)] رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم ، فواعدناه شعب

---

(١) عكاظ : اسم مكان بقرب مكة يقام به في الجاهلية سوق يقيمون فيه أياماً ، ومجنة : بفتح الميم وكسرها مع فتح الجيم : موضع بأسفل مكة على أميال وكان يقام به للعرب سوق ، انظر : البناء ، بلوغ الأماني ٢٠ / ٢٧٠ .

(٢) عند ابن هشام : أنهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان ، ابن هشام ، السيرة النبوية ٢ / ١٨٨ — ١٨٩ وص ٢١٠ ، المطبوعة مع الروض الأنف .

العقبةِ ، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتى توافينا ، فقلنا : يا رسول الله نبايعك ، قال : « تبايعونني على السمعِ والطاعةِ في النشاطِ والكسلِ ، والنفقةِ في العُسْرِ واليُسْرِ ، وعلى الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافون لومةَ لائمٍ ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمتُ عليكم مما تمنعون منه أنفسَكم وأزواجَكم وأبناءَكم ولكم الجنة » ، قال : فقمنا إليه فبايعناه وأخذ بيده أسعد بن زرارة ، وهو من أصغرهم فقال : رويداً يا أهل يثرب ، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله ، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبنة [١] فبينوا ذلك فهو عذر لكم عند الله ، قالوا : أمط عنا يا أسعد فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً ولا نسلبها أبداً [٢] ، قال : فقمنا إليه فبايعناه ، فأخذ علينا وشرط يعطينا على ذلك الجنة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ [٣] .

---

(١) جبنة : أي : جبنا ، البناء ، بلوغ الأماني ٢٠ / ٢٧٠ .

(٢) لا نسلبها : أي : لا نرفضها ولا نتركها ، البناء ، بلوغ الأماني ٢٠ / ٢٧٠ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده : أحمد البناء ، الفتح الرباني ٢٠ / ٢٦٩ - ٢٧٠ وقال في تخريجه في بلوغ الأماني : (وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد جامع لبيعة العقبة ولم يخرجاه ، (قلت) وأقره الذهبي وقال الحافظ ابن كثير في تاريخه : هذا

وعن جنادة بن أبي أمية قال : دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض ، قلنا : أَصْلَحَكَ اللهُ ، حَدِّثْ بحديثٍ يَنْفَعْكَ اللهُ به ، سمعتَه من رسول الله ﷺ ، قال : دعانا النبي ﷺ ، فقال : فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في مَنْشَطِنَا ومَكْرَهِنَا وعُسْرِنَا ويُسْرِنَا وأثرةٍ علينا وأن لا ننازعَ الأمرَ أهلَه إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهانٌ [١] .

وبعد أن تمت بيعة العقبة على النحو الذي ذكره جابر رضي الله عنه صرخ الشيطان على العقبة بأنفذ صوت سُمِعَ قائلاً : يا أهل الجباجب [٢] هل لكم في مذمم [٣] والصباة [٤] معه قد اجتمعوا على حربكم ، فقال الرسول ﷺ : « هذا أزب العقبة [٥] ، هذا ابن أزيب ، أما والله ياعدو الله لأتغرغن لك » [٦] .

إسناد جيد على شرط مسلم) ، وانظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ١٥٩- ١٦٠ .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ١٣ / ٥ ، رقم ٧٠٥٥ ورقم ٧٠٥٦ .

(٢) الجباجب : منازل منى : بلوغ الأماني ٢٠ / ٢٧٤ .

(٣) مذمم : هذه كلمة تطلقها قريش وتعني بها محمداً ﷺ ، وفي صحيح البخاري ٣ / ١٢٩٩ (تحقيق مصطفى البغا) قال رسول الله ﷺ : « ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم ؟! يشتمون مذمماً ويلعنون مذمماً وأنا محمد » .

(٤) الصباة : جمع صابئ ، وكان الكفار يطلقون هذه الكلمة على من دخل في الإسلام على عهد الرسول ﷺ في بداية الإسلام .

(٥) أزب العقبة : الأزب من أسماء الشياطين ، وأزب العقبة شيطان هذا اسمه ، بلوغ الأماني ٢٠ / ٢٧٤- ٢٧٥ .

(٦) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١٩٢/٢ ، ومسند الإمام أحمد ، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد للبناء ٢٠ / ٢٧٤ ، وابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ١٦٤ .

ثـم أذن الرسـول ﷺ في الانصـراف قـائلاً : « ارفضـوا [١] إلى رحالكم » فقال العباس بن عبادة بن نضلة : يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لم نُؤْمَرْ بهذا » [٢].

نقف مع أحداث بيعة العقبة الثانية ؛ لنأخذ منها الفوائد التالية :

الأولى : بيعة العقبة الثانية من أهم الأحداث في الإسلام ، فمنها فُتِحَ الطريقُ أمام الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ للهجرة إلى المدينة ، ثم هجرة الرسول ﷺ ، ومنها كانت غزوة بدر الكبرى .

يقول كعب بن مالك ﷺ : (ولقد شهدت مع النبي ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهدَ بدرٍ وإن كانت بدرٌ أذكرَ في النَّاس منها) [٣] قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ في شرحه لهذا الحديث : (لأن من شهد بدراً وإن كان فاضلاً بسبب أنها أول غزوة نصر فيها الإسلام لكن بيعة العقبة كان سبباً في فشو الإسلام ومنها نشأ مشهد بدر) [٤].

---

(١) أي تفرقوا .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ، مسند الإمام أحمد ٣/ ٤٦٢ ، انظر : سيرة ابن هشام المطبوعة مع الروض الأنف ٢ / ١٩٢ ، وابن الجوزي ، الوفاء بأحوال المصطفى ١ / ٣٦١ ، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٤٢- ٤٥ وقال ص ٤٥ : (رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع فتح الباري ٧ / ٢١٩ ، رقم ١٨٨٩ .

(٤) ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٢٢١ .

الثانية : الشرط الثاني من شروط بيعة العقبة الثانية هي النفقة في العسر واليسر ، بذل المال في سبيل الله سبحانه وتعالى ، (ومن أعظم الجهاد ، الجهاد المالي ، والله تعالى قَدَّمَ الجهادَ بالمال على الجهاد بالنفس ، فإن النفقة في سبيل الله أفضل النفقات على الإطلاق) [١] والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [٢] ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٣] .

الثالثة : في عقد البيعة بيان لأهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدين ، يقول الله سبحانه وتعالى في صفات المؤمنين : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ

---

(١) السعدي ، الجهاد في سبيل الله ص ١٦٩ ، المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن السعدي ، القسم الخامس ، المجلد الأول ، وانظر : ابن تيمية ، منهاج السنة ٨ / ٢٣٠ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية رقم (١٥) .

(٣) سورة الصف ، الآيتان رقم (١٠- ١١) .

ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

وقال تعالى أيضاً في صفات المؤمنين : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) .

وهذا مما يؤكد مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدين حيث إن الله سبحانه وتعالى قَرَنَ الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله (٣) .

الرابعة : في بيعة العقبة فضل كبير للأنصار ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ وقد وردت أحاديث كثيرة في فضلهم والثناء عليهم والتذكير بحقوقهم ، فمن ذلك :-

١) عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أو قال أبو القاسم ﷺ : « لو أن الأنصار سلكوا وادياً أو شعباً لسلكت في وادي الأنصار ، ولولا

---

(١) سورة التوبة ، الآية رقم (١١٢) .

(٢) سورة التوبة ، الآية رقم (٧١) .

(٣) انظر: فضل إلهي ، الحسبة ص ٢٠ وفيه تفصيل جيد يرجع إليه .

الهجرة لكنت امرأً من الأنصار » ، فقال أبو هريرة ﷺ : (ما ظلم ـ بأبي وأمي ـ آووه ونصروه أو كلمة أخرى) [١] .

٢) عن البراء ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ أو قال : قال النبي ﷺ : « الأنصارُ لا يحبهم إلا مؤمنٌ ولا يبغضهم إلا منافقٌ ، فمن أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ ومن أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ » [٢] .

٣) وعن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال : « آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار » [٣] .

الخامسة : في استجابة الأنصار واستعدادهم لنصرة الرسول ﷺ وتَأَخُّرِ (إسلامِ قومِه وبني عمه ، وسبقِ الأباعدِ إلى الإيمان به لَحكمةٌ عظيمةٌ ، إذ لو بادر أهله وأقربوه إلى الإيمان به لقيل : قوم أرادوا الفخر برجل منهم وتعصبوا له ، فلما بادر إليه الأباعد ، وقاتلوا على حبه من كان منهم أو من غيرهم ، عُلِمَ أن ذلك على بصيرة صادقة ، ويقين قد تغلغل في قلوبهم ورهبة من الله تعالى أزالت صفة قد كانت سَدِكَتْ [٤] في نفوسهم من أخلاق من الجاهلية لا يستطيع إزالتها إلا الذي فطر الفِطرةَ الأولى ، وهو القادر على ما يشاء) [٥] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح ٧ / ١١٢ ، رقم ٣٧٧٩ .
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح ٧ / ١١٣ ، رقم ٣٧٨٣ .
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح ٧ / ١١٣ ، رقم ٣٧٨٤ .
(٤) سدكت : بفتح أوله وكسر ثانيه أي : لزمت ، انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١٠ / ٤٣٩ .
(٥) السهيلي ، الروض الأنف ٤ / ١٨ ، والشامي ، سبل الهدى ٤ / ٥٠٥ .

السادسة : في قول الرسول ﷺ : « لم نُؤْمَرْ بهذا » لما استأذن العباس بن عبادة بن نضلة في أن يميلوا على الكفار بأسيافهم ، في قوله ﷺ هذا بيان أن هذا الدين وحي وليس رأياً ولا عاطفةً ، فلا بد من الانضباط بالأمر الشرعي والحذر من السير خلف العاطفة ، و قبل كل شيء (هل أُمِرْنا بهذا ؟) إنها كلمة ، بل قاعدة عظيمة في الدعوة إلى الله بخاصة ، وفي غيرها بعامة ، وبها ننجو من البدع والخطأ والخطل[١] .

❁❁❁

(١) الخطل : المنطق الفاسد المضطرب ، انظر : الرازي ، مختار الصحاح ص ١٨١ .

المبحث الرابع

فقه السيرة في الهجرة النبوية

لما تمت بيعة العقبة الثانية لرسول الله ﷺ أَذِنَ ﷺ لمن كان معه بالهجرة إلى المدينة ، فخرجوا أرسالاً ، وأقام ﷺ بمكة ينتظر أن يُؤْذَنَ له في الخروج ، فكان أول من هاجر من مكة إلى المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد ، ثم عامر بن ربيعة وامرأته ليلى ، ثم عبد الله بن جحش ، ثم المسلمون أرسالاً ـ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ـ ، ثم هاجر عمر بن الخطاب ﷺ وأخوه زيد وعياش بن أبي ربيعة .

ولم يبق في مكة إلا رسولُ الله ﷺ وأبو بكر ﷺ وعلي بن أبي طالب ﷺ ، وقلةٌ من المسلمين إما لحبسٍ أو غيره .

وكان أبو بكر الصديق ﷺ كثيراً ما يستأذن الرسول ﷺ في الهجرة ، فيقول له الرسول ﷺ : « لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحباً » فيطمع أبو بكر ﷺ أن يكون هو[١] .

ولما رأى المشركون أن أصحاب رسول الله ﷺ أخذوا في الهجرة ، اجتمعوا ومعهم إبليس في صورة شيخ نجدي[٢] في دار الندوة

(١) انظر : القسطلاني ، المواهب اللدنية ١ / ٢٨٤- ٢٨٥ .

(٢) قال السهيلي في الروض الأنف ٢ / ٢٣٩ : (وإنما قال لهم : إني من أهل نجد فيما ذكر بعض أهل السير ؛ لأنهم قالوا : لا يدخل معكم في المشاورة أحد من أهل تهامة

يتشاورون في أمرهم ، فتوصلوا إلى المؤامرة على قتله ﷺ باشتراك عدد من القبائل القرشية حتى يضيع دمه ولا يتمكن بنو هاشم من المواجهة فيرضوا بالدية .

فأتى جبريل النبي ﷺ وقال له : لا تَبِتْ هذه الليلةَ في فراشك ، ولما جاء الليل أمر الرسول ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يبيت في فراشه ، وأن يؤدي الأمانات التي كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ؛ لما يعلم من صدقه وأمانته ﷺ [1] ، ثم خرج الرسول ﷺ وهو يتلو قول

؛ لأن هواهم مع محمد ، فلذلك تمثل لهم في صورة شيخ نجدي) . وقال الشيخ محمد نسيب الرفاعي ـ وهو من أهل الشام ـ : (وكأن أهل نجد ـ منذ ذلك الزمان ـ قد اشتهروا بالنصح وحكمة الرأي ، فتمثل الشيطان بزيهم ؛ ليوهم قريشاً أنه ينصحهم فيطمئنوا لرأيه) هامش مختصر تفسير ابن كثير ٢ / ٢٨٦ ، وقال عبد الله القصيمي في مشكلات الحديث النبوية وبيانها ٢٠٩- ٢١٠ : (إن رؤوس قريش لا يدخلون معهم إلا من يظنونه من رؤوس الدهاء والرأي والحنكة ، وترحيبهم به لما قال : إنه من أهل نجد ، دليل على أنهم يسلمون لرجال نجد بالتفوق عليهم بالآراء والدهاء ، ويدل أيضاً على أن الشيطان يعرف للنجديين ذلك ، ويعرف أن قريشاً تعرف لهم ذلك ، وهو غاية التعظيم والمدح للنجديين ... والشيطان قد يتصور في صور كثيرة ، فقد يتصور في صور العلماء المعروفين بالإمامة في الدين ، لإضلال الناس ، وما كان تصور الشيطان بصورهؤلاء نقصاً فيهم ، بل العكس هو الصحيح ، فإن غالباً مايتصور بالصالحين أو من يظن أنهم صالحون ؛ ليستطيع التغرير والتضليل) باختصار يسير .

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢ / ٩٨ ، والقسطلاني ، المواهب اللدنية ١ / ٢٨٩ .

الله سبحانه وتعالى : ﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١) ونثر على رؤوس الجالسين عند الباب التراب ، ثم انصرف ﷺ حيث أراد (٢) ، وفي هذه نزل (٣) قول الله سبحانه وتعالى :﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (٤) .

ثم ذهب الرسول ﷺ إلى بيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فخرجا من خوخة (٥) في دار أبي بكر ليلاً حتى لحقا بغار ثور في اتجاه اليمن (٦) ، وقد أخرج البخاري عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت في حديث طويل جاء فيه : (فقال النبي ﷺ للمسلمين : إني رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان ، فهاجر من هاجر قِبَلَ المدينة ورجع عامة من كان هاجر إلى أرض الحبشة إلى المدينة وتجهز أبو بكر قِبَلَ

---

(١) سورة يس ، الآيات من (١ - ٩) .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/٩٥-٩٦ .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/ ٩٦ ، و الرفاعي ، تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ٢/ ٢٨٦ .

(٤) سورة الأنفال ، الآية رقم (٣٠) .

(٥) الخوخة : كُوّة بين بيتين كالنافذة عليها باب صغير. انظر : ابن حجر ، هدي الساري ص ١١٥ .

(٦) انظر : السمهودي ، الوفاء ١ / ٢٣٩ .

المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ : « على رِسْلِكَ ، فإني أرجو أن يُؤْذَنَ لي » ، فقال أبو بكر ﷺ : وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟! قال : « نعم » ، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ؛ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر وهو الخبط أربعة أشهر ، قال ابن شهاب : قال عروة: قالت عائشة : فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر : هذا رسول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها ؛ فقال أبو بكر : فداء له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر ، قالت : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن ، فأذن له فدخل ، فقال النبي ﷺ لأبي بكر : أخرج من عندك ، فقال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله ، قال : فإني قد أُذِنَ لي في الخروج ، فقال أبو بكر : الصحابة بأبي أنت يا رسول الله ، قال رسول الله ﷺ : نعم ، قال أبو بكر : فخذ ـ بأبي أنت ـ يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين ، قال رسول الله ﷺ : بالثمن ، قالت عائشة : فجهزناهما أحث الجهاز وصنعنا لهما سفرة في جراب ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها ، فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاق ، قالت : ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور ، فمكثا فيه ثلاث ليال ، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام ثقف لقن [١] فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع

---

(١) الثقف : الحاذق ، واللقن : السريع الفهم ، فتح الباري ٧ / ٢٣٧ .

قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمراً يكتادون به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء .

فيبيتان في رسل ـ وهو لبن منيحتهما ورضيفهما ـ حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث ، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل ، وهو من بني عبد بن عدي [(١)] هادياً خريتاً ـ الخريت : الماهر بالهداية ـ قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي ، وهو على دين كفار قريش فأمناه ، فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعده غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل ، فأخذ بهم طريق السواحل) [(٢)].

ولما فقدت قريش الرسول ﷺ طلبوه في كل مكان في مكة ، وبعثوا القافة في أثره في كل طريق وأعلنت عن مكافأة سخية لمن يأتي بأي منهما حياً أو مَيْتاً قدرُها مائةٌ من الإبل [(٣)] .

---

(١) قيل : إن اسمه عبد الله بن الأريقط ، الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٣/ ٣٤٦ ، وأورد المحقق في الهامش خلافاً في اسمه ، وذكر الشامي في ص٣٣٧ أنه كان على دين كفار قريش ، وأسلم بعد ذلك .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٧ / ٢٣١ ، رقم ٣٩٠٥ .

(٣) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٥٤ .

وقد وصل المطاردون للرسول ﷺ إلى باب الغار ولكن الله غالب على أمره ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا ، فقال : « ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما »[١] .

وحينما هدأ الطلب خرجا مع دليلهما الذي أمعن في اتجاه الجنوب نحو اليمن ، حتى إذا وصل إلى طريق لم يألفه الناس اتجه شمالاً على مقربة من شاطئ البحر الأحمر وسلك طريقاً لم يسلكه أحد من الناس إلا نادراً .

ومر في مسيره بخيمتي أم معبد الخزاعية[٢] وفي الطريق لحقهما سراقة ، ففي صحيح البخاري أن سراقة بن جعثم قال : جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منها لمن قتله أو أسره ، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي (بني مدلج) إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس ، فقال : يا سراقة ، إني قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل ، أراها محمداً وأصحابه ، قال سراقة : فعرفت أنهم هم ، فقلت له : إنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا ، ثم لبثت في المجلس ساعة ، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي - وهي من وراء أكمة -

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٩٠٨ ، رقم ٣٦٥٣ ، وصحيح مسلم ٣ / ١٨٥٤ ، رقم ٢٣٨١ .

(٢) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٥٥ — ٥٦ .

فتحبسها علي ، وأخذت رمحي ، فخرجت به من ظهر البيت ، فخططت بزجه [١] الأرض وخفضت عاليه ، حتى أتيت فرسي فركبتها ، فرفعتها [٢] تقرب بي [٣] حتى دنوت منهم ، فعثرت بي فرسي ، فخررت عنها ، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي ، فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا ؟ فخرج الذي أكره ، فركبت فرسي ـ وعصيت الأزلام ـ تقرب بي ، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين ، فخررت عنها ، ثم زجرتها ، فنهضت فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عنان ساطع في السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزلام ، فخرج الذي أكره ، فناديتهم بالأمان ، فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم ، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع ، فلم يرزآني [٤] ولم يسألاني إلا أن قال : أخف عنا ، فسألته أن

---

(١) الزج : بضم الزاي بعدها جيم : الحديدة التي في أسفل الرمح .

(٢) أي أسرعت في السير .

(٣) التقريب : السير دون العدو وفوق العادة ، وقيل : أن ترفع الفرس يديها وتضعهما معاً . فتح الباري ٧ / ١٤١ .

(٤) أي لم ينقصاني مما معي شيئاً ، فتح الباري ٧ / ٢٤٢ .

يكتب لي كتاب أمان ، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم ، ثم مضى رسول الله ﷺ ، قال ابن شهاب : فأخبرني عروة بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض ، وسمع المسلمون بالمدينة مخرج الرسول ﷺ من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه ، حتى يردهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوما بعدما أطالوا انتظارهم ، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أُطُم [١] من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرون ، فثار المسلمون إلى السلاح ، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف ، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ، فقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار ـ ممن لم ير رسول الله ﷺ ـ يحيِّي أبا بكر ، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتى ظلَّل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك ... الحديث) [٢] .

(١) الأطم : بضم أوله وثانيه هو الحصن ، فتح الباري ٧ / ٢٤٣ .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٢٣٨- ٢٣٩ ، رقم ٣٩٠٦ .

نقف مع حدث الهجرة النبوية العظيمة ؛ لنستخرج منها الفوائد التالية :

الأولى : حدث الهجرة النبوية من أعظم الأحداث الإسلامية ، بل إن الباحث في السيرة النبوية لَيَلْحَظُ ارتباطه بالبعثة النبوية ، ففي اليوم الأول من البعثة عندما ذهب الرسول ﷺ مع خديجة ـ رضي الله عنها ـ إلى ورقة بن نوفل قال له ورقة : (ليتني حياً إذ يخرجك قومك ، فقال الرسول ﷺ : أَوَ مُخْرِجِيَّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عُوْدِيَ)(١) .

الثانية : كان الأمر بالهجرة توقيتاً ومكاناً من الوحي ، قال الإمام البخاري : (وقال أبو موسى عن النبي ﷺ : (رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر ، فإذا هي المدينة يثرب)(٢) ومر معنا قول الرسول ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه : « فإني قد أُذِنَ لي في الخروج » فقال أبو بكر : (الصحابة بأبي أنت يا رسول الله)(٣) .

الثالثة : لم تكن الهجرة إلى المدينة سياحة رغب فيها المهاجرون ، ولم تكن مكة أرض وباء ؛ ليفرح المهاجرون بخبر الخروج منها ،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح ١ / ٢٣ ، رقم ٣ .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٢٢٦ ، كتاب المناقب ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه .

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٢٣١ ، رقم ٣٩٠٥ .

وإنما جاء أمر الهجرة تكليفاً من تكاليف العقيدة التي آمنوا بها، وضرورة استلزمتها طبيعة رسالة الإسلام ووجوب إبلاغها [(١)] .

الرابعة : مبادرة الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ـ إلى امتثال أمر الرسول ﷺ بالهجرة إلى المدينة تاركين خلفهم الأولادَ والأموالَ والأوطانَ ، ولم يتخلف إلا من رغب الرسول ﷺ في بقائه أو حبس أو له عذر أو غير ذلك وهم قلة .

وهذا يُذكِّرُنا بامتثال أوامر الرسول ﷺ والحذر من مخالفتها والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [(٢)] .

الخامسة : في الهجرة منقبة خاصة لأبي بكر الصديق ﷺ ، فهو الذي اختاره الرسول ﷺ للصحبة في الهجرة وهو الذي سخر أولاده وخادمه وماله لإتمامها ، ويكفيه من ذلك قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [(٣)] يقول محيي الدين شيخ زادة : (وكفى بهذا دليلاً على فضل أبي بكر ﷺ على سائر الصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ حيث

---

(١) انظر : سليمان العودة ، السيرة النبوية في الصحيحين ص ٣٥١ .

(٢) سورة النور ، الآية رقم (٦٣) .

(٣) سورة التوبة ، الآية رقم (٤٠) .

استخلصه رسول الله ﷺ لنفسه في مثل تلك الحالة)[١]، يقول ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: (ومن تأمل هذا وجد فضائل الصديق التي في الصحاح كثيرة وهي خصائص مثل حديث (المخالة) وحديث (إن الله معنا) وحديث (إنه أحب الرجال إلى النبي ﷺ) وحديث (الإتيان إليه بعده) وحديث (كتابة العهد إليه بعده) وحديث (تخصيصه بالتصديق ابتداء والصحبة وتركه له)[٢] وقال في موضع آخر : (ولهذا قال من قال من العلماء : إن فضائل الصديق خصائص لم يشركه فيها غيره)[٣].

وقال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ : (والذي يُقْطَعُ به من الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة ويجب أن تؤمن به القلوب والأفئدة فضل الصديق على جميع الصحابة)[٤].

السادسة : أيضاً في الهجرة منقبة خاصة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فهو الذي نام في فراش رسول الله ﷺ وعرض نفسه للخطر واثقاً من حفظ الله ورعايته ، وهو الذي قام بعده يؤدي الأمانات التي على الرسول ﷺ وهو لا يزال رضي الله عنه شاباً عمره قرابة (

(١) محي الدين شيخ زادة ، حاشية محي الدين الشيخ زادة على البيضاوي ٢ / ٣٣٣ .

(٢) ابن تيمية ، منهاج السنة ٨ / ٤١٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٤١٧ .

(٤) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٨ / ١٤٨ .

٢٣سنة) ، وقد قال علي ﷺ : (عهد إلي النبي ﷺ أنه لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق) (١) .

وعن سلمة بن الأكوع ﷺ قال : (كان علي ﷺ قد تخلف عن النبي ﷺ في خيبر وكان به رمد فقال : أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ ، فخرج علي فلحق بالنبي ﷺ ، فلما كان مساء الليلة التي فتحها الله في صباحها قال رسول الله ﷺ : « لأعطين الراية ـ أو ليأخذن الراية ـ غداً رجل يحبه الله ورسوله أو قال : يحب الله ورسوله ، يفتح الله عليه » ، فإذا نحن بعلي وما نرجوه فقالوا : هذا علي ، فأعطاه رسول الله ﷺ الراية ، ففتح الله عليه) (٢) .

السابعة : في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ (كان يزور أبا بكر الصديق ﷺ) وفي هذا دلالةٌ على زيارة الكبير للصغير وليست الزيارة خاصة بالصغير للكبير فقط .

الثامنة : من قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ (فجاء رسول الله ﷺ ، فاستأذن فأذن له) نأخذ أدباً من آداب دخول المنازل ، وهو الاستئذان ، فالرسول ﷺ يستأذن مع ما له من خصوصية ومكانة ومع

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ١ / ٩٥ ، وقال الشيخ وصي الله بن محمد عباس محقق فضائل الصحابة للإمام أحمد : (إسناده صحيح) .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٧٠ ، رقم ٣٧٠٢ ، وصحيح مسلم ٤ / ١٨٧٢ ، رقم ٢٤٠٧ .

أن الله جل شأنه يقول عنه : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (١) .

التاسعة : في أمر الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يتخلف بعده لأداء الأمانات التي كانت لقريش عند الرسول ﷺ نلحظ فائدتين :

أ. التناقض العجيب في عمل كفار قريش ، فهم يرون الرسول ﷺ أميناً ، يودعون عنده الودائع التي يخشون عليها ولا يجدون فيهم من يكون أهلاً لحفظها ، وعندما يخبرهم عن ربهم سبحانه وتعالى ويدعوهم إلى الله يقولون : ساحر كذاب إلى آخر تلك الأوصاف السيئة .

ب. أن الرسول ﷺ رغم خطورة الموقف وتآمر هؤلاء الكفار على حياته ﷺ ، لم ينس حقوق الناس ، وهذا يدلنا على عظم حقوق الناس وأنها من الأهمية بمكان ، لا يسوغ التهاون في شيء منها سواء كانت حقوقاً مادية ، أو حقوقاً معنوية كالنيل من الأعراض ونحوها .

وهذا أمر تهاون الناس فيها كثيراً ، فلم يرعوا حقوق الآخرين المادية كالأموال ونحوها أو المعنوية وذلك بالغيبة والنميمة والاستهزاء والسخرية والعيب والذم ، وهي حقوق لها أصحاب مطالبون بها يوم

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية رقم (٦) .

القيامة ، والرسول ﷺ يقول في خطبة يوم النحر بمنى في حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا »[١] .

العاشرة : لما قدَّم أبو بكر الصديق ﷺ الراحلةَ التي كان أعدها للهجرة قال الرسول ﷺ : « بالثمن » قيل في حكمة ذلك : إن الرسول ﷺ إنما فعل ذلك ؛ لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله رغبة منه ﷺ في استكمال فضل الهجرة والجهاد على أتم أحوالها[٢] .

ولعل في ذلك أيضاً فائدة للداعية إلى الله بأن لا يتشوَّف إلى ما في أيدي الناس ، وأن يكون عفيف النفس ، همه إصلاح قلوبهم وهدايتهم دون النظر إلى ما في أيديهم .

الحادية عشرة : لما وصل الكفار إلى مدخل الغار الذي كان الرسول ﷺ مختبئاً فيه حتى إن أحدهم لو نظر إلى موضع قدميه لأبصر الرسول ﷺ وصاحبه ﷺ ، في هذا الوقف يقول الرسول ﷺ لأبي بكر ﷺ : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » ، وهذه قوة الإيمان والثقة بالله والتوكل عليه ، التي نحتاج إلى التذكير بها ، وبخاصة وقد

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٣ / ٥٧٣ ، رقم ١٧٣٩ ، وصحيح مسلم ٢ / ٨٨٩ ، رقم ١٢١٨ .

(٢) انظر : السهيلي ، الروض الأنف ٢ / ٢٣٠ ، والسمهودي ، وفاء الوفاء ١ / ٢٣٧ ، والشامي ، سبل الهدى ٣ / ٣٦٠ .

تعلقت قلوب البعض بالأسباب في غفلة عن الإيمان بالله سبحانه وإحسان التوكل عليه جل شأنه .

الثانية عشرة : لاحظ هنا قول الرسول ﷺ : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » ولم يقل : « ما ظنك بالرسول » أو « ما ظنك بي وبك والله معنا » ونحو ذلك التي فيها الخصوصية للرسول ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه ولكن « ما ظنك باثنين » فهي تشمل كل المؤمنين الموقنين بمعية الله لهم وهي قاعدة مضطردة ، وليست خاصة بهذا الموقف فقط ، وهي بشرى لكل مؤمن بأن الله جل شأنه معه ، بحفظه ونصره وتأييده وتوفيقه .

الثالثة عشرة : من قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه : (لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا وقول الرسول ﷺ : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » ندرك من هذا مصداق قول الله جل شأنه : ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (١) فالوهن مزروع في كيد الكافر ولا يمكن فصل الوهن من كيده ، فالكفرة هنا بذلوا كل ما يستطيعون وأعلنوا الجوائز وتسابق الناس يبحثون عن الرسول ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه طمعاً في الجائزة ، فقلبوا الحجارة وصعدوا الجبال وهبطوا الأودية حتى وقفوا على باب الغار ، وصرفهم الله جل شأنه بأمر يسير جداً ، بل قد

(١) سورة الأنفال ، الآية رقم (١٨) .

أقول : إنه أيسر الأمور ، ألا وهو حركة طرف العين ، تلك الحركة التي هي أسهل الحركات ، تلك الحركة التي يقوم بها الإنسان في اللحظة الواحدة مرات عديدة ، ومع ذلك ، مع هوان الكفار وكيدهم صرفهم الله جل شأنه بهذه الحركة اليسيرة ، فلم يفعلوها تلك اللحظة ولم يتمكنوا من رؤية الرسول ﷺ وصاحبه ، فبطل كيدهم كله ورجعوا بالخيبة والخسارة .

الرابعة عشرة : يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

في هذه الآية فوائد :

أ. ما هو هذا النصر الذي تتحدث عنه الآية الكريمة ؟ إن النصر في عرف الناس يختلف كل حسب هدفه في الحياة ، فهناك من يرى النصر في الغلبة على خصمه وكم جر هذا من دمار على العالم ، وهناك من يرى النصر هو الغلبة بين فريقين في الكرة والرياضة ، وهناك وهناك ...، ولكن النصر الذي يحتفي به القرآن الكريم هو النصر المرتبط

---

(١) سورة التوبة ، الآية رقم (٤٠) .

بتحقيق أهداف أخروية ، والمسلم لا يرى هذه الدنيا إلا وسيلة لتحقيق النصر الذي يرفع منزلته في الآخرة وهذا النصر هو الذي به تقوم العدالة في الدنيا وتستقيم الحياة وتطمئن النفوس وترتفع المنازل والغايات .

ب. تضمنت الآيات في بدايتها عتاباً يقول سفيان بن عيينة ـ رحمه الله تعالى ـ : (خرج أبو بكر ﷺ بهذه الآية من المعاتبة التي في قوله : « إلا تنصروه »)[١] .

ت. النصر قسمان :

الأول : نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم بأن يتم الله لهم ما طلبوا وقصدوا فيظهرهم الله عليهم .

الثاني : نصر المستضعف الذي طمع فيه عدوه القادر ، فنصر الله له أن يرد عنه عدوه ، ولعل هذا النصر هو أنفع النصريْنِ ، ونصر الله لرسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع[٢] .

ث. (ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه) في هذا الجزء من الآية خصيصتان من خصائص أبي بكر الصديق ﷺ ، فهو ثاني اثنين ، وهو صاحب الرسول ﷺ بنص القرآن الكريم[٣] .

---

(١) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٨ / ١٤٣ .

(٢) انظر : السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٣٣٨ (طبعة مؤسسة الرسالة ١٤٢١هـ) .

(٣) انظر الرازي ، التفسير الكبير ١٦ / ٦٤- ٦٥ ، وابن القيم ، الضوء المنير على التفسير جمع علي الحمد الصالحي ٣ / ٣٥٦ – ٣٥٧ (الرياض : مكتبة دار السلام د . ت) .

ج. من قول الرسول ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه : « لا تحزن » ومن حديث البراء بن عازب رضي الله عنه يقول في قصة الهجرة : قال أبو بكر : (فارتحلنا بعدما مالت الشمس ، وأتبعنا سراقة بن مالك ، فقلت : أُتينا يا رسول الله ، فقال : « لا تحزن إن الله معنا » الحديث [١] حيث جعل الرسول ﷺ يسكن أبا بكر رضي الله عنه ويطمئنه [٢] ، نستفيد من هذا مشروعية تسكين وطمأنة من نزل به أمر أحزنه ، ومثل هذا قول خديجة ـ رضي الله عنها ـ للرسول ﷺ يوم جاء من غار حراء بعد نزول الوحي عليه وأخبرها الخبر وقال : لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة ـ رضي الله عنها ـ : (كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لَتَصِلُ الرحمَ ، وتحمل الكَلَّ ، وتكسب المعدومَ ، وتقري الضيفَ ، وتعين على نوائب الحق) [٣] .

يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ في فوائد هذا الحديث : وفيه (استحباب تأنيس من نزل به أمر بذكر تيسيره عليه وتهوينه لديه) [٤] .

ح. من قول الله تعالى : ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيح المطبوع مع الفتح ٦ / ٦٢٢ ، رقم ٣٦١٥ .
(٢) الرفاعي ، تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ٢ / ٣٣٩ .
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح ١ / ٢٣ ، حديث رقم ٣ .
(٤) ابن حجر ، فتح الباري ١ / ٢٥ .

هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [١] ، في عود الضمير في قوله تعالى : (فأنزل الله سكينته عليه) قال البيضاوي : (على النبي ﷺ أو على صاحبه وهو الأظهر ؛ لأنه كان منزعجاً) [٢] وقال ابن العربي : (فيه قولان : أحدهما : على النبي ﷺ ، والثاني : على أبي بكر ﷺ ، قال علماؤنا : وهو الأقوى ؛ لأن الصديق خاف على النبي ﷺ من القوم ، فأنزل الله سكينته ؛ ليأمن على النبي ﷺ ، فسكن جأشه ، وذهب روعه وحصل له الأمن) [٣] وقال البغوي : (قيل : على النبي ﷺ ، وقال ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: على أبي بكر ﷺ ، فإن النبي ﷺ كانت عليه السكينة من قبل) [٤] وهذا الحزن الذي أصاب أبا بكر ﷺ ليس بنقص ، كما لم ينقص إبراهيم عليه السلام حيث قال الله تعالى عنه : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ﴾ [٥] ولم ينقص موسى عليه السلام ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [٦]

---

(١) سورة التوبة ، الآية رقم (٤٠) .
(٢) البيضاوي ، تفسير البيضاوي المطبوع مع حاشية محيي الدين شيخ زادة ٢ / ٨٤ .
(٣) ابن العربي ، أحكام القرآن ٢ / ٩٥١ ، وانظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٨ / ١٤٨ ، والقسطلاني ، المواهب اللدنية ١ / ٢٩٦ .
(٤) البغوي ، معالم التنزيل ٢ / ٢٩٦ .
(٥) سورة الذاريات ، الآية رقم (٢٨) .
(٦) سورة طه ، الآيتان رقم (٦٧- ٦٨) .

وفي لوط عليه السلام ﴿ وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾[١] وكذلك فإن حزن أبي بكر الصديق ﷺ لم يكن عن شك أو حيرة ، وإنما كان خوفاً على النبي ﷺ أن يصيبه ضرر أو سوء[٢] .

خ. (فأنزل الله سكينته) مما يظهر من الآية التعقيب بالفاء ، فكأن نزول السكينة بعد قول الرسول ﷺ : « لا تحزن إن الله معنا » ، فمن وثق بالله واعتمد عليه وصدق في ذلك فهو موعود بأن يحصل له نصيب من السكينة والطمأنينة على قدر ثقته بالله وتوكله عليه .

وبالتالي فإن ما يعانيه البعض من خلل في سكينته ، فإن مرده في الأصل إلى خلل في ثقته بالله ونقص في توكله على ربه جل شأنه ، ومن هنا فإن الآية تُذكّرُ بالعلاج ، وهو العودة إلى الله والتوكل عليه والثقة بنصره ، وعندها يجد الفرد السكينة والطمأنينة ، ومتى وُجِدَ الشرطُ (وهو الثقة بالله) وُجِدَ المشروطُ (وهو الطمأنينة والسكينة) .

د. نجد في الآيات أنواعاً من التأييد :-

١. تأييداً داخلياً (فأنزل الله سكينته) .
٢. تأييداً خارجياً (وأيده بجنود لم تروها) .
٣. تقرير القاعدة (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى) .

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية رقم (٣٢) .

(٢) انظر : ابن العربي ، أحكام القرآن ٢ / ٩٥٣ ، والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٨ / ١٤٦ .

٤. تأكيد القاعدة (وكلمة الله هي العليا) .

الخامسة عشرة : بقي الرسول ﷺ وصاحبه في الغار ثلاثة أيام ، ما الغار ؟ ، وما أدراك ما الغار ؟ .

ماذا توحي إليك هذه الكلمة ؟

تجويف في جبل ، مظلم ، موحش ، مأوى الحشرات والهوام ، ومع ذلك بقي فيه المصطفى ﷺ ثلاثة أيام .

قارن هذا بمن يسكن القصور ويتمدَّد على أنعم الفراش ، الهواء مكيف ، والماء مصفًّى والفراش وثير ، ولكن ليست هذه الحياة ، وليست هذه الطمأنينة ، بل تلك لا تجلب طمأنينة ولا سكينة ، وإنما طمأنينة المؤمن في قلبه وسكينته في نفسه ، ومتى استقر الإيمان وانشرح الصدر تحوَّل الغار إلى قصر شامخ يُطِلُّ على الناس من عُلُوٍّ ، ومتى افتقد صاحبُ القصرِ الإيمانَ أصبح قصرُه أضيقَ عليه من قبره ، ومتى كان القصر يجلب سكينة وطمأنينة ؟؟. ومتى ضاق بالمؤمن مسكنه ، وقلبه قد انشرح فامتد به إلى منتهى البصر !!!.

السادسة عشرة : يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (في استئجار النبي ﷺ عبد الله بن أريقط الدؤلي هادياً في وقت الهجرة وهو كافر ، دليل على جواز الرجوع إلى الكافرين في الطب والمكحل والأدوية والكتابة والحساب والعيوب ونحوها ، ما لم يكن ولاية تتضمن عدالة ، ولا يلزم من مجرد كونه كافراً أن لا يُوثَقَ به في شيء

أصلاً ، فإنه لاشيء أخطر من الدلالة في الطريق ولاسيما في مثل طريق الهجرة)[١] ، وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ في فوائد قصة الهجرة : (الثالثة عشرة : الاستعانة بالكفار على الكفار)[٢] .

وقد ثبت في صحيح مسلم أن الرسول ﷺ تبعه رجل وقد خرج قبل بدر وقال : (جئتك لاتبعنك وأصيب معك ، قال له رسول الله ﷺ : « تؤمن بالله ورسوله ؟ » قال : لا ، قال : « فارجع فلن أستعين بمشرك »[٣] قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ عن قصة ابن أريقط في جواب له : (وما ذكرته من استعانته ﷺ بابن أريقط فهذا اللفظ ظاهر في مشاقة قوله في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ « إنا لا نستعين بمشرك » وابن أريقط أجير مُسْتَخْدَمٌ لا معين مُكْرَمٌ)[٤] .

وسيأتي كلام آخر لابن القيم حول هذا الموضوع في فوائد غزوة حنين إن شاء الله[٥] .

---

(١) بدائع الفوائد ٣ / ٢٠٨ ، وانظر : ابن تيمية ، المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع محمد بن عبد الرحمن بن قاسم ٣/ ١٤١.
(٢) الدرر ا السنية في الأجوبة النجدية جمع ابن قاسم ٨ / ١٠٩ .
(٣) صحيح مسلم ٣ / ١٤٥٠ ، كتاب الجهاد والسير ، باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر ، رقم ١٨١٧ .
(٤) الدرر السنية في الأجوبة النجدية جمع ابن قاسم رقم ٨ / ٣٦٥ .
(٥) انظر : زاد المعاد لابن القيم ٣ / ٣٠١ .

السابعة عشرة : يقول سراقة ﷺ : لما أقبل على الرسول ﷺ سمعه يقرأ وكان لا يلتفت ، وهذه صورة من صور الاستفادة من الوقت في الطاعة ، فلا يضيع شيئاً من وقته ، فهو ﷺ رغم الأخطار ومشقة السفر لا يدع الوقت يمر عليه دون أن يستفيد منه ، وما أسهل الاستفادة من الوقت في قراءة القرآن وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1] ، وسيأتي أيضاً في غزوة فتح مكة أن الرسول ﷺ كان يقرأ القرآن على ناقته يوم فتح مكة .

الثامنة عشرة : عن عطاء ـ رحمه الله تعالى ـ قال : (زرت عائشة ـ رضي الله عنها ـ مع عبيد بن عمير ، فسألناها عن الهجرة ، فقالت : لا هجرة اليوم ، كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ مخافة أن يفتن عليه ، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام ، واليوم يعبد ربه حيث شاء ولكن جهاد ونية)[2] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان رقم (١٩٠- ١٩١) .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٢٢٦ ، رقم ٣٩٠٠ .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ (قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فسأله عن الهجرة ، فقال : « ويحك إن الهجرة شأنها شديد ، فهل لك من إبل ؟ » قال : نعم ، قال : « فتعطيني صدقتها ؟ » قال : نعم ، قال : « فهل تمنح منها ؟ » قال : نعم ، قال : « فتحلبها يوم ورودها ؟ » قال : نعم ، قال : « فاعمل من وراء البحار ، فإن الله لن يَتِرَكَ عملَك شيئاً ») (١) ، فَلْيَحْمَدِ اللهَ العبدُ المؤمنُ على سماحة هذا الدين ، وليشكر الله على نعمة الأمن والإيمان المتاحة له ، فإنها نعمة لا يدركها على حقيقتها إلا من عانى من الفتنة في الدين ، وأُوْذِيَ في سبيل الله .

التاسعة عشرة : أن حكم الهجرة لم يُنْسَخْ ، بل هو باق إلى يوم القيامة ، يدل لهذا :-

أ. عن عبد الله السعدي رجل من بني مالك بن حنبل أنه قدم على النبي ﷺ في أناس من أصحابه ، فقالوا : احفظ رحالنا ثم تدخل وكان أصغر القوم ، فقضى لهم حاجتهم ، ثم قالوا : ادخل ، فدخل ، فقال ـ أي رسول الله ـ : « حاجتك ؟ » قال : حاجتي تحدثني انقضت الهجرة ، فقال له : « حاجتك خير من حوائجهم ، لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدو » (٢) وفي سنن النسائي مختصراً : « لا تنقطع الهجرة ما قُوْتِلَ الكفارُ » (٣) .

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٢٥٧ ، رقم ٣٩٢٣ .
(٢) مسند الإمام أحمد ٥ / ٢٧١ ، تحقيق أحمد شاكر ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥ / ٢٥١ : (رواه النسائي باختصار ورواه أحمد ورجاله رجال الصحيح) .
(٣) سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي ٧ / ١٤٧ .

ب. عن أبي الخير أن جنادة بن أبي أمية حدثه أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ قال : يا رسول الله ، إن أناساً يقولون : إن الهجرة قد انقطعت ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الهجرة لا تنقطع ما كان الجهاد »(١) .

قال ابن حجر في الفتح في شرح الحديث السابق المشار إليه في الفائدة السابقة (كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه... الحديث) : (أشارت عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلى بيان مشروعية الهجرة ، وأن سببها خوف الفتنة ، والحكم يدور مع علته ، فمقتضاه أن من قدر على عبادة الله في أي موضع اتفق لم تجب عليه الهجرة منه وإلا وجبت)(٢) .

العشرون : يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ : (إذا أراد الله إظهار شرف أنبيائه وأصفيائه بالصفات الكاملة قرن بهم الناقصين فيها من المستعدين للكمال وذلك في أمور كثيرة وردت في القرآن منها :- لما أراد الله إظهار شرف آدم على الملائكة بالعلم وعلمه أسماء كل شيء ، ثم امتحن الملائكة فعجزوا عن معرفتها فحينئذ نبأهم آدم بها ، فخضعوا لعلمه ، وعرفوا فضله وشرفه ....

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥ / ٣٧٥ ، تحقيق أحمد شاكر ، وقال الهيثمي : (رجاله رجال الصحيح) .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٢٢٩ .

ولما نكص أهل الأرض عن نصرة النبي ﷺ وتمالأ عليه أعداؤه ، ومكروا مكرتهم الكبرى للإيقاع به ، نصره الله ذلك النصر العجيب ، فإن نصر الله المنفرد الذي أحاط عدوه الشديد حرده ، القوي مكره ، الذي جمع كل كيده ؛ ليوقع به أشد الأخذات وأعظم النكبات ، وتخلصه وانفراج الأمر له من أعظم أنواع النصر كما ذكر الله هذه الحال التي عاتب بها أهل الأرض ، فقال : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾)(١) .

الحادية والعشرون : قارن الشيخ محمد بن عثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ بين خروج موسى عليه السلام من مصر وخروج الرسول ﷺ من مكة وكيف كانت العاقبة لهما فقال : (كيف كان موسى عليه الصلاة والسلام خرج من مصر خائفاً على نفسه يترقب كما خرج الرسول ﷺ من مكة يترقب ، وصارت العاقبة للرسول ﷺ ولموسى عليه الصلاة والسلام ، لكن العاقبة للرسول ﷺ بفعله وأصحابه ،

---

(١) السعدي ، القواعد الحسان لتفسير القرآن ص ١٧٣ - ١٧٤ ، والآية رقم (٤٠) من سورة التوبة .

عذب الله أعداءهم بأيديهم ، وعاقبة موسى عليه السلام بفعل الله عز وجل ، فهي عِبَر يعتبر بها الإنسان ؛ ليصلح بها نفسه وقلبه حتى يتبين الأمر) [١] .

الثانية والعشرون : أخرجه البخاري في صحيحه في (باب التاريخ ، من أين أرخوا التاريخ ؟ عن سهل بن سعد قال : ما عدوا من مبعث النبي ﷺ ولا من وفاته ، ما عدوا إلا من مقدمه المدينةَ) [٢] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ : (اتفق الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في سنة ست عشر ـ وقيل سبع عشر أو ثماني عشر ـ في الدولة العمرية ، على جعل ابتداء التاريخ الإسلامي من سنة الهجرة وذلك أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه رُفِعَ إليه صكٌّ ـ أي حجة ـ لرجل على آخر ، وفيه : إنه يحل عليه في شعبان ، فقال عمر : أي شعبان ؟ أشعبان هذه السنة التي نحن فيها أو السنة الماضية ، أو الآتية ؟ ثم جمع الصحابة ، واستشارهم في وضع تاريخ يتعرفون به حلول الديون وغير ذلك ، فقال قائل : أَرِّخُواْ كتاريخ الفرس ، فكره ذلك ، وكان الفرس يؤرِّخون بملوكهم واحداً بعد واحد ، وقال قائل : أَرِّخُواْ بتاريخ الروم ، وكانوا يؤرِّخون بملك إسكندر بن ملبس المقدوني فكره

---

(١) ابن عثيمين ، تفسير جزء عم ص ٥٠ ، الطبعة الأولى (الرياض : دار الثريا ، ١٤٢٣هـ) .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٧ / ٢٦٧ ، رقم ٣٩٣٤ .

ذلك وقال آخرون : أَرِّخُوْا بمولد رسول الله ﷺ ، وقال : آخرون : بل بمبعثه ، وقال آخرون : بل بهجرته ، وقال آخرون : بل بوفاته ، فمال عمر رضي الله عنه إلى التاريخ بالهجرة ؛ لظهوره واشتهاره ، واتفقوا معه على ذلك)[١] .

وقال السهيلي : (وفي قوله سبحانه : (من أول يوم)[٢] وقد عُلِمَ أنه ليس أول الأيام كلها ولا أضافه إلى شيء في اللفظ الظاهر ، فيه من الفقه صحة ما اتفق عليه الصحابة مع عمر حين شاورهم في التاريخ ، فاتفق رأيهم أن يكون التاريخ من عام الهجرة ؛ لأنه الوقت الذي عز فيه الإسلام ، والذي أمر فيه النبي ﷺ ، وأسَّس المساجد وعَبَدَ الله آمناً كما يحب ، فوافق رأيهم هذا ظاهر التنزيل ، وفهمنا الآن بفعلهم أن قوله سبحانه من أول يوم ، أن ذلك اليوم هو أول أيام التاريخ الذي يؤرخ به الآن ، فإن كان أصحاب رسول الله ﷺ أخذوا هذا من الآية ، فهو الظن بأفهامهم ، فهم أعلم الناس بكتاب الله وتأويله ، وأفهمهم بما في القرآن من إشارات وإفصاح ، وإن كان ذلك منهم عن رأي واجتهاد ، فقد عُلِمَ ذلك منهم قبل أن يكونوا ، وأشير إلى صحته قبل أن يفعلوا ، إذ لا يعقل قول القائل : فعلته أول

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٢٠٦ ، وانظر : ابن حجر ، الإصابة ٧ / ٢٦٨ .

(٢) أي قول الله سبحانه : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ ﴾ سورة التوبة ، الآية رقم (١٠٨) .

يوم إلا بإضافة إلى عام ، أو شهر معلوم ، أو تأريخ معلوم ، وليس هاهنا إضافة في المعنى إلا إلى هذا التاريخ المعلوم ؛ لعدم القرائن الدالة على غيره من قرينة لفظ أو قرينة حال ، فتدبره ففيه معتبر لمن ادكر ، وعلم لمن رأى بعين فؤاده واستبصر والحمد لله)[١] .

من هذا نخلص إلى ما يلي :-

١) أن التاريخ الهجري تم بإجماع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بعد مشورة عمر ﷺ ، فهو حكم شرعي مجمع عليه من خير القرون .

٢) أن هذا الرأي له ما يمكن أن يسنده من القرآن الكريم ، مع ما سبق من إجماع الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ .

٣) أن التاريخ الفارسي والرومي اُقْتُرِحَ عليهم ، فكرهوه .

٤) أن سبب اختيار التاريخ الهجري ؛ لأنه الوقت الذي عز فيه الإسلام .

ولذلك فعلى الأمة الإسلامية أن تحافظ على هذا التاريخ الذي تم بإجماع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وارتبط بيوم أعز الله فيه الإسلام ، وفيه استقلال الأمة الإسلامية ، وبُعْدُها عن التقليد والتبعية للآخرين .

وإن من المؤلم أن يختار بعض المسلمين التاريخ النصراني الذي :-

١. لا يمت إلى الدين الإسلامي بصلة ، بل كرهه الصحابة ـ كما مر ـ وقد سُئِلَ الإمامُ أحمدُ ـ رحمه الله تعالى ـ فقيل له : إن للفرس

(١) السهيلي ، الروض الأنف ٢ / ٢٤٦ .

أياماً وشهوراً يسمونها بأسماء لا تعرف فكره ذلك أشد الكراهية ورُوِيَ عن مجاهد أنه كان يكره أن يقال : آذار ماه .

٢. لا يستند حساب الشهور فيه إلى أمر شرعي ولا إلى عقلي ولا محسوس ، بل إلى أمور اصطلاحية يختلف بعضها عن بعض [١] .

وأخيراً فإن التاريخ الهجري ارتبط به كثير من العبادات مثل صيام رمضان ، وعيد الفطر ، ويوم عرفة ، ويوم عيد الأضحى ، وصيام يوم العاشر من محرم ، وصيام الأيام البيض : الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر ، وكل هذه مرتبطة بالتاريخ الهجري وبالأشهر المعروفة المرتبطة به ، وعندما تضيع هذه الأشهر وتحل محلها الأشهر والتاريخ الأجنبي النصراني نفتقد الارتباط بهذه العبادات العظيمة [٢] .

❀❀❀

(١) انظر : محمد بن صالح العثيمين ، الضياء اللامع من الخطب الجوامع ص ٧٠١-٧٠٢ .

(٢) للمؤلف كتاب بعنوان : (التاريخ الهجري) نشر وتوزيع جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية بالرياض فصَّل فيه القول في هذه المسألة .

الفصل الخامس

فقه السيرة من وصول المدينة إلى نهاية غزوة بني قريظة

ويتكون من :

تمهيد :

المبحث الأول : فقه السيرة في أول أعمال الرسول ﷺ بعد وصوله إلى المدينة .

- بناء المسجد .
- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .
- معاهدة اليهود .

المبحث الثاني : فقه السيرة في نزول بعض الأحكام التشريعية .

المبحث الثالث : فقه السيرة في غزوة بدر الكبرى .

المبحث الرابع : فقه السيرة في غزوة أحد .

المبحث الخامس : فقه السيرة في غزوة بني المصطلق .

المبحث السادس : فقه السيرة في غزوة الأحزاب .

المبحث السابع : فقه السيرة في غزوة بني قريظة .

تمهيد :

بوصول الرسول ﷺ إلى المدينة تبدأ مرحلة جديدة من مراحل السيرة النبوية ، هذه المرحلة تُمَثِّلُ خطوة مهمة في الدعوة إلى الله ، حيث أصبح للرسول ﷺ وللصحابة بلد يأوون إليه ويأمنون فيه ، ويعبدون الله بلا خوف ولا إيذاء ولا تعذيب ، وبالتالي انتهت بالوصول إلى المدينة تلك المرحلة الشاقة في مكة التي برزت فيها صور الإيذاء والتعذيب البدني ، وابتدأت مرحلة أخرى من مراحل السيرة النبوية ، لها خصائصها المميزة لها ، هذه المرحلة ، هي مرحلة البناء والتكوين للمجتمع الإسلامي الجديد في المدينة ، بدءاً من بناء المسجد والمؤاخاة وما بعدها من مواجهة أعداء المسلمين الجُدُد في المدينة وما حولها ؛ لتنتهي هذه المرحلة بنهاية غزوة الأحزاب وقُرَيْظَة ، حيث قال الرسول ﷺ : « الآن نغزوهم ، لا يغزوننا » ، فهذه المرحلة التي بدأت بالوصول إلى المدينة حتى نهاية غزوة بني قريظة ، تمثل بمجموعها حلقة من حلقات السيرة النبوية المترابطة ، التي يأخذ بعضها برقاب بعض ، نستطيع أن نرسم لها صورة متميزة عن ما قبلها وما بعدها ، ومع هذا التمايز لهذه المرحلة فلا يغيب عن أذهاننا أننا نرى هذا النصر في ختام كل مرحلة ، وأن الدعوة إلى الله تسير في تقدُّم جلي يظهر أثره بالمقارنة بين بداية المرحلة ونهايتها ، و الرسول ﷺ يمضي

بهذا النصر قُدُماً في دعوته نحو نصر آخر في حلقات متتالية من حلقات السيرة .

وها نحن نبدأ الحديث في مرحلتنا هذه مع أول أعمال الرسول ﷺ فور وصوله المدينة النبوية .

المبحث الأول

فقه السيرة في أول أعمال الرسول ﷺ بعد وصوله إلى المدينة.

أولاً : الوصول إلى المدينة وبناء المسجد

في صحيح البخاري (قال ابن شهاب : فأخبرني عروة بن الزبير .... وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج الرسول ﷺ من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة ، فينتظرونه حتى يردهم حَرُّ الظَّهِيْرَة فانقلبوا يوماً بعدما طال انتظارهم ، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أُطُم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين [1] يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودي أن قال يا معشر العرب : هذا جدكم الذي تنتظرون ، فثار المسلمون إلى السلاح ، فتلقوا رسول الله ﷺ وسُمِعَتْ الرَّجَّةُ والتكبيرُ في بني عمرو بن عوف وكَبَّرَ المسلمون فرحاً بقدومه وخرجوا فتلقوه وحيَّوه بتحية النبوة ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ، فقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار من لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر رضي الله عنه حتى أصابت الشمسُ رسولَ الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتى

---

(١) أي عليهم ثياب بيض .

ظَلَّلَ عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك ، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسَّس المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى وصلى فيه رسول الله ﷺ ، ثم ركب راحلته ، فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مربداً للتمر لسُهَيْل وسهل غلامين يتيمين في حجر سعد بن زارة ، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته : هذا إن شاء الله المنزل ، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ؛ ليتخذه مسجداً ، فقالا : لا ، بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة ، حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً ، وطفق رسول الله ﷺ ينتقل معهم اللبن في بنيانه) [(١)] .

وكان الرسول ﷺ أول ما وصل إلى قباء نزل على كلثوم بن الهدم ؛ لأنه كان شيخ بني عمرو بن عوف وهو بطن من الأوس وكان يومئذ مشركاً ، ثم أسلم وقيل : أسلم قبل وصول الرسول ﷺ إلى المدينة [(٢)] .

وكان يجلس ﷺ ويتحدث مع أصحابه في بيت سعد بن خيثمة ؛ لأنه كان عزباً لا أهل له هناك [(٣)] ثم خرج الرسول ﷺ من قباء يوم

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٢٣٩-٢٤٠ ، رقم ٣٩٠٦ .
(٢) انظر : الحلبي ، إنسان العيون ٢ / ٢٣٢ ، وابن حجر ، الفتح ٢٤٤ / ٢٦٠ .
(٣) المرجع السابق .

الجمعة حين ارتفع النهار فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف ، فصلاها بمن كان معه من المسلمين في بطن وادي رانونا [١] .

وكان كلما مر على دار من دور الأنصار استقبله كبارها ودعوه إلى النزول عندهم ويقولون : يا رسول الله هَلُمَّ إلى القوة والمنعة فيقول : « خَلُّوْا سبيلَها ، فإنها مأمورة » فلم تزل تسير به حتى وصلتْ إلى مكان المسجد اليوم ، فبركتْ فلم ينزل عنها ، ثم نهضتْ وسارتْ قليلاً ، ثم التفتتْ ورجعتْ إلى مكانها الأول وبركتْ فيه ، فنزل عنها رسول الله ﷺ وقال : « هذا المنزل إن شاء الله » [٢] .

وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال : « أي بيوت أهلنا أقرب ؟ » فقال أبو أيوب : أنا يا نبي الله ، هذه داري وهذا بابي ، قال : « فَانْطَلِقْ فَهَيِّئْ لنا مَقِيلاً » [٣] واحتمل أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه رَحْلَه وأدخله بيته وذكر ابن حجر - رحمه الله تعالى - في الفتح عن أبي سعد

---

(١) وادي رانونا : على وزن عاشوراء ، واد من أودية المدينة بين قباء والمسجد النبوي يصب من حرة قباء في واد بطحان جنوب مسجد الغمامة - ومسجد الغمامة معروف ومشهور - وكانت أول جمعة صلاها الرسول ﷺ في المدينة في هذا الوادي ، ومسجد الجمعة معروف على يمين النازل من مسجد قباء إلى المسجد النبوي . محمد حسن شراب ، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ص ١٢٥ .

(٢) انظر : السمهودي ، وفاء الوفاء ١ / ٢٥٦- ٢٥٩ ، وابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٢٤٥-٢٤٦ .

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٢٥٠ ، رقم الحديث ٣٩١١ .

أن أبا أيوب لما نقل رحل النبي ﷺ قال الرسول ﷺ لمن عرض عليه النزول عنده : « اَلْمَرْءُ مع رَحْلِهِ » وأن أسعد بن زرارة أخذ راحلة الرسول ﷺ فكانت عنده (١) .

وفرح أهل المدينة بقدومه ﷺ ، فعن البراء بن عازب ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال : (... ثم قدم النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فَرَحَهم برسول الله ﷺ حتى جعل الإماء يقلن : قدم رسول الله ﷺ) (٢) .

وابتاع الرسول ﷺ أرض المربد بعشرة دنانير من مال أبي بكر رضي الله عنه (٣) .

قال أنس بن مالك رضي الله عنه : (وكان في المسجد قبور المشركين وكانت فيه خرب وكان فيه نخل فأمر الرسول ﷺ بقبور المشركين فنُبِشَتْ وبالخرب فَسُوِّيَتْ وبالنخل فَقُطِعَتْ ، قال : فصفوا النخل قبلة المسجد ، قال : وجعلوا عضادتيه حجارة) (٤) .

وأقام النبي ﷺ في منزل أبي أيوب رضي الله عنه حتى بنى حجره و مسجده ، وبعث رسول الله ﷺ ـ وهو في منزل أبي أيوب ـ زيد بن حارثة وأبا رافع وأعطاهما بعيرَيْنِ وخمسمائة درهم إلى مكة فقدما عليه بفاطمة

---

(١) انظر : ابن حجر ، الفتح ٧ / ٢٤٦ .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٢٥٩-٢٦٠ ، رقم ٣٩٢٥ .

(٣) انظر : القسطلاني ، المواهب اللدنية ١ / ٣١٦ .

(٤) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٢٦٥ ، رقم ٣٩٣٢ .

وأم كلثوم ابنتيه وأم المؤمنين سودة بنت زمعة ـ رضي الله تعالى عنهن ـ[١] .

الفوائد المستنبطة من هذا الجزء من السيرة :

أولاً : محبة الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ للرسول ﷺ ، فقد كانوا يخرجون كل يوم ينتظرون مقدمه ولا يعودون إلا إذا اضطرهم حَرّ الشمس وعدم الظِّلِّ ، وهم سلفنا الصالح وقدوتنا . ومحبة الله سبحانه وتعالى ومحبة رسوله ﷺ وتقديمهما على كل محبوب واجب على كل مسلم[٢] ، فعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين »[٣] .

ويصور هذا الحبَ العظيمَ من الصحابة للرسول ﷺ قولُ البراء بن عازب ـ رضي الله تعالى عنهما ـ : (فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ)[٤] ومحبة المصطفى ﷺ تقتضي اتباع سنته وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه[٥] .

---

(١) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٦١ .
(٢) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٨ / ٩٥ .
(٣) صحيح مسلم ١ / ٦٧ ، رقم ٦٩ .
(٤) مر تخريجه في الصفحة السابقة .
(٥) انظر : نماذج رائعة من اتباع الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ للرسول ﷺ وتمسكهم بسنته في كتاب حب النبي ﷺ للدكتور/ فضل إلهي من ص ٦٠- ٧٤ .

ثانياً : من خروج الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ لاستقبال الرسول ﷺ نستفيد مشروعية استقبال الأكابر واحترامهم وتوقيرهم سواء أكانوا ممن لهم حق عام ، أو حق خاص كالأبوين وكل ذلك عبادة الله سبحانه وتعالى وعن أنس بن مالك ﷺ قال : جاء شيخ يريد النبي ﷺ ، فأبطأ القوم عنه أن يوسعوا له فقال النبي ﷺ : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقّر كبيرنا »(١) ، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يعرف شرف كبيرنا »(٢) .

ثالثاً : لما علم الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ بوصول الرسول ﷺ إلى المدينة بادروا إلى استقباله وكبّر المسلمون فرحاً بقدومه ، والمسلم إذا سرَّه شيء أو أعجبه يكبِّر أو يسبِّح الله سبحانه وتعالى(٣) وقد أشرنا إلى هذا من قبل عند تكبير الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ فرحاً بإسلام عمر ﷺ .

(١) أخرجه الترمذي في سننه وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢ / ١٧٩ ، رقم ١٥٦٥ .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه وصححه الألباني في صحيح سنن الترميذي ٢ / ١٧٩ ، حديث رقم ١٥٦٦ .

(٣) انظر : أشرف عبد المقصود ، فتاوى الشيخ محمد بن صالح العثيمين ٢ / ٩٣٤ ، وقد نقلت نص الفتوى في الموضع الذي أشرت إليه بعاليه ، وانظر : د. عبد العزيز الحميدي ، التاريخ الإسلامي مواقف وعبر ٢ / ١٦١ .

رابعاً : لما وصل الرسول ﷺ إلى قباء نزل على كلثوم بن الهدم وذلك ؛ لأنه كان كبير القبيلة - كما مر - وهذا من توقير واحترام الكبير ، وحسن الخلق ، الذي ينبغي ألا يغيب عن ذهن المسلم في تعامله .

خامساً : حسن اعتذار الرسول ﷺ من زعماء قبائل الأنصار الذين كانوا يعترضون طريقه بين قباء والمدينة ويدعونه للنزول عندهم ويعدونه بالمنعة والنصرة ، فكان الرسول ﷺ يعتذر عن الجميع بكلمة واحدة : « خَلُّوْا سبيلَها ، فإنها مأمورة » يعني بذلك الناقة ، وكذلك لما وصل إلى المدينة ودعاه بعض المسلمين للنزول عندهم قال : « المرء مع رحله » وتلك عبارات لا تجرح الداعي ، ولا تشعره بأنه مرغوب عنه أو أنه مفضول ، وتلك أخلاقه ﷺ العالية العظيمة (١) التي أشير إليها في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢) .

سادساً : فضيلة ظاهرة لأبي أيوب الأنصاري عندما نزل الرسول ﷺ عنده حتى بُنِيَ له بَيْتٌ وانتقل إليه .

---

(١) في هامش المواهب للقسطلاني ١ / ٣١٠ قال المحقق : (قال ابن المنير : الحكمة البالغة في إحالة الأمر على الناقة أن يكون تخصيصه عليه السلام لمن خصه الله بنزوله عنده آية معجزة تطيب بها النفوس وتذهب معها المنافسة ولا يحيك ذلك في صدر أحد منهم شيئاً) .

(٢) سورة القلم ، الآية رقم (٤) .

سابعاً : أن الرسول ﷺ فور وصوله إلى المدينة بادر إلى البدء في بناء المسجد ، بل سكن ﷺ عند أبي أيوب وباشر بناء المسجد قبل أن يبني لنفسه سكناً ، وهذا يدل على عدة أمور :-

أ. أهمية المسجد في الإسلام ، فهو يؤدي الوظائف التالية :

١. الوظيفة التعبدية : فهو محل إقامة الصلاة جماعة والاعتكاف وغيرها .

٢. الوظيفة التوجيهية : حيث تنطلق حلق التعليم والوعظ والإفتاء والتعرف على آراء الناس وتوجيهها .

٣. الوظيفة الاجتماعية : من خلال المسجد يتم التعارف بين أهل القرية وأهل الحي الواحد وتتحقق الأخوة الإسلامية والتواصل والترابط بين المجتمع(١) .

ب. أهمية صلاة الجماعة في المسجد ، فإن الرسول ﷺ لم يؤخر بناء المسجد إلى أن يستقر في مسكنه وبيته ، بل بادر إلى بناء المسجد في قباء ، ثم بناه في المدينة فور وصوله إليها ، وجمع الناس للصلاة ، ووردت في سنته ﷺ أحاديث تدل على أهمية صلاة الجماعة ، منها صلاته ﷺ بالمسلمين صلاة الخوف في حالة الحرب كما دل على ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم

---

(١) لمزيد الاطلاع على هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى : زيد بن عبد الكريم الزيد ، وظيفة المسجد في المجتمع ، بحث منشور في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد الحادي عشر لشهر محرم ١٤١٥هـ ، ثم طبعته دار العاصمة بالرياض في كتاب مستقل .

مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (١) .

ومنها عدم إذنه ﷺ للأعمى الذي ليس له قائد بالتخلف عن صلاة الجماعة (٢) .

ت. فضل عمارة المسجد حيث بادر الرسول ﷺ إلى بناء المسجد مما يدل على أهمية وفضيلة هذا العمل ؛ لعموم نفعه وبقائه .

ثامناً : في مشاركة الرسول ﷺ للمسلمين وهم يبنون المسجد نستفيد تواضع الرسول ﷺ ، فقد كان يحمل على بطنه الشريف اللبن ويشاركهم في هذا العمل رغم حرصهم على القيام بهذا العمل عنه لكنه ﷺ من تواضعه يشارك بنفسه بهذا العمل يلتمس فيه ما يلتمسون من الأجر .

تاسعاً : أن مشاركة الرسول ﷺ في بناء المسجد تقديم القدوة الحسنة في العمل ، فالمسلم إذا دعا إلى خير يكون أول المبادرين إليه ، وإذا نهى عن سوء يكون أول المباعدين عنه المجتنبين له .

---

(١) سورة النساء ، الآية رقم (١٠٢) .
(٢) انظر : صحيح مسلم ١ / ٤٥٢ ، رقم ٦٥٣ .

ثانياً : المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

كان من نتائج الهجرة وجود مهاجرين من بطون مختلفة ، نزلوا المدينة بلا أهل وليس معهم مال إلى قوم لم يسبق لهم بهم معرفة ، وكان الأنصار قوماً لم تجف الدماء بينهم ، إنهم جمع من القوم فيهم من مظاهر الفرقةِ والنزاعِ الكثيرُ ومع ذلك يصفهم القرآن الكريم فيقول تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [١] .

يقول ابن جرير الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ : (يقول تعالى ذكره : ﴿ والذين تبؤوا الدار والإيمان ﴾ يقول : اتخذوا مدينة الرسول ﷺ فابتنوها منازل ، (والإيمان) بالله ورسوله (من قبلهم) يعني من قبل المهاجرين (يحبون من هاجر إليهم) يحبون من ترك منزله وانتقل إليهم من غيرهم وعني بذلك الأنصار يحبون المهاجرين) [٢] .

جاء المهاجرون إلى المدينة وقد تركوا خلفهم أهلهم وأموالهم ولكن وجدوا من الأنصار ما يخفف عنهم وطأة الغربة والفاقة ، فقد تسابق الأنصار إلى البذل حتى عرضوا على الرسول ﷺ أن يقسم بينهم وبين

---

(١) سورة الحشر ، الآية رقم (٩) .

(٢) ابن جرير الطبري ، جامع البيان في تأويل القرآن ٢٨ / ٤١ .

المهاجرين النخل ، ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال : (قالت الأنصار : اقسم بيننا وبينهم النخل ، قال : « لا » ، قال : « تكفونا المؤنة وتشركونا في الثمر » قالوا : سمعنا وأطعنا)[١] .

ومن مظاهر الأخوة العظيمة ما رواه أنس بن مالك ﷺ قال : قدم عبد الرحمن بن عوف ، فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري ، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله ، فقال عبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك في أهلك ومالك ، دلني على السوق ، فربح شيئاً من أقط وسمن ، فرآه النبي ﷺ بعد أيام وعليه أثر من صفرة فقال النبي ﷺ : « مهيم يا عبد الرحمن ؟ » قال : تزوجتُ امرأةً من الأنصار ، قال : « فما سقت عليها ؟ » قال : وزنَ نواةٍ من ذهب ، فقال النبي ﷺ : « أَوْلِمْ ولو بشاة »[٢] .

ووصل الإيثار بالأنصار ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ أنهم كانوا يقترعون في سكن المهاجرين لديهم[٣] ، بل وصل بهم الإيثار إلى أن قالوا للرسول ﷺ : إن شئت فخذ منا منازلنا ، فقال لهم الرسول ﷺ : « خيراً »[٤] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤ / ٢٢٣ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار .
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح ٧ / ٢٧٠ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه .
(٣) انظر : الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح ٧ / ٢٦٤ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة .
(٤) انظر : البلاذري ، أنساب الأشراف ١ / ٢٧٠ .

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - : (ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك وكانوا تسعين رجلاً نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار ، آخى بينهم على المواساة يتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى حين وقعة بدر ، فلما أنزل الله عز وجل : ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [١] رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة) [٢] .

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية [٣] - رحمه الله تعالى - ووافقه على ذلك تلميذه ابن القيم [٤] وابن كثير - رحمهم الله تعالى - أن المؤاخاة كانت بين المهاجرين والأنصار ، فلم يؤاخ رسول الله ﷺ بين المهاجرين بعضهم مع بعض ؛ لأن المهاجرين كانوا مستغنين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة [٥] .

ولكن ابن حجر - رحمه الله تعالى - يرى خلاف ذلك ، فقال : (وهذا رد النص بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة ؛ لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوى ، فآخى بين

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية رقم (٦) .

(٢) ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٦٣ .

(٣) انظر : ابن تيمية ، منهاج السنة النبوية ٧ / ٢٧٩ .

(٤) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٦٤ .

(٥) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٢٢٧ .

الأعلى والأدنى ؛ ليرتفق الأدنى بالأعلى ويستعين الأعلى بالأدنى) [١].

فوائد هذا الموقف من السيرة النبوية :

الأولى : هذا العدد الكثير من المهاجرين الذين قدموا المدينة وليس معهم ما يقوتهم وليس لديهم ما يؤويهم ، تركوا الأهل والأموال خلفهم ، ووصلوا إلى أناس لم يسبق لهم بهم معرفة ، في أرض لم يألفوا العيش فيها ، إنها مشكلة عويصة تواجه هؤلاء تستعصي على فحول الرجال ، ومع ذلك فقد حلها الرسول ﷺ حلاً جذرياً وحولها إلى أخوة إسلامية فريدة نابعة من القلب تتميز بالصدق والوفاء والتقرب إلى الله عز وجل [٢].

الثانية : البدء بالمؤاخاة يدل على أهميتها ، وإن من أعظم النعم على المسلمين نعمة الأخوة في الله وعند الحديث عن النعم التي يذكرنا بها القرآن الكريم نجد أن أول نعمة هي نعمة الأخوة : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [٣] فبدأ بنعمة الأخوة ثم نعمة الإنقاذ من النار ، ولعل الثانية طريقها الأولى ، فبين هاتين النعمتين من

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٢٧١ .

(٢) انظر : عبد العزيز المسند ، النهج المحمدي ص ١٠٥ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية رقم (١٠٣) .

الترابط الوثيق ، الأخوة والإيمان قرينان ، وأخوة بلا إيمان لا تعدو أن تكون مصالح مؤقتة متبادلة ، وما أسرع ما تتفتت وتنتهي ، أما الإيمان بلا أخوة فيقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) وكيف يمكن أن يستقيم إيمان بلا أخوة ؟ فالأخوة في الله جل شأنه من أعظم النعم ، يقول الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ : (إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا ؛ لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا ، وإخواننا يذكروننا بالآخرة) (٢) .

الثالثة : البدء بالمؤاخاة يدل على شمول الإسلام لأمور الدين والدنيا ، فكما اهتم الإسلام بعلاقة العبد بربه من خلال بناء المسجد اهتم بإقامة علاقة العبد بأخيه المسلم من خلال المؤاخاة .

الرابعة : سرعة مبادرة الأنصار تنفيذ أمر الرسول ﷺ حتى كانوا لَيَتَسَابقون فيما بينهم على المهاجرين القادمين بإجراء القرعة كل منهم يريد أن يفوز باستضافة هذا المهاجر القادم إليهم وقارن هذا بما تعيشه الأمة في كثير من أفرادها من اهتمام بنفسه وأنانية مفرطة تجعله يتوارى ويختفي متى علم بقادم ذي حاجة ، والله المستعان .

الخامسة : كانت غاية المؤاخاة كما يقول السهيلي : (آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه حين نزلوا المدينة ؛ لِيُذْهِبَ عنهم وحشةَ

---

(١) سورة الحجرات ، الآية رقم (١٠) .

(٢) الغزالي ، إحياء علوم الدين ٢/ ١٧٦ .

الغـربة ويؤنسـهم مـن مفـارقـة الأهــل والعشـيرة ويَشُـدَّ أزرَ بعضِـهـم ببعضٍ)[١] .

السادسة : آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين وبين الأنصار على المواساة[٢] أي يواسي الأنصار إخوانهم المهاجرين ، لكن الأنصار لم يكتفوا بالمواساة ، بل آخَوْهُمْ على المساواة[٣] كما يدل لذلك قصة سعد بن الربيع الأنصاري مع أخيه عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله تعالى عنهما ـ حينما عرض نصف ماله وأن يطلق لأجله إحدى زوجاته ؛ ليتزوجها عبد الرحمن بن عوف ﷺ[٤] ، بل إن الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ قدموا ما هو أعلى من ذلك حينما آثروا المهاجرين على أنفسهم كما قال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[٥] يعني أنهم كانوا يقدمون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم بمتاع الدنيا وإن كان هؤلاء الأنصار فقراء يحتاجون إلى ذلك المتاع . إن الإيثار درجة أعلى من المساواة ، فالأنصار قد واسوا

---

(١) السهيلي ، الروض الأنف ٢ / ٢٥٢ .

(٢) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٦٣ ، وابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٢٧٠ .

(٣) المواساة : إعطاء القليل ، والمساواة : إعطاء النصف ، والمواساة لا تستلزم المساواة ، انظر : فتح الباري ١ / ٨٧ و ٢٧٤ .

(٤) سبق ذكر الحديث في بداية هذه الفقرة ، وهو مخرج في البخاري .

(٥) سورة الحشر ، الآية رقم (٩) .

إخوانهم المهاجرين بأنفسهم وزادوا على ذلك بأن آثروهم على أنفسهم بخير الدنيا ، وكفى بهذا شاهداً على صدق محبتهم وقوة إيمانهم[١] .

السابعة : أن المؤاخاة نواة لتكوين المجتمع الإسلامي الجديد ذلك أن المجتمعات المستقرة لا تقوم على الفرقة والنزاع والاختلاف ، وإنما تقوم على الأخوة والتعاضد والتكافل والتعاون ، وهذا يؤكد أهمية هذه الأمور في حياتنا اليومية ، فلا بد أن يبقى المجتمع متآخياً متعاضداً متعاوناً متكافلاً .

الثامنة : نلحظ في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار أن الأنصار كانوا يؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم كما يقول تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[٢] وكان المهاجرون يتعففون كما فعل عبدالرحمن بن عوف ﷺ وهذه صفة المسلم إن وَجَدَ آثَرَ ، وإن افتقر تعفَّف .

التاسعة : في المؤاخاةِ المظهرُ الحقيقيُّ العظيمُ للتكافل الاجتماعي في الإسلام ، المجتمع الذي يعطف فيه الغني على الفقير ، ويواسيه من ماله مستشعراً الواجب الملقى عليه في هذه الحالة بخلاف المجتمعات

(١) د . عبد العزيز الحميدي ، التاريخ الإسلامي مواقف وعبر ٤ / ٢٩ .

(٢) سورة الحشر ، الآية رقم (٩) .

الأخرى التي يأكل فيها القوي الضعيف ، بل يجدها القوي فرصة مواتية لاستغلال حاجة الضعيف للكسب من ورائه .

العاشرة : أن الآيات التي وردت لم تنسخ المؤاخاة وإنما نسخت الميراث بينهم ورجع كل لنسبه وذوي أرحامه ، وبالتالي بقي ما لم يبطله القرآن وهو التعاون على الحق والنصر ، والأخذ على يد الظالم والتناصح والتعاون [١] ، كما قال ابن عباس : (إلا النصر والرفادة والتضحية وقد ذهب الميراث ويوصي له) [٢] ونقل الشامي قول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (وهذا لا يدفع المؤاخاة من أصلها وإنما يدفع المؤاخاة المخصوصة التي عقدت بينهم ؛ ليتوارثوا بينهم) [٣] .

وقال ابن حجر في الفتح : (فإن الإخاء المذكور كان في أول الهجرة وكانوا يتوارثون به ، ثم نسخ من ذلك الميراث وبقي ما لم يبطله القرآن وهو التعاون على الحق والنصر والأخذ على يد الظالم) [٤] .

---

(١) انظر : الشامي ، سبل الهدى ٣ / ٥٣٥ .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٤ / ٤٧٢ ، كتاب الكفالة ، باب قول الله تعالى : (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) .

(٣) الشامي ، سبل الهدى ٣ / ٥٣٤ .

(٤) ابن حجر ، فتح الباري ٤ / ٤٧٣ ، وانظر : د . أكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ١ / ٢٤٥- ٢٤٧ .

وقال أكرم العمري : (وأخيراً فإن المؤاخاة التي شرعت بين المؤمنين باقية لم تنسخ سوى ما يترتب عليها من توارث ، فإنه منسوخ ، وبوسع المؤمنين في كل عصر أن يتآخوا بينهم على المواساة والارتفاق والنصيحة ، ويترتب على مؤاخاتهم حقوق أخص من المؤاخاة العامة بين المؤمنين)[١] .

ثالثاً : معاهدة اليهود

لما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة وفيها المسلمون واليهود[٢] وغيرهم أراد أن ينظم العلاقات بين أهل المدينة ويبين حقوقهم وواجباتهم ، فكتب كتاباً بهذا الشأن عُرِفَ في المصادر القديمة للسيرة (بالكتاب) أو (الصحيفة) وعُرِفَ عند المتأخرين من كُتَّاب السيرة (بالدستور) أو (الوثيقة) .

ورجح الباحث في السيرة النبوية الدكتور أكرم العمري أن هذه الوثيقة كُتِبَتْ في فترتين زمنيتين مختلفتين ، يقول : إن (الوثيقة في الأصل وثيقتان إحداهما تتعلق بموادعة يهود كُتِبَتْ قبل بدر أول قدوم

(١) د. أكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ١ / ٢٤٨ .

(٢) اليهود (نسبة إلى يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب عليه السلام فقلبت العرب الذال دالاً ؛ لأن الأعجمية إذا عربت غيرت عن لفظها ، وقيل : سمّوا بذلك ؛ لتوبتهم من عبادة العجل ، هاد : تاب ، هادوا : تابوا) ، القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ / ٤٣٧ - ٤٣٨ .

النبي ﷺ ، والثانية تتعلق بحلف المهاجرين والأنصار وتحديد التزاماتهم وكُتِبَتْ بعد بدر لكن المؤرِّخين جمعوا بين الوثيقتين) [١] .

وجرياً مع هذا القول فإني سأعرض البنود التي تتضمن موادعة اليهود في الوثيقة المشار إليها وهي كالتالي :-

١) إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

٢) إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

٣) إن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف .

٤) إن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .

٥) إن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف .

٦) إن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف .

٧) إن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف .

٨) إن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

٩) إن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

١٠) إن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف وإن البر دون الإثم .

---

(١) أكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ١ / ٢٨١ .

١٢) إن موالي ثعلبة كأنفسهم .

١٣) إن بطانة يهود كأنفسهم .

١٤) إنه لا يخرج منهم أحداً إلا بإذن محمد .

١٥) إنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وإنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وإن الله على أبر هذا .

١٦) إن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .

١٧) إنه لا يأثم امرؤ بحليفه وإن النصر للمظلوم .

١٨) إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

١٩) إن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

٢٠) إن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

٢١) إنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .

٢٢) إن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث ، أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره .

٢٣) إنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

٢٤) إن بينهم النصر من دهم يثرب .

٢٥) إذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين .

٢٦) على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .

٢٧) إن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره .

٢٨) وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم وأثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله ﷺ [1] .

هذه بنود الوثيقة التي تمت مع اليهود في المدينة وعاشوا مع المسلمين في المجتمع الجديد تحت قيادة الرسول ﷺ وكانوا ثلاث قبائل : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، ولم تف هذه القبائل بالعهد الذي بينهم وبين الرسول ﷺ ، بل حاربوه ، فمن على بني قينقاع وأجلى بني النضير وقتل بني قريظة وسبى ذريتهم ونزلت سورة

---

(١) انظر : ابن هشام، السيرة النبوية ٢/ ١١٩- ١٢٣ ، وأكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ٢٨٤- ٢٨٥ .

(الحشر) في بني النضير وسورة (الأحزاب) في بني قريظة [١] وكان تفصيل ما جرى منهم وما جرى عليهم على النحو التالي :-

أولاً : بنو قينقاع

بعد غزوة بدر أظهر بنو قينقاع الغضب والحسد على المسلمين على نتائج هذه الغزوة وبلغ بهم الأمر أن جاهروا بالعداء ، فجاء إليهم الرسول ﷺ ونصحهم ودعاهم إلى الإسلام ولكنهم ردوا رداً يعني التحدي والتهديد للرسول ﷺ [٢] ولم يكن هذا هو سبب ما جرى عليهم بل يعود ذلك إلى سبب آخر وهو أن امرأة من المسلمين جاءت إلى سوق بني قينقاع ، فأراد أحد اليهود كشف وجهها ، فامتنعت ، فعمد خفية إلى طرف ثوبها فعقده في رقبتها ، فلما قامت انكشفت عورتها فصاحت ، فقام أحد المسلمين فقتل اليهودي المعتدي ، وتواثب اليهود فقتلوا المسلم ، فتواثبوا فوقع الشر بين المسلمين وبين بني قينقاع [٣] ، وهذا إظهار عملي لروح العداء وإخلال بالأمن واعتداء على الحرمات داخل المدينة . فحاصرهم الرسول ﷺ واشتد

---

(١) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٦٥ .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢ / ١٧٩ و٤٢٦ ، وابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٣٣٢ ، وحسن سند هذه القصة .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢ / ٤٢٧ ، والواقدي ، المغازي ١ / ١٧٦ — ١٧٧ ، وابن كثير ، البداية والنهاية ٤ / ٣-٤ ، وقال أكرم العمري في السيرة الصحيحة : (وهذه الرواية ضعيفة ، في إسنادها انقطاع ... ولكن يُسْتَأْنَسُ بها من الناحية التاريخية فقد أوردتها معظم مصادر السيرة) ١ / ٣٠٠ .

عليهم الحصار ، فنزلوا على حكم الرسول ﷺ ، فقام عبد الله بن أُبيّ بن سلول [(١)] إلى رسول الله ﷺ حين أمكنه الله منهم فقال : يا محمد ، أحسن في موالي وألح على الرسول ﷺ وتطاول عليه وأدخل يده في جيب درع الرسول ﷺ فغضب الرسول ﷺ ، فلما ألح عليه في ذلك قال له الرسول ﷺ : هم لك [(٢)] .

أما عبادة بن الصامت رضي الله عنه ـ وكان أحد بني عوف بن الخزرج لهم من الحلف مثل الذي لهم من حلف ابن أبي ـ فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ منهم ، ففيه وفي عبدالله بن أبي بن سلول نزلت الآيات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [(٣)] وأمر بهم النبي ﷺ أن يجلوا عن المدينة [(٤)] على أن لهم ما أقلت الإبل

(١) عبد الله بن أُبيّ ابن سلول ، كتابة (ابن سلول) بالألف . ويعرب بإعراب عبد الله ، فإنه وصف ثان له ؛ لأنه عبد الله بن أُبيّ وهو عبد الله ابن سلول أيضاً ، فأُبيّ أبوه ، وسلول أمه فنُسِبَ إلى أبويه .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢ / ٤٢٧ - ٤٢٨ ، وقال إبراهيم العلي في صحيح السيرة : (وإسناده صحيح وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث ولكنه مرسل) ، والبيهقي ، دلائل النبوة ٣ / ١٧٤ .

(٣) سورة المائدة ، الآية رقم (٥١) ، وانظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ / ٤٢٨-٤٢٩ ، وقال إبراهيم العلي في صحيح السيرة : (وإسناده صحيح وقد صرح بالتحديث وهو مرسل) ، والبيهقي ، دلائل النبوة ٣ / ١٧٤ - ١٧٥ .

(٤) انظر : صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٣٢٩ ، رقم ٤٠٢٨ ، حيث ذكر أن الرسول ﷺ (أجلى يهود المدينة كلهم بنو قينقاع وهو رهط عبدالله بن سلام ويهود بن حارثة وكل يهود المدينة) .

من الأمتعة والأموال لا الحلقة (يعني السلاح) ، فأجلاهم إلى الشام [(١)] .

ثانياً : بنو النضير

راسلت قريش اليهود وهددتهم بالحرب إن لم يقاتلوا محمداً ﷺ ، فلما بلغ كتابُهم اليهودَ أجمعت بنو النضير على الغدر ، فأرسلت إلى النبي ﷺ أن اخرج إلينا في ثلاثين من أصحابك ، فلما جاءوا قريباً من المكان ، اقترحوا أن يخرج في ثلاثة من أصحابه ويخرج إليه ثلاثة من علمائهم وقد أخفى هؤلاء اليهود السلاح للفتك برسول الله ﷺ لكن امرأة منهم أخبرت ابن أخيها من المسلمين ، فأسرع إلى الرسول ﷺ وأخبره فرجع الرسول ﷺ ، فلما كان الغد حاصرهم رسول الله ﷺ وقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلقة (يعني السلاح) ، فأنزل الله سبحانه وتعالى سورة الحشر [(٢)] فأجلاهم فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام [(٣)] .

والسبب الثاني لإجلائهم أن النبي ﷺ ذهب إليهم يستعين بهم في دية القتيلَيْنِ اللذَيْنِ قتلهما عمرو بن أمية الضمري للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما ، قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك ، ثم

---

(١) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٣٣٠ .

(٢) أخرجه ، عبد الرزاق في مصنفه ٥ / ٢٥٩- ٢٦٠ ، تحقيق الأعظمي ، وأخرجه أبو داود في سننه وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٢ / ٥٨٢- ٥٨٣ ، رقم ٢٥٩٥ مع اختلاف في بعض اللفظ ، والبيهقي في دلائل النبوة ٣ / ١٧٨- ١٧٩ .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ / ١٩٣ .

دخلوا وتآمروا فيما بينهم على أن يلقوا عليه صخرة من فوق الجدار ، فأتى رسولَ اللهِ ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة وأمر الرسول ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم[١] .

فتحصنوا فأمر بقطع النخيل والتحريق ، وذكر ابن إسحاق أنه حاصرهم ست ليال وكان ناس من المنافقين بعثوا إليهم أن اثبتوا وتمنعوا ، فإن قُوْتِلْتُمْ قاتلنا معكم ، فتربصوا فقذف الله في قلوبهم الرعب فلم ينصروهم ، فسألوا أن يجلوا عن أرضهم على أن لهم ما حملت الإبل فَصُوْلِحُوْا على ذلك[٢] وبذلك قضى الله على هذه الفئة من اليهود .

أما يهود بني قريظة فسيأتي الحديث عنهم إن شاء الله تعالى بعد الحديث عن غزوة الأحزاب لارتباط غزوة الأحزاب بغزوة بني قريظة .

الفوائد من هذا المقطع من السيرة النبوية :

الأولى : من هذه المعاهدة التي كتبها الرسول ﷺ مع اليهود ندرك أن الإسلام تشريع كامل فهو كما نظّم علاقة المسلم بربه ، فهو أيضاً ينظّم علاقة المسلم بأخيه المسلم وعلاقة المسلم بمن معه في المجتمع سواء داخل المجتمع الإسلامي أم خارجه .

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ / ١٩١ - ١٩٢ ، وابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٣٣١ ، والبيهقي ، دلائل النبوة ٣ / ١٨٠ - ١٨١ .
(٢) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٣٣١ .

وهذه المعاهدة التي بادر إليها الرسول ﷺ رد عملي على أولئك الذين يريدون أن يحصروا الإسلام في نطاق العبادات التي تُؤَدَّى في المسجد دون أن يكون للإسلام أي تأثير على تنظيم الحياة وشؤونها .

الثانية : لقد وادع الرسول ﷺ اليهود في المدينة وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم وشرط لهم وإن هذه الوثيقة التي نقلنا جزءاً منها وضعها النبي ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً وهي وثيقة جديرة بالإعجاب ، قرر الرسول ﷺ فيها حرية العقيدة لغير المسلمين ، وحرمة المدينة ، وحرمة الحياة وحرمة المال ، وبذلك سبق الإسلام إلى تقرير حقوق الإنسان ، ورعايتها وحفظها والمحافظة عليها .

فبمقتضى هذه الوثيقة أصبحت المدينة بلداً آمناً ، وأصبح كل المسلمين واليهود في أمن من الجانب الآخر وأصبح اليهود مُلْزَمِينَ بمعاونة المسلمين إذا ما دهم المدينةَ عدوٌ ، وعدم مساعدة المشركين ومناصرتهم (١) .

الثالثة : في هذه الوثيقة نجد تسامح (٢) الرسول ﷺ مع اليهود بأن وادعهم وتركهم في ديارهم آمنين ، دون تعرض لمعتقداتهم أو أموالهم ، وهو يقرر مبدأ التسامح الذي سلكه الإسلام عموماً حينما احترم الذميين وقرر لهم الحياة المطمئنة الآمنة في بلاد المسلمين وهذا لا يجده

(١) انظر : أبو شهبة ، السيرة النبوية ٢ / ٥٩- ٦٠ .

(٢) انظر : د. مهدي رزق الله ، السيرة النبوية ص ٣١٨ .

المسلمون الذين يكونون أقليات في بلاد الكفر وأخبار معاناة إخواننا المسلمين في تلك البلاد من تضييق عليهم في معيشتهم وتعليمهم تصم الآذان بل نجد من هؤلاء الأعداء من يتدخل حتى في أسماء أولاد المسلمين ويمنعهم من التسمية بالأسماء الإسلامية ، ومعاناة إخواننا المسلمين في البوسنة والهرسك وكوسوفا وكشمير وغيرها شاهد حي شهد عليه العالم أجمع .

الرابعة : وفاء الرسول ﷺ بالعهد الذي التزم به لليهود ولغيرهم ، وهذا ما عرف به الرسول ﷺ وهو كذلك ما أكد عليه القرآن الكريم وحديث المصطفى ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ ﴾ [(١)] وقال ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا أُؤْتُمِنَ خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » [(٢)] .

الخامسة : خُبْث اليهود وسوء طويتهم وعداوتهم الشديدة للإسلام والمسلمين ، فلم يمض على المعاهدة وقت يسير إلا وهم ينقضون العهد ويخونون الله ورسوله ولم يكتف اليهود بالكلام ، بل تجاوزوه إلى العداء العملي [(٣)] حيث تآمروا على قتل الرسول ﷺ ،

---

(١) سورة النحل ، الآية رقم (٩١) .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر ١ / ٨٩ ، رقم ٣٤ .

(٣) انظر : محمد عزة دروزة ، سيرة الرسول ﷺ ٢ / ١٨٧ .

وأبطل الله سبحانه وتعالى كيدهم وتآمرهم على حياة الرسول ﷺ وسعوا إلى الوقيعة بين الأوس والخزرج واعتدوا على حرمات المسلمين (١).

السادسة : في اعتداء اليهود على المرأة ومحاولة كشف وجهها ، ثم ما ترتب على ذلك من غيرة المسلم على أخته المسلمة ، ثم ما تلا على ذلك من محاصرة الرسول ﷺ لليهود وإجلائهم ، يدلنا هذا على مكانة المرأة في الإسلام ، ورفعتها وتميز مقامها فلا يقبل أن تمس بسوء ، وعندما جرى التعرض لها انتصر لها المسلمون وأخرجوا القبيلة التي تلبست بهذا السلوك السيئ ، فأي رفعة وأي مكانة يمكن أن تجدها المرأة في غير هذا الدين الإسلامي الكريم ؟.

السابعة : أهمية الحجاب للمرأة ، فهذه المرأة تمسكت به ولم ترض أن تتخلى عنه عندما حاول اليهود نزعه ، وهم الآن يسعون بكل جهودهم ومكرهم ؛ لكي ينزعوا حجاب المرأة وقد انخدع بهم بعض الناس ممن لم يدرك أهمية الحجاب للمرأة وأنه صيانة لها وتكريم قبل كل شيء (٢).

الثامنة : تدل قصة بني قينقاع على حقد دفين في صدور اليهود على المسلمين لم يتمكنوا من كظمه وهم يرون انتصار المسلمين في بدر

---

(١) انظر : أبو شهبة ، السيرة النبوية ٢ / ٦٠ .

(٢) انظر : د . زيد بن عبد الكريم الزيد ، كيف أنصف الإسلام المرأة من ص ٤٣- ٥٢ .

وانهزام الكفار ، فتجلى ذلك في تلك التصرفات الحاقدة الآثمة ، سواء بمحاولة قتل الرسول ﷺ أو محاولة الإخلال بالأمن والاعتداء على الحرمات .

التاسعة : أن اليهود هم أول من اصطدم مع الرسول ﷺ بعد الهجرة (ولعل من الدلائل على أنهم أول من اصطدم مع النبي ﷺ ما جاء في الآيات الأولى من سورة البقرة التي هي أول السورة المدنية في ترتيب النزول والتي يحتمل جداً أن تكون هذه الأولية لها بسبب فصلها الأول الذي منه آيات المنافقين والتي جاء فيها : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ (١) فقد قال جمهور المفسرين : إن شياطينهم هم اليهود (٢) ، (ويدل هذا على أن اليهود هم الذين أغروا المنافقين بالنفاق أو شجعوهم في مواقف الخداع وعلى أن النبي ﷺ والمسلمين لم يغب عنهم ذلك) (٣) .

العاشرة : من موقف اليهود وموقف المشركين من قبل ومن بعد يمكن أن نستجلي صورة عامة لكل منهما تجاه الرسول ﷺ والرسالة ، فقد كانت (نظرة هذين الفريقين للنبي العربي الجديد " بينما كان

---

(١) سورة البقرة ، الآية رقم (١٤) .

(٢) انظر : الطبري ، تفسير الطبري ١ / ١٣٠ .

(٣) محمد عزة دروزة ، سيرة الرسول ﷺ ٢ / ١٢١ .

العرب على استعداد للقبول بالشخص كانوا يرفضون رسالته ، أما اليهود فكانوا يقبلون الرسالة ولكن يرفضون صاحبها العربي " ولم يكونوا على استعداد لقبول نبي يأتي من خارج الشعب المختار على زعمهم)[١] ، وكلا الأمرين كفر صريح ، لا قيمة لأي عمل بعده ، وهو تفريق بين جُزْئَيْ شهادة التوحيد (لا إله إلا الله) و(محمد رسول الله) .

الحادية عشرة : نرى في مواقف اليهود كيف كانوا يتعاونون مع المنافقين[٢] وكيف كان يسعى كل فريق لتثبيت الفريق الآخر ونصرته على المسلمين ، ولهذا ينبغي أن تعي الأمة الإسلامية أن الكفر ملة واحدة سواء كانوا يهوداً أو نصارى أو منافقين أو ملاحدة أو وثنيين ، فالأهداف متفقة والغاية واحدة تجمعهم في حرب هذا الدين والكيد لأصحابه .

الثانية عشرة : نجد في قصة بني قينقاع الفارق بين عبد الله بن أبي سلول الذي جاء ينتصر لليهود ويواليهم ويدافع عنهم وموقف عبادة بن الصامت ﷺ وكان من بني عوف بن الخزرج وله مثل حلف عبد الله

---

(١) كامل الشريف ، حقوق الإنسان في صحيفة المدينة ١/ ٦٣ (بحث منشور ضمن كتاب حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي ، الرياض ، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية ١٤٢٢هـ) وما بين قوسين صغيرين نقله الباحث عن كاتب غربي .

(٢) انظر : عبد العزيز الحميدي ، المنافقون في القرآن الكريم ص ٨٩ .

بن أبي ، ومع ذلك جاء إلى الرسول ﷺ وخلعهم وتبرأ منهم (والفرق واضح بين عبد الله بن أبي الذي أُشْرِبَ قلبُه النفاقَ وبين عبادة بن الصامت ﷺ الذي صقلته التربية المحمدية ، وخلصته من آثار العصبية الجاهلية والأهواء والمصالح الشخصية ، فنظر إلى مصلحة العقيدة وقدمها على مصالحه الخاصة ، فكان مثلاً للمؤمن الواعي الملتزم) [١] .

والولاية بين المسلمين وغير المسلمين ممنوعة ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [٢] ، وقال شيخ الإسلام بن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ : (إنه لا يوجد مؤمن يُوَادُّ كافراً ، فمن وَادَّ كافراً فليس بمؤمن) [٣] .

فلا يجوز للمسلم أن يوالي غيرَ المسلمِ ويُوَادَّه ويحبَّه ولو كان أقرب الناس إليه ، أما حسن المعاملة فمطلوب [٤] بل قد يكون من الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى .

---

(١) أكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ١ / ٣٠٢ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية رقم (٢٨) .

(٣) ابن تيمية ، اقتضاء الصراط المستقيم ١ / ٤٩٠ ، قال هذا القول تعليقاً على قول الله تعالى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم) الآية ، وانظر أيضاً : د / عبد العزيز الحميدي ، المنافقون في القرآن الكريم ص ٩٣ .

(٤) انظر : محمد بن سعيد القحطاني ، الولاء والبراء في الإسلام ص ٣٥٢- ٣٥٣ .

الثالثة عشرة : في قصة بني النضير الذين أرادوا قتل الرسول ﷺ ومجيء الخبر بالوحي من السماء يعلم الرسول ﷺ بذلك ، آية للرسول ﷺ من ضمن الآيات التي أيد بها الرسول ﷺ وهي أيضاً مصداق لقول الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (١) .

الرابعة عشرة : من مجيء الرسول ﷺ إلى يهود بني النضير يستعين بهم في دية القتيلَيْنِ نأخذ جواز أخذ الإعانات والتبرعات المالية فقط من غير المسلمين إذا كان جانبهم مأمونا ولا يلحق المسلمين ضرر بذلك (٢) .

الخامسة عشرة : لقد أدى إجلاء بني النضير بعد إجلاء بني قينقاع إلى كسر شوكة اليهود والمنافقين في المدينة حيث جددت قريظة المعاهدة مع المسلمين خلال حصار بني النضير وأظهرت رغبتَها في المحافظة على العهد حتى كانت غزوة الأحزاب ، والمنافقون لم ينجزوا وعدهم لبني النضير بالنصر وتبين لليهود عدمُ جدوى الاعتماد عليهم ، وقوي كيان الإسلام بالتخلص من بني النضير والاستفادة من أراضيهم بإقطاعها للمهاجرين الذين كانوا يعتمدون في سكناهم على أراضٍ وبيوت للأنصار (٣) .

---

(١) سورة المائدة ، الآية رقم (٦٧) .
(٢) انظر : قرار المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي رقم (٦) في دورته العاشرة عام ١٤٠٨هـ ، قرارات مجمع الفقه الإسلامي ، (مكة : رابطة العالم الإسلامي د. ت) ص ٢٢٥ .
(٣) انظر : أكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ص٣١٠- ٣١١ .

السادسة عشرة : لقد ربطت الآيات القرآنية الكريمة بين اليهود المعاصرين للرسول ﷺ والسابقين ، في سوء الأخلاق والمكر وعدم التناهي عن الإثم والمنكر واستحقاقهم لعنة الله على ذلك جرياً على الأسلوب القرآني الذي يستهدف تقرير أن ما عليه المعاصرون من أخلاق وما يقفونه من مواقف هو جبلة متوارثة عن الآباء[1] يتوارثها الأجيال من بعدهم جيل بعد جيل ، وهو ما نراه اليوم من اليهود المعاصرين لنا الذين يحتلون فلسطين ويدنسون حرمة بيت المقدس ويعتدون على حرمات المسلمين وديارهم وأموالهم ، قال تعالى : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ ﴾[2] .

السابعة عشرة : تعطينا هذه الأحداث بجملتها مجموعة من العبر و العظات التي يجب التبصر بها ، والعمل بما تمليه علينا من سلوك

---

(١) انظر : محمد عزة دروزة ، سيرة الرسول ﷺ ٢ / ١٨٥ - ١٨٦ .

(٢) سورة المائدة ، الآيات رقم (٧٨ - ٨٢) ، وانظر : محمد ضياء الرحمن الأعظمي ، اليهودية و المسيحية ص ٩٢ - ٩٧ .

نسلكه في مواجهة اليهود في كل عصر ، والأمة الإسلامية في عصرها الحاضر في حاجة ملحة إلى أن تستفيد من تجارب من سبقها بعظات هذه التجارب كي لا تتعثر في خطواتها وتصاب بالغشاوة في مسيرتها [١] .

الثامنة عشرة : بإجلاء الرسول ﷺ لليهود من المدينة بعد نقضهم لتلك الوثيقة ينتهي أثرها وتصبح لاغية لا قيمة لها وهو ما أكده حديث الرسول ﷺ عندما أمر بإخراج اليهود من جزيرة العرب في آخر حياته ﷺ [٢] .

التاسعة عشرة : يتبادر إلى القارئ سؤال مهم وهو يرى اطلاع أهل الكتاب وعلمهم بالبعثة النبوية وصدق الرسول ﷺ ، ثم لم يستجيبوا له وخاصة أحبار اليهود .

والإجابة صريحة في كتاب الله ، تشهد على حسد اليهود قال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٣] .

والحسد داء بُلِيَتْ به الأمم والأفراد ، وحال بين كثير من الناس واتباع الحق ، وجرَّهم إلى رد كثير من الخير ، والوقوع في المعاصي عن

---

(١) انظر : عبد الرحمن بن حنبكة الميداني ، مكايد اليهود ص ١٢٦ .

(٢) حديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ١ / ١٩٥ ، وقال الهيثمي في المجمع ٥ / ٣٢٥ : رواه أحمد بأسانيد ورجال طريقين منها ثقات متصل إسنادهما .

(٣) سورة البقرة ، الآية رقم (١٠٩) ، وانظر : سليمان بن حمد العودة ، قضايا ومباحث في السيرة ص٩٥ .

قصد ومعرفة ، ولم يقتصر وقوعه من الكفار ، بل هو واقع حتى بين المسلمين مع أنه من أشد الذنوب ، يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (فالكبائر كالرياء والعجب والكبر والفخر ... والفرح والسرور بأذى المسلمين والشماتة بمصيبتهم ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله وتمني زوال ذلك عنهم ، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريماً من الزنا وشرب الخمر وغيرها من الكبائر الظاهرة)[١] .

والمؤمن يأخذ العبرة والعظة من غيره ، فلا يحول الحسد بينه وبين شيء من الحق ، ولا يقع في مزلة الحسد الذي هو ذنب من أعظم الذنوب التي يرتكبها القلب ، وفي غفلة عما يدل عليه من الاعتراض على الله سبحانه في تقديره ، وفي جهل بأثر ذلك على السلوك والتعامل .

العشرون : في عداوة اليهود الشديدة للرسول ﷺ نجد فيها مصداقاً لقول الله جل شأنه : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[٢] ، فإن النبي ﷺ رأى من اليهود من العداوة والإيذاء ما لا يضاهيهم فيه إلا

---

(١) ابن القيم ، تهذيب مدارج الساكين (هذبه عبد المنعم بن صالح العلي العزي) ص ٨٦ .

(٢) سورة المائدة ، الآية رقم (٨٢) .

المشركون في مكة ومن سار معهم ، واليهود قد تدربوا على قتل الأنبياء والرسل ومعاندة الله في أمره ونهيه ، وتحريف تنزيله الذي أنزله في كتبه [١] .

في مقابل ما وجده الرسول ﷺ من نصارى الحبشة من الإيواء والنصرة للمهاجرين إلى الحبشة خوفاً من إيذاء المشركين في مكة ، ولما أرسل الرسول كتبه إلى الملوك ورؤساء الشعوب كان النصارى من أحسنهم رداً ، فهرقل ملك الروم في الشام حاول إقناع رعيته بقبول الإسلام فلم يستطع ، فاكتفى بالرد الحسن ، وضن بملكه ، والمقوقس عظيم القبط في مصر كان أحسن منه رداً ، وإن لم يكن أحسن منه ميلاً للإسلام ، وأرسل للنبي ﷺ هدية حسنة ، ثم لما فُتِحَتْ الشامُ ومصرُ وعرف أهلها الإسلام ، أسرعوا إلى الدخول فيه [٢] .

❁❁❁

(١) انظر : الطبري ، تفسير الطبري ، تحقيق التركي ٨/٦٠٠ .
(٢) المراغي ، تفسير المراغي ٦/٧ .

المبحث الثاني

فقه السيرة في نزول بعض الأحكام التشريعية

تمهيد :

بدأت الدعوة إلى الله في مكة ، وواجه الرسول ﷺ ومن معه من الداخلين في الإسلام من كفار قريش العنت الكبير والإيذاء والصدّ عن الدعوة ، وكان تركيز الرسول ﷺ على التوحيد وتأسيس العقيدة السليمة في نفوس الناس وتخليصهم مما وقعوا فيه من وثنية شديدة جعلتهم يُؤَلِّهُوْنَ الأصنامَ والأحجارَ .

ولما هاجر الرسول ﷺ واطمأن إلى الدار والمجتمع المسلم حوله ، بدأت تنزل التشريعات الإسلامية مثل تشريع الأذان للصلاة وتحويل القبلة و وتشريع الصيام والزكاة ، ثم تشريع الجهاد وهو ما سنتحدث عنه بإذن الله تعالى في هذا المبحث على النحو التالي :

أولاً : تشريع الأذان للصلاة

عن نافع أن ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ كان يقول : (كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فَيَتَحَيَّنُوْنَ الصلاةَ ، ليس يُنَادَى لها ، فتكلموا يوماً في ذلك فقال بعضهم : اِتَّخِذُوْا ناقوساً (١) مثل

---

(١) الناقوس : خشبة طويلة تضرب بخشبة أصغر منها والنصارى يعلمون بها أوقات صلاتهم ، ابن الأثير ، غريب الحديث ٥ / ١٠٦ .

ناقوس النصارى ، وقال بعضهم : بل بوقاً [١] مثل قرن اليهود فقال عمر : أولا تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يا بلال قم فناد بالصلاة » [٢] .

كان المسلمون يصلُّون في بداية الأمر بلا نداء لها وإنما يَتَحَيَّنُوْنَ وقتَها فيحضرون لها ، فوجد المسلمون في ذلك مشقة وحرجاً عليهم ، إذ ربما طال انتظار بعضهم ، أو تأخر بعضهم ففاتته صلاة الجماعة ، فتكلموا في ذلك كما في الحديث وتشاوروا بحضرة رسول الله ﷺ فانتهى الرسول ﷺ إلى أن أمر بلالاً أن ينادي بالصلاة ، وهذا النداء هو مجرد إعلام بالصلاة وليس النداء أي الأذان الشرعي المخصوص ؛ لأنه لم يُشْرَعْ بَعْدُ ، قال النووي في شرحه لهذا : (قال القاضي عياض : ظاهره أنه إعلام ليس على صفة الأذان الشرعي بل إخبار بحضور وقتها) [٣] .

وقد أخرج ابن سعد في الطبقات عن سعيد بن المسيب قال : (كان الناس في عهد النبي ﷺ قبل أن يُؤْمَرَ بالأذان ينادي منادي النبي ﷺ (الصلاةَ جامعةً) فيتجمع الناس) [٤] .

---

(١) البوق : شيء مجوف ينفخ فيه فيجتمعون عند سماع صوته وهو من شعار اليهود ، ابن حجر ، فتح الباري ٢ / ٨١ ، وابن حجر ، هدي الساري مقدمة فتح الباري ص ٩٠ .

(٢) متفق عليه : صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٢ / ٧٧ ، كتاب الأذان (١٠) ، باب بدء الأذان (١) ٢ ، وصحيح مسلم المطبوع مع شرح النووي ٤ / ٧٥ – ٧٦ .

(٣) النووي ، شرح صحيح مسلم ٤ / ٧٦ ، وانظر : ابن حجر ، فتح الباري ٢ / ٨١ .

(٤) ابن سعد ، الطبقات ١ / ٢٤٦ .

ثـم شُرِعَ الأذانُ (وبقـي ينادى في الناس : الصلاة جامعة ؛ للأمر يحدث فيحضرون له ، يخبرون به ، مثل فتح يقرأ أو أمر يؤمرون به فينادى : الصلاة جامعة ، وإن كان في غير وقت صلاة) [١] .

ثـم بعـد ذلـك رأى عبد الله بن زيـد ﷺ رؤيا الأذان كما في صحيح سنن أبي داود عـن ابن أبي ليلى : أُحِيْلَتْ الصلاةُ ثلاثَ أحوالٍ ، قال : وحدثنا أصحابنا أن رسول الله ﷺ قال : « لقد أعجبني أن تكـون صلاة المسلمين ـ أو قال : « المؤمنين » ـ واحدة حتى لقد هممت أن أبث رجالاً في الدور ينادون الناس حين الصلاة ، وحتى هممت أن آمر رجالاً يقومون على الآطام [٢] ينادون المسلمين حين الصلاة حتى نقسوا [٣] أو كادوا أن ينقسوا » قال : فجاء رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ، إني لما رجعت لما رأيت من اهتمامك رأيت رجلاً كان عليه ثوبان أخضران ، فقام على المسجد فأذن ، ثم قعد قعدة ثم قام فقال مثلها إلا أنه يقول : قد قامت الصلاة ، ولولا أن يقول الناس . قال ابن المثنى : أن تقولوا ، لقلت إني كنت يقظاناً غير نائم فقال رسول الله ﷺ وقال ابن المثنى : لقد أراك الله عز وجل خيراً و لم يقل عمرو لقد أراك الله خيراً فمر بلال فليؤذن قال فقال عمر : أما أني قد رأيت مثل الذي رأى ولكن لما سُبِقْتُ استحييتُ) [٤] .

---

(١) ابن سعد ، الطبقات ١ / ٢٤٧ .
(٢) الآطام : جمع أطم وهو بناء مرتفع ، وآطام المدينة : حصون كانت لأهلها .
(٣) نقسوا : أي ضربوا بالناقوس .
(٤) أخرجه أبو داود وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ١ / ١٠٢ ، حديث رقم ٤٧٨ .

عن أبي عمير بن أنس ، عن عمومة له من الأنصار ، قال : (اهتم النبي ﷺ للصلاة كيف يجمع الناس لها ، فقيل له : انصب راية عند حضور الصلاة ، فإذا رأوها آذن بعضهم بعضاً ، فلم يعجبه ذلك ، فذُكِرَ له القنعُ ـ يعني الشَّبُّور [(١)] وقال زياد : شَبُّور اليهود ـ فلم يعجبه ذلك ، وقال : « هو من أمر اليهود » قال : فذُكِرَ له الناقوسُ ، فقال : « هو من أمر النصارى » فانصرف عبد الله بن زيد وهو مهتم لِهَمٍّ رسولِ الله ﷺ ، فأُرِيَ الأذانَ في منامه ، قال : فغدا على رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : يا رسول الله ، إني لَبَيْنَ نائمٍ ويقظانَ ، إذ أتاني آتٍ فأراني الأذانَ ، قال : وكان عمر بن الخطاب قد رآه قبل ذلك ، فكتمه عشرين يوماً ، قال : ثم أخبر النبي ﷺ فقال له : « ما منعك أن تخبرني ؟ » فقال : سبقني عبد الله بن زيد فاستحييتُ ، فقال الرسول ﷺ : « يا بلال قم فانظر ما يأمرك به عبد الله بن زيد فافعله » قال : فأذَّن بلال).

قال أبو بشر : (فأخبرني أبو عمير : أن الأنصار تزعم أن عبد الله بن زيد لولا أنه كان يومئذ مريضاً لجعله رسول الله ﷺ مؤذِّناً) [(٢)] .

---

(١) القنع : قال ابن الأثير : هذه اللفظة قد اختلف في ضبطها ، فرويت بالباء والتاء والثاء والنون ، وأشهرها وأكثرها النون . والشبور: بفتح الشين وضم الباء المشددة وفي رواية للبخاري (بوقة) وفي رواية لمسلم والنسائي (قرناً) وهذه الألفاظ الأربعة (القنع ، والشبور ، والبوقة ، والقرن) بمعنى واحد ، وهو الذي ينفخ فيه ؛ ليخرج منه صوت ، وانظر : ابن حجر ، فتح الباري-٢ / ٨١ .

(٢) أخرجه أبو داود وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ١ / ٩٨ ، رقم ٤٦٨ .

وعن عبد الله بن زيد ، قال : لما أمر الرسول ﷺ بالناقوس يعمل ليضرب به للناس لجمع الصلاة ، طاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوساً في يده فقلتُ : يا عبد الله ، أتبيع الناقوسَ ؟ قال : وما تصنع به ؟ فقلتُ : ندعو به إلى الصلاة ، قال : أفلا أدلّك على ما هو خير من ذلك ؟ فقلتُ : بلى ، قال : فقال : تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله .

قال : ثم استأخر عني غير بعيد ، ثم قال : وتقول إذا أقمتَ الصلاةَ :

الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة ، الله أكبر، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، فلما أصبحتُ أتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ فأخبرتُه بما رأيتُ ، فقال : « إنها لرؤيا حقٍ إن شاء الله ، فقم مع بلال فألق ما رأيتَ فيؤذِّن به ، فإنه أندى صوتاً منك » ، فقمتُ مع بلال ، فجعلتُ ألقيه ويؤذِّن به ، قال : فسمع ذلك عمرُ بنُ الخطّاب وهو في بيته ، فخرج يجرُّ رداءَه ويقول :

والذي بعثك بالحق يا رسولَ اللهِ لقد رأيتُ مثلَ ما أُرِيَ ، فقالِ رسول الله ﷺ : « فلله الحمد »[١] .

وقال فيه ابن إسحاق عن الزهري : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر)[٢] .

هكذا شُرِعَ الأذانُ ، فقد كانت الصلاة في البداية بدون نداء ، ثم النداء لها بلفظ الصلاة جامعة ، ثم بهذه الكيفية المخصوصة قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (والظاهر أن إشارة عمر بإرسال رجل ينادي للصلاة كانت عقب المشاورة فيما يفعلونه وأن رؤيا عبد الله بن زيد كانت بعد ذلك والله أعلم)[٣] .

وكان تشريع الأذان بهذه الكيفية الأخيرة في السنة الأولى من الهجرة ، قال ابن حجر في الفتح : (واخْتُلِفَ في السنة التي فُرِضَ فيها ، فالراجح أن ذلك كان في السنة الأولى وقيل : بل كان في السنة الثانية)[٤] وفي الطبقات لابن سعد ـ رحمه الله تعالى ـ أن بلالاً ﷺ زاد في الأذان لصلاة الصبح : (الصلاة خير من النوم) فأقره رسول الله ﷺ وليست فيما أري الأنصاري[٥] .

---

(١) أخرجه أبو داود : صحيح سنن أبي داود للألباني ١ / ٩٩ ، رقم ٤٦٩ وقال عنه الألباني : حسن صحيح .
(٢) وصحّح هذه الروايةَ الألباني وقال : الأصح تربيع التكبير (هامش المرجع السابق) .
(٣) ابن حجر ، فتح الباري ٢ / ٨١ ، وانظر : النووي ، شرح صحيح مسلم ٤ / ٧٦ .
(٤) ابن حجر ، فتح الباري ٢ / ٧٨ .
(٥) ابن سعد ، الطبقات ١ / ٢٤٨ ، وابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٢٢٣ ، وعبد الرحمن بن قاسم ، الدرر السنية ٤ / ٢٠٧ ، والغزالي ، فقه السيرة ص ١٩٠ تعليق

الفوائد المأخوذة من تشريع الأذان للصلاة :

الأولى : الأذان هو شرعاً الإعلام بوقت الصلاة بألفاظ مخصوصة ، (قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ : الأذان على قلة ألفاظه مشتمل على مسائل العقيدة ؛ لأنه بدأ بالأكبرية وهي تتضمن وجود الله وكماله ، ثم ثَنَّى بالتوحيد ونفي الشريك ، ثم بإثبات الرسالة لمحمد ﷺ ، ثم دعا إلى الطاعة المخصوصة عَقِبَ الشهادة بالرسالة ؛ لأنها لا تُعْرَفُ إلا من جهة الرسول ﷺ ثم دعا إلى الفلاح وهو البقاء الدائم وفيه الإشارة إلى المعاد ثم أعاد ما أعاد توكيداً)[١] .

الثانية : من حكمة الأذان للصلاة : الإعلام بدخول الوقت والدعاء إلى الجماعة وإظهار شعائر الإسلام[٢] ، قال النووي : (وذكر العلماء في حكمة الأذان أربعة أشياء : إظهار شعائر الإسلام وكلمة التوحيد والإعلام بدخول الوقت وبمكانها والدعاء إلى الجماعة والله أعلم)[٣] .

الثالثة : الحكمة من اختيار القول للنداء للصلاة دون الفعل ؛ لسهولة القول وتيسره لكل أحد في كل زمان ومكان[٤] .

الألباني حيث قال : (إن معنى الحديث صحيح ، فإن له شواهد كثيرة ... منها عن أنس ﷺ أخرجه الدارقطني والطحاوي والبيهقي ١ / ٤٢٣ وقال : إسناده صحيح.

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٢ / ٧٧ .

(٢) انظر : المرجع السابق .

(٣) النووي ، شرح صحيح مسلم ٤ / ٧٧ .

(٤) انظر : المرجع السابق .

الرابعة : أهمية صلاة الجماعة ، فقد اهتم الرسول ﷺ بجمع الناس وحضورهم صلاة الجماعة وعدم التأخر عنها ، وشغله البحث عن وسيلة مناسبة لذلك حتى تم تشريع هذا النداء لها ، وواجب المسلم اليوم أن يبادر إلى الاستجابة لهذا النداء ، ويشارك المسلمين هذه الصلاةَ العظيمةَ التي هي ركن عظيم من أركان الإسلام في المسجد .

الخامسة : أن الرسول ﷺ لما أَهَمَّه أمرُ الأذانِ واستشار الناسَ ، عُرِضَتْ عليه بعضُ الآراءِ ولكن ردها ؛ لأن فيها تشبهاً باليهود أو النصارى ، فما فيه تشبه باليهود أو النصارى يجب على المسلم أن يدعه ويحذر منه .

السادسة : عظمة هذا النداء لما اشتمل عليه من أذكار وقد صح في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه رسول الله ﷺ قال : « إذا نوى للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين ، فإذا قضي النداء أقبل ، حتى إذا ثوِّب بالصلاة أدبر حتى إذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه ويقول : اذكر كذا ، اذكر كذا ، اذكر كذا ، لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى »[(١)] .

---

(١) متفق عليه : البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح ٢/ ٨٤، كتاب الأذان (١٠) ،باب فضل التأذين (٤) ، ومسلم في صحيحه ١ / ٣٩٨ ، رقم ٣٨٩ ، واللفظ للبخاري .

السابعة : ورد في فضل الأذان حديث رسول الله ﷺ الذي رواه أبو هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤذِّن يُغْفَرُ له مدى صوته ويشهد له كل رطب ويابس »[١] .

الثامنة : شرع متابعة المؤذن ووعد الرسول ﷺ بالأجر العظيم على ذلك ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله تعالى عنهما - أنه سمع النبي ﷺ يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلُّوا علي ، فإنه من صلَّى علي صلاةً صلَّى اللهُ بها عشراً ، ثم سَلُوْا اللهَ عز وجل لِيَ الوسيلةَ ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله تعالى وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل اللهَ لي الوسيلةَ حَلَّتْ عليه الشفاعةُ »[٢] .

التاسعة : عن الحكمة من تشريع الأذان برؤيا بعض الصحابة قال العلماء : والحكمة من ابتداء شرع الأذان على لسان غير النبي ﷺ التنويهُ بعُلُوِّ قدره على لسان غيره ؛ ليكون أفخمَ لشأنه والله أعلم[٣] .

العاشرة : أخرج الطبري في تفسيره عند قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾[٤] عن السدي قال : (كان

(١) أخرجه أبو داود في سننه وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ١ / ١٠٤ ، رقم ٤٨٤ .

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ١ / ٢٨٨ ، رقم ٣٨٤ .

(٣) ابن حجر : فتح الباري ٢ / ٨٢ .

(٤) سورة المائدة ، الآية رقم (٥٨) .

رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادي ينادي (أشهد أن محمداً رسول الله) قال : (حُرِّق الكاذبُ) فدخلت خادمة ذات ليلة من الليالي بنار وهو نائم وأهله نيام ، فسقطت شرارة ، فأحرقت البيتَ ، فاحترق هو وأهله)[١] .

ثانياً : تحويل القبلة إلى الكعبة

كان رسول الله ﷺ يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه ، فلما قدم المدينة وُجِّهَ إلى بيت المقدس واستمر على ذلك بضعةَ عَشَرَ شهراً وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يُوَجَّهَ إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم عليه السلام[٢] .

وخرج رسول الله ﷺ زائراً أُمَّ بشر بن البراء بن معرور في بني سلمة ـ بكسر اللام ـ ، فصنعت له طعاماً وحانت صلاة الظهر ، فصلى رسول الله ﷺ الظهرَ بأصحابه في مسجد هناك ، فلما صلى ركعتين نزل جبريل ، فأشار أن صَلِّ إلى البيت وصلى جبريل إلى البيت ، فاستدار رسول الله ﷺ إلى الكعبة واستقبل الميزابَ ، فتحولت النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء ، فسُمِّيَ ذلك المسجدُ مسجدَ

---

(١) ابن جرير الطبري ، تفسير الطبري ١٠ / ٤٣٢ ، تحقيق محمود شاكر .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢ / ٢٤٣ ، وابن كثير ، تفسير ابن كثير ١ / ٢٩١ ، والدهلوي ، حجة الله البالغة ١ / ٣٦٢ .

القبلتَيْنِ [١] فخرج عباد بن بشر ﷺ وكان صلى مع رسول الله ﷺ ، فمر على قوم من الأنصار ببني حارثة وهم راكعون في صلاة العصر ، فقال : أشهد بالله لقد صليتُ مع رسول الله ﷺ قِبَلَ البيت فاستداروا [٢] .

قال رافع بن خديج : (وأتانا آتٍ ونحن نصلي في بني عبد الأشهل ، فقال : إن رسول الله ﷺ قد أُمِرَ أن يُوَجِّهَ إلى الكعبة ، فأدارنا إمامُنا إلى الكعبة ودُرْنا معه) [٣] .

قال ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ : (وبيناً الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ ، فقال : إن النبي ﷺ قد أُنْزِلَ عليه قرآنٌ وقد أُمِرَ أن يستقبل الكعبة ، فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة) [٤] وعن البراء ﷺ أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده ـ أو قال : أخواله ـ من الأنصار وأنه صلَّى

---

(١) انظر : الشامي ، سبل الهدى ٣ / ٥٣٧ ، وابن سعد ، الطبقات ١ / ٢٤٢ ، قال ابن سعد : قال الواقدي : هذا عندنا أثبت ، والقسطلاني ، المواهب ١ / ٣٤٥ ، وابن حجر ، فتح الباري ١ / ٥٠٣ .

(٢) انظر : الشامي ، سبل الهدى ٣ / ٥٣٨ ، وابن سعد ، الطبقات ١ / ٢٤٢ .

(٣) انظر : الشامي ، سبل الهدى ٣ / ٥٣٨ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح ٨ / ١٧٤ ، كتاب التفسير (٦٥) ، باب : الذين آتينهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم (١٧) ، رقم الحديث (٤٤٩١) .

قِبَلَ بيتِ المقدسِ ستةَ عَشَرَ شهراً أو سبعةَ عَشَرَ شهراً وكان يعجبه أن تكون قبلتُه قِبَلَ البيتِ وأنه صلّى أول صلاة صلاها صلاة العصر ، وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن صلّى معه ، فمر على أهل مسجد وهم راكعون ، فقال : أشهد بالله لقد صليتُ مع رسول الله ﷺ قِبَلَ مكةَ ، فداروا ـ كما هم ـ قِبَلَ البيتِ وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قِبَلَ بيتِ المقدسِ وأهل الكتاب ، فلما ولّى وجهَه قِبَلَ البيتِ أنكروا ذلك [(١)] .

قال ابن حجر : (والتحقيق أن أَوَّلَ صلاةٍ صلاها في بني سلمة لما مات بشر بن البراء بن معرور الظهرُ ، وأول صلاة صلاها بالمسجد النبوي العصرُ) [(٢)] .

الفوائد المستخرجة من هذا المقطع من السيرة :

الأولى : قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ :(وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس ، ثم تحويلها إلى الكعبة حكمٌ عظيمةٌ ، ومحنة للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين) ، فأما المسلمون فقالوا :

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح ١ / ٩٥ ، كتاب الإيمان (٢) ، باب : الصلاة من الإيمان (٣٠) ، رقم ٤٠ ، وكتاب الصلاة (٨) ، باب التوجه إلى القبلة (٣١) ، رقم ٣٩٩ ، ١ / ٥٠٢ .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ١ / ٩٧ وقال ١ / ٥٠٣ : (فظاهر حديث البراء هذا أنها الظهر) ، وانظر : ابن جرير ، تفسير الطبري ٣ / ١٣٥ ، وابن كثير، البداية والنهاية ٣ / ٢٥٣ .

سمعنا وأطعنا وقالوا : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ (١) وهم الذين هدى الله ، ولم تكن كبيرةً عليهم ، وأما المشركون فقالوا : كما رجع إلى قبلتنا يُوْشِكُ أن يرجع إلى ديننا ، وما رجع إليها إلا أنها الحق ، وأما اليهود فقالوا : خالف قبلة الأنبياء قبله ولو كان نبياً لكان يصلي إلى قبلة الأنبياء ، وأما المنافقون فقالوا : ما يدري محمد أين يتوجَّه ؟ إن كانت الأولى حقاً فقد تركها وإن كانت الثانيةُ هي الحَقَّ فقد كان على باطل ، وكثرت أقاويل السفهاء ، وكانت كما قال الله جل شأنه : ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ (٢) وكانت محنة من الله امتحن بها عباده ؛ ليرى من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه) (٣) .

الثانية : عن قتادة قال : (قلتُ لسعيد بن المسيب : لِمَ سُمُّوْا (المهاجرين الأولين ؟) قال : من صلى مع النبي ﷺ القبلتين جميعاً فهو من المهاجرين الأولين ، ومثله عن ابن سيرين ، وقال الشعبي : (المهاجرون الأولون من أدرك البيعة تحت الشجرة) (٤) والله أعلم .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية رقم (٧) .

(٢) سورة البقرة ، الآية رقم (١٤٣) .

(٣) ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٦٦-٦٧ ، وانظر : ابن حجر ، فتح الباري ٨/ ١٧١ ، والشامي ، سبل الهدى ٣ / ٥٣٩ .

(٤) انظر هذين القولين في : تفسير الطبري ١٤ / ٤٣٥ - ٤٣٧ عند تفسير قوله تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار...) .

الثالثة : نرى في موقف تحويل القبلة سرعة مبادرة الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ إلى تنفيذ أوامر الرسول ﷺ ، فالخبر يبلغهم أثناء الصلاة فيستديرون وهم في صلاتهم ، فعندما أتى رجل إلى بعض الصحابة فقال : أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قِبَلَ مكةَ ، إذا بهم يبادرون بالتحوّل إلى القبلة الجديدة فوراً دون سؤال أو استفسار أو تردد ، وهذا شأن المؤمن الاتباع والتمسك بالعمل بالنص فور بلوغه له والمبادرة إليه سواء ظهرت له الحكمة من ذلك أم لم تظهر ، يقول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ : (فحيثما وَجَّهَنَا سبحانه تَوَجَّهْنَا ، فالطاعة في امتثال أمره ، ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة فنحن عبيده وفي تصرفه وخدامه حيثما وَجَّهَنَا توجهنا)[١] .

الرابعة : التمهيد للأمر العظيم قبل حصوله ، يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (وكان أمر القبلة وشأنها عظيماً وطأ سبحانه قبلها أمر النسخ وقدرته عليه وأنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله ، ثم عقب ذلك بالتوبيخ لمن تعنت رسول الله ﷺ ولم ينقد ... وجعل كل هذا توطئة ومقدمة بين يدي تحويل القبلة)[٢] وهذا يفيدنا في مسألة التدرج في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، فهو وإن كان تدرج في التشريع لكنه يؤخذ منه التدرج في دعوة الناس ومراعاة أحوالهم والله أعلم .

---

(١) ابن كثير ، تفسير ابن كثير ١ / ١٩٠ .
(٢) ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٦٧ - ٦٨ .

الخامسة : كان تحويل القبلة فرصة لأعداء الإسلام لإثارة الشبهات [١] حول الإسلام والمسلمين ولأجل هذا ارتد بعض من أسلم ، قال ابن جرير : (قال ابن جريج : بلغني أن أناساً ممن أسلم رجعوا فقالوا : مرة هاهنا ومرة هاهنا) [٢] .

وفتنة إثارة الشبهات لا تزال حية يحاول أعداء الإسلام من خلالها صد المسلمين أو غيرهم عن هذا الدين ، و الشبهات تُدْفَعُ بالعلم الشرعي الذي يبطل كيد الأعداء .

السادسة : أن هذه القبلة التي هدى هذه الأمة لها (هي القبلة التي تليق بهم وهم أهلها ؛ لأنها أوسط القِبَلِ لأفضل الأمم كما اختار لهم أفضل الرسل وأفضل الكتب وأخرجهم في خير القرون ، وخصهم بأفضل الشرائع ، ومنحهم خير الأخلاق ، وأسكنهم خير الأرض وجعل منازلهم في الجنة خير المنازل ، وموقفهم يوم القيامة خير المواقف) [٣] .

السابعة : في قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ [٤] آية لمحمد ﷺ إذ تضمنت الإخبار عن

---

(١) انظر : عبد العزيز الحميدي : المنافقون في القرآن الكريم ص ٥٤ و ٦ .

(٢) ابن جرير الطبري ، جامع البيان ٢ / ١٣ .

(٣) ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٦٨ .

(٤) سورة البقرة ، الآية رقم (١٤٢) .

أمر غيبي ، فالإتيان بالسين الدالة على الاستقبال من الإخبار عن المستقبل (١) ومع ذلك أخبر القرآن الكريم به الرسول ﷺ ووقعت الأمور كما ذكر القرآن الكريم .

الثامنة : في تحويل القبلة إلى الكعبة واستقبال المسلمين أينما كانوا لهذا البلد بيان لمكانته وتميزه عن سائر الأمكنة ، فهو مَهْبَط الوحي ومُنْطَلَق الرسالة ومَهْوَى الأفئدة ومقصد المسلمين في حجهم وعمرتهم ، وقبلتهم أحياء وأمواتاً ، قد شرفه الله جل شأنه بهذا الشرف الذي لا مزيد بعده .

التاسعة : في تحويل القبلة إلى مكة تأكيد لوسطية هذه البقعة جغرافياً ، وقد أشرتُ في سبب اختيار هذه الجزيرة ؛ لتكون مُنْطَلَقاً للرسالة الخاتمة ، إلى أن هذه الجزيرة وسط العالم وقد قال الله جل شانه : ﴿ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (٢) وهذا الاختيار يعني أن تكون مكة هي منطلق تحديد الجهات ، ولكننا وللأسف تابعنا الْمُسْتَعْمِرِيْنَ ، وتلقّينا مصطلحاتهم وسلّمنا لهم ، ولو فكرنا قليلاً لأدركنا المعاني الحقيقية لكثير من هذه المصطلحات وأنها لا ارتباط لها بواقعنا و لا بتاريخنا ، فمثلاً يقولون : الشرق الأدنى ، والشرق الأقصى والشرق الأوسط ، وذلك أن المستعمِر الأوربي اعتبر نفسه في

(١) انظر : الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٣ / ٥٣٩ .
(٢) سورة الشورى ، الآية رقم (٧) .

مركز الأرض ، فأطلق هذا التوزيع بالنسبة لموقعه ، وجاريناه على ذلك ، ونسينا أننا هنا نحن الوسط والمركز ، وأن هذه الوسطية المكانية ينبغي أن تكون لبلاد المسلمين ، وأن ينطلق تحديد الجهات منها ، وأن هذا هو المعروف في وقت قوة الأمة الإسلامية وعزتها ، أما الآن وقد غلب على الأمة الإسلامية فأصبح ليس لبقعتها إلا أن يقال عنها : (الشرق الأوسط) .

ثالثاً : تشريع الصيام

كان الصيام مفروضاً على الأمم السابقة والمقصود بهذه الأمم أمم التوحيد كقوم نوح و إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [1] ومما هو مقطوع به أن صيام من قبلنا ليس مماثلاً لصيامنا وإن كان الجميع يشتركون في هذه العبادة العظيمة [2] يقول الإمام ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ : (عن معاذ بن جبل قال : (أُحِيْلَتِ الصلاةُ ثلاثةَ أحوالٍ) فذكر أحوال الصلاة وقال : و أما أحوال الصيام فإن رسول الله ﷺ قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وصام عاشوراء ، ثم إن الله فرض عليه الصيام وأنزل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى

(١) سورة البقرة ، الآية رقم (١٨٣) .
(٢) انظر : عبد الله الطيار ، الصيام ص ١٧ .

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖ ﴾ (١) فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكيناً فأجزأ ذلك عنه ، ثم إن الله أنزل الآية الأخرى : ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ﴾ (٢) فأثبت صيامه على المقيم الصحيح ورخَّص فيه للمريض والمسافر وأثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام فهذان حولان ، قال : وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا ، فإذا ناموا امتنعوا ، ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له : (صرمة) كان يعمل صائماً حتى أمسى فجاء إلى أهله فصلَّى العِشاءَ ، ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح فأصبح صائماً ، فرآه رسول الله ﷺ قد جهد جهداً شديداً ، فقال : « مالي أراك قد جهدتَ جهداً شديداً » ، فأخبره ، قال وكان عمر قد أصاب من النساء بعدما نام فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فأنزل الله : ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ ﴾ إلى قوله : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية رقم (١٨٣) .

(٢) سورة البقرة ، الآية رقم (١٨٥) .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٢٥٥ ، ورواه عن الإمام أحمد ، وقال : (ورواه أبو داود في سننه والحاكم من حديث المسعودي نحوه) ، وانظر : صحيح سنن أبي داود للألباني ١ / ١٠١ - ١٠٣ ، حديث رقم ٤٧٨ و ٤٧٩ ، و انظر : الرفاعي ، مختصر تفسير ابن كثير ١ / ١٤١ ، وانظر : تفسير الطبري ٣ / ٤١٤ وما بعده .

وكان تشريع الصيام بهذه الكيفية في شعبان في السنة الثانية من الهجرة [١] .

وبه استقر تشريع الصيام الواجب على هذا اليسر ورفع الحرج ، وتأكد وجوبه بالسنة القولية والعملية عن رسول الله ﷺ ، وأجمع المسلمون على هذا ، فلا يحل للمسلم أن يفرِّط في هذا الأصل وهذا الركن العظيم من أركان الإسلام .

وبقي تشريع صيام النوافل مثل صيام أيام البيض ويوم عرفة وأيام الاثنين والخميس وثلاثة أيام من كل شهر وستة أيام من شهر شوال والعاشر من محرم وغيرها كل هذه صيامها مستحب يتقرَّب بها المسلم إلى ربه ويتزوَّد من طاعته بصيامها كما شرع ذلك سبحانه شرعاً غير واجب على عباده .

الدروس المستفادة من تشريع الصيام :

أولاً : حكمة الإسلام في تدرجه في التشريع ، فلم يُفْرَض الصيامُ مرةً واحدةً ، بل جاء التشريع لهذه العبادات متدرجاً بدءاً من ثلاثة أيام إلى صيام شهر رمضان مع التخيير ، ثم في النهاية لما مرنت النفوس وتعودت على الصيام أصبح صيام الشهر فرضاً لازماً ، ومنه نأخذ التدرج في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى كما سبق أن أشرنا .

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٢٥٤ ، ومحمد أبو شهبة ، السيرة النبوية ٢ / ١٠٦ .

ثانياً : نلمس من تشريع الصيام اليسر والسهولة ورفع الحرج عن الأمة الإسلامية ، حيث كانت بداية التشريع توجب الصيام من بعد صلاة العشاء أو النوم إلى نهاية النهار ، ثم جاء التخفيف عنهم بقول الله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ كما ذكرنا ذلك في سبب نزولها ، فالإسلام دين اليسر والسهولة ولن يُشَادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه .

ثالثاً : في البدء في آيات تشريع الصيام بهذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [١] فيه درس للدعاة إلى الله في استخدام هذا الأسلوب الذي سلكه القرآن الكريم في تشريع الصيام وذلك من خلال توضيح أن الصيام الذي فرضه على هذه الأمة مفروض على الأمم من قبل وفي هذا فائدتان :

١) ترغيب للنفوس وتطييب للقلوب ، فإن الصيام عبادة فيها مشقة ، والأمور الشاقة إذا شعر الفرد بعمومها على الجميع سَهُلَ حملُها [٢] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية رقم (١٨٣) .

(٢) انظر : المراغي ، تفسير المراغي ٢ / ٦٨ .

٢) أن في هذا تنشيطاً للمدعوِّين لفعل المأمور وإثارةً للمنافسة بين الأمم السابقة واللاحقة للمنافسة في خصال الخير[١] ، وعلى الدعاة إلى الله أن يستفيدوا من هذا الأسلوب في دعوتهم إلى الله سبحانه وتعالى .

رابعاً : في تشريع الصيام مراعاة لأحوال جميع طبقات المجتمع وتذكير للأغنياء بحال الفقراء وتقوية للروابط بين فئات المجتمع وتربية للنفس على التغلب على سلطان الشهوات .

خامساً : وقت الصيام والإفطار محدد في غاية الدقة ، حيث نرى أن وقت الإمساك دقيق ، ووقت الإفطار كذلك ، وهذا مظهر من مظاهر النظام والانضباط الذي ينبغي أن يحياه المسلم بعيداً عن الفوضوية ، ومن شاهد المسلمين - مثلاً - في الحرم المكي وهم بمئات الألوف يفطرون في دقيقة واحدة عند أول كلمة من الأذان أدرك بهذا المشهد العظيم الانضباط الذي يعيشه ويتربى عليه المسلمون من خلال دينهم القويم .

سادساً : في فرضية الصيام ، تعويد للمسلم الرقابة على نفسه ، إذ بإمكان الفرد أن يتظاهر بالصيام ويغلق على نفسه الأبواب ويأكل ويشرب كما يشاء ومع هذا ترك هذا الأمر للمسلم ووعد على المحافظة على الصيام أجور عظيمة حينما أخبر الرسول الكريم ﷺ في الحديث

---

(١) انظر : الشيخ السعدي ، تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١ / ١٤٣ .

القدسي عن ربه عز وجل أنه قال : « يترك طعامه وشرابه من أجلي ، الصيام لي وأنا أجزي به »[(١)].

رابعاً : تشريع الزكاة

الزكاة عبادة قديمة عُرِفَتْ في الرسالات السماوية السابقة ، وذكرها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم حينما تحدث عن الأنبياء السابقين قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾[(٢)].

ويقول تعالى على لسان المسيح في مهده : ﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾[(٣)].

والزكاة في الإسلام مُرت بمرحلتين هامتين ، الأولى في العهد المكي ، والثانية في العهد المدني .

أما العهد المكي فقد وردت آيات كثيرة من أوائل ما نزل على الرسول ﷺ تتحدث عن الزكاة منها :

١. قول الله تعالى في سورة المزمل : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾[(٤)].

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٤ / ١٠٣ ، رقم ١٨٩٤ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية رقم (٧٣) .

(٣) سورة مريم ، الآية رقم (٣١) .

(٤) سورة المزمل ، الآية رقم (٢٠) .

٢. قول الله تعالى في سورة فصلت : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[1] .

وهذه الآيات تتحدث عن الزكاة والصدقة لكنها تتحدث عنها بصفتها تشريعاً عاماً دون أن ترد نصوص تبين فرضيتها أو تحديد ما تجب منه ومن يجب أن تُدْفَعَ له .

أما العهد المدني فكان أكثر تحديداً ففي السنة الثانية من الهجرة وفي شهر شوال نزل فرضية الزكاة[2] وصار الحديث عنها بصفتها ركناً من أركان الإسلام ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾[3] .

وتولّى القرآنُ الكريمُ تحديدَ مَنْ تُصْرَفُ إليه ، يقول تعالى :﴿ ۞ إِنَّمَا الصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَٰكِينِ وَالْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[4] .

---

(١) سورة فصلت ، الآيتان رقم (٦ - ٧) .

(٢) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٢٥٦ و ٣٤٧ ، ومحمد أبو شهبة ، السيرة النبوية ٢ / ١١١ ، والطيار ، الزكاة ص ٦١ .

(٣) سورة التوبة ، الآية رقم (١١) .

(٤) سورة التوبة ، الآية رقم (٦٠) .

وبالتالي أصبحت الزكاة فريضة ملزمة يدفعها الغني لأخيه المستحق لها وفق الأصناف المشار إليها في الآية في أموال معينة تولى الإسلام بيانها وبيان مقدار الواجب فيها .

الدروس المستفادة من تشريع الزكاة :

أولاً : ما ذكرناه في تشريع الصوم نلحظه هنا وهو التدرج في التشريع ، فالزكاة لم تُفْرَضْ مرة واحدة بوضعها الحالي ، بل جاء الحث عليها في العهد المكي ، ثم في العهد المدني فُرِضَتْ وأصبحتْ لازمةً يجب على من اكتملت فيه الشروط أن يدفعها بطيب نفس إلى مستحِقّها .

ثانياً : إن للزكاة أهدافاً إنسانية جليلة ومثلاً أخلاقية رفيعة ، قصد الإسلام إلى تحقيقها حينما شرع الزكاة ، يقول تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [١] فالزكاة طهارة لنفس صاحبها من البخل والشُّحِّ والطَّمَع .

ثالثاً : الزكاة إعانة للضعفاء وكفاية لأصحاب الحاجات وهي تعبير عملي عن أخوة الإسلام ، وتطبيق واقعي لأخلاق المسلم ، من جانب المزكّي ، وهي أيضاً تجعل الفقير يعيش في المجتمع المسلم خاليةً

---

(١) سورة التوبة ، الآية رقم (١٠٣) .

نفسُه من أي حقد أو حسد ، وذلك لأن حقه محفوظ في مال الغني ، فتجده يحبه ويدعو له بالبركة وكثرة المال [١] .

رابعاً : الزكاة تكفّر الخطايا ، وتدفع البلايا ، يقول الله جل شأنه : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ ﴾ [٢] ، وفي أداء الزكاة شكر لله سبحانه وتعالى على ما أسبغ على المسلم من نعم ظاهرة وباطنة وهذه مما يميزه عن الكافر ، فالكافر يتمتع بالنعم ولا يعرف له رباً رازقاً يشكره ، والمسلم يشكر الله وهو يتذكر قوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [٣] [٤] .

خامساً : مما يدل على أهمية الدعوة إلى الله أن الله جل شأنه قد جعل في الزكاة نصيباً لمن يُرْجَى تأليفُ قلبه على الإسلام سواء بالدخول فيه أو قوة إيمانه ، يقول الشيخ السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ : (الرابع : المؤلفة قلوبهم : والمؤلف قلبه هو السيد المطاع في قومه ممن يُرْجَى إسلامُه أو يُخْشَى شرُّه أو يُرْجَى بعطيته قوةُ إيمانِه أو إسلامُ نظيرِه ، أو جبايتها ممن لا يعطيها ، فيعطى ما يحصل به التأليف والمصلحة) [٥] .

---

(١) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ١٦ / ١٠١ و ١٠٣ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية رقم (١٥٦) .
(٣) سورة إبراهيم ، الآية رقم (٧) .
(٤) انظر : د . الطيار ، الزكاة ص ٣١ وما بعدها .
(٥) السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ٢ / ٢٥٨ ، وانظر : الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير ١٠ / ٢٣٦ .

خامساً : تشريع الجهاد

مر تشريع الجهاد في سبيل الله بعدة مراحل نوجزها على النحو التالي :

المرحلة الأولى :

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام ـ وهم بمكة ـ مأمورين بالصلاة والزكاة ، وبالصَّفْح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين ، وكانوا يتحرَّقون شوقاً إلى قتال أعدائهم ؛ ليتشفَّوا منهم ، ولكنهم كانوا قليلي العَدَد والعُدَّة وهم في البلد الحرام ولذا لم يُشْرَع الجهادُ ذلك الوقت [١] ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [٢] .

عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا : يا نبي الله كنا في عزة ونحن مشركون ، فلما آمنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً ، قال : « إني أُمِرْتُ بالعفو ، فلا تقاتلوا القومَ » [٣] .

---

(١) انظر : الرفاعي ، مختصر تفسير ابن كثير ١ / ٤١٢ .

(٢) سورة النساء ، الآية رقم (٧٧) .

(٣) أخرجه النسائي في سننه ٦ / ٣ ، والبيهقي في السنن الكبرى ٩ / ١١ ، والحاكم في المستدرك ٢ / ٣٠٧ وقال على شرط البخاري ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وصححه الرفاعي في تحقيق مختصر ابن كثير ١ / ٤١٢ .

وكان الرسول ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله عز وجل ويصبرون على الأذى[١] قال الله عز وجل : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[٢] ولذلك نجد اتفاق العلماء أن الجهاد لم يُشْرَع إلا في المرحلة المدنية ، يقول القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: (ولم يُؤْذَنْ للنبي ﷺ في القتال مدة إقامته بمكة ، فلما هاجر أُذِنَ له في قتال من يقاتله من المشركين)[٣] ، يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ: (فأول ما شرع الجهاد بعد الهجرة النبوية إلى المدينة اتفاقاً)[٤] .

المرحلة الثانية :

وهي مرحلة الإذن بالقتال بعد الهجرة دون أن يُفْرَضَ عليهم[٥] فقال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾[٦] .

---

(١) البيهقي ، السنن الكبرى ٩ / ١٠ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية رقم (١٨٦) .
(٣) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٣٨ .
(٤) ابن حجر ، فتح الباري ٦ / ٢٧ .
(٥) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٧٠ .
(٦) سورة الحج ، الآية رقم (٣٩) .

أخرج البيهقي في سننه والحاكم في المستدرك عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال : لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر رضي الله عنه : أخرجوا نبيهم ، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (١) وهي أول آية نزلت في القتال (٢) .

المرحلة الثالثة :

وهي مرحلة فرض القتال لمن يقاتلهم فقط ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ﴾ (٣) .

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (ثم فُرِضَ عليهم القتالُ بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال تعالى : ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ﴾) (٤) .

المرحلة الرابعة :

وهي المرحلة الأخيرة وهي قتال المشركين كافة كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ

---

(١) سورة الحج ، الآية رقم (٣٩) .

(٢) البيهقي ، السنن الكبرى ٩ / ١١ ، والحاكم ، المستدرك ٢ / ٦٦ وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٣) سورة البقرة ، الآية رقم (١٩٠) .

(٤) ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٧١ .

وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [(٢)] .

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (ثم فُرِضَ عليهم قتالُ المشركين كافةً ، وكان محرَّماً ، ثم مأذوناً ، ثم مأموراً لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأموراً به لجميع المشركين إما فرض عين على أحد القولين أو فرض كفاية على المشهور) [(٣)] .

الفوائد المستنبطة من تشريع الجهاد :

الأولى : لقد شُرِعَ (الجهادُ في الوقت الأليق به ؛ لأنهم لما كانوا بمكة ، كان المشركون أكثرَ عدداً ، فلو أُمِرَ المسلمون وهم أقل من العشر بقتال الباقين لَشُقَّ عليهم ، فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم وهَمُّواْ بقتله وشرَّدوا أصحابَه شذر مذر ، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه وقاموا بنصره وصارت لهم دار

---

(١) سورة التوبة ، الآية رقم (٥) .
(٢) سورة التوبة ، الآية رقم (٢٩) .
(٣) ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٧١ .

إسلام ومعقلاً يلجأون إليه شرع اللهُ جهادَ الأعداءِ)[١] ، فكانت الحكمة في البداية في تأجيل التشريع ، وكانت الحكمة أيضاً في تشريعه لما قوي جانب المسلمين .

الثانية : هذا القتال يختلف عن القتال والحروب التي شهدها التاريخ الإنساني والتي استهدفت تحقيق أغراض ومقاصد دنيوية لأفراد يريدون العلو في الأرض ، فأهداف الجهاد الإسلام وضوابط الحق والعدل والرحمة التي احتفت الجهاد ميزته عن أنواع الحروب الأخرى ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[٢] .

ومن وصايا الرسول ﷺ للغزاة المجاهدين وقادة الجهاد في سبيل الله « اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً »[٣] .

وغاية الجهاد أن يكون الدين لله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾[٤] .

---

(١) ابن كثير ، تفسير ابن كثير ٣ / ٢٢٥ .
(٢) سورة النساء ، الآية رقم (٧٦) .
(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ٣ / ١٣٥٧ ، رقم ١٧٣١ ، كتاب الجهاد والسير ، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها .
(٤) سورة البقرة ، الآية رقم (١٩٣) .

والهدف الكبير الذي يسعى إليه المجاهد في سبيل الله هو أن يتمكن من يرغب الدخول في الإسلام من الدخول فيه دون أن يجد عائقاً يمنعه من ذلك ، ثم إذا دخل في هذا الدين وجد حماية [1] فيه ممن يريد صده أو منعه من الاستمرار فيه ، هذه أسمى غايات الجهاد في سبيل الله ، فليست الغاية من الجهاد التسلُّط على الناس وسفك الدماء ، وأخذ الأموال واحتلال الأرض ولم يحصل هذا من المسلمين المجاهدين عبر التاريخ الإسلامي وإن كان هذا موجوداً عند غيرهم .

الثالثة : لم تكن الغايةُ من الجهاد التدخلَ في حرية الناس في معتقدهم ، وإنما يهدف الجهاد إلى إتاحة الفرصة لإبلاغ هذا الدين ، وأن يجد الفرد الحماية له ممن يريد أن يحول بينه وبين الدخول في الإسلام ، وإذا دخل فيه يجد الحماية ممن يريد أن يَفْرِضَ عليه غيرَ دينِ الإسلام ، ولما شُرِعَ الجهادُ كانت الغاية منه واضحةً ، وهي حماية العقيدة وحماية معتنِقيها وتيسير سبل إبلاغها للناس [2] ، ومما يؤكد حرية المعتقد في نظر الإسلام أن اليهودي والنصراني [3] له حرية البقاء

---

(١) انظر : محمد بن صالح العثيمين ، القول المفيد على كتاب التوحيد ٣ / ٢٤٦ .

(٢) انظر : د . أكرم العمري ، المجتمع المدني في عهد النبوة (الجهاد) ص ١٩ .

(٣) يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي عند تفسير قول الله تعالى : (لا إكراه في الدين) : (يستدل في الآية الكريمة على قبول الجزية من غير أهل الكتاب كما هو قول كثير من العلماء) تفسير السعدي ص ١١٢ ، الطبعة الثانية (الرياض ، دار السلام ١٤٢٢هـ) .

على دينه حتى داخل المجتمع المسلم دون أن يجد في الجهاد ما يلزمه أو يفرض عليه تغيير معتقده ، بل في الإسلام أحكام تخص الذمي والمستأمن وغيرهم ممن يعيشون في المجتمع الإسلامي لفترة دائمة أو مؤقتة ولهم حقوقهم التي بها تصان دماؤهم وأموالُهم وأعراضُهم .

الرابعة : ومن بيان مراحل تشريع الجهاد يتضح أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ، فقد أمضى الرسول ﷺ أربعة عشر عاماً قبل تشريع الجهاد وهو يدعو إلى الله بالحجة والموعظة الحسنة ، وقد دخل في الإسلام في هذه الفترة خيارُ الصحابة ودخل في الإسلام قبل تشريع الجهاد عن رضا واقتناعٍ كثيرٌ من الناس ولم يكن الرسول ﷺ يملك شيئاً يلزمهم به الدخول في هذا الدين .

❁❁❁

المبحث الثالث

فقه السيرة في غزوة بدر الكبرى

غزوة بدر الكبرى

بدر : قيل فيها هي اسم بئر حفرها رجل من غفار اسمه بدر[١] وتُسَمَّى بدراً الكبرى أو العظمى أو بدر القتال أو يوم الفرقان وهذه التسمية الأخيرة وردت في القرآن الكريم يقول تعالى : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾[٢] قال ابن عباس : (لأن الله تعالى فرق فيه بين الحق والباطل)[٣].

بلغ النبي ﷺ أن أبا سفيان خرج من الشام في ألف بعير لقريش فيها أموال عظيمة يقال : إنها خمسون ألف دينار ، ولا يحرس القافلة إلا عدد قليل من الرجال لا يتجاوزون السبعين رجلاً في أكثر الأقوال ، فندب الرسول ﷺ المسلمين للخروج وقال : « هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا لعل الله أن يغنمكموها » فانتدب الناس ، فبادر بعض الناس ، وثقل آخرون ظناً بأن الرسول ﷺ لن يلق حرباً ، ولم

---

(١) انظر : السهيلي ، الروض الأنف ٣ / ٤٣ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية رقم (٤١) .

(٣) انظر : الشامي ، سبل الهدى ٤ / ٣٠ .

يحتفل أو يهتم الرسول ﷺ للخروج اهتماماً بليغاً ، ولم يأذن لمن لم يكن ظهره حاضراً ، فقال : « من كان ظهره حاضراً ، فليركب معنا » ، فجعل رجال يستأذنونه في ظهورهم في علو المدينة ، قال : « لا ، إلا من كان ظهره حاضراً » .

وكان أبو سفيان حَذِراً يتسقط الأخبار ، فبلغه خروج الرسول ﷺ لاعتراض عيره ، فحذر عند ذلك ، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري بعشرين مثقالاً ، فبعثه إلى مكة وأمره أن يجدع أنف بعيره ، ويحول رحله ، ويشق قميصه من قبله ودبره إذا دخل مكة ويأتي قريشاً ويستنفرهم إلى أموالهم التي خرج محمد ﷺ بأصحابه لها ، فخرج ضمضم سريعاً إلى مكة وفعل ما أمره أبو سفيان [١] وكان خروج الرسول ﷺ يوم السبت لاثنتي عشرة خلت من رمضان من السنة الثانية من الهجرة ، واستحلف أبا لبابة الأنصاري [٢] وكان عدة من خرج معه ﷺ (ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً) [٣] في أقوال عديدة ، وكان معهم فرسان وسبعون بعيراً يعتقبونها وكان رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ﷺ ومرثد الغنوي يعتقبون بعيراً [٤] .

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/ ٢٤٤ و ٢٤٦-٢٤٧ ، والشامي ، سبل الهدى والرشاد ٤/ ٣٢ .

(٢) انظر : القسطلاني ، المواهب اللدنية ١/ ٣٤٩.

(٣) هذا الذي في صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧/٢٩٠ ، حديث رقم ٣٩٥٧ .

(٤) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/٢٥١ .

وفي مقابل هذا العدد ، خرج من مكة بعد وصول ضمضم واستنفاره قريشاً تسعُمائة وخمسون رجلاً [١] معهم مائةُ فارسٍ وسبعُمائة بعيرٍ ، ولم يتخلف أحد من أشرافهم إلا أبا لهب ، فإنه بعث مكانه العاص بن هاشم بن المغيرة [٢] .

وفي الطريق جاء حذيفة ووالده حسيل إلى رسول الله ﷺ يقول حذيفة : (ما منعني أن أشهد بدراً إلا أني خرجت أنا وأبي حسيل قال : فأَخَذَنَا كفارُ قريشٍ قالوا : إنكم تريدون محمداً ، فقلنا : ما نريده ، ما نريد إلا المدينةَ ، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لَنَنْصَرِفَنَّ إلى المدينة ولا نقاتلَ معه ، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبرَ ، فقال : « انصرِفا نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم ») [٣] .

ولما بلغ الرسول ﷺ الروحاء أتاه خبر النفير ومسيرهم إليه ؛ ليمنعوا عيرهم ، فاستشار النبي ﷺ أصحابه ، فقام أبو بكر ﵁ فتكلم فأحسن ، ثم قام عمر ﵁ فتكلم فأحسن ، ثم قام المقداد ﵁ فقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا

(١) انظر : الشامي ، سبل الهدى ٢٦/٤ ، وفي صحيح مسلم : « نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً » صحيح مسلم ٣ / ١٣٨٤ ، رقم ١٧٦٣.

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢ / ٢٤٧ .

(٣) الإمام مسلم ، صحيح مسلم ٣ /١٤١٤ ، رقم ١٧٨٧.

قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون [١] وفي رواية البخاري في صحيحه : (ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك) يقول الراوي : (فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره يعني قوله) [٢] .

وفي صحيح مسلم (فقام سعد بن عبادة فقال : إيانا تريد يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده ، لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد [٣] لفعلنا) [٤] .

وفي السيرة قال الرسول ﷺ : « أشيروا علي أيها الناس وإنما يريد الأنصار ؛ لأنهم لما بايعوا ليلة العقبة بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم مادام بين أظهرهم ، ولم تكن المبايعة على القتال خارج المدينة ، فقام سعد بن معاذ ﷺ فقال : لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئتَ به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودَنا

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/ ٢٥٣ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح ٧ / ٢٨٧ ، كتاب المغازي (٦٤) ، باب قوله إذ تستغيثون ربكم (٤) ، حديث رقم ٣٩٥٢ .

(٣) برك الغماد : اختلف في المراد منها . ويبدو أنها أمكنة متعددة وبرك الغماد الآن جنوب القنفذة بـ (١١١) كيلاً . وهي قرية من قراها . والقنفذة مدينة على ساحل البحر الأحمر جنوب جدة . محمد بحرق ، حدائق الأنوار هامش ص ٣٠٧ . ومحمد حسن شراب ، المعالم الأثيرة ص ٤٦ — ٤٧ .

(٤) صحيح مسلم ٣ /١٤٠٤ ، حديث رقم ١٧٧٩ .

ومواثيقَنا على السمع والطاعة لك ، فامض لما أردتَ فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا البحر فخضتَه لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن نلقى عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسِرْ بنا على بركة الله ، فسُرَّ الرسولُ ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ، ثم قال : « سيروا وأبشروا ، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم »(١) .

ولما نزل رسول الله ﷺ قريباً من بدر ركب هو وأبو بكر الصديق حتى وقفا على شيخ من العرب ، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إذا أخْبرتنا أخبرناك » قال : أذاك بذاك ؟ قال : « نعم » قال الشيخ : فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بكذا وكذا ، للمكان الذي فيه رسول الله ﷺ ، وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي فيه قريش ، فلما فرغ من خبره قال : ممن أنتما ؟ فقال رسول الله ﷺ : نحن من ماء ، ثم انصرفا عنه والشيخ يقول : ماء ، من ماء ، أمن ماء العراق ؟(٢) .

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/ ٢٥٤ .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/ ٢٥٤ – ٢٥٥ .

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه ، فلما أمسى بعث علياً بنَ أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء ببدر يستطلعون له الأخبار فأصابوا راوية [١] لقريش فيها غلامان لها ، غلام لبني الحجاج ، وغلام لبني العاص بن سعيد ، فأتوا بها ورسول الله ﷺ يصلي ، فقالا : نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء ، فكره القوم خبرهما ، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما ، فلما أوجعوهما ، قالا : نحن لأبي سفيان فتركوهما ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من صلاته قال : إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا ـ والله ـ إنها لقريش ، ثم قال لهما : « أخبراني عن قريش » فقالا : هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى ، فقال لهما : « كم القوم ؟ » قالا : كثير ، قال : « ماعدتهم ؟ » قالا : لا ندري ، قال رسول الله ﷺ : « كم ينحرون كل يوم ؟ » قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً ، فقال رسول الله ﷺ : « القوم ما بين التسعمائة والألف » ، فقال لهما : « فمن فيهم من أشراف قريش ؟ » ، فذكرا عتبة بن ربيعة وشيبة وأبا جهل ، وأمية بن خلف وسهيل بن عمرو في آخرين من صناديد قريش ، فأقبل رسول الله ﷺ إلى أصحابه قائلاً : « هذه مكة قد ألقيت إليكم أفلاذ كبدها !! » .

---

(١) الراوية : الإبل يستقى عليها الماء .

وكان أبو سفيان قد سبق العير يتسقط الأخبار حذراً أن يكون المسلمون قد سبقوه إلى الطريق ، فلما ورد ماء بدر وجد عليه مجدي بن عمرو فسأله هل رأى أحداً ؟ فأجابه بأنه لم ير إلا راكِبَيْنِ أناخا إلى هذا التل وأشار إلى حيث أناخا ، فأتى أبو سفيان مناخهما ، فوجد في روث بعيرهما نوى عرفه من علائف يثرب ، فأسرع إلى أصحابه وعدى بالسير عن الطريق المعهود متبعاً ساحل البحر مسرعاً في سيره حتى نجا بالعير(١) .

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش قيس بن امرئ القيس : إنكم إنما خرجتم ؛ لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم وقد نجاها الله ، فارجعوا ، فأتاهم الخبر وهم بالجحفة ، فقال أبو جهل بن هاشم : والله لا نرجع حتى نردَ بدراً ـ كان بدر موضعاً من مواسم العرب يتجمع لهم به سوق كل عام ـ فنقيمَ عليه ثلاثاً فننحرَ الجزرَ ، ونطعمَ الطعامَ ، ونَسْقِيَ الخمرَ ، وتعزفَ علينا القيانُ ،وتسمعَ بنا العربُ وبمسيرنا وجَمْعِنَا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها .

وكره أهلُ الرأي المسيرَ ، ومشى بعضهم إلى بعض ، وكان ممن أبطأ بهم عن ذلك الحارث بن عامر وأمية بن خلف ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وحكيم بن حزام وأبو البختري بن هشام ، وعلي بن أمية بن

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/ ٢٥٢- ٢٥٧ .

خلف ، والعاص بن أبي منبه حتى بكتهم أبو جهل بالجبن ، وأعانه عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث بن كلدة ، وأجمعوا المسير.

وقال الأخنس بن شريف : يا بني زهرة قد نجى الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل وإنما نفرتم ؛ لتمنعوه وماله فاجعلوا بي جبنها وارجعوا ، فرجعوا ، واغتبطت بنو زهرة بعد برأي الأخنس ، فلم يزل فيهم مطاعاً [(١)] وأرادت بنو هاشم الرجوع ، فاشتد عليهم أبو جهل وقال : لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع.

وكانت بنو عدي في النفير فلما بلغوا ثنية لِفت [(٢)] عدلوا في السحر إلى الساحل منصرفين إلى مكة ، فصادفهم أبو سفيان بن حرب فقال : يا بني عدي كيف رجعتم ؟ لا في العير ولا في النفير !! قالوا : أنت أرسلتَ إلى قريش أن ترجع.

ومضت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى من الوادي ونزل رسول الله ﷺ والمسلمون بينهم وبين الماء رِحْلة ، وغلب المشركون المسلمين في أول أمرهم على الماء ، فأنزل الله تلك الليلة مطراً كثيراً ، فكان على المشركين وابلاً شديداً منعهم من التقدم وكان على المسلمين طلاً طهَّرهم الله به وأذهب عنهم رجزَ الشيطان ووطأ به الأرضَ

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/ ٢٥٨ ، والشامي ، سبل الهدى ٤/ ٤٧.

(٢) لفت : بكسر اللام : ثنية تشرف على خليص من الشمال يطؤها الدرب ، بينه وبين قديد ، وتُسَمَّى اليوم الفيت ، وقد هجرت من زمن ولم تعد مطروقة . محمد شراب ، المعالم الأثيرة ص ٢٣٦ .

وصلب الرملَ وثبَّت الأقدامَ ومهد به المنزلَ وربط به على قلوبهم ولم يمنعهم من السير وسال الوادي فشرب المؤمنون ، وملأوا الأسقية وسقوا الركابَ واغتسلوا من الجنابة كما قال تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ (١) (٢) .

وسار جيش المسلمين حتى نزل أدنى ماء من بدر ، فنزل فقال الحباب بن المنذر لرسول الله ﷺ : أرأيتَ هذا المنزلَ أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدَّم أو نتأخَّر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال الرسول ﷺ : « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » ، فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فامضِ بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من الآبار ، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال الرسول ﷺ : « لقد أشرتَ بالرأي » ونفذ ما أشار به الحباب (٣) .

وقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، ألا نبني لك عريشاً ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت

---

(١) سورة الأنفال ، الآية رقم (١١) .

(٢) انظر : الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٤ / ٤٧ و ٤٨ .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢ / ٢٥٩ .

بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حباً لك منهم ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ويناصحونك و يجاهدون معك ، فأثنى عليه النبي ﷺ خيراً ودعا له بخير ، ثم بنى للرسول ﷺ عريشاً على تِلّ مشرف على ميدان القتال فكان فيه ومعه الصديق رضي الله عنه وليس معهما غيرهما [١] وقام سعد بن معاذ رضي الله عنه على باب العريش متوشحاً بالسيف [٢] ومشى رسول الله ﷺ في موضع المعركة ، وجعل يشير بيده « هذا مصرع فلان » ، قال : ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا ، قال : (فما ماط [٣] أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ) [٤] .

وفي ليلة المعركة ، وهي ليلة السابعة عشرة من رمضان ليلة الجمعة أصاب المسلمين نعاسٌ أُلْقِيَ عليهم فناموا ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : (ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة حتى أصبح [٥]) .

---

(١) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ١٧٩ .

(٢) انظر : الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٤ / ٤٩ .

(٣) ماط : أي تباعد (هامش صحيح مسلم ٣ / ١٤٠٤) .

(٤) صحيح مسلم ٣ / ١٤٠٤ ، رقم ١٧٧٩ .

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند ، انظر : البناء ، الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد ٢١ / ٣٩ .

وبعث إيماء بن رحضة الغفاري إلى قريش بجزائر أهداها لهم مع ابنه وقال : إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا ، فأرسلوا إليه مع ابنه أن وصلتك رحم ، وقد قضيت الذي عليك ، فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم ، ولئن كنا إنما نقاتل الله ـ كما يزعم محمد ـ فما لأحد بالله من طاقة [1] .

وبعث الكفار عمير بن وهب الجمحي ، فقالوا له : احزر لنا أصحاب محمد ، فجال بفرسه حول العسكر ، ثم رجع إليهم فقال : ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون ، ولكن أمهلوني حتى أنظر للقوم كمين أو مدد ؟ فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئاً ، فرجع إليهم ، فقال : ما رأيتُ شيئاً ، ولكن رأيتُ يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب محمل الموت النَّاقع ، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتلوا رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما في العيش خير بعد ذلك فروا رأيكم .

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس ، فأتى عتبة بن ربيعة فكلمه ؛ ليرجع بالناس ، وقال : يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها المطاع فيها ، هل لك إلى أمر لا تزال تُذْكَرُ فيه بخير إلى آخر

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/ ٢٦١ ، وابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٢٦٨ ، والشامي ، سبل الهدى ٤ / ٥١ .

الدهر ؟ قال : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس ، وتحتمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي ، قال : قد فعلت . أنت علي بذلك إنما هو حليفي ، فعلي عقله وما أصيب من ماله ، فأتِ ابنَ الحنظلية - يعني أبا جهل - فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره ، ثم قام عتبة خطيباً في الناس فقال : يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجهه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو قتل ابن خاله أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون ، إني أرى أقواماً مستميتة لا تصلون إليهم وفيكم خير ، يا قوم اعصبوها اليوم برأسي وقولوا : جبن عتبة ، وأنتم تعلمون أني لست بأجبنكم .

قال حكيم : فانطلقت فأتيت أبا جهل ، فقلت له : إن عتبة قد أرسلني إليك بكذا وكذا ، فقال : انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي ، فقال له : انشد خفرتك ومقتل أخيك فقام عامر فكشف عن أسته ، ثم صرخ واعمراه واعمراه ، فحميت الحرب وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة (١) .

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢ / ٢٦١-٢٦٤ ، والشامي ، سبل الهدى ٤ / ٥١-٥٣ .

وفي صبيحة الجمعة صف النبي ﷺ أصحابه صفوفاً متراصة ، ثم خرج من صفوف المشركين عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة ودعا إلى المبارزة فخرج فتية من الأنصار وهم عوف ومعاذ ابنا الحارث ـ وأمهما عفراء ـ وعبدالله بن رواحة ، فقالوا : من أنتم ؟ فقالوا : رهط من الأنصار ، فقالوا مالنا بكم من حاجة ، ثم نادى مناديهم يا محمد ، أخرج لنا أكفاءنا من قومنا ، فقال ﷺ : « قم يا عبيدة بن الحارث ، قم يا حمزة ، قم يا علي ، فلما قاموا ودنوا منهم قالوا : من أنتم ؟ ، فتسموا لهم ، فقالوا : نعم ، أكفاء كرام ، فبارز عبيدةُ ـ وكان أسن القوم ـ عتبةَ ، وبارز حمزةُ شيبةَ وقيل العكس ، وبارز عليٌّ الوليدَ ، فقتل كل من حمزة وعلي ـ رضي الله تعالى عنهما ـ صاحبَه واختلف عبيدة ﷺ ومن بارزه بضربتين ، فوقعت الضربة في ركبة عبيدة ومال علي وحمزة على الذي بارز عبيدة ، فأعانا على قتله [١] وفي شأن هذين الفريقين المتبارزين نزل [٢] قوله تعالى : ﴿ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ [٣] .

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/ ٢٦٥ .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧/ ٢٩٦ ، رقم ٣٩٦٩ عن قيس بن عبادة قال : سمعت أبا ذر يقسم إن هذه الآية (هذان خصمان اختصموا في ربهم) نزلت في الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلي وعبيدة وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة .

(٣) سورة الحج ، الآية رقم (١٩) .

وأثناء تسوية الرسول ﷺ لصفوف أصحابه مر بسواد بن غزيه وهو خارج عن الصف ، فطعنه في بطنه بالقضيب وقال : « استقم يا سواد » ، فقال : يا رسول الله ، أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأقدني ـ يعني مكّني من نفسك حتى أقتص ـ ، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال : « استقد » ، فاعتنقه سواد وقبَّل بطنه ، فقال النبي ﷺ : « وما حملك على هذا يا سواد ؟ » قال : يا رسول الله حضر ما ترى ـ يعني موطن الشهادة ـ فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك ، فدعا له الرسول ﷺ بخير وقال له خيراً [١] .

وتزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض ورسول الله ﷺ في العريش ومعه أبو بكر رضي الله عنه وهو ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول : « اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإيمان اليوم فلا تُعْبَد في الأرض أبداً » وأبو بكر رضي الله عنه يقول : يا رسول الله بعض مناشدتك لربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك وأخذتِ الرسولَ ﷺ سنةٌ من النوم ، ثم استيقظ مبتسماً ، فقال : « أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع » [٢] ، ثم خرج من باب العريش وهو يتلو : ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [٣] .

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/ ٢٦٦- ٢٦٧ ، وابن حجر ، الإصابة ٣ / ١٤٨ .

(٢) انظر : الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٤/ ٥٧ .

(٣) سورة القمر ، الآية رقم (٤٥) .

وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (١) .

وخرج رسول الله ﷺ إلى صفوف المسلمين يحرضهم على القتال ويعدهم بجنات النعيم على الموت في سبيل الله بمثل قوله ﷺ : « قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض » ، قال : يقول ابن عمير بن الحمام ﷺ : يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال : « نعم » قال : بخ بخ (٢) ، فقال رسول الله ﷺ : « ما يحملك على قول بخ بخ ؟ » قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها قال : « فإنك من أهلها » ، فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة قال : فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قُتِلَ شهيداً ﷺ وأرضاه) (٣) .

والتحم الجيشان واشتد القتال وحَمِيَ الوطيسُ ، وتوالت الإمدادات الإلهية بجند الله من الملائكة تثبِّت قلوبَ المؤمنين وتزف لهم البشرى وتُلقِي الرعبَ في قلوب المشركين وتشارك في القتال وصدق الله

(١) سورة الأنفال ، الآية رقم (٩) .

(٢) بخ بخ : كلمة تقال لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير ، هامش صحيح مسلم ٣ / ١٥١٠ .

(٣) الإمام مسلم ، صحيح مسلم ٣ / ١٥١٠ ، رقم ١٩٠١ .

: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [١] .

وتناول رسول الله ﷺ كفاً من حصباء فرمى بها في وجوه القوم ، وقال : « شَاهَتِ الوُجُوهُ » ، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه منها شيء [٢] .

ونهى رسول الله ﷺ عن قتل أناس خرجوا مُكْرَهِينَ إلى القتال ، وكانت لهم مواقف مشكورة في منع النبي ﷺ وحمايته ، فقال لأصحابه يومئذ : « إني قد عرفت رجالاً من بني هاشم قد أُخْرِجُوا مُكْرَهِينَ لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي أحداً من بني هاشم فلا يقتله ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ فلا يقتله ، فإنه إنما خرج مستكرها [٣] .

وقاتل رسول الله ﷺ يومئذ بنفسه قتالاً شديداً ، وكذلك أبو بكر الصديق ﷺ كما كانا في العريش يجاهدان بالدعاء والتضرع ، ثم نزلا فحرضا وحثا على القتال ، وقاتلا بأبدانهما جمعاً بين المقامين [٤] .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية رقم (١٢) .

(٢) انظر : الطبري ، تفسير الطبري ، تحقيق التركي ١١/٨٥ .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/ ٢٦٩ .

(٤) انظر : الشامي ، سبل الهدى ٤ / ٧١ ، وابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٢٧٨ .

وعن علي ﷺ قال : (لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً)[١] .

ودارت الدائرة على أعداء الله ورسوله ومضى المسلمون يقتلون ويأسرون ، وقُتِلَ من صناديد قريش وأشرافهم ما يربو على السبعين ، منهم عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد كما سبق في المبارزة وأبو جهل بن هشام قتله معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ ابن عفراء فتيان من الأنصار ، ثم أدركه عبد الله بن مسعود[٢] فقتله ، ثم إن الرسول ﷺ لما علم بمقتله ، قام مع ابن مسعود حتى وقف عليه فقال : « الحمد لله الذي أخزاك يا عدو الله ، هذا كان فرعون هذه الأمة »[٣] ورُوِيَ أن ابن مسعود ﷺ كان يقول : (قال لي : لقد ارتقيت مرقى صعباً يا رويعي الغنم قال : ثم احتززت رأسه ثم جئت به رسول الله ﷺ)[٤] .

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ، الفتح الرباني للبناء ٢١ / ٣٦ وقال البناء : (وسنده صحيح ورجاله ثقات).

(٢) انظر في مقتل أبي جهل : صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٢٩٣ ، رقم ٣٩٦٣ .

(٣) رواه الإمام أحمد ، مسند الإمام أحمد ، تحقيق وتخريج شعيب الأرناؤوط وزملائه ٧/ ٢٧٨- ٢٨٠ ، رقم ٤٢٤٦ و٤٢٤٧ ، وقال المحقق عن كل من الحديثين : (إسناده ضعيف لانقطاعه) وانظر : ابن كثير ، تفسير ابن كثير ٢/ ٣١٨.

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣/ ٢٨٨ .

وممن قُتِلَ أميةُ بنُ خلفٍ والعاصُ بنُ هشامٍ وعبدُ الله بنُ الجراح والد أبي عبيدة وحنظلةُ بنُ أبي سفيان ، ونوفل بن خويلد ، وأبو البختري بن هشام ، وكان رسول الله ﷺ قد أوصى به خيراً ، ولكنه أبى إلا أن يُتْرَكَ هو وزميل له ، فقالوا له : ما أمرنا الرسول ﷺ إلا بك وحدك ، قال : لا والله إذاً لأموتن أنا وهو جميعاً [(١)] وغير هؤلاء كثير .

ومع زوال الشمس ذاك اليوم رجعت قريش إلى مكة في فلول منهزمين ، ثم أمر رسول الله ﷺ بالقتلى فَنُقِلُوا من مصارعهم التي كانوا بها إلى قليب بدر ، فطرحوا فيها ، إلا ما كان من أمية بن خلف ، فإنه انتفخ في درعه ، فملأها فألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة [(٢)] .

ولما تم النصر أرسل رسول الله ﷺ مُبَشِّرَيْنِ قبل مقدمه المدينة : عبدَ الله بنَ رواحةَ لأهل العالية ، وزيدَ بنَ حارثةَ لأهل المدينة راكباً على ناقة رسول الله ﷺ ، فطافا بالمدينة يهلّلان ويكبّران ويبشّران أهلَ المدينة بالنصر العظيم .

ولما أراد المسلمون أن يقتسموا الغنائم التي غنموها في بدر اختلفوا ، فقال الشباب الذين خرجوا يتعقبون الكفار : نحن الذين نفينا عنها

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/ ٢٧٠ .

(٢) انظر: ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/ ٢٧٩ .

العدو ولولانا لما أصبتموها ، وقال الرجال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ ونافحوا عنه : نحن خفنا على رسول الله ﷺ أن يصيب منه العدو غرة ، فاشتغلنا به عن جمع الغنائم ، وقال الذين جمعوا الغنائم : نحن الذين استحوذنا عليها وليس لأحد فيها نصيب [١] فأمر رسول الله ﷺ أن تُجْمَعَ الغنائمُ حتى يحكم الله حكمه فيها ، فأنزل [٢] الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [٣] .

فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر رسول الله ﷺ براحلته ، فشد عليها رحلها ، ثم مشى وتبعه أصحابه حتى قام على شفا القليب وجعل ينادي بأسماء القتلى الذين ألقوا في القليب « يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ هل وجدتم ما وعد ربكم حقا » ، فقال عمر ﷺ : يا رسول الله كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها ؟ فقال : « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » [٤] .

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/ ٢٨٣-٢٨٤ .

(٢) انظر : ابن كثير ، تفسير ابن كثير ٢/ ٢٨٣ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية رقم (١) .

(٤) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧/ ٣٠٠-٣٠١ ، رقم ٣٩٧٦ .

ثم قفل الرسول ﷺ بالصحابة إلى المدينة شاكرين لله حامدين إياه ، وكان مع الرسول ﷺ الأسرى وكانوا نحو سبعين أسيراً فرقهم بين أصحابه وأوصاهم بهم خيراً ، وقد نفذ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وصية رسول الله ﷺ ، فهذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير يقول : (كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم خصوني بالخبز ، وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا ، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها ، فأستحيي فأردها ، فيردها علي لا يمسها)[١] واستشار الرسول ﷺ أصحابه في الأسرى ، فأشار أبو بكر باستبقائهم وأخذ الفداء ، وأشار عمر بن الخطاب ﷺ بقتلهم ، فمال الرسول ﷺ إلى الفداء ، وأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[٢] .

وبدأت قريش ببعث فداء الأسرى ومَنَّ الرسولُ ﷺ على بعض الأسرى بإطلاقهم دون فداء ؛ لكونهم فقراء لا يملكون شيئاً مثل أبو

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/ ٢٨٨ .

(٢) سورة الأنفال ، الآيتان رقم (٦٧ و ٦٨) ، وانظر : صحيح مسلم ١٣٨٥/٣ ، رقم ١٧٦٣ .

عزة الشاعر ومنهم من كان فداؤه تعليمَ عشرةٍ من غلمانِ المدينةِ القراءةَ والكتابةَ [١] .

وكان قد استُشْهِدَ يوم بدر من المسلمين أربعةَ عَشَرَ رجلاً ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار ستة من الخزرج واثنان من الأوس [٢] .

وهكذا انتهت غزوة بدر بنصر عظيم للمؤمنين وهزيمة شديدة قاسية على الكفار .

الفوائد الدعوية المستخرجة من غزوة بدر الكبرى :

الأولى : جزاء السيئة بمثلها ، فإن قريشاً اعتدت على المؤمنين وآذتهم في دينهم وأموالهم وأهلهم وديارهم حتى خرج الرسول ﷺ وأصحابه المهاجرون من أوطانهم وأهليهم ، فاعتراض العير حينئذ ومحاولة الاستيلاء على ما فيها من أموال إنما هو عمل سائغ مشروع ، عدل لا ظلم فيه ، بالإضافة إلى أن المسلمين كانوا في حالة حرب مع كفار قريش والحربي يجوز الاستيلاء على أمواله وبالتالي فهناك سبب خاص وآخر عام سَوَّغَ للمسلمين الخروجَ لملاقات العير ومحاولة الاستيلاء على ما فيها من أموال لكفار قريش .

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٣٢٨ ، والشامي ، سبل الهدى ٤ / ١٠٤-١٠٥ ، وأبو شهبة ، السيرة النبوية ٢ / ١٦٤-١٦٥ .

(٢) القسطلاني ، المواهب اللدنية ١ / ٣٧٣ .

الثانية : أن المسلمين خرجوا بقصد الاستيلاء على الأموال التي كانت مع العير، فكان خروجهم لهذه الغاية واستعدادهم على قدر تحقيق هذا الهدف وهو ملاقاة ما يقارب السبعين رجلاً في سلاح عادي وبقصد أخذ ما معهم من تجارة ، ولكن الله جل شأنه أراد لهم ما هو أسمى وأعلى من ذلك وأعظم تأثيراً في الإسلام وأوقع ألماً في الكفار وهو ملاقاة النفير ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (١) .

فإحقاق الحق وقطع دابر الكافرين غاية أعلى من مجرد ما يحقق من استيلاء على قافلة تجارية فيها أموال الكفار رغم ما في هذا من خير.

الثالثة : كان رسول الله ﷺ يعتقب على بعير هو وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي ولما جاءت نوبة الرسول ﷺ في المشي قالا له : يا رسول الله ، نحن نمشي عنك ، فقال : « ما أنتما بأقوى مني ولا أنا أغنى عن الأجر منكما » ، وبهذا نرى كيف يضرب الرسول ﷺ مع صاحبيه غاية العدل والرحمة ، فمع مكانته عليه الصلاة والسلام لا يرضى بأن يُفَضَّلَ على صاحبَيْهِ ويركب ويدعهما يمشيان ، بل يشاركهما في التعب والنصب والأجر .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية رقم (٧) .

الرابعة : خرج المسلمون مع الرسول ﷺ يريدون العير وينزل قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨ ﴾[١] .

أي أن المؤمنين يحبون الطائفة التي لا منعة لها ولا قتال وهي العير ، ولكن الله يريد أن يجمع بين المسلمين والطائفة التي لها الشوكة والقتال وهو جل شأنه العليم بعواقب الأمور ، فينبغي للمؤمن أن يسلم ويرضى لمراد الله جل شأنه ، فإن الله يريد - هنا - أن يظفر المسلمون بالكفار وينتصروا عليهم ويظهر دينه ويعلي كلمته وهو الذي يدبر أحسن التدبير وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك ؛ لأنهم لا يعلمون ماذا ستنتهي إليه العواقب[٢] ، ولو علموا بحسن العاقبة ما اختاروا غير النفير .

---

(١) سورة الأنفال ، الآيات من (٥ - ٨) .

(٢) انظر: الرفاعي ، مختصر تفسير ابن كثير ٢ / ٢٧٣ .

الخامسة : في قصة حذيفة ووالده اللّذَيْنِ قبض عليهما المشركون ولم يطلقوهما إلا بعد أن أخذوا عليهما عهداً ألا ينصرا المسلمين عليهم ، وقول الرسول ﷺ : « نفي لهم ونستعين بالله عليهم » نأخذ منها فائدتين :

أ. مكانة الوفاء بالعهد .

ب. التربية النبوية للصحابة ، فإن الوفاء بالعهد هنا غير لازم ولكن الرسول ﷺ أراد أن يعلم أصحابه ترك المصلحة إذا كان فيها دفع لمفسدة أكبر ، يقول النووي ـ رحمه الله تعالى ـ : (أمرهما النبي ﷺ بالوفاء ، وهذا ليس للإيجاب ، فإنه لا يجب الوفاء بترك الجهاد مع الإمام ونائبه ، ولكن أراد النبي ﷺ أن لا يشيع عن أصحابه نقض العهد ، وإن كان لا يلزمهم ذلك ؛ لأن المشيع عليهم لا يذكر تأويلاً)[١] .

السادسة : لما علم الرسول ﷺ بخبر النفير وبنجاة العير استشار أصحابه في ملاقاة العدو وفي هذه المشورة نستفيد ما يلي :-

١) مشروعية الشورى في الأمور التي لا نص فيها من قبل الشارع ، فالأمور الطارئة التي لم يرد فيها نص من الكتاب أو السنة يشرع التشاور فيها للوصول إلى رأي يختاره الإمام ، يراه هو الأصح

---

(١) النووي ، شرح صحيح مسلم ١٢ / ٤٧٨ ، تحقيق علي أبو الخير وزملائه ، الطبعة الخامسة (بيروت : دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٢٠هـ) .

بعد إجراء المشورة والتعرف على وجوه الرأي والبحث عن أصوبها وأرشدها .

٢) كانت مشورة الرسول ﷺ لأصحابه بمثابة اختبار لمعرفة مدى استعدادهم للقاء العدو رغم قلة العدد والعُدَّة في مقابل عدو مجهَّز بعدد كبير من الرجال وعدة كاملة من السلاح .

٣) في طريقة طرح الشورى كان للرسول ﷺ أسلوب فريد عندما كان يكرر كلمة : « أشيروا علي أيها الناس » حيث تكلم أبو بكر ؓ ، ثم تكلم عمر ؓ ، ثم تكلم المقداد ؓ ومع ذلك لا يزال الرسول ﷺ يكرر كلمة : « أشيروا علي أيها الناس » ؛ لأنه كان يريد الأنصار ، ويود معرفة رأيهم ، فهم الذين بايعوه بيعة العقبة الثانية على أن يدافعوا ويقاتلوا معه ما داموا في المدينة ، والقتال الآن خارجها ، ومع ذلك لم يكن يسمي الأنصار ، بل يقول : « أشيروا علي أيها الناس » حتى تحدث سعد بن معاذ ؓ وقال ، فسُرّ الرسول ﷺ وانشرح صدره .

السابعة : في استشارة الرسول ﷺ للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ مع أنه أكمل منهم يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن الحسن قال : قد علم أنه ما به إليهم حاجة ولكن أراد أن يستن به من بعده)[1] .

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ١٣ / ٣٤٠ .

الثامنة : خرج رسول الله ﷺ مع أبي بكر الصديق ؓ وهو في مقربة من بدر حتى وقفا على شيخ من العرب ، فسألاه ، فأبى أن يجيبهما إلا أن يعرف من هما ، فوعده الرسول ﷺ أن يخبره ، فأخبرهم الشيخ عما يعرفه من أخبار النفير وأخبار جيش الرسول ﷺ ، فلما سألهما ممن أنتما ؟ قال الرسول ﷺ : « نحن من ماء » ، ولم يعطه إجابة محددة تنفعه وهذه من التوريات البديعة التي يلجأ إليها الفرد حينما يحتاج إلى إخفاء الحقيقة دون أن يدرك السائل ذلك ، فمراد النبي ﷺ بكلمة : « نحن من ماء » أي الماء الذي خُلِقَ منه كُلُّ كائنٍ حيٍّ ، فهو أجاب الشيخ الأعرابي لكن بجواب صادق لا فائدة فيه للشيخ وهو مخرج للمسلم يستطيع أن يستفيد منه كي يتجنب الكذب في المواقف المحرجة .

التاسعة : في موقف الحباب بن المنذر ؓ حينما قال للرسول ﷺ : (أرأيتَ هذا المنزلَ أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم أو نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟) ، فلما عرف أنه رأي وليس وحياً ، اجتهد وأبدى رأيه . وهذا هو الطريق السليم الذي ينبغي أن يتبعه كل مسلم ، فالنصوص الشرعية لا مجال للاجتهاد في مخالفتها ، بل واجب المسلم حينئذ الاتباع والتنفيذ وما ليس فيه نص فللمسلم حينئذ أن يبدي رأيه ويجتهد إذا كان مُؤَهَّلاً لذلك ، المهم ابتداءً هو التفريق بين

المجالات التي يسوغ فيها إبداء الرأي والمجالات التي لا يسوغ فيها إبداء الرأي .

العاشرة : رجوع الرسول ﷺ إلى رأي الحباب الذي أشار به وقوله ﷺ : « لقد أشرتَ بالرأي » ونفذ ما أشار به يفيدنا مشروعية الرجوع إلى الحق ، وأنه لا ضير على المسلم عندما يدع رأيه إلى رأي آخر تبين أنه أصوب ، وليس من شأن المسلم التمسك برأيه والدفاع عنه كما يدافع عن عرضه ، خاصة إذا تبين له رأي آخر أصوب وأرشد منه ، وله في ذلك أسوة وقدوة حسنة من الرسول ﷺ وقد قال تعالى في قصة نوح عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [(١)] ، ففي هذه الآية (إنابة نوح عليه السلام وتسليمه لأمر الله تعالى واستغفاره) [(٢)] ويقول الإمام العيني ـ رحمه الله تعالى ـ : (الرجوع إلى الحق من جملة الدين) [(٣)] .

الحادية عشرة : لما بُنِيَ للرسول ﷺ عريشٌ ؛ ليكون فيه يشرف منه على الواقعة كان معه في العريش أبو بكر الصديق ﷺ وفي هذا خصيصة لأبي بكر الصديق ، فهو الذي معه في الغار وهو الذي معه

(١) سورة هود ، الآية رقم (٤٧) .
(٢) ابن عطية ، المحرر ٧ / ٣١٦ .
(٣) العيني ، عمدة القارئ ١ / ٦٦ .

في العريش يقول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ : (فهذه خصوصية للصديق حيث هو مع الرسول ﷺ في العريش كما كان معه في الغار ﷺ وأرضاه)[(١)].

الثانية عشرة : يقول علي بن أبي طالب ﷺ : (لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة حتى أصبح) نستفيد من هذا مشروعية اللجوء إلى الله والفزع إليه وبخاصة في الشدائد ، ففي اليوم التالي لتلك الليلة المعركة فاصلة ، والرسول ﷺ يقضي ليلته في الدعاء والاستغاثة بالله واللجوء إليه رجاء نصره لعباده المؤمنين . وطلب النصر لا يكون من قاعد أو نائم وإنما من ملتجئ إليه خاشع بين يديه يلح في الدعاء ؛ لتنم له الإجابة ويتحقق له المطلوب[(٢)] ، وفي سائر قضاء الحوائج يُشْرَعُ الفزعُ إلى الله جل شأنه ، وإكثار الدعاء والتضرع بين يديه تأسياً برسول الله ﷺ الذي قضى ليلة بدر يصلي حتى أصبح .

الثالثة عشرة : بعث إيماءة الغفاري إلى قريش بمدد وعرض عليهم المزيد من الرجال والسلاح ولكنهم قالوا له : إن كنا نقاتل محمداً ، فمعنا من الرجال ما يكفي لقتال محمد ، وإن كنا نقاتل رب محمد ، فلا طاقة لأحد برب محمد ، هذه العبارة قالها قوم وثنيون ،

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٢٧٢ .

(٢) انظر : البناء ، بلوغ الأماني ٢١ / ٣٩ .

وغفل عنها عملياً في عصرنا قوم مسلمون ، ألسنا بحاجة إلى التذكير بالثقة بنصر الله ؟ وأن المؤمن يتميز بأنه لا يقاتل ولا يواجه العدو بنفسه وإنما بتوفيق الله وتسديده وتأييده ومعونته ونصره ، وهذا هو الفارق بين الجهاد والقتال الذي يقدم عليه الكفار ، شَتَّانَ ـ حقاً ـ بين من يجاهد في سبيل الله والله معه بالنصر والتأييد و بين من يحارب ربه ويقاتل أولياءه .

الرابعة عشرة : في قصة سواد بن غزية ﷺ الذي طلب القصاص من الرسول ﷺ حينما طعنه في بطنه بقضيب وقال له : « استقم يا سواد » ، ثم كشف عن بطنه للاقتصاص ، فقبَّل بطن الرسول ﷺ ، في هذه القصة أمران :-

١) شدة محبة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لرسول الله ﷺ .

٢) عظمة الرسول ﷺ وطيب خلقه حينما كشف عن بطنه ومكن سواداً من القصاص عن طيب خاطر [1] وهو غاية العدل الذي يمكن أن يتصوره الشخص .

الخامسة عشرة : في دعاء الرسول ﷺ وهو في العريش حتى سقط الرداء وقول الله جل شأنه : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [2] مشروعية الدعاء والإكثار

---

(١) انظر : أبو شهبة ، السيرة النبوية ٢ / ١٤٠ .
(٢) سورة الأنفال ، الآية رقم (٩) .

منه وبخاصة في الشدائد ، وكثيراً ما يغفل الشخص عن الدعاء في غمرة انشغاله بالأسباب المادية ، والدعاء سلاح المؤمن وهو مطلوب منه حتى في دقائق الأمور وصغارها فضلاً عن كبارها وشدائدها .

السادسة عشرة : فضيلة الجهاد في سبيل الله والقتال في سبيله والرسول ﷺ يقول : « قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض »(١) وأثر ذلك على عمير بن الحمام ﷺ الذي سمع هذا القول ، فألقى التمرات التي معه وقام طلباً لهذه المنزلة العظيمة في الجنة حتى قُتِلَ في سبيل الله .

السابعة عشرة : نهى الرسول ﷺ أن يُقْتَلَ أحدٌ من بني هاشم كما نهى عن قتل أبي البختري بن هشام وذلك لكون بني هاشم منهم من خرج مستكرها مع إيمانه وكتمانه الإيمان ولهم مواقف في حماية الرسول ﷺ ونصرته عندما كان في مكة ، ودخلوا معه الشِّعْبَ في المقاطعة كما كان لأبي البختري مواقف جيدة منها موقفه في نقض الصحيفة حيث كان ممن سعى في نقضها وإخراج بني هاشم من الشعب .

ولذلك نرى هذا الموقف العظيم من الرسول ﷺ صلةً للرحم ووفاء لأصحاب الفضل(٢) وتذكراً للجميل واعترافاً به ، وهو ما ينبغي أن يتحلى به المؤمن في تعامله .

---

(١) سبق تخرجه .
(٢) انظر : أبو زهرة ، خاتم النبيين ٢ / ٧٦٢ ، وأبو شهبة ، السيرة النبوية ٢ / ١٤٧ .

الثامنة عشرة : في كيفية مقتل أبي جهل الذي قتله فَتَيَانِ من الأنصار ورقى ابن مسعود ﷺ حتى احتز رأسه ، وجاء به إلى الرسول ﷺ ، في هذه الكيفية يقول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ : (وقال تعالى : ﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ ﴾ [١] ، فكان قتل أبي جهل على يد شاب من الأنصار ، ثم بعد ذلك وقف عليه عبد الله بن مسعود ومسك لحيته وصعد على صدره حتى قال : لقد رقيتَ مرتقى صعباً يا رويعي الغنم ، ثم بعد ذلك حز رأسه واحتمله حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ، فشفى الله به قلوب المؤمنين ، كان هذا أبلغ من أن تأتيه صاعقة أو أن يسقط عليه سقف منزله أو يموت حَتْفَ أَنْفِهِ والله أعلم) [٢] .

التاسعة عشرة : في إلقاء قتلى كفار قريش في القليب ومواراة أمية بن خلف ندرك أن الحرب الإسلامية حرب فضيلة [٣] فهؤلاء القتلى طالما آذوا الرسول ﷺ وأهانوه وسبوه وأذاقوه وأصحابه ألواناً من العذاب وهم الذين أخرجوه وأصحابه من ديارهم وأهليهم وأموالهم

---

(١) سورة التوبة ، الآيتان رقم (١٤ - ١٥) .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٢٩٦ .

(٣) انظر : محمد أبو زهرة ، خاتم النبيين ٢ / ٧٦٧ .

، ومع ذلك كله فالإسلام فوق الأحقاد والانتقام والمثلة [١] أو ترك جيف هؤلاء في العراء ، انتقاماً منهم ومن أفعالهم ، فقد واراهم الرسول ﷺ في القليب أو ألقى عليهم التراب والحجارة ؛ ليدلنا هذا الموقف على نُبْل الإسلام وتكريمه للإنسان وحرصه على الرفع من شأنه والله جل شأنه يقول : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [٢] .

وفي سنن الدارقطني عن يعلى بن مرة قال : (سافرتُ مع رسول الله ﷺ غير مرة ، فما رأيته يمر بجيفة إنسان فيجاوزها حتى يأمر بدفنها لا يسأل أمسلم هو أو كافر ؟) [٣] .

العشرون : قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (قال الشيخ تقي الدين السبكي : سُئِلْتُ عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺ مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه ،

---

(١) انظر : أبو شهبة ، السيرة النبوية ٢ / ١٥٠ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية رقم (٧٠) .

(٣) الدارقطني ، سنن الدارقطني المطبوع مع التعليق المغني على سنن الدارقطني ٤/ ١١٦ ، كتاب السير ، حديث ٤١ ، وانظر : التعليق المغني على سنن الدارقطني ٤/ ١١٦ ، والسهيلي ، الروض الأنف ٣/ ٦٣ ، والشامي ، سبل الهدى والرشاد ٤/ ١٢٩ .

فقلت : وقع ذلك لإرادة الله أن يكون الفعل من النبي ﷺ وأصحابه ، وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش ، رعاية لصورة الأسباب وسننها التي أجراها الله تعالى في عباده والله تعالى هو مالك الجميع والله أعلم)[١] .

الحادية والعشرون : في إرسال الرسول ﷺ مُبَشِّرَيْنِ إلى المدينة بالنصر نأخذ منه مشروعية البشرى للمؤمن فيما يجد له من خير ، ذلك أن إدخال السرور على المسلم أمر مطلوب ، وتبشيره بالخير إدخال للسرور عليه وفرح له بالخير ، والمؤمن يحب لأخيه الخير ، ولأجل هذا يُشْرَعُ للمسلم أن يبشِّر أخاه بما يجد له من الخير تحقيقاً لتلك الأهداف العظيمة .

الثانية والعشرون : في اختلاف المسلمين على الغنائم وانقسامهم في الرأي ، نأخذ الحذر من الدنيا ، فإننا كلما اقتربنا منها فرقتنا وأن التمسك بها وإعلاء شأنها سبب للنزاع ، وأن القناعة والأخذ منها بقدر ، والرجوع إلى الله وإصلاح ذات البين هو سبب ألفة القلوب ، ولذلك لما اختلف الناس في الغنائم نزل قول الله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٢] ، فبين أنها لله ولرسوله وأن

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٣١٣ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية رقم (١) .

واجب المسلم هو تقوى الله وإصلاح ذاتِ البَيْنِ والالتزام بطاعة الله ورسوله .

الثالثة والعشرون : رجع رسول الله ﷺ بالأسرى وقد أوصى بهم خيراً ، فكان الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ يكرمون هؤلاء الأسرى ، هؤلاء الأسرى كانوا قبل قليل يقاتلون الرسول ﷺ وأصحابه ، ومنهم من آذى الرسولَ ﷺ أشَدَّ الأذى في مكة ومع ذلك هم اليوم أسرى يوصي بهم الرسول ﷺ خيراً وهذا يؤكّد فائدة سبق أن سقناها وهي أن الحرب في الإسلام حرب فضيلة ، الحرب في الإسلام حرب شريفة ، الأسرى يُكْرَمُوْنَ ولا يهانون ولا يُؤْذَوْنَ ، ثم الفائدة الأخرى التفريق بين حسن المعاملة والمودة ، فالله جل شأنه يقول في كتابه : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) والمودة ممنوعة لكن حسن التعامل مطلوب ؛ لأن فيه تأليفاً للقلوب ودعوة إلى الله جل شأنه لعل هؤلاء إذا رأوا حسن التعامل أن يسلموا ويعودوا إلى ربهم جل شأنه

---

(١) سورة المجادلة ، الآية الأخيرة .

وهو سبحانه وتعالى القائل : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [1] قال الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير هذه الآية : (وقال الحسن أيضاً : لين القول من الأدب الحسن الجميل ، والخلق الكريم ، وهو مما ارتضاه الله وأحبه) [2] .

وكذلك ينبغي علينا أن نفرق في علاقتنا مع غير المسلم بين المودة وحسن التعامل ، فالمودة ممنوعة وحسن التعامل مطلوب ، والله أعلم .

الرابعة والعشرون : أخذ الرسول ﷺ من الأسرى الفداء ، ومنهم من كان فداؤه تعليم عشرة من غلمان المدينة القراءة والكتابة (وقبول النبي ﷺ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في هذا الوقت الذي كانوا فيه بأشد الحاجة إلى المال ، يرينا سمو الإسلام في نظرته إلى العلم والمعرفة وإزالة الأمية ، وليس هذا بعجيب من دين كان أول ما نزل من كتابه الكريم : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [3] ، واستفاضت فيه نصوص القرآن والسنة في الترغيب في العلم وبيان منزلة العلماء وبهذا العمل الجليل يُعْتَبَرُ النبيُّ ﷺ أوَّلَ من وضع حجر الأساس في إزالة الأميَّة وإشاعة القراءة والكتابة [4] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية رقم (٨٣) .
(٢) الطبري ، جامع البيان ١ / ٣٩٢ ، وانظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ / ١٦ .
(٣) سورة العلق ، الآيات من (١ - ٥) .
(٤) انظر : أبو شهبة ، السيرة النبوية ٢ / ١٦٤ - ١٦٥ .

الخامسة والعشرون : نأخذ من تعليم الأسرى أبناءَ المسلمين القراءةَ والكتابةَ جوازَ طلبِ العلمِ الدنيوي من الكافر ، مثل القراءة والكتابة ونحوها مما لا خطر فيه على المسلم ودينه ؛ لأن أسرى بدر يومئذ من المشركين [١] وينبغي أن يكون هذا عند عدم وجود مسلم يعلّم أولاد المسلمين ؛ لأنه وإن جاز في مثل موقف الأسرى ، فإن الأسير أجير ضعيف ، بخلاف من كان معلّماً ، فإنه سيكون أسوة وقدوة لطلابه شاؤوا أم أَبَوْا ، وسيتلقون منه الأخلاق والسلوك ولو بطريق غير مباشر .

السادسة والعشرون : في قول الرسول ﷺ عن الأسرى : « لو كان المطعم بن عدي حيّاً ، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له » [٢] أي تركتهم أحياء ولما قتلتهم من غير فداء إكراماً له وقبولاً لشفاعته ، فإنه كان ممن قام بنقض الصحيفة ، و له موقف مذكور عندما عاد الرسول ﷺ من الطائف لم يدخل مكة إلا في جوار المطعم بن عدي [٣] فحفظ له الرسول ﷺ هذا الصنيع واعترف له بهذا الجميل ، وهو

---

(١) انظر : عثمان دوكلي ، التدابير الواقية من التشبه بالكفار ، رسالة دكتوراة غير منشورة ص ٤٤١ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح ٦ / ٢٤٣ ، حديث رقم ٣١٣٩ .

(٣) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٣٢٤ .

يذكّرنا بأهمية الوفاء لمن أَسْدَى إلينا خيراً ، أو صنع لنا معروفاً ، أن نحفظ له هذا الجميل ولو كان من غير المسلمين .

السابعة والعشرون : في فضيلة الذين شاركوا في غزوة بدر من المسلمين :-

١) عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه ـ وكان أبوه من أهل بدر ـ قال : (جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : « من أفضل المسلمين ـ أو كلمة نحوها ـ » قال : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة)[١] .

٢) عن أنس بن مالك ﷺ يقول : (أصيب حارثة وهو غلام ، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة مني ، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب ، وإن تكن الأخرى تر ما أصنع ، فقال : « ويحك ـ أو هبلت ـ أو جنة واحدة هي ؟ إنها جنان كثيرة وإنه في جنة الفردوس »[٢] يقول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ : (وفي هذا تنبيه عظيم على فضل أهل بدر ، فإن هذا الذي لم يكن في بحيحة القتال ولا في حومة الوغى ، بل كان من النظارة من بعيد ، وإنما أصابه سهم غرب وهو يشرب من الحوض ومع هذا أصاب بهذا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح ٧ / ٣١١ ، رقم ٣٩٩٢ .
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح ٧ / ٤٠٣ ، رقم ٣٩٨٢ .

الموقف الفردوس التي هي أعلى الجنان وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة التي أمر الشارع أمته إذا سألوا اللهَ الجنةَ أن يسألوه إياها ، فإذا كان هذا حال هذا فما ظنك بمن كان واقفاً في نحر العدو وعدوهم على ثلاثة أضعافهم عدداً وعدة ؟!!!)[١] .

٣) عن علي بن أبي طالب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال في شأن حاطب بن أبي بلتعة ﷺ : « أليس من أهل بدر ؟ فقال : لعل الله اطّلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد وجبتْ لكم الجنةُ ـ أو فقد غفرتُ لكم »[٢] قال ابن حجر ــ رحمه الله تعالى ــ : (والراجح أن المراد بذلك أن الذنوب تقع منهم لكنها مقرونة بالمغفرة تفضيلاً لهم على غيرهم بسبب ذلك المشهد العظيم)[٣] وقال أبو شهبة : (والمراد عدم مؤاخذتهم عما عسى أن يبدر منهم ، بعد ذلك من الزلات والتجاوز عن سيئاتهم كفاء ما قدَّموا للإسلام من مخاطرة بالنفس في هذه الغزوة وما أظهروه من إيمان وبطولة ، وليس المراد أن الله سبحانه وتعالى أتاح لهم أن يفعلوا أي شيء أرادوه من المعاصي

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٣٢٩ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح ٧ / ٣٠٥ ، رقم ٣٩٨٣ .

(٣) ابن حجر ، فتح الباري ٨/ ٤٨٠ ، وانظر : الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٤/ ١٣٤ - ١٣٥ ، فقد أورد أقوالاً أخرى في المسألة ، وانظر رأي ابن الجوزي في : صيد الخاطر ص ٥٠٣ .

والآثام كما يتوهم ذلك وقد كان صحابة رسول الله ﷺ ولا سيما أهل بدر أشد الناس تقوى لله وخوفاً من الله على كثرة ما وعدهم من المغفرة والرضوان والنعيم المقيم في الآخرة)[١] ويقول الشيخ محمد العثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ : (اطّلع الله على أهل بدر وقال لهم : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرتُ لكم ، كل معصية تقع منهم ، فإنها مغفورة ؛ لأن الثمن مقدم)[٢] .

۞۞۞

---

(١) أبو شهبة ، السيرة النبوية ٢ / ١٦٩ .
(٢) شرح رياض الصالحين ١ / ٢٣٥ .

المبحث الرابع

فقه السيرة في غزوة أحد

كانت غزوة أحد يوم السبت في شهر شوال من السنة الثالثة من الهجرة [١] وسببها إرادة المشركين أخذ الثأر لقتلاهم يوم بدر [٢].

ذلك أن أبا سفيان لما رجع بالعير قال جَمْعٌ من كِبار قريش يا معشر قريش : « إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ، فأجابوا لذلك وكانت ألف بعير والمال خمسين ألف دينار » [٣].

فصاروا يجمعون الجموع لقتال النبي ﷺ واستنفروا حلفاءهم من الأحابيش والقبائل المنتشرة حول مكة ، وخرجوا من مكة الخميس من شوال ، وخرجوا معهم بالظعن التماس إلى الحفيظة حتى لا يفروا ، خرجوا بثلاثة آلاف مقاتل ، وكان العباس بن عبد المطلب قد كتب للنبي ﷺ يخبره بما يجري ، وأعطاه لرجل من بني غفار ، فأوصله الرجل إلى النبي ﷺ ، فقرأه عليه أبي بن كعب ﷺ ، فاستكتمه الرسول ﷺ ما فيه [٤].

---

(١) انظر : القسطلاني ، المواهب اللدنية ١ / ٣٩١ ، وقال الهيثمي في المجمع ٦/ ١٢٤ : (رواه الطبراني ورجاله ثقات) .

(٢) انظر : الرفاعي ، مختصر تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٧ .

(٣) انظر : القسطلاني ، المواهب اللدنية ١ / ٣٩٢ .

(٤) انظر : الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٤/ ٢٧٢ .

وشاع خبر قريش ومسيرهم في الناس وأرجفت اليهود والمنافقون ، ووصل المشركون ظاهر المدينة بعينين جبل ببطن السبخة من قناة على شفيرة الوادي مقابل المدينة ، وباتت وجوه الأوس والخزرج ليلة الجمعة عليها السلاح في المسجد بباب الرسول ﷺ خوفاً من بيات المشركين وحرست المدينة حتى أصبحوا [١] .

ورأى ﷺ ليلة الجمعة رؤيا ، فلما أصبح قال : « إني والله قد رأيتُ خيراً ، رأيتُ بقراً تُذْبَحُ ، ورأيتُ في ذباب سيفي ثلماً ، ورأيتُ أني أدخلت يدي في درع حصينة ، فأما البقر فناس من أصحابي يُقْتَلُوْنَ ، وأما الثلم الذي أريت في سيفي فهو رجل من أهل بيتي يُقْتَلُ » [٢] .

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال : « رأيتُ في رؤيايَ أني هَزَزْتُ سيفاً فانقطع صدره ، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أُحُد ، ثم هَزَزْتُه أخرى فعاد أحسن ما كان ، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين ، ورأيتُ فيها بقراً والله خير ، فإذا هم المؤمنون يوم أُحُد » [٣] .

---

(١) انظر : الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٤ / ٢٧٣- ٢٧٤ .

(٢) انظر : القسطلاني ، المواهب اللدنية ١ / ٣٩٢ - ٣٩٣ ، وعلق بعضه البخاري ، انظر : صحيح البخاري ، تحقيق مصطفى أديب البغا ٦/ ٢٦٨٢ .

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧/ ٣٧٤-٣٧٥ ، رقم ٤٠٨١ ، ومسلم ، صحيح مسلم ٤/ ١٧٧٩ ، رقم ٢٢٧٢ .

ثـم استشـار أصـحابه وقـال : « إن رأيتم أن تقـيموا بالمدينة ونجعل النسـاء والذرية في الآطـام فـإن أقـاموا ، أقـاموا بشر مقام ، وإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأزقـة فـنحن أعـلم بهـا منهم ، ورمـوا مـن فـوق الصياصي والآطـام ، وكـان هـذا الرأي هو رأي الأكابر من المهاجرين والأنصـار ، وكـان عـبد الله بـن أبـي يـرى رأي رسـول الله ﷺ ، فقـال جماعـة مـن المسـلمين غالـبهـم مـن الأحـداث لم يشـهدوا بـدراً وطلـبوا الشـهادة وأحبوا لقاء العدو : يا رسول الله ﷺ اخرج بناء إلى أعدائنا لا يـرون أنـا جبـنا عنهـم ، ورسول الله ﷺ لِمَا يرى من إلحاحهم كَارِهٌ ، فـلما أَبَـوْا ذلـك صـلّى ﷺ الجمعـة بالـناس ، فوعظهـم وأمـرهم بـالجِدِّ والاجـتهاد ، ففـرحوا بالشـخوص إلى عدوهـم وكـره ذلـك المخـرج آخـرون ، ثـم صـلَّى بالـناس العصـر وقـد حشـدوا وحضر أهل العوالي ورفعـوا النسـاء في الآطـام ودخـل رسـول الله ﷺ بيته ، فجاء سعد بن معـاذ وأسيد بـن حضير ـ رضـي الله تعالى عنهما ـ وقالا : استكرهتم رسـول الله ﷺ ، فـردوا الأمـر إلـيه ، فخـرج رسـول الله ﷺ وقـد لـبس لأمـته ـ أي الدرع ـ وتقلد سيفه ، فندموا على ما صنعوا ، فقالوا : ما كـان لـنا أن نخـالفك ، فاصنعْ ما شئتَ ، : فقال : « ما ينبغي لنبي إذا لـبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » (١) وسار رسول

---

(١) انظـر : الشـامي ، سبل الهـدى ٤ / ٢٧٦ ، والقسـطلاني ، المواهـب ١ / ٣٩٣- ٣٩٤ .

الله ﷺ ومعه قرابة ألف رجل ، فلما وصلوا إلى الشوط [١] انخزل عبد الله بن أبي بثلاثمائة من أصحابه وقال : أطاعهم وعصاني ، علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس ؟ فرجع من اتبعه من قومه من أهل النفاق والشك [٢].

وفي الطريق استعرض رسول الله ﷺ الجيش وكان قد خرج مع الرجال ببعض الغلمان الذين لا طاقة لهم بالجهاد وإنما رغبة في الجهاد وحباً في الشهادة في سبيل الله ، فردهم النبي ﷺ لصغرهم ، وكان ممن رد سَمُرَة بن جنوب ورافع بن خديج ـ رضي الله عنهما ـ وهم أبناء خمس عشرة سنة ، فقيل له : يا رسول الله ، إن رافعاً رجلٌ رامٍ ، فأجازه فقيل له : إن سَمُرَةَ يَصْرَعُ رافعاً فأجازه [٣].

ثم مضى رسول الله ﷺ وقال : « مَنْ رجل يخرج بنا على القوم من كثب ؟ » ، فقال أبو خيثمة : أنا يا رسول الله ، فسلك به حرة بني حارثة وبين أموالهم حتى سلك في حائط لمربع بن قيظي وكان منافقاً ضرير البصر ، فلما سمع حسَّ رسولِ اللهِ ﷺ ومن معه من المسلمين قام يحثو الترابَ في وجوههم ويقول : إن كنتَ رسولَ اللهِ فإني لا أُحِلُّ لك أن تدخل حائطي ، فابتدره القوم ؛ ليقتلوه ، فقال ﷺ : « لا تقتلوه فهذا أعمى القلبِ ، أعمى البصرِ » [٤].

---

(١) مكان بين المدينة وأحد .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ / ٨ .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ / ١٠-١١ .

(٤) انظر : ابن هشام، السيرة النبوية ٣ /٩ ، والشامي ، سبل الهدى ٤ / ٢٧٩ .

ونفذ رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من أحد في جانب الوادي وجعل ظهره إلى أحد ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم ، فلما أصبح يوم السبت تعبأ للقتال وهو في سبعمائة ، واستعمل على الرُّماة ـ وكانوا خمسين ـ عبدَ اللهِ بنَ جُبَيْرٍ ﷺ وأمره وأصحابه أن يلزموا مركزهم وألا يفارقوه ولو رأى الطيرَ تتخطّف العسكر وكانوا خلف الجيش وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل ؛ لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم [١].

وظاهر رسول الله ﷺ يومئذ بين درعين وعبأت قريش جيشها وتصافوا وكان معهم مائتا فرس فجعلوا على الميمنة خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل وعلى المشاة صفوان بن أمية .

وابتدأ القتال بالمبارزة حيث دعا طلحة بن أبي طلحة أحد حملة لواء الكفار إلى المبارزة ، فخرج إليه الزبير ﷺ فوثب حتى صار معه على جمله ثم ألقاه على الأرض وذبحه بسيفه ، فقال الرسول ﷺ : « إن لكل نبي حواريا ، وإن حواري الزبير بن العوام » [٢] ثم التحم الجيشان وحَمِيَ الوطيسُ [٣] وتعانقت السيوف وحملت خيالة

---

(١) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ١٩٤ .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٧ / ٨٠ ، رقم ٣٧١٩ .

(٣) الوطيس : التنور ، يضرب مثلاً بالأمر إذا اشتد ، يقال : قد حمي الوطيس وهو من فصيح الكلام يُعَبَّرُ به عن اشتباك الحرب وقيامها على ساق (لسان العرب ، ابن منظور ، مادة وطس) .

المشركين على المسلمين ثلاث مرات ، فينضحهم الرماة بالنبال فينكصون على أعقابهم وأبلى كثير من المسلمين في هذا اليوم بلاءً حسناً وأظهروا من البطولات ما أعجز المشركين .

وقاتل علي والزبير وطلحة وأبو طلحة الأنصاري وسعد بن أبي وقاص ﷺ وأبطال غيرهم كثير وقاتل أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب ﷺ وأرضاه قتال الأبطال ، فقتل نفراً من حملة اللواء من بني عبد الدار وبينما هو على هذا الحال كمن به وحشي حتى تمكن منه ، ثم رماه بحربته فأصابت منه مقتلا ، يقول وحشي واصفاً هذا الموقف كما في صحيح البخاري : (إن حمزة قتل طعيمة بن عدي بن الخيار ببدر ، فقال لي مولاي جبير بن مطعم : إن قتلتَ حمزةَ بعمي فأنت حُرٌّ ، قال : فلما أن خرج الناس عام عينين ـ وعينين جبل من جبال أحد بينه وبينه واد ـ خرجت مع الناس إلى القتال ، فلما اصطفوا للقتال خرج سباع فقال : هل من مبارز ؟ قال : فخرج إليه حمزة بن عبدالمطلب فقال : يا سباع يا ابن أم أنمار مقطعة البظور ، أتحاد الله ورسوله ﷺ ؟ قال : ثم شد عليه فكان كأمس الذاهب ، قال : وكمنت لحمزة تحت صخرة ، فلما دنا مني رميته بحربتي ، فأضعها في ثنته حتى خرجت من بين وركيه ، قال فكان ذلك العهد به) (١) وأسلم وحشي فيما بعد وشارك في معركة اليمامة وفي مقتل مُسَيْلَمَة الكذَّاب بتلك الحربة (٢) .

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٣٦٧ ، رقم (٤٠٧٢) .
(٢) صحيح البخاري ، الموضع السابق .

وحضرت الملائكة ، فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال : (رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه ، عليهما ثياب بيض كأشد القتال ما رأيتها قبل ولا بعد) [١] قال ابن حجر : (هما جبريل وميكائيل كذا وقع في مسلم من طريق أخرى عن مسعر وفي آخره يعني جبريل وميكائيل) [٢] ثم أنزل الله سبحانه وتعالى نصره على المؤمنين ، فحسوا [٣] الكفار بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر وكانت الهزيمة ، فولى الكفار لا يَلْوُوْنَ على شيء ، ونساؤهم يدعون بالويل والثبور وتبعهم المسلمون حتى أجهضوهم ووقعوا ينهبون العسكر ويأخذون ما فيه من الغنائم ونسي معظم الرماة وصية الرسول ﷺ إليهم أن لا يبرحوا مكانهم ، وقالوا : أي قوم الغنيمة ، ظهر أصحابكم ، فماذا تنتظرون ؟ فقال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ قالوا : والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله ، فكر بالخيل وتبعه عكرمة فحملوا على من بقي من الرماة فقتلوهم وأميرهم عبد الله ابن جبير ـ رضي الله تعالى عنهم ـ) [٤] .

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٣٥٨ ، رقم (٤٠٥٤) .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٣٥٨ .

(٣) حسوا الكفار : استأصلوهم قتلاً ، الرازي ، الصحاح ص ١٣٦ .

(٤) انظر : القسطلاني ، المواهب ١ / ٣٩٧- ٣٩٨ .

عن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ قالت : (لما كان يوم أحد هُزِمَ المشركون ، فصرخ إبليس لعنة الله عليه أي عباد الله أخراكم فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم)[(١)] .

وعن البراء ﷺ قال : (لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة وأَمَّرَ عليهم عبدَ الله وقال : « لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » ، فلما لقينا هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن ، فأخذوا يقولون : الغنيمة ، الغنيمة ، فقال عبد الله : عهد إلينا النبي ﷺ أن لا تبرحوا ، فأبوا فلما أبوا صرف وجوههم ، فأصيب سبعون قتيلاً ، وأشرف أبو سفيان فقال : أفي القوم محمد ؟ فقال ﷺ : « لا تجيبوه » فقال : أفي القوم ابن قحافة ؟ قال ﷺ : « لا تجيبوه » فقال : أفي القوم ابن خطاب ؟ فقال : إن هؤلاء قُتِلُوْا ، فلو كانوا أحياء لأجابوا ، فلم يملك عمرُ نفسَه فقال : كذبتَ يا عدو الله أبقى الله ما يخزيك ، قال أبو سفيان : أُعْلُ هبل ، فقال النبي ﷺ : « أجيبوه » قالوا : ما نقول ؟ قال : « قولوا » : الله أعلى وأجل ، قال أبو سفيان : لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم ، فقال النبي ﷺ : « أجيبوه » قالوا : ما نقول ؟ قولوا : « الله مولانا ولا مولى لكم » قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر والحرب سجال وتجدون مثلةً لم آمر بها ولم تسؤني)[(٢)] .

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٧ / ٣٦١ ، حديث رقم (٤٠٦٥) .
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٣٤٩ - ٣٥٠ ، رقم (٤٠٤٣) .

ودارت الدائرة على المسلمين ، ووقع الاضطراب في صفوفهم ، وأصبحوا بين فَكَّيْ كماشة من العدو ، وتفرقت صفوفهم ، وحاول المشركون قتل رسول الله ﷺ فاندفع رجال من المشركين منهم ابن قمئة الذي أقبل يريد رسول الله ﷺ ، فتلقاه مصعب فقتله ظناً منه أنه رسول الله ﷺ وأُشِيعَ مَقْتَلُ رسولِ اللهِ ﷺ وهنا عظمت البلية وطاشت عقول المسلمين وذهلوا عن أنفسهم ، فمنهم من ولّى هارباً ولم ترده إلا حيطان المدينة ، ومنهم من انطلق صاعداً فوق الجبل وألقى بسلاحه ، ومنهم من قاتل دفاعاً عن دينه ، وقدم أنس بن النظر على قوم ممن أذهلتهم الشائعة وألقوا بسلاحهم فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله ﷺ فقال : يا قوم ، إن كان محمد قُتِلَ ، فإن رب محمد لم يُقْتَلْ وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ ؟ فقاتلوا على ما كان عليه وموتوا على ما مات عليه ، وقال : اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء (يعني المسلمين) وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء (يعني المشركين) ثم لقي سعد بن معاذ ﷺ فقال : يا سعد إني لأجد ريح الجنة دون أحد ، ثم ألقى بنفسه في أتون [1] المعركة وما زال يقاتل حتى استُشْهِدَ ، فوُجِدَ به بِضْعٌ وثمانون ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم [2] .

---

(١) أتون : بالتشديد : الموقد والعامة تخففه ، الرازي ، مختار الصحاح ص ٤ .

(٢) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ١٩٨ .

وثبت حول النبي ﷺ ثُلَّةٌ من المهاجرين والأنصار وفدوه بأنفسهم حتى فاء إليه الكثيرون ممن أذهلتهم الشائعة أنه قُتِلَ ، وممن تفرقوا بين الصفوف يقاتلون ، فسار بهم حتى وصل إلى الصخرة التي فوق الجبل وأُصِيْبَ رسولُ الله ﷺ بجراح وكُسِرَتْ رباعيتُه وجُرِحَتْ شفتُه السفلى ، وشج رسول الله ﷺ في جبهته ودخلت حلقتان من المغفر في وجنته ﷺ ، فانتزعها أبو عبيدة بن الجراح وعض عليها حتى سقطت ثنيتاه ﷺ من شدة غوصهما في وجه الرسول ﷺ .

ولما وقعت الهزيمة بسبب مخالفة الرماة أمرَ الرسول ﷺ وقُتِلَ مَنْ قُتِلَ من المسلمين انطلق المشركون إلى التمثيل بالشهداء بحقد وغيظ وشراسة ، فصاروا يجدعون الأنوف والآذان ويبقرون البطون واستُشْهِدَ من المسلمين حوالي سبعين شهيداً أغلبهم من الأنصار ، وأمر رسول الله ﷺ بدفن شهداء أحد حيث ماتوا ، عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ (أن رسول الله ﷺ كان يجمع الرجلين من قتلة أحد في ثوب واحد ، ثم يقول : « أيهما أكثر أخذاً للقرآن ؟ » فإذا أشير إلى أحدهما قدَّمه في اللحد وقال : « أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة »)[١] .

وأُصِيْبَ يومئذ كثيرٌ من المسلمين بجراح ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد دفن الشهداء ومطاردة المشركين إلى حمراء الأسد[٢] ؛ لإظهار قوة المسلمين وعدم تأثرهم بما جرى .

---

(١) صحيح البخاري ، المطبوع مع فتح الباري ٧ / ٣٧٤ ، رقم ٤٠٧٩ .

(٢) حمراء الأسد : جبل أحمر جنوب المدينة على مسافة عشرين كيلاً إذا خرجت من ذي الحليفة تؤم مكة عن طريق بدر رأيت حمراء الأسد جنوباً ، وتقع حمراء الأسد

ولما حصل للرسول ﷺ ما حصل جعل عبد الله بن أبي سلول والمنافقون يشمتون ويُسرون بما أصاب المسلمين ويظهرون أقبح القول ، وأظهر اليهود القول السيئ وقالوا : ما محمد إلا طالب ملك وجعل المنافقون يخذلون عن رسول ﷺ ويقولون : لو كان من قُتِلَ منكم عندنا ما قُتِلُوْا .

وكان مما أنزل الله تعالى في يوم أحد من القرآن ستون آية من آل عمران فيها صفة ما كان في يومهم ذلك [1] ، أولها قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ [2] إلى آخر الستين آية [3] .

الفوائد المستخرجة من أحداث غزوة أحد :

الأولى : لما بلغ الرسولَ ﷺ كتابُ العباس رضي الله عنه والذي فيه خبر مسير قريش إليه طلب من أُبيّ بن كعب رضي الله عنه أن يكتم هذا الأمر ولا يخبر به ، وفي هذا مشروعية الكتمان لما يخشى من عاقبة إفشائه ، وإطلاع الغير

على الضفة اليسرى لعقيق الحسا على الطريق من المدينة إلى الفرع ، محمد شراب ، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ص١٠٢.

(١) انظر : تفسير ابن كثير ، تحقيق مقبل الوادعي٢/١٢٥ ، وقال عند تفسير قوله تعالى : (وإذ غدوت من أهلك) المراد بهذه الوقعة يوم أحد عند الجمهور ، والشامي ، سبل الهدى ٤ / ٣٣٩ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية رقم (١٢١) .

(٣) انظر: ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ / ٥٨ ، والشامي ، سبل الهدى ٤ / ٣٣٩ .

عليه ، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ « استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود »[١] فإذا كان لشخص حاجة أو لديه خبر في اطلاع الغير عليه ضرر ، فإن من المصلحة أن يكتم ولا يتحدث ، فإن إخبار الناس ـ مثلاً ـ بخبر كتاب العباس ﷺ للرسول ﷺ ومسير قريش فيه ما يسر اليهود والمنافقين ويحزن الذين آمنوا ويدخل الخوف عليهم والرسول ﷺ يريد أن يستعد لهذا الأمر دون أن يعلم العدو أنه قد علم بخروجهم إليه .

الثانية : في استشارة الرسول ﷺ للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في الخروج لملاقاة العدو أو البقاء في المدينة ومقاتلتهم في طرقاتهم ورغبة كثير من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في الخروج[٢] ثم أخذ الرسول ﷺ بهذا الرأي ، فيه دلالة على اعتبار رأي الأكثرية ولكن ليس هذا على إطلاقه ، وقد بحثت هذه المسألة بتفصيل أوسع في آخر هذا الكتاب في الدروس والعبر من وفاة المصطفى ﷺ .

الثالثة : في قول الرسول ﷺ : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (الجهاد يلزم بالشروع فيه حتى إن من لبس لأمته وشرع في

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٥/ ٢١٥ و٦/٩٦ عن معاذ بن جبل ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته ١/ ٣٢٠ ، حديث رقم (٩٥٦) .

(٢) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٣٤٦/٧ .

أسبابه وتأهب للخروج ليس له أن يرجع عند الخروج حتى يقابل عدوه) [١] ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ : (ولهذا مضت السنة بأن الشروع في العلم والجهاد يلزم كالشروع في الحج يعني أن ما حفظه من علم الدين وعلم الجهاد ليس له إضاعته لقول النبي ﷺ : « من قرأ القرآن ثم نسيه لقي الله وهو أجذم » رواه أبو داود [٢] وقال : « عُرِضَتْ علي أعمالُ أمتي حسنها وسيئها ، فرأيت في مساوئ أعمالها الرجل يؤتيه الله آية من القرآن ، ثم ينام عنها حتى ينساها » [٣] وقال : « من تعلّم الرميَ ، ثم نسيه فليس منا » رواه مسلم [٤] وكذلك الشروع في عمل الجهاد ، فإن المسلمين إذا صافوا

---

(١) ابن القيم ، زاد المعاد ٣/٢١١ ، وانظر : ابن القيم ، بدائع الفوائد وقال : (وفي الاستدلال بالحديث شيء ، فإن فيه الإشارة إلى الاختصاص بقوله : « ما ينبغي لنبي » ولم يقل : « ما ينبغي لأحد ، ولا ما ينبغي لكم » فدل على مخالفة حكم غيره له في هذا ، وأنه من خواصه ...) الخ ما قاله في التفريق في هذه المسألة فيرجع إليه لمن رغب التوسع .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود ص ١٤٥ ، رقم ٣١٧ .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود ، رقم ٨٨ ، ص ٤٤ ، وضعيف الجامع للألباني ٤/٢٩ ، رقم ٣٧٠٢ ، وأخرجه أبو يعلى في مسنده ٧ / ٢٥٤ ، تحقيق حسين سليم أسد ،الطبعة الأولى (دمشق : دار المأمون للتراث ، ١٤٠٤هـ) .

(٤) صحيح مسلم ٣/ ١٥٢٣ ، رقم ١٩١٩ بلفظ « من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى » عن عقبة بن عامر .

عدوهم أو حاصروا حصناً ليس لهم الانصراف عنه حتى يفتحوه ولذا قال النبي ﷺ : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن ينزعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » [1]) [2] .

الرابعة : في استعداد الرسول ﷺ للحرب ، نلحظ أنه ظاهر بين درعين ، أي لبس درعاً فوق درع ، ومن هذا نأخذ مشروعية الجمع بين التوكل وفعل الأسباب ، فلا يكفي التوكل دون فعل الأسباب ، ولا يصح الاعتماد على فعل الأسباب فقط دون التوكل على الله .

الخامسة : في انخزال عبد الله بن أُبيّ ومن معه وامتناعهم عن استمرار المسير لملاقاة المشركين خارج المدينة ، ثم ما حصل من السرور بعد ذلك للمنافقين من نتائج المعركة نأخذ منها أن حكمة الله سبحانه اقتضت (أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب ، فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر ، وطار لهم الصيت دخل معهم في الإسلام ظاهراً من ليس معهم فيه باطناً ، فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سَبَّبَ لعباده محنة ميَّزتْ بين المؤمن والمنافق ، فأطْلَع المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة ، وتكلموا مما كانوا يكتمونه ، وظهرت

---

(١) في البخاري معلقاً بلفظ « لا ينبغي لنبي يلبس لأمته فيضعها حتى يحكم الله » ٦ / ٢٦٨٢ ، تحقيق مصطفى أديب البغاء ، الطبعة الثالثة (بيروت : دار ابن كثير ١٤٠٧هـ) .

(٢) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ٢٨ / ١٨٦-١٨٧ .

مخبآتهم وعاد تلويحهم تصريحاً ، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساماً ظاهراً ، وعرف المؤمنون أن لهم عدواً في دورهم نفسها ، وهم معهم لا يفارقونهم ، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم قال الله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ ﴾[1])[2] .

فالشدائد تكشف الصديق من العدو وتميِّز بينهما تمييزاً واضحاً وقد قال الشاعر :

جزى الله الشدائد كل خير عرفتُ بها صديقي من عدوي

ومن أعظم النعم معرفة العدو وكشفه للحذر منه ومن كيده ودسائسه .

السادسة : في الطريق إلى أُحُد استعرض الرسول ﷺ الجيش وإذا فيه عدد من الشباب استصغرهم الرسول ﷺ ، فردهم فلم يفرحوا بردهم ، بل تنافسوا في أن يتيح لهم الرسول ﷺ الفرصة للمشاركة في الجهاد وهذا أثر التربية الإسلامية آنذاك في نفوس الشباب[3] والتربية على معالي الأمور والبعد عن سفاسفها ، فالشباب هم عماد الأمة

(١) سورة آل عمران ، الآية رقم (١٧٩).

(٢) ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٢١٩ – ٢٢٠ .

(٣) انظر : أبو شهبة ، السيرة النبوية ٢/١٩٠ .

وهم مستقبلها وهم أحق من أُعْتُنِيَ بتربيته وتوجيهه ورعايته الرعاية الإسلامية الصحيحة.

السابعة : في قول الرسول ﷺ : « من يخرج بنا على القوم من كثب ؟ » ومسيرهم في حائط للمنافق مربع بن قيظي ، يدلنا هذا على أن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة ، فمصلحة جند المسلمين في اختصار الطريق مقدمة على مصلحة هذا الرجل في مزرعته ، يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ حول هذا الموضوع : (ومنها جواز سلوك الإمام بالعسكر في بعض أملاك رعيته إذا صادف ذلك طريقه وإن لم يرض المالك) [١] .

الثامنة : في معصية أغلب الرماة لأمر أميرهم عبد الله بن جبير ﷺ وتركهم للجبل ، وما ترتب على ذلك من أضرار بالغة ، نستفيد منها أهمية طاعة الأمير ، ذلك أن طاعة ولي الأمر لها اعتبارها ومكانتها وعظيم أثرها والله جل شأنه يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [٢] ويقول الرسول ﷺ : « من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني » [٣] فينبغي أن يدرك الجميع

---

(١) ابن القيم ، زاد المعاد ٣/٢١١ .

(٢) سورة النساء ، الآية رقم (٥٩) .

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٦ / ١١٦ ، رقم ٢٩٥٧ .

أهمية الطاعة لولي الأمر في غير معصية الله جل شأنه وأن مصلحة المجتمع في الطاعة ، وكم جرت مخالفة بعض الرماة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ من أسى وضرر على المسلمين في أحد بسبب عدم طاعتهم للرسول ﷺ وعدم طاعتهم لأميرهم عبد الله بن جبير ﷺ حينما أمرهم بالبقاء ونهاهم عن ترك الجبل وذكّر بأمر رسول الله ﷺ والله أعلم بالصواب .

التاسعة : من قول بعض الرماة (أي قوم الغنيمة) وما ترتب على ذلك نأخذ الحذر من الحرص على الدنيا والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾[١] والرسول ﷺ يقول : « إني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها وتقتتلوا ، فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم »[٢] وهذا موقف يسير قصير من الحرص على الدنيا ، فكيف بمن يصبح ويمشي والدنيا أكبر همه ؟ .

العاشرة : وما دام الحديث عن الدنيا والحرص عليها وعواقب ذلك يجدر بنا أن نذكر بقول الله تعالى عن اليهود : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾[٣] وقد جعل الرازي هذا الحرص هو علة التفاوت في قول الله تعالى :﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ

---

(١) سورة آل عمران ، الآية رقم (١٥٢) .

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه ٤ / ١٧٩٦ ، رقم ٢٢٩٦ .

(٣) سورة البقرة ، الآية رقم (٩٦) .

أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ﴾[١] فقال : (علة هذا التفاوت أن اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۚ ﴾ فقرنهم في الحرص بالمشركين المنكرين للمعاد ، والحرص معدن الأخلاق الذميمة ؛ لأن من كان حريصاً على الدنيا طرح دينه في طلب الدنيا وأقدم على كل محظور ومنكر بطلب الدنيا ...)[٢] .

الحادية عشرة : من قول بعض الرماة : (ماذا تنتظرون ؟ ظهر أصحابكم) مع سبق وصية الرسول ﷺ لهم بأن لا يبرحوا أماكنهم سواء ظهر المسلمون على المشركين أو العكس ، نأخذ أهمية التمسك بالنص الشرعي وضرر الاجتهادات الشخصية في مقابلة النصوص الشرعية ، فما دام هناك أمر من الرسول ﷺ فينبغي الوقوف عنده وعدم التعويل على شيء من الآراء والاجتهادات الشخصية التي لا تقوم أمام النص .

الثانية عشرة : عن أبي عقبة ـ وكان مولى من أهل فارس ـ قال : (شهدت مع رسول الله ﷺ أحداً ، فضربت رجلاً من المشركين ،

---

(١) سورة المائدة ، الآية رقم (٨٢) .

(٢) الرازي ، التفسير الكبير ١٢ / ٦٦ .

فقلت : خذها مني وأنا الغلام الفارسي ، فالتفت إلي رسول الله ﷺ ، فقال : « هلا قلت : خذها مني وأنا الغلام الأنصاري »)[١] ، نأخذ منها تصحيح العبارات حتى في أحلك المواطن[٢] وأن الانتساب الحقيقي للمسلم إنما هو لأهل الإسلام ، فلا عصبية ولا قبلية ولا قومية ينتمي إليها المسلم ويدع انتماءه الحقيقي إلى هذا الإسلام (ولذلك كره النبي ﷺ أن ينتسب ـ هذا الرجل ـ إلى فارس ؛ لأنهم كانوا كفاراً ، فأرشده ﷺ إلى الانتساب إلى مواليه الأنصار وترك الانتساب إلى الاسم الجاهلي)[٣] .

الثالثة عشرة : كانت لإشاعة مقتل النبي ﷺ أثرها السلبي على بعض المسلمين ، فألقى بعضهم السلاح وقال : ما الفائدة من القتال ؟ وبعضهم ذهب إلى المدينة ، وبعضهم أراد البحث عن عبد الله بن أبي بن سلول ؛ ليستأمن لهم من أبي سفيان ، نأخذ من هذا الحذر من تصديق الإشاعات وأن العدو يبث الإشاعات وخاصة في وقتنا الحاضر

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥ / ٢٩٥ ، وأبو داود في سننه ، كتاب الأدب ، باب في العصبية ، وقال الهيثمي في المجمع ٦ / ١١٥ : (رواه أبو يعلي ورجاله ثقات) وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود ص ٥٠٧ ، رقم ١٠٩٦ ، وانظر : إبراهيم العلي ، صحيح السيرة النبوية ص٣٠١ وقال : (وإسناده حسن) .

(٢) إبراهيم العلي ، صحيح السيرة النبوية ص ٣٠١ .

(٣) أحمد البناء ، بلوغ الأماني ٢٢ / ١٧٧ ، وانظر : محمد شمس الحق العظيم آبادي ، عون المعبود ١٤ / ٢٨ .

عن طريق وسائل الإعلام الخارجية والإسلام أرشدنا إلى المنهج في التعامل مع الأخبار في الآيات التالية :-

١) أن نطلب من المتحدث الدليل لما يقول، فلا نقبل الخبر المجرد والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [١] فلا يقبل قول أحد إلا ببرهان .

٢) أن يتثبت المسلم ويتبين ، فلا يتأثر ويبني أحكامه على عجلة والله جل شأنه يقول :﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [٢] فالمسلم مطلوب منه التبين وعدم تصديق أي خبر يصل إلى مسامعه .

٣) يقول الله جل شأنه :﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [٣] .

(١) سورة النمل ، الآية رقم (٦٤) .
(٢) سورة النساء ، الآية رقم (٩٤) .
(٣) سورة الحجرات ، الآية رقم (٦) .

فالمستعجل يقبل الخبر ويصدِّقه في أول سماع ولذلك تجده كثير الندم لكثرة أخطائه كما تشير إلى ذلك الآية الأخيرة في خاتمتها .

الرابعة عشرة : وإذا كنا أخذنا من فعل بعض الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ درساً ، فإننا نأخذ درساً مهماً من فعل البعض الآخر ، أولئك الذين أحسنوا التعامل مع الإشاعة ، فلم يصدقوها ولم يتأثروا بها ، بل على العكس من ذلك حولوها إلى خلاف ما يريد العدو حينما جعلوها دافعاً لمزيد العمل والجهاد والبذل ، يقول أنس بن النضر ﷺ : (لما قيل عن إشاعة مقتل الرسول ﷺ قال : يا قوم إن كان محمد قُتِلَ ، فإن رب محمد لم يُقْتَلْ وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه) ، فالعدو يريد من خلال الإشاعة أن يفت في عضد المسلمين ولكن أنساً ﷺ يقلب الأمر ويحاول أن يجعل من هذه الإشاعة ـ على فرض صحتها ـ دافعاً للعمل ودافعاً للجهاد ، دافعاً للمزيد من الذود عن هذا الدين ومقاتلة الأعداء لا إلقاء السلاح والاستسلام ، ومثل هذه إشاعة مقتل عثمان ﷺ في صلح الحديبية كانت سبباً في عكس ما يريد الأعداء حيث أدت إلى بيعة الرضوان وهو عكس ما يريده العدو وسنتحدث عن هذا بالتفصيل في موضعه بإذن الله تعالى .

الخامسة عشرة : من قول أبي سفيان بعد انتهاء المعركة : (أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ أفي القوم عمر ؟) ، فلم يسأل عن أحد من

الصحابة سوى عن هذين الصحابيين الجليلين مما يدل على اشتهار وظهور مكانتهما المتميزة حتى عند الأعداء ، فهما صاحبا الرسول ﷺ ووزيراه ومستشاراه ، وهما أولى الناس بخلافته بعد وفاته ﷺ حيث خلفه أبو بكر رضي الله عنه ثم عمر رضي الله عنه .

السادسة عشرة : لما قال أبو سفيان بعد المعركة : (أُعْلُ هبل) قال الرسول ﷺ : « أجيبوه » قالوا : (ما نقول ؟) نأخذ من هذا الرجوع إلى أهل العلم فيما يشكل . وهذا الذي ينبغي أن يُنَشَّأ عليه الناس وهو الرجوع إلى أهل العلم وسؤالهم فيما يعترضهم من الأمور ، وأن لا يعتمد الفرد على رأيه في مسائل العلم ، أو يفتي نفسه والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1]

ويقول الشيخ السعدي : (وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم ، وأن أعلى أنواعه العلمُ بكتاب الله المنزل ، فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث) [2] .

السابعة عشرة : من قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [3] حيث نلحظ

---

(١) سورة النحل ، الآية رقم (٤٣) ، وسورة الأنبياء ، الآية رقم (٧) .
(٢) السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٣ / ٦٢ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية رقم (١٤٤) .

اللوم على من ظن أن الإسلام مرتبط بالأشخاص ، فالمسلم يرتبط بالرسالة وهذا يذكر به أصحاب الانتماءات والأحزاب الذين ولاؤهم لرئيس الحزب أو الجماعة ، فالإسلام لا يقر الانتماء والتحزب للأشخاص وإنما المسلم يرتبط بالرسالة فقط ، بالدين والمبدأ ، لا بالشخص ، فلا يعطي ولاءه وانتماءه وانتسابه لشخص يدور في فلكه ، فالأشخاص يذهبون ، والأشخاص بعد الرسول ﷺ غير معصومين .

الثامنة عشرة : كان رسول الله ﷺ عند دفن الشهداء يُقَدِّمُ في القبر أكثرَهم أخذاً للقرآن وهذا يدلنا على أمور :

أ. عظمة هذا القرآن الكريم ورفعة وشرف حامله قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١) قال ابن كثير : (أي يرجون ثواباً عند الله لابد من حصوله كما قدمنا في أول التفسير عند فضائل القرآن يقول لصاحبه إن كل تاجر من وراء تجارته ، وإنك اليوم من وراء كل تجارة ... وقال قتادة : كان مطرف ـ رحمه الله تعالى ـ إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء) (٢) .

(١) سورة فاطر ، الآيتان (٢٩ - ٣٠) .
(٢) ابن كثير ، تفسير ابن كثير ٣ / ٥٥٤ .

ب. إن ميزان التفاضل بين المسلمين هو التمسك بالإسلام ، فأفضلهم أكثرهم تمسكاً بالإسلام وفي مقدمة ذلك المحافظة على كتاب الله سبحانه وتعالى ، وليس ميزان التفاضل قبلياً أو مالياً أو وظيفياً وإنما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (١) فالتقى هو ميزان التفاضل ، يقول الشيخ السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ : (فأكرمهم عند الله أتقاهم وهو أكثرهم طاعة وانكفافاً عن المعاصي لا أكثرهم قرابة وقوماً ولا أشرفهم نسباً) (٢) .

ت. من حكمة الله سبحانه وتعالى أن جعل التفاضل بين الناس في أمور كسبية للإنسان لا قهرية ، فالشعوب والقبائل ونحوها للتعارف ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ (٣) أما التفاضل المعتبر بين الناس فهو بالتقى والصلاح وطاعة الله سبحانه وتعالى وهو أمر كسبي . ومثل هذا قوله ﷺ : « لا نُورَثُ ، ما تركناه صدقةٌ » (٤) وقوله ﷺ : « وإن العلماء ورثة الأنبياء » (٥) ومعنى الحديثين ـ والله أعلم ـ : نحن لا نُورَثُ بالانتساب ولكننا نُورَثُ بالاكتساب ، فالتأسي بالنبي ﷺ لا

(١) سورة الحجرات ، الآية رقم (١٣) .

(٢) الشيخ عبد الرحمن السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٥ / ٧٤ .

(٣) سورة الحجرات ، الآية رقم (١٣) .

(٤) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٦ / ١٩٧ ، رقم ٣٠٩٣ .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب العلم ، باب فضل العلم ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٢ / ٦٩٤ ، رقم ٣٠٩٦ .

يسبق إليه ذو النسب وإنما يكون بفعل السبب بطلب العلم والعمل وقد قال ﷺ في بقية الحديث : « وإن الأنبياء لم يُوَرِّثُوا ديناراً ولا درهما ، وإنما وَرَّثُوْا العلمَ ، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافرٍ »[١] .

فهم لم يورِّثوا لقرابتهم شيئاً ، وإنما تركوا العلم يتنافس الناس فيه ، وبطلبه وبالعمل به يتفاضلون .

التاسعة عشرة : يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في دروس غزوة أحد : (فمنها تعريفهم سوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع وأن الذي أصابهم إنما بشؤم ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ ﴾[٢] فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول ﷺ وتنازعهم وفشلهم كانوا بعد ذلك أشدَّ حَذَراً ويقظةً وتحرزاً من أسباب الخذلان)[٣] .

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب العلم ، باب فضل العلم ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٢ / ٦٩٤ ، رقم ٣٠٩٦ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية رقم (١٥٢) .

(٣) ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٢١٨- ٢١٩ .

وإلى هذه الآية التي ذكرها ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ نضيف ثلاث فوائد مهمة :

العشرون : سوء عاقبة التنازع ، فعندما تنازع الصحابة ، منهم من يريد النزول من الجبل والمشاركة في جمع الغنائم ، ومنهم من يريد البقاء واختلفوا كما يقول الله جل شأنه : (وتنازعتم) كان هذا التنازع من أسباب ما جرى في أحد من تغير مجراها لغير صالح المسلمين ، وبناء على ذلك يجب على المسلم أن يَحْذَرَ الفرقةَ والنزاعَ وأن يحرص أن يكون عضواً صالحاً في مجتمعه متلاحماً مع إخوانه مبتعداً عن النزاع وأسبابه .

الحادية والعشرون : سوء عاقبة الذنوب والمعاصي ، فإن ما وقع من المعصية في أحد كما قال تعالى : (وعصيتم) كان سبباً من أسباب ما جرى ، والذنوب ضررها عظيم وسريع على الفرد والمجتمع ، وقد أُخْرِجَ آدمُ عليه السلام من الجنة بسبب المعصية ، وطُرِدَ إبليسُ (لعنه الله) من رحمة الله بسبب المعصية .

الثانية والعشرون : أيضاً نستفيد من الآية فائدة مهمة عند قوله تعالى : (ولقد عفا عنكم) فإن المسلم عندما يقرأ غزوة أحد ، وما جرى فيها من أحداث يجب عليه أن لا يؤثر ذلك في محبة وتوقير الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ ؛ لأن ما جرى في ذلك الموقف العصيب قد انتهى بالعفو من الله عنهم بنص القرآن الكريم : (ولقد

عفا عنكم) ، فما حصل انتهى وبقي لنا نحن فقط الدرس والعظة والعبرة ، أما أن يتحدث متحدث يريد الانتقاص من مقام أصحاب رسول الله ﷺ فَيُرَدُّ عليه بالآية ، فعلينا أن نحفظ مكانة صحابة رسول الله ﷺ في قلوبنا ونعرف ما لهم من حق الترضِّي والمحبة والتوقير والاحترام . ولذلك الموقف موقف مشابه ، فإن آدم عليه السلام أُخْرِجَ من الجنة ولكن الله سبحانه وتعالى تاب عليه واجتباه ، فانتهى ما حصل منه عليه السلام وبقي علينا أن نحذر إغواء الشيطان وتزيينه .

الثالثة والعشرون : في فضل شهداء أحد ورد عدد من الأحاديث :-

١) عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ (أن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ، ثم يقول : « أيهم أكثر أخذاً للقرآن ؟ » فإذا أُشِيْرَ له إلى أَحَدٍ قَدَّمَه في اللحد ، وقال : « أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة » ، وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يصلِّ عليهم ولم يُغَسَّلُوْا) [١] .

٢) عن جابر بن عبد الله ؓ قال : (لما قُتِلَ أبي جعلتُ أبكي وأكشف عن وجهه ، فجعل أصحاب النبي ﷺ ينهونني ، والنبي ﷺ لم ينه ، وقال النبي ﷺ : « لا تبكه ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رُفِعَ ») [٢] .

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٣٧٤ ، رقم ٤٠٧٩ .
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٣٧٤ ، رقم ٤٠٨٠ ، وصحيح مسلم ٤ / ١٩١٧ ، رقم ٢٤٧١ .

٣) عن أنس ﷺ قال : (غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر ، فقال يا رسول الله : غبت عن أول قتال قاتلتَ المشركين ، لئن الله أشهدني قتالَ المشركين ليرى الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني أصحابه وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين ، ثم تقدم ، فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : يا سعد بن معاذ ، الجنة ورب النضر ، إني أجد ريحها من دون أحد ، قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع ، قال أنس : فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ووجدناه قد قُتِلَ وقد مَثَّلَ به المشركون ، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه [(١)] قال أنس : كنا نرى ـ أو نظن ـ أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) إلى آخر الآية) [(٢)] .

٤) عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال : (لقيني رسول الله ﷺ ، فقال لي : « يا جابر ما لي أراك منكسراً ؟ » قلت : يا رسول الله اُسْتُشْهِدَ أبي وترك عيالاً ودَيناً ، قال : قال : « ألا أبشرك بما لقي الله به أباك ؟ » قال : بلى يا رسول الله ، قال : « ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجابه وأحيا أباك فكلمه كفاحاً [(٣)] فقال : تَمَنَّ

(١) البنانة : واحدة البنان وهي أطراف الأصابع ، الرازي ، مختار الصحاح ص ٦٥ .
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٦ / ٢١ ، رقم ٢٨٠٥ .
(٣) كفاحاً أي مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول ، ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث ٤ / ١٨٥ .

علي أُعْطِكَ ، قال : يا رب تحييني ، فأُقْتَلَ فيك ثانية ، قال الرب تبارك وتعالى : إنه قد سبق مني أنهم لا يرجعون » قال : وأُنْزِلَتْ هذه الآيةُ ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢا ﴾ [١]) [٢] .

٥) وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه سُئِلَ عن قوله تعالى :﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾ [٣] فقال: (أما إنا قد سألنا عن ذلك ، فقال : أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطلاعه ، فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يُتْرَكُوْا ، قالوا : يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نُقْتَلَ في سبيلك مرةً أخرى ، فلما رأى أنه ليس لهم حاجة تركوا) [٤] .

٦) عن أبي هريرة ﷺ قال : (إن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد مَرَّ على مصعب بن عمير ﷺ وهو مقتول على طريقه فوقف عليه

(١) سورة آل عمران ، الآية رقم (١٦٩) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، و حسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣ / ٣٥ ، رقم ٢٤٠٨ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية رقم (١٦٩) .

(٤) صحيح مسلم ٣ / ٥٠٣ ، رقم ١٨٨٧ .

، ودعا له ثم قرأ هذه الآية : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾ [(١)] ثم قال رسول الله ﷺ : « أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأتوهم وزوروهم والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه ») [(٢)].

٧) (روى عمر بن شبة عن أبي هريرة ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يأتي قبور الشهداء ، فإذا أتى فرضة الشعب يقول : « السلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار » ثم كان أبو بكر ﷺ بعد النبي ﷺ يفعله ، وكذا عمر ﷺ وعثمان ﷺ) [(٣)].

❁❁❁

(١) سورة الأحزاب ، الآية رقم (٢٣) .

(٢) أخرجه الحاكم مختصراً في المستدرك ٣ / ٢٠٠ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وانظر : ابن سعد ، الطبقات ٣ / ١٢١ ، وإبراهيم العلي ، صحيح السيرة النبوية ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٣) الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٤ / ٣٦٩ .

المبحث الخامس

فقه السيرة في غزوة بني المصطلق

هذه الغزوة تُسَمَّى غزوةَ بني الْمُصْطَلِق أو الْمُرَيْسِيْع .

والـمُصْطَلِق : بضم الميم وسكون المهملة وفتح الطاء المهملة وكسر اللام بعدها قاف : هو لقب لشخص اسمه جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة ، بطن من بني خزاعة .

وأما الـمُرَيْسِيْع فبضم الميم وفتح الراء وسكون التحتانيتين بينهما مهملة مكسورة وآخره عين مهملة ، هو ماء لبني خزاعة بينه وبين الفرع مسيرة يوم (١) .

وغزوة بني المصطلق كانت لليلتين خلتا من شهر شعبانٍ من السنة الخامسة من الهجرة على الراجح من أقوال أهل السيرة (٢) .

كان من آثار غزوة أحد أن تجرأ بعض الأعراب على محاربة الرسول ﷺ ، وقد بلغ الرسولَ ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له ، وقائدهم

---

(١) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٧/٤٣٠ ، وقال محمد حسن شراب : المريسيع : جزء من واد (حورة) أحد روافد ستارة ، وستارة وقديد واد واحد يبعد عن الساحل ثمانين كيلاً ، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ص ٢٥١ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، والشامي ، سبل الهدى ٤/٥٠٣ ، ومحمد سعيد القرافي ، الدروس الدعوية في غزوة بني المصطلق ص ٩ (بحث غير منشور) ، وإبراهيم العلي ، صحيح السيرة النبوية ص ٣٢٩ .

الحارث بن أبي ضرار[١] ، حيث أخذ في جمع الرجال والسلاح وتأليب القبائل المجاورة للقيام بهجوم على المدينة ، فبعث رسول الله ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمي ؛ ليتأكد من الخبر ، فأتاهم ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلّمه ، ورجع إلى رسول الله ﷺ وأخبره خبرَ القومِ وما عزموا عليه .

ولما كان بنو المصطلق ممن بلغتهم دعوة الإسلام واشتركوا مع الكفار في غزوة أحد وكانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين فقد أغار عليهم الرسول ﷺ وهم غارون[٢] كما في صحيح البخاري عن عبد الله بن المبارك أخبرنا بن عون قال : كتبت إلى نافع فكتب إليّ : إن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تُسقى على الماء ، فقتل مقاتلهم ، وسبى ذراريهم ، وأصاب يومئذ جويرية ، حدثني ابن عمر وكان في ذلك الجيش[٣] .

وقد قتلوا منهم عشرة وأسروا سائرهم وسبوا النساء والرجال والذرية والنعم ولم يُقْتَل من المسلمين إلا رجلٌ واحدٌ[٤] هو هشام ابن صبابة ، قتله أحد الأنصار خطأ ، ظناً أنه من الأعداء[٥] .

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٤/١٥٦ .

(٢) غارون : أي غافلون ، أي أخذهم على غرة ، فتح الباري ٥/١٧١ .

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٥/١٧٠ ، رقم ٢٥٤١ .

(٤) انظر : القسطلاني ، المواهب اللدنية ١/٤٤٢ .

(٥) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف ٤/٧ .

قالت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ : لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق ، وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسها ، وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها ، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ : فوالله ما هو إلا أن رأيتُها على باب حجرتي ، فكرهتُها وعرفتُ أنه سيرى منها رسول الله ﷺ ما رأيتُ ، فدخلتْ عليه ، فقالت : يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث ابن أبي ضرار سيد قومه وقد أصابني من البلاء ما لم يَخْفَ عليك ، فوقعتُ في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسي ، فجئتك أستعينك على كتابتي ، قال : « فهل لك في خير من ذلك ؟ » قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « أقضي عنك كتابتك وأتزوجك ! » قالت : نعم يا رسول الله ، قال : قد فعلت .

قالت : وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، فقال الناس : أصهار رسول الله ﷺ ، وأرسلوا ما بأيديهم ، قالت : فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق ، فما أعلم امرأةً كانت أعظمَ على قومها بركةً منها (١) .

---

(١) أخرجه الإمام في المسند ، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد للبناء ١٤/ ١٠٩/ ١١٠ ، وقال البناء في بلوغ الأماني ١٤/ ١١٠ : (وسنده جيد) ، وانظر : ابن هشام ، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف ٤/ ٨-٩ .

وكانت في هذه الغزوة حادثتان مهمتان هما :

أبرز ما جرى في هذه الغزوة بل هما مما دعاني إلى الوقوف مع هذه الغزوة للدراسة حادثتان :

أما الحادثة الأولى ، فيقول ابن إسحاق ـ رحمه الله تعالى ـ : (فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة ... فبينا الناس على ذلك الماء وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له : جهجاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء ، فاقتتلا ، فصرخ الجهني يا معشر الأنصار ، وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين ، فغضب عبد الله بن أبي بن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث فقال : أوقد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول : (سَمِّنْ كلبَكَ يأكلْكَ) أما والله لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأَذَلَّ ، ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ، فسمع بذلك زيد بن أرقم ﷺ فمشى به إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب ، فقال : مر به عباد بن بشر فليقتله ، فقال رسول الله ﷺ : « فكيف يا عمر ! إذاً تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، لا ، ولكن آذن بالرحيل ، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها ، فارتحل الناس ،

وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ حيث بلغه أن زيد بن أرقم بلغه ما سمع منه فحلف بالله ما قلت ما قال ، ولا تكلمت به وكان في قومه شريفاً عظيماً ، فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل ، حدبا على ابن أبي ودفعا عنه . قال ابن إسحاق : فلما استقل رسول الله ﷺ وسار لقيه أسيد بن حضير ﷺ ، فحيَّاه بتحية النبوة وسلّم عليه ، وقال يا رسول الله ، والله لقد رحتَ في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها ، فقال له رسول الله ﷺ : « أَوَ ما بَلَغَكَ ما قال صاحبُكم ؟ » قال : أي صاحب يا رسول الله ؟ قال : « عبد الله بن أبي ابن سلول » قال : وما قال ؟ قال : « زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزُّ منها الأذلَّ » قال : فأنت يا رسول الله تخرجه إن شئتَ ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال : يا رسول الله أَرْفِقْ فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً ، ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومه ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مر الأرض فوقعوا نياماً ، وإنما فعل ذلك ؛ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس ، من حديث عبد الله بن أبي[1] . قال ابن

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ١٥٧/٤-١٥٨ ، وأورد البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ القصة مختصرة في صحيحه ، كتاب التفسير ، باب قوله (سواء عليهم أستغفرت لهم

إسحاق : ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في ابن أبيّ ومن كان على مثل أمره ، فأخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم وقال : « هذا الذي أوفى الله بإذنه » .

وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول فقال : يا رسول الله بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمر لي به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني ، وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس ، فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار ، فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا » [(١)] .

ووقف عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول لأبيه عند مضيق المدينة فقال : قف فو الله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك ، فلما جاء رسول الله ﷺ استأذن في ذلك ، فأذن له فأرسله حتى دخل المدينة [(٢)] .

وأما الحادثة الثانية ، فقصة الإفك :

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ﷺ قالت : (كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه ، فأيتهن خرج سهمها خرج

أم لم تستغفر لهم ...) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٨ / ٦٤٨ ، رقم ٤٩٠٥ .

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ / ٣٣٦-٣٣٧ .

(٢) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٤ / ١٥٨ .

بها رسول الله ﷺ معه ، قالت عائشة : فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي ، فخرجتُ مع رسول الله ﷺ بعد ما نزل الحجاب ، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل ، فقمتُ حين آذنوا بالرحيل فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيش ، فلما قضيتُ شأني أقبلتُ إلى رحلي ، فإذا عِقْدٌ لي من جزع أظفار قد انقطع ، فالتمستُ عقدي وحبسني ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي ، فرحلوه على بعيري الذي كنتُ ركبتُ وهم يحسبون أني فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافاً ، فلم يثقلن اللحم ، إنما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القومُ خفةَ الهودج حين رفعوه ، وكنتُ جاريةً حديثةَ السِّنِّ ، فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدتُ عِقْدِي بعد ما استمر الجيش ، فجئتُ منازلَهم وليس بها داعٍ ولا مجيب ، فأممت منزلي الذي كنتُ به ، وظننتُ أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي ، فبيناً أنا جالسة في منزلي غلبتْني عيني فنمتُ ، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش ، فأدلج ، فأصبح عند منزلي ، فرأى سوادَ إنسانٍ نائمٍ ، فأتاني فعرفني حين رآني ، وكان يراني قبل الحجاب ، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني ، فخمرتُ وجهي بجلبابي ، والله ما كلمني كلمة ولا سمعتُ منه كلمة غير استرجاعه ، حتى أناخ راحلته ، فوطئ على يديها فركبتُها ، فانطلق يقود بي الراحلةَ حتى أتينا الجيشَ بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة ، فهلك

من هلك ، وكان الذي تولّى الإفكَ عبدُ اللهِ بنُ أبي سلول ، فقدمنا المدينةَ ، فاشتكيتُ حين قدمتُ شهراً ، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريبني في وجهي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخل عليّ رسول الله ﷺ فيسلّم ثم يقول : « كيف تيكم » ثم ينصرف ، فذاك الذي يريبني ولا أشعر بالشر ، حتى خرجتُ بعدما نقهتُ ، فخرجتْ معي أُمُّ مسطح قبل المناصع ، وهو متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل ، وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط ، فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح ـ وهي ابنة أبي رهم بن عبد مناف ـ وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثاثة ، فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي وقد فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح في مرطها ، فقالت : تعس مسطح ، فقلت لها : بئس ما قلت ، أتسبين رجلاً شهد بدراً ؟ قالت : أي هنتاه ، أو لم تسمعي ما قال ؟ قالت : قلتُ : وما قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددتُ مرضاً على مرضي ، فلما رجعتُ إلى بيتي ودخل عليّ رسول الله ﷺ تعني سلّم علي ثم قال : « كيف تيكم ؟ » فقلت : أتأذن لي أن آتي أبوي ؟ قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما ، قالت : فأذن لي رسول الله ﷺ ، فجئت أبويّ ، فقلت لأمي : يا أمتاه ما يتحدث الناس ؟ قالت : يا بنية هوني عليك ،

فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ، قالت : فقلت : سبحان الله ، أو لقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيتُ تلك الليلةَ حتى أصبحتُ لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي ، فدعا رسول الله ﷺ علي بنَ أبي طالب وأسامةَ بنَ زيدٍ ـ رضي الله عنهم ـ حيث استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله ، قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال: يا رسول الله ، أهلك ، وما نعلم إلا خيراً ، وأما علي بن أبي طالب فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك ، قالت : فدعا رسول الله ﷺ بريرة ، فقال : « أي بريرة هل رأيتِ من شئ يريبك ؟ » قالت بريرة : لا والذي بعثك بالحق ، إن رأيت عليها أمراً أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها ، فتأتي الداجن فتأكله ، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبي بن سلول ، فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين ، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي ؟ فو الله ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي » فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال : يا رسول الله ، أنا أعذرك منه ، إن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، قالت : فقام سعد بن عبادة ـ

وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية ـ فقال لسعد : كذبت لعمر الله ، لا تقتله ولا تقدر على قتله ، فقام أسيد بن حضير ـ وهو ابن عم سعد بن معاذ ـ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتله ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت ، قالت : فمكثتُ يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، قالت : فأصبح أبواي عندي وقد بكيتُ ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع يظنان أن البكاء فالق كبدي ، قالت : فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنتْ علي امرأةٌ من الأنصار فأذنتُ لها ، فجلستْ تبكي معي ، قالت : فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس ، قالت : ولم يجلس عندي منذ ما قيل ما قيل ، وقد لبث شهراً لا يُوْحَى إليه في شأني قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال : « أما بعد ، يا عائشة ، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرؤك الله ، وإن كنت ألمت بذنب ، فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه » قالت : فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبي : أجب رسول الله ﷺ فيما قال ، قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت لأمي : أجيبي رسول الله ﷺ ، قالت : ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ ، قالت :

فقلت ـ وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن ـ : إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم : إني بريئة ـ والله يعلم أني بريئة ـ لا تصدقونني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر ـ والله يعلم أني منه بريئة ـ لتصدقنني ، والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف ، قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ ، قالت : ثم تحولت ، فاضطجعت على فراشي . قالت : وأنا حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئني ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يُتْلَى ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يُتْلَى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرؤني الله بها ، قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شات من ثقل القول الذي ينزل عليه ، قالت : فلما سري عن رسول الله ﷺ سُري عنه وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها : « يا عائشة ، أما الله عز وجل فقد برَّأَكِ » فقالت أمي : قُومِي إليه قالت : فقلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله عز وجل وأنزل الله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الأَثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ العشر آيات كلها . فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة

لقرابته منه وفقره : والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال ، فأنزل الله ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قال أبو بكر : بلى والله ، إني أحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً . قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش عن أمري فقال : يا زينب ، ماذا علمتِ أو رأيتِ ؟ فقالت : يا رسول الله ، أحمي سمعي وبصري ، ما علمت إلا خيراً ، قالت : وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ ، فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حمنة تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك)[1] .

الفوائد المستخرجة من هذه الغزوة :

الأولى : من بعث الرسول ﷺ لبريدة بن الحصيب إلى الحارث بن أبي ضرار ؛ ليتأكد من صحة ما بلغ الرسول ﷺ ، نأخذ منه أهمية التثبت والتبين في الأخبار وعدم العجلة ، فبعض الناس تستفزهم الأخبار فيتعجلون في أحكامهم ويتبين عدم صحة الخبر ، والمطلوب هو التثبت وعدم العجلة حتى يتم التأكد وظهور الحقيقة جلية .

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٨/٤٥٢- ٤٥٥ ، رقم (٤٧٥٠) .

الثانية : من الأحكام المستنبطة من هذه الغزوة جواز الإغارة على من بلغتهم دعوة الإسلام دون إنذار ، أما من لم تبلغهم دعوة الإسلام فتجب دعوتهم أولاً قبل قتالهم(١) .

الثالثة : من فوائد هذه الغزوة مشروعية العدل بين الزوجات ومن العدل إجراء القرعة بين الزوجات عند إرادة السفر ببعضهن كما فعل الرسول ﷺ في هذه الغزوة حيث أصابت القرعة عائشة فخرج بها(٢) مع أن القسم بين نسائه غير واجب عليه على الأرجح(٣) .

الرابعة : كان في زواجه ﷺ من جويرية بنت الحارث تكريماً لتلك القبيلة العربية التي كانت من أعز قبائل العرب وأكبرها قدراً وقد وقعوا في الأسر ، ولما علم الصحابة بتزوج الرسول ﷺ منهم قالوا : أصهار رسول الله ، فأطلقوا من بأيديهم من النساء والوِلدان ، وهو حل كريم

(١) أكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ٢/٤١٤ .

(٢) المرجع السابق ، وتستخدم القرعة إذا تزاحم عدد على من يقدم ولا يمكن اجتماعهم فيه ولا مميز لأحدهما عن الآخر أقرع بينهم ، فالقرعة تستخدم لتمييز المراتب المتساوية وكذلك تستخدم القرعة إذا علمنا أن الشئ لأحدهما وجهلناه مثل إذا طلق إحدى زوجاته أو أعتق أحد عبيده وجهل من وقع عليه الطلاق أو العتق أجريت القرعة فالقرعة حينئذ تستخدم لأمرين :

١ـ تمييز المراتب المتساوية . ٢ـ إزالة جهالة سبقها علم والله أعلم ، وانظر : السعدي ، القواعد في الأصول الجامعة ص ٦٧ ، القاعدة الخامسة والعشرين .

(٣) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٤ / ٢١٤ .

لهـذه المشـكلة الكـبيرة الـتي يـؤدي بقاؤهـا إلى إذلال هـذه القبـيلة العظيمة ، ولقد كان لهذا الحل أثره الكبير عليهم حيث أقبلوا مسلمين راغبين في الدخول في الدين[١] .

الخامسة : كانت هذه الضربة التي وُجِّهَتْ إلى بني المصطلق قد أعطت درساً لكل من يفكر أن يتجرأ على المسلمين بعد غزوة أحد ، حيث إن هذه الضربة كفّت الكثير من القبائل العربية عن خطوات مماثلة وجعلتها تشعر أن المسلمين قادرون على حماية أنفسهم ورد الاعتداء عنهم بقوة وأن وقعة أحد لم تؤثر عليهم[٢] .

السادسة : لما اختلف الأنصاري والمهاجري على الماء وقال الأنصاري : يا للأنصار وقال المهاجري : يا للمهاجرين ، وكاد القتال يقع قال الرسول ﷺ : « دعوها ، فإنها منتنة » أيضا نقول : دعوا هذه الدعاوى والانتماءات والولاءات القبلية والحزبية ، فلا يقال : (يا لفلان) ؛ لأنها من دعوى الجاهلية وقد جعل الله المؤمنين إخوة وحزباً واحداً ، فإنما ينبغي أن تكون الدعوة (يا للمسلمين) فقط دون غيرها من سائر الانتماءات والولاءات[٣] .

---

(١) انظر : عبد العزيز المسند ، النهج المحمدي ص١٦١ ، وأبو شهبة ، السيرة النبوية ٢/ ٢٥٣-٢٥٤ .

(٢) انظر : محمد سعيد القرافي ، الدروس الدعوية في غزوة بني المصطلق ص ١٩ (بحث غير منشور) .

(٣) انظر : السهيلي ، الروض الأنف ٤/١٧ ، والشامي ، سبل الهدى ٤/٥٠٤ .

السابعة : حكمة الرسول ﷺ في التعامل مع المنكر الذي وقع من كبير المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ، فمع وجود القرائن على مقالته تلك لم يوافق الرسول ﷺ على طلب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قتله ، ومن ذلك يتقرر أن المنكر لا يُزَالُ بمنكر مثله أو أكبر منه ، ولكن عند عدم التمكن من إزالته بالكلية نلجأ إلى إزالة القدر المستطاع إزالته مع مراعاة المصلحة الراجحة في ذلك [١] .

الثامنة : من موقف عبد الله بن أبي بن سلول الذي تصدر إيذاء الرسول ﷺ وتزعَّم المنافقين في المدينة وواجه منه المسلمون في المدينة العنت والمشقة ، نتذكر في هذا الرجل قول عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ : (كان يوم بُعَاث [٢] يوماً قدمه الله لرسول الله ﷺ ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملأهم وقتلت سرواتهم [٣] وجرحوا ، فقدمه الله لرسول الله ﷺ في دخولهم الإسلام) [٤] حيث مهَّد الله سبحانه وتعالى لهذه الدعوة بقتل من كان يتكبر ويأنف أن يدخل في الإسلام ، يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (فقتل منها من

---

(١) انظر: محمد سعيد القرافي ، الدروس الدعوية في غزوة بني المصطلق ص ٣٤ (بحث غير منشور) .

(٢) بُعَاث : بضم الموحدة وتخفيف المهملة وهو مكان عند بني قريظة على ميلين من المدينة وكانت به وقعة بين الأوس والخزرج فقُتِلَ فيها كثيرٌ منهم ، فتح الباري ١١١/٧ .

(٣) سرواتهم : أي خيارهم ، المرجع السابق .

(٤) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر ٧ / ١١٠ ، رقم ٣٧٧٧ .

أكابرهم من كان لا يؤمن ، أي يتكبّر ويأنف أن يدخل في الإسلام حتى لا يكون تحت حكم غيره ، وقد كان بقي منهم من هذا النحو عبد الله بن أبيّ بن سلول)[١] ونأخذ من هذا أمرين :

الأول : أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتولّى أمرَ هذا الدينِ ، وعلى المؤمن أن يفعل الأسباب ، فالله سبحانه وتعالى هو الذي كتب هذا القتال في المدينة ؛ لكي يفرح الأنصار بمقابلة الرسول ﷺ ويرجوا أن يجمعهم الله بالرسول ﷺ بعد نزاعهم الدامي المر الذي حصل بينهم وهو سبحانه الذي جعل في هذا القتال ما يزيل عقبة من عقبات الدعوة في المدينة وهم أولئك الملأ أمثال عبد الله بن أبي بن سلول في المدينة وأمثال أبي جهل في مكة حيث سلط أهل المدينة بعضهم على بعض ؛ لِيُقْتَلَ الكِبَارُ الذين يتكبرون ويأنفون من الدخول في الإسلام ويعيقون غيرهم من الدخول فيه .

الثاني : بقاء عبد الله بن أُبَيّ بن سلول وهو من هذا النوع ؛ لكي نتذكر نعمة الله سبحانه وتعالى ونعرف رعاية الله سبحانه وتعالى لهذه الدعوة وأن العشرات من أمثال ابن أبي كانوا لو بقوا على قيد الحياة حتى مجيء الرسول ﷺ سيقولون مثل قوله ويفعلون مثل فعله ، لكن الله سبحانه بتدبيره ونصره للمؤمنين كفاهم شر هؤلاء وأبقى واحداً

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ١١١ .

منهم يذكر بهم والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[١] .

التاسعة : بمناسبة هذه الحادثة من المنافقين أود أن أقف الوقفات السريعة التالية عن المنافقين في عهد الرسول ﷺ :

أ) إنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية ؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه ، فقد كان من الناس من يظهر الكفر مستكرهاً ، وهو في الباطن مؤمن[٢] .

ب) أن النفاق علامة من علامات قوة هذا الدين[٣] فنفاقهم نتيجة خشيتهم قوة المسلمين وعند ضعف المسلمين يجاهر كل بمبدأه وعقيدته .

ت) ولذلك فأول منشأ النفاق في المدينة بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين الكبير على المشركين[٤] .

ث) أن المنافقين أخطر صنف على المسلمين[٥] ؛ لأن المسلمين لا يُؤْتَوْنَ في معظم ما يصيبهم من الشر إلا من قِبَلِ المنافقين .

---

(١) سورة البقرة ، الآية رقم (١٣٧).

(٢) انظر : ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ١ / ٤٧ ، وانظر : ابن تيمية ، منهاج السنة ٤٧٦/٨ ، وقارن بوجهة نظر أخرى للدكتور عبد العزيز الحميدي في كتابه (المنافقون في القرآن) ص ١٠٠ .

(٣) انظر : عبد الرحمن الدوسري ، النفاق ص ٥ (المقدمة) .

(٤) المرجع السابق .

(٥) المرجع السابق ص ٧١ .

ج) تاريخ المنافقين في عهد الرسول ﷺ شاهد على تآمرهم مع اليهود ومع مشركي مكة على حرب المسلمين ومحاولة القضاء عليهم [١] .

ح) الحديث عن المنافقين في القرآن الكريم ورد في سبع عشرة سورة من السور المدنية البالغ عددها ثلاثين سورة تقريباً .

خ) أن المنافقين دائمو القلق والخوف ، قلوبهم خالية من الإخلاص ، أعمالهم تنطوي على نية خبيثة كلما هتف امرؤ ظنوا أنه يهتف ضدهم [٢] يقول الله تعالى عنهم : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ ثم أعقبها بكلمة مهمة تعريهم قال تعالى : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [٣] .

د) وصفهم ابن القيم ــ رحمه الله تعالى ــ في كتابه مدارج السالكين فقال :

١. لكل منه وجهان وجه يلقى به المؤمنين ووجه ينقلب به إلى إخوانه الملحدين وله لسانان أحدهما يقبله بظاهره المسلمون ، والآخر يترجم له عن سره المكنون ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [٤] [٥] .

---

(١) انظر : محمد عزة دروزة ، سيرة الرسول ﷺ ٢ / ٧٦ و٨٩ .
(٢) انظر : عبد الرحمن الدوسري ، النفاق ص ٩٣ .
(٣) سورة المنافقين ، الآية رقم (٤) .
(٤) سورة البقرة ، الآية رقم (١٤) .
(٥) ابن القيم ، مدارج السالكين ١ / ٢٥٠ ، تحقيق محمد حامد الفقي .

٢. يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن ، فإن كان لهم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ؟ وأقسموا على ذلك بالله جَهْدَ أيمانِهم وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب قالوا : ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم ، وأن النسب بيننا قريب ، فيا من يريد معرفتهم خذ صفاتهم من كلام رب العالمين فلا تحتاج بعده دليلا ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ (١) .

ذ) نلحظ اهتمام القرآن الكريم بذكر أوصاف المنافقين والإعراض عن أسمائهم ، وفي هذا إشارة خفية إلى أن هذا النوع من البشر يتجدد وجوده ويتسمى بأسماء مختلفة ، فأراد من عدم ذكر الأسماء أن يلفت نظر الناس إلى الخصائص المميزة لهم مع غض الطرف عن أسمائهم ومحدداتهم (٢) .

ر) أن المنافقين كما هذه هي أوصافهم الدنيئة في الدنيا فلهم أيضاً الدرك الأسفل من النار يوم القيامة قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرا ﴾ (٣) .

---

(١) سورة النساء ، الآية رقم (١٤١) ، والمرجع السابق ص ٢٥٢ .

(٢) انظر : عبد الكريم بكار ، فصول في التفكير الموضوعي ص ٧٢ .

(٣) سورة النساء ، الآية رقم (١٤٥).

العاشرة : حكمة الرسول ﷺ في عدم قتله لعبد الله بن أبي وقوله : « إذاً يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » ومنه نأخذ مشروعية الدفع عن العرض ، فالمسلم لا يعرض عرضه للحديث فيه ، ولو كان القائل مخطئاً ، بل عليه أن يجتنب ما استطاع تلك المواقف التي تجعله عرضةً لحديث الناس . ويشبه هذا قول الرسول ﷺ للرجلين لما رأياه في الليل في الطريق ومعه امرأة قال لهما : « على رسلكما ، إنها هي صفية بنت حيي » فقالا : سبحان الله يا رسول الله وكبر عليهما ، فقال النبي ﷺ : « إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغَ الدَّمِ وإني خشيتُ أن يقذف في قلوبكما شيئاً »[1] قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (وفيه التحرز من سوء الظن ... قال ابن دقيق العيد : وهذا متأكد في حق العلماء ، ومن يُقْتَدَى بهم ، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلاً يوجب سوء الظن بهم وإن كان لهم فيه مخلص ؛ لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم)[2] .

الحادية عشرة : حكمة الرسول ﷺ في إشغال الناس عن الحديث في هذه المقالة التي قالها عبد الله بن أبيّ ، حيث جدّ بالسير حتى تعب الناس ، ثم شغلوا بالنوم عن الحديث في هذا الموضوع الذي يريد الرسول ﷺ صرفهم عن الحديث فيه .

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٤ / ٢٧٨ ، رقم ٢٠٣٥ .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ٤ / ٢٨٠ .

الثانية عشرة : في استئذان عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول في أن يتولّى هو قتلَ أبيه إن كان النبي ﷺ يريد قتله يقول السهيلي : (وفي هذا العلم العظيم والبرهان النير من أعلام النبوة ، فإن العرب كانت أشد خلق الله حمية وتعصباً ، فبلغ الإيمان منهم ونور اليقين من قلوبهم إلى أن يرغب الرجل منه في قتل أبيه ووالده تقرباً إلى الله وتزلفاً إلى رسول الله ﷺ ، مع أن الرسول ﷺ أبعد الناس نسباً منهم)[(١)] .

الثالثة عشرة : في قصة الإفك عندما رأى صفوان ؓ عائشة ـ رضي الله عنها ـ استرجع ولم يخاطبها ولم يتكلم معها يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ: (فيه دلالة على فطنة صفوان وحسن أدبه)[(٢)] .

الرابعة عشرة : في حادثة الإفك توضيح دقيق لبشرية الرسول ﷺ ، فقد تأثر أبلغ التأثر لرمي المنافقين زوجه ومع حرصه عليها وحبه لها ولأبيها ، فإنه لم يتمكن من الكشف عن الغيب أو استحضار الوحي الذي انقطع عنه شهراً ؛ ليجري عليه الابتلاء والامتحان[(٣)] وهذا يدل على بشريته ﷺ وأن الوحي من عند الله سبحانه وتعالى وهو الذي يعلم الغيب قال تعالى في شأن الرسول ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾[(٤)] فالرسول ﷺ بشر لكنه يتميز عن غيره بأنه عليه الصلاة والسلام يُوْحَى إليه .

---

(١) السهيلي ، الروض الأنف ٤ / ١٨ ، والشامي ، سبل الهدى ٤/ ٥٠٥ .
(٢) ابن حجر ، فتح الباري ٨/٤٦٣ .
(٣) أكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ٢/٤١٥ .
(٤) سورة الكهف ، الآية رقم (١١٠).

الخامسة عشرة : في حادثة الإفك فضيلة ظاهرة عظيمة لأم المؤمنين عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ حيث نزلت براءتها بنص قرآني يُتْلَى إلى يوم القيامة وإن كانت ـ رضي الله تعالى عنها ـ تقول : (ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يُتْلَى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرؤني الله بها) لكن هذا شأنها في نفسها وهذا من تواضعها ـ رضي الله عنها ـ وشأنها عند الله جل شأنه وعند المؤمنين عظيم جداً ، وازداد عند المؤمنين بهذه البراءة المتلوة على ألسنة أهل القرآن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

السادسة عشرة : في حادثة الإفك بيان لمكانة المرأة وعظم شأنها في الإسلام ، فقد نزلت هذه الآيات التي تُتْلَى في كتاب الله إلى يوم القيامة في شأن تبرئة امرأة .

السابعة عشرة : في حادثة الإفك بيان لعظمة العرض ، فلا يصح التهاون فيه ، إذ موضوع الآيات التي نزلت في تبرئة عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ في عرضها .

الثامنة عشرة : في حادثة الإفك شؤم الحرص على الدنيا يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (فيه شؤم الحرص على المال ؛ لأنها لو لم تُطل في التفتيش لرجعت بسرعة فلما زاد على قدر الحاجة أثر ما جرى)[١] .

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٨/ ٤٧٩ .

التاسعة عشرة : في قصة الإفك درس في التعامل مع الإشاعة ، فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[(١)] .

يقول ابن كثير ــ رحمه الله تعالى ــ : (نزلت في أبي أيوب الأنصاري وامرأته ـ رضي الله عنهما ـ فإن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس عن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ــ ؟ قال : نعم ، وذلك الكذب ، أكنتِ فاعلةً ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ما كنت لأفعله ، قال : فعائشة والله خير منك)[(٢)] .

المسلم يظن بأخيه الظن الحسن ، ولا يقبل أي خبر جارح إلا بالبينة الكافية وإلا فهو عند الله من الكاذبين .

العشــرون : في حادثة الإفك عظمة عقوبة الذين يحبون إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا ، ولا شك أن الذين يشيعونها فعلاً أشد عقوبة ، وأشد منهم عقوبة الذين يشيعونها زوراً وبهتاناً واختلاقاً .

الحاديــة والعشــرون : يقول الزمخشري في الكشاف : (ولو فليت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلّظ في

---

(١) سورة النور ، الآيتان رقم (١٢ - ١٣) .
(٢) الرفاعي ، تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ٣ / ٢٦٦ .

شيء تغليظَه في إفك عائشة ـ رضوان الله عليها ـ ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك ، واستفظاع ما أقدم عليه ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة كل واحد منها كاف في بابه ، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً ، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة ، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا ، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله حتى يعلموا عند ذلك (أن الله هو الحق المبين) فأوجز في ذلك وأشبع وفصَّل وأجمل وأكّد وكرَّر وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة وما ذاك إلا لأمر ... وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه كان بالبصْرة يوم عرفة ، وكان يُسْأَلُ عن تفسير القرآن حتى سُئِلَ عن هذه الآيات فقال : من أذنب ذنباً ثم تاب منه قُبِلَتْ توبتُه ، إلا من خاض في أمر عائشة ، وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك . ولقد بَرَّأَ اللهُ تعالى أربعةً بأربعةٍ : بَرَّأَ يوسفَ بلسان الشاهد ، وشهد شاهد من أهلها ، وبَرَّأَ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه ، وبَرَّأَ مريمَ بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها : إني عبد الله ، وبَرَّأَ عائشةَ بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات . فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك ، وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة

رسول الله ﷺ والتنبيه على إنافة محل سيد ولد آدم وخير الأولين والآخرين وحجة الله على العالمين ، ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه ﷺ وتقدم قدمه وإحرازه قصب السبق دون كل سابق فليتلق ذلك من آيات الإفك وليتأمل كيف غضب الله له في حرمته وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه)[١] .

الثانية والعشرون : قول علي ﷺ لما استشاره الرسول ﷺ في قصة الإفك ، قال العلماء : إنما رأى علي ﷺ من النبي ﷺ انزعاجاً وقلقاً ، فأراد راحة خاطره ومما يدل على أنهم كانوا يرون انزعاج خاطره أشد عليهم من كل أمر : أن عمر ﷺ لما قال للأنصاري : أجاء الغساني ؟ قال : بل أشد ، اعتزل الرسول ﷺ نساءه[٢] .

❁❁❁

(١) الزمخشري ، الكشاف ٣/٥٦-٥٧ .

(٢) محمد بن عمر بحرق ، حدائق الأنوار ص ٣٠٠ .

المبحث السادس

فقه السيرة في غزوة الأحزاب

وتُسَمَّى غزوةَ الخندقِ نسبةً إلى الخندق الذي حفره المسلمون فيها (وهي الغزوة التي ابتلى الله فيها عباده المؤمنين وبعث الإيمان في قلوب أوليائه المتقين ، وأظهر ما كان يبطنه أهل النفاق وفضحهم وفزّعهم ، ثم أنزل الله تبارك وتعالى نصره ، ونَصَرَ عبدَه ، وهزم الأحزابَ وحده ، وأَعَزَّ جندَه ، وردَّ الكفرة بغيظهم ووقى المؤمنين شرَّ كيدِهم ، وحرم عليهم شرعاً وقدراً أن يغزوا المؤمنين بعدها ، بل جعلهم المغلوبين وجعل حزبه هم الغالبين) [١] .

قال ابن إسحاق : كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس من الهجرة [٢] وسبب هذه الغزوة أن النبي ﷺ لما أجلى بني النضير ، وساروا إلى خيبر وبها من يهود قوم أهل عدد وجند ، وليس لهم من البيوت والأحساب ما لبني النضير ، فخرج حيي بن أخطب وكنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس الوائلي وأبو عامر الفاسق في جماعة سواهم إلى مكة ، فدعوا قريشاً وأتباعهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وهم الذين حزبوا الأحزاب ، فقالوا لقريش : نحن معكم حتى

---

(١) الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٤/٥١٢

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة المطبوعة مع الروض الأنف ٣/٢٥٨ .

نستأصل محمداً ، جئنا نحالفكم على عداوته وقتاله ونشطت قريش لذلك وفرحت به [(١)] .

ثم خرجوا إلى غطفان ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وخرجوا كذلك إلى بني سليم فوعدوهم المسير معهم إذا خرجت قريش .

وخرج أبو سفيان بقريش ومن اتبعه من قبائل العرب وخرجت بنو سليم بقيادة سفيان بن عبد شمس وخرجت غطفان بقيادة عيينة بن حصين وبنو مرة بقيادة الحارث بن عوف ، وأشجع بقيادة مسعر بن رخيله [(٢)] وتجمع بهذا جمع عظيم متجه إلى المدينة ذكر أهل السير أن عدتهم عشرة آلاف رجل [(٣)] والجميع بقيادة أبي سفيان بن حرب .

ولما علم الرسول ﷺ بخبر هذه الجموع شاورهم في الأمر ، فأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بالخندق فأعجبهم ذلك وأحبوا الثبات في المدينة .

فعمل الرسول ﷺ يومئذ الخندق ، وندب الناس وجعل المسلمون يعملون مستعجلين يبادرون قدوم العدو عليهم ، واستعاروا من بني قريظة آلة كثيرة من مساحي وكرازين ومكاتل للحفر .

قال الشامي : (وروى الطبراني بإسناد لا بأس به عن عمرو بن عوف المزني أن رسول الله ﷺ خط الخندق من أجَم الشيخين طرف بني حارثة حتى بلغ المذاد فقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً) [(٤)] .

---

(١) انظر : الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٤/٥١٢ .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة المطبوعة مع الروض الأنف ٣/٢٥٩ .

(٣) انظر : الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٤/٥١٤ .

(٤) الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٤/٥١٥ .

قال الواقدي : (وكان الخندق بطول القامة وكان المهاجرون والأنصار ينقلون على رؤوسهم المكاتل وكانوا إذا رجعوا بالمكاتل جعلوا فيها الحجارة يأتون بها من قبل سلع ، وكانوا يجعلون التراب مما يلي النبي ﷺ وأصحابه)[١] وكان من فرغ من حصته عاد إلى غيره فأعانه حتى كمل الخندق .

ولم يتأخر عن العمل في الخندق أحد من المسلمين وكان أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ ينقلان التراب في ثيابهما إذ لم يجدا مكاتل من العجلة وكانا لا يفترقان في عمل ولا مسير ولا منزل .

وعن سهل بن سعد ﷺ قال : (كنا مع رسول الله ﷺ في الخندق ، وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتافنا ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ، فاغفر للمهاجرين والأنصار »[٢] .

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال : (إنا يوم الخندق نحفر فعرضت لنا كدية شديدة ، فجاءوا للنبي ﷺ فقالوا : هذه كدية عرضت في الخندق ، فقال : إني نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا ، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب في الكدية ، فعاد كثيبا أهيل أو أهيم ، فقلت : يا رسول الله ائذن لي إلى البيت ، فقلت لامرأتي : رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر

---

(١) الواقدي ، المغازي ٢/٤٤٦ .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧/٣٩٢ ، رقم ٤٠٩٨ .

، فعندك شيء ؟ فقالت : عندي شعير وعناق فذبحت العناق ، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم على البرمة ، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر ، والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج ، فقلت طعيم لي ، فقم أنت يا رسول الله و رجل أو رجلان ، قال: « كم هو ؟ » فذكرت له ، فقال : « كثير طيب » قال : « قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي » فقال : « قوموا » فقام المهاجرون والأنصار ، فلما دخل على امرأته ، قال : ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم ، قالت :هل سألك ؟ قلت : نعم ، فقال : ادخلوا ولا تضاغطوا ، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه ، ثم ينزل فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية ، قال : « كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة »)[1] وورد في رواية أخرى للبخاري أن عددهم ألف[2] .

وقال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : وجاء بإسناد حسن من حديث البراء بن عازب قال : (لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول ، فاشتكينا ذلك إلى النبي ﷺ فجاء فأخذ المعول فقال : « بسم الله »

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٣٩٥/٧ ، رقم ٤١٠١ .
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٣٩٦/٧ ، رقم ٤١٠٢ .

فضرب ضربة فكسر ثلثها ، وقال : « الله أكبر أُعْطِيْتُ مفاتيحَ الشامِ والله إني لأبصر قصورَها الحمر الساعة » ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر ، فقال : « الله أكبر أُعْطِيْتُ مفاتيحَ فارس والله إني لأبصر قصرَ المدائنِ الأبيضَ » ثم ضرب الثالثة وقال : « بسم الله » فقطع بقية الحجر ، فقال : « الله أكبر أُعْطِيْتُ مفاتيحَ اليمنِ والله إني لأبصر أبوابَ صنعاءَ من مكاني هذا الساعة »)[1] .

وقال البراء ﷺ : (لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدة بطنه ، وكان كثير الشعر فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب يقول :

والله لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فَأَنْزِلَنْ سكينةً علينا ... وثبِّتِ الأقدامَ إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

قال : ثم يمد صوته بآخرها[2] .

وصورت آيات سورة الأحزاب أحوال المنافقين وأساليبهم في التهرب من الاشتراك في حفر الخندق[3] ، ولما فرغ رسول الله ﷺ من

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٣٩٧/٧ .
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٣٩٩/٧ ، رقم ٤١٠٦ .
(٣) سورة الأحزاب ، الآيات من (١٣-٢٠) ، والآيات الأخيرة من سورة النور .

عمل الخندق استخلف على المدينة ابنَ أم مكتوم ، ووضع النساء والأطفال في الأطم .

ونزل أمام سلع فجعله خلف ظهره والخندق أمامه [١] وأقبلت قريش حتى نزلت بمجمع الأسيال من رومة في أحابيشها ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمي إلى جانب أحد .

ثم خرج عدو الله حيي بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاهده فلما سمع بمجيء حيي بن أخطب أغلق الباب دونه ولكنه لم يزل به حتى فتح الباب له ثم نقض العهد مع الرسول ﷺ [٢] .

فلما بلغ رسولَ اللهِ ﷺ الخبرُ بعث سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير وقال : « انطلقوا حتى تنظروا أَحَقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقاً فالحنوا إلي لحناً أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس » فخرجوا ، فوجدوهم قد نقضوا العهدَ ، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فقال سعد بن عبادة : عضل والقارة يعني كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع وسكت الباقون ، فقال الرسول ﷺ : « أبشروا يا معشر المؤمنين بنصر الله تعالى وعونه » [٣] .

---

(١) انظر : الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٤/٥٢٣ .

(٢) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣/٢٧٢ .

(٣) انظر : الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٤/٥٢٨ .

واشتد الخوف وعظم البلاء وخيف على الذراري والنساء وكانوا كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ (١) .

ورسول الله ﷺ والمسلمون قبالة عدوهم ، لا يستطيعون الزوال عن مكانهم يعتقبون خندقهم يحرسونه ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ، فقال بعضهم : كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط .

كان المسلمون يتناوبون حراسة نبيهم وكانوا في قر شديد وجوع وكان ليلهم نهاراً .

وكان المشركون يتناوبون فيما بينهم ، فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يوماً ويغدو خالد بن الوليد يوماً ويغدو عكرمة يوماً وهكذا .

ولما بلغ الرسول ﷺ نقضُ بني قريظة للعهد أرسل إلى عيينة ابن حصن والحارث بن عوف وهما قائدا غطفان وأراد مصالحتهما على ثلث تمر المدينة ، ودعا الرسول ﷺ السعدين سعد بن معاذ وسعد ابن عبادة ـ رضي الله تعالى عنهما ـ فاستشارهما فقالا : يا رسول الله ، إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة ، وإن كان شيئاً تصنعه لنا ، فلا حاجة لنا فيه ، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية رقم (١٠) .

وهـم لا يطمعـون أن يأكلوا منه تمرة إلا قرى أو بيعاً ، فقطع رسول الله ﷺ المفاوضة مع الأعراب[١] .

وقـال الرسـول ﷺ في دعائـه وهـو يدعـو الله عـلى الأحـزاب : « اللـهم مُنَزِّلَ الكتـابِ سـريعَ الحسـابِ اهْـزِمِ الأحـزابَ ، اللهـم اهزمهـم وزَلْزِلْهُمْ »[٢] .

وظلـت مناوشـات المشركين للمسلمين وتراشقهم معهم بالنبل دون انقطاع طيلة مدة الحصار حتى إنهم شغلوا المسلمين يوماً عن أداء صلاة العصر فصلوها بعد غروب الشمس.

وفشلت محاولات المشركين في اقتحام الخندق وقُتِلَ من اقتحمه مثل عمرو بن عبدود الذي قتله علي بن أبي طالب ﷺ[٣] وفر الباقون لما رأوا قتله وقُتِلَ أيضاً نوفلُ المخزومي[٤] .

واستُشْـهِدَ مـن المسـلمين ستةٌ مـنهم سـعد بـن معـاذ ﷺ واسـتمر الحصار لمدة أربع وعشرين ليلة .

وكما قال الله جل شأنه في كتابه الكريم فقد كفى الله المؤمنين القتال وهـيأ من شأنه وسيلتين أولاهما جهود نعيم بن مسعود ﷺ الذي أسلم دون أن يشعر قومـه بذلـك ، فسعى بإذن الرسـول ﷺ إلى التفريق بين

---

(١) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٢٧٣/٣ .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٤٠٦ ، رقم ٤١١٥ .

(٣) انظر : الواقدي ، المغازي ٤٧١/٢ .

(٤) المرجع السابق .

اليهود في قريظة والمشركين حيث ذكر لبني قريظة أن لا يبدؤا الحرب ضد محمد ﷺ إلا إذا أعطتهم قريش رهائن كي لا يذهبوا ويتركوهم ، ونصح قريشاً بأن قريظة قد ندمت على نقضها العهد وقال : إنهم سيطلبون رهائن ثم يسلمونها إلى محمد دليلاً على توبتهم من نقض العهد ، وهكذا فرَّق الله قلوب هذا الجمع وأنشأ بينهم التخاذل وسوء الظن [1] .

أما الوسيلة الثانية فهي الريح الشديدة التي لم تَدَعْ لجيش المشركين خيمةً إلا أسقطتها ولا قِدْراً إلا أكفأته ولا ناراً إلا أطفأتها [2] حتى اضطروا لإعلان الرحيل يجرون أذيال الخيبة والفشل ، وكانت نعمة من الله تعالى ونصراً للمؤمنين كما قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ [3] إلى أن قال جل شأنه :﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ﴾ [4] .

ولم تكن هذه الهزيمة التي عاد بها الأحزاب هزيمة مؤقتة بل بشَّر النبي ﷺ أصحابه بأنهم لن يغزوا المسلمين بعد هذه الغزوة ، بل

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف ٣/٢٦٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٦٦ .
(٣) سورة الأحزاب ، الآية رقم (٩).
(٤) سورة الأحزاب ، الآية رقم (٢٥).

المؤمنون هم الذين يغزونهم ، عن سليمان بن صرد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم »[١] .

الفوائد الدعوية من هذه الغزوة :

الأولى : لقد خرج قادة اليهود من خيبر إلى مكة وإلى المشركين من قبائل العرب والتقوا جميعاً على حرب الرسول ﷺ ، فمع اختلاف أديانهم وعقائدهم إلا أن حرب الإسلام والمعاداة لهذا الدين جمعتهم ، فالكفر ملة واحدة وكلهم أعداء لهذا الدين لا يَأْلُوْنَ جُهْداً في محاربته ومعاداته .

الثانية : لما علم الرسول ﷺ بخبر الأحزاب شاور أصحابه ﷺ ، ولم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ[٢] .

قال شيخ الإسلام بن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ : (وقد قيل : إن الله أمر بها نبيه ؛ لتأليف قلوب أصحابه وليقتدي به من بعده ، وليستخرج منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحي من أمر الحروب ، والأمور الجزئية ، وغير ذلك ، فغيره ﷺ أولى بالمشورة)[٣] .

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر ٤٠٥/٧ ، رقم ٤١١٠ .

(٢) انظر : ابن تيمية ، السياسة الشرعية ص ١٥٨ .

(٣) المرجع السابق .

الثالثة : من قصة حفر الخندق نأخذ الاستفادة مما لدى الغير مما لا يتعارض مع ديننا ، فقد أخذ الرسول ﷺ فكرة حفر الخندق من سلمان الفارسي رضي الله عنه الذي نقلها عن الفرس حيث قال : (كنا إذا خفنا الخيل خندقنا حول أنفسنا) فالاستفادة مما لدى الغير مطلوبة بشرط أن لا يقبل المسلم شيئاً يتعارض مع مبادئ دينه .

الرابعة : مشاركة الرسول ﷺ بنفسه مع أصحابه رضي الله عنهم في حفر الخندق فقد كان ينقل التراب معهم ﷺ ، وبهذا فعلى الداعية إلى الله إذا أمر بخير أن يكون أول المبادرين إليه وأول المساهمين فيه ، فلا يكفي بل ولا يصح أن يكون الداعية إلى الله آمراً بالمعروف دون أن يكون هو أول العاملين به ، والله سبحانه وتعالى يقول :﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[1] .

ولا شك أن التطبيق على النفس والبداءة بها أمر شاق ولكنه أقوى الأساليب للتأثير وإيجاد القدوة الحسنة لمن حوله .

الخامسة : في هذه الغزوة وقد أقبلت جيوش الأحزاب من كل جهة وبدأ المسلمون يحفرون الخندق يطوّقون به المدينة كي لا يدخلها العدو ، يأتي الرسول المصطفى ﷺ وينزل في الخندق ؛ ليكسر صخرة اعترضت طريق الحفر ويضرب بيده الشريفة بالمعول تلك الصخرة ويقول للناس والجيوش مقبلة من كل صوب ؛ لتحاصر المدينة : « الله

---

(١) سورة البقرة ، الآية رقم (٤٤).

أكبر أُعْطِيْتُ مفاتيحَ الشامِ ، والله إني لأبصر قصورَها الحمراءَ الساعةَ ، ثـم ضـربها الثانية فقـال : الله أكبر ، أُعْطِيْتُ مفاتيحَ فارسٍ والله إني لأبصر قصرَ المدائنِ أبيضَ ، ثم ضرب الثالثة وقال : الله أكبر أُعْطِيْتُ مفاتيحَ اليمنِ والله إني لأبصر أبوابَ صنعاءَ من مكاني هذه الساعة » أي تثبيت للقلوب الوجلة بعد هذا التثبيت ، أي وعد للمؤمنين بعد هذا الوعد الصادق من المصطفى ﷺ ، نعم هو رسول الله ﷺ ، ولكن لماذا توقيت هذا الوعد ليقوله في هذا المكان ؟ لماذا هذا التوقيت لهذا الوعد الصادق من الرسول ﷺ في هذه الشدة ؟ والرسول ﷺ يواجه القبائل الزاحفة على المدينة يقول هذا القول !!! فتوقيته يحمل توجيهاً للأمة أن تُرَكِّزَ على تثبيت القلوب وطمأنتها وإذهاب الفزع والخوف عنها في الشدائد .

إن الناس في الأزمات بحاجة إلى من يُثَبِّتُهُمْ ، لا من يُخَوِّفُهُمْ ، لا من يقول لها : (لا مقام لكم فارجعوا) ، ولا (ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) .

إن الأمة بحاجة إلى مُثَبِّتِينَ لا مثبطين ومُرْجِفِينَ ، إن الأمة بحاجة إلى من يقوِّي ثقتَها وإيمانَها بربها ويُرَسِّخُ عقيدتَها ويشدها نحو دين الله .

السادسة : في الأمور الجدية يظهر وينكشف المنافقون ، ذلك أن حفر الخندق مع شدة الجوع وإقبال العدو والخوف على الذراري أمر لا يقدم عليه إلا الصادق ، أما ما عدا ذلك فيتسللون إلى أهليهم ويتركون

الرسول ﷺ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[(١)].

السابعة: شؤم الصديق السيئ، فإن كعب بن أسد زعيم بني قريظة كان في مأمن وعهد مع الرسول ﷺ لكن جاء إليه صديق مشؤوم، صديق السوء، وهو حيي بن أخطب فما زال به حتى نقض العهد الذي بينه وبين الرسول ﷺ وجاهر بالخيانة، وبسببه كانت نهاية قومه كما سيتبين ذلك عند الحديث عن غزوة بني قريظة.

وهكذا قرين السوء والجليس السيئ والصديق المشؤوم لا يأتي بخير والرسول ﷺ يقول: « مَثَلُ الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد، لا يعدمنك صاحب المسك إما أن تشتريه أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بيتك أو ثوبك أو تجد منه ريحاً خبيثة »[(٢)].

الثامنة: لما بلغ الرسولَ ﷺ خبرُ بني قريظة بعث إليهم أربعةً من الصحابة؛ ليتأكد من صحة ما نُسِبَ إليهم، وهكذا المؤمن يتثبَّت فيما يبلغه من الأخبار ولا يتعجَّل، وقد أوردنا قصصاً مماثلةً لهذا فيما سبق.

---

(١) سورة النور، الآية رقم (٦٣).

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٤/٣٢٣، رقم ٢١٠١، وصحيح مسلم ٤/ ٢٠٢٦، رقم ٢٦٢٨ واللفظ للبخاري.

التاسعة : أوصى الرسول ﷺ الصحابة الذين ذهبوا إلى بني قريظة ؛ ليتأكدوا من الخبر بأن يلحنوا له لحناً يفهمه الرسول ﷺ ولا يفهمه الصحابة الآخرون إن كانت بنو قريظة نقضت العهد ، وإن كانوا لم ينقضوا العهد أعلنوا ذلك للناس ، وهكذا أمور السوء لا تُعْلَنُ ولا يُتَحَدَّثُ بها ولا تُفْشَى بين الناس ، فإن هذا من الإرجاف والتخويف للناس وهو أمر يَسُرُّ العدوَ ، ويفرح به ، ويُحْزِنُ المؤمنين ، أما لو كان الأمر على عكس ذلك حينما يكون أمر خير ، فإنه يُعْلَنُ لتقوية نفوس المسلمين ، ولهذا ينبغي على الشخص ، أن يحفظ لسانه من الحديث حتى ولو كان الحديث صدقاً فليس كل ما يعلم يقال ، وليس كل ما يقال يقال على كل حال . فإن المؤمنَ كَيِّسٌ فَطِنٌ يدرك آثارَ كلامِه ، فإذا كان يؤدي إلى ضرر كف عن الحديث بل وكتمه ومنع الناس من الحديث فيه .

العاشرة : في غزوة الأحزاب حصلت معجزات للرسول ﷺ من تكثير طعام جابر حتى أطعم أكثر من ألف رجل وفي تبشيره بفتح بلاد فارس وبلاد الشام واليمن ، وغيرها من المعجزات الأخرى .

الحادية عشرة : في استشارة الرسول ﷺ للسعدين في إعطاء بعض تمر المدينة لغطفان كي يرجعوا وقول السعدين في ذلك ، نستفيد منه حدود الرأي ، فإن كان الأمر وحياً شرعياً ، فلا يسوغ حينئذ للرجل أن يجتهد ، فالسعدان أرادا التأكد قبل أن يبينا رأيهما . هل هذا

الصلح بوحي من الله سبحانه وتعالى أم هو اجتهاد يسوغ فيه الأخذ والعطاء ؟ فلما علما أنه اجتهاد وليس بوحي حينئذ قالا رأيهما وبيَّنا وجهة نظرهما .

ولذلك علينا أن نخضع للنص الشرعي فلا نعارضه بالآراء ، ونقصر الاجتهاد فيما لا نص فيه .

الثانية عشرة : نأخذ مشروعية التضرع والدعاء واللجوء إلى الله سبحانه وتعالى ، فإنه من الأسباب الموجبة للنصر [١] والرسول ﷺ كثير الدعاء واللجوء والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى ونرى في غزوة الأحزاب كما سبق ذكره كيف كان الرسول ﷺ يلتجئ إلى الله داعياً مُتَضَرِّعاً سائلاً النصرَ من الله سبحانه وتعالى .

الثالثة عشرة : يَدُلُّنا حديثُ جابرٍ ﷺ ، ودعوته للرسول ﷺ للطعام ، ثم دعوة الرسول ﷺ لأهل الخندق بكاملهم ، مدى ما كان عليه أولئك القوم من التعاون ، وأنه كان لا ينفرد أحدهم بطعام عن الباقين [٢] بل تعاون وتعاضد فيما بينهم وإيثار وشفقة وهذا شأن المجتمع المسلم الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والْحُمَّى .

---

(١) انظر : سعود الفنيسان ، غزوة الأحزاب في ضوء القرآن الكريم ص ٢٢٦ .

(٢) انظر : أبو زهرة ، خاتم النبيين ٢/٩٢٧ .

الرابعة عشرة : كان لهذه الغزوة نتائج طيبة ، فقد رَدَّ اللهُ الكفارَ بغيظهم لم ينالوا خيراً ، فقد اجتمعوا في جمع لم يكونوا ليجمعوه إلا بجهد ومشقة قد لا تُتَاح لهم ، ومع ذلك عادوا ولم يُقْتَلْ من المسلمين سوى ستة ، يقابلهم ثلاثةُ قَتْلَى من الكفار فيهم فارسهم عمرو بن عبدود ، فهذا الجمع الكبير الذي بلغ عدده عشرة آلاف كانت نتيجة جهودها العودة خاسراً خائباً ولذلك قال الرسول ﷺ : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم »[1] .

الخامسة عشرة : أن أمر المشركين مهما ظهر أنهم في اجتماع واتفاق فهم إلى افتراق وفشل[2] والله جل شأنه يقول في كتابه الكريم : ﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾[3] فقد اجتمع الكفار من قريش ومن غطفان ومن سائر قبائل العرب مع يهود بني النضير وقريظة ولكن سرعان ما اختلفوا وتنازعوا وعادوا خائبين .

❁❁❁

(١) سبق تخريجه قريباً .

(٢) انظر : أبو زهرة ، خاتم النبيين ٢/١٤٤ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية رقم (١٨).

المبحث السابع

فقه السيرة في غزوة بني قريظة

قدمنا في غزوة الخندق أن بني قريظة كانوا على عهد مع رسول الله ﷺ ثم لما تجمع الأحزاب أقنعهم حيي بن أخطب بأن ينقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ ويظاهروا الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ .

فما أجدى ذلك عنهم شيئاً وعاد الأحزاب وبنو قريظة بالخسران كما قال الله تعالى عن الأحزاب : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ﴾ [1] أما عن بني قريظة فقال تعالى فيهم : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ [2] مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ [3] وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾ [4] .

لما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد رجوع الأحزاب لم يكن إلا أن وضع سلاحه ، فجاءه جبريل عليه السلام فقال : أوضعتَ

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية رقم (٢٥).

(٢) أي عاونوهم وساعدوهم يوم الأحزاب على حرب الرسول ﷺ ، الرفاعي ، مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٨٨.

(٣) أي حصونهم ، المرجع السابق .

(٤) سورة الأحزاب ، الآيتان رقم (٢٦ - ٢٧).

السلاحَ ؟ والله إن الملائكة لم تضعْ أسلحتَها ، فَانْهَضْ بمن معك إلى بني قريظة ، فإني سائر أمامك أُزَلْزِلُ بهم حصونَهم وأقذف في قلوبهم الرعبَ ، فسار جبريل في موكبه من الملائكة [١] .

وعن أنس ﷺ قال : (كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غنم ، موكب جبريل حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة) [٢] .

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : (قال النبي ﷺ يوم الأحزاب : « لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة » فأدرك بعضهم العصر في الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلي حتى نأتيهم وقال بعضهم : بل نصلي ، لم يرد منا ذلك ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنِّف أحداً منهم) [٣] .

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف مقاتل معهم ست وثلاثون فرساً وضرب الحصار على بني قريظة بضع عشرة ليلة ، ورد الله حيي بن أخطب حتى جاء ودخل الحصن ، وقذف الله في قلوبهم الرعب واشتدَّ عليهم الحصار فطلبوا أن يبعث إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر ؛ ليستشيروه فأذن له الرسول ﷺ فأتاهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال

---

(١) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣/١٣٠ ، وانظر : صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٧/٤٠٧ ، حديث رقم ٤١١٧ .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧/٤٠٧ ، رقم ٤١١٨ .

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧/٤٠٨ ، رقم ٤١١٩ .

وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرقّ لهم ، وقالوا : يا أبا لبابة أترانا ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه إنه الذبح ، قال أبو لبابة : فوالله ما زالتْ قدمايَ من مكانهما حتى عرفتُ أني قد خنتُ اللهَ ورسولَه ، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأتِ رسولَ الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده وقال : لا أبرح مكاني حتى يتوب الله عليّ مما صنعتُ وعاهد الله أن لا أطأ بني قريظة أبداً ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً .

قال ابن هشام : (فأنزل الله في أبي لبابة فيما قال سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الله بن أبي قتادة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [١]) [٢] .

قال ابن هشام : أقام مرتبطاً ست ليال تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله حتى يتوضأ ويصلي ثم يرتبط حتى نزلت توبته في قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [٣] .

ثم إن بني قريظة نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس إلى رسول الله ﷺ يلتمسون منه الإحسان إلى حلفائهم بني قريظة كما

---

(١) سورة الأنفال ، الآية رقم (٢٧).

(٢) انظر: ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ / ٢٥٥ .

(٣) سورة التوبة ، الآية رقم (١٠٢) وانظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ / ٢٥٦ .

أحسن إلى بني قينقاع حلفاء الخزرج فقال ﷺ : « ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ » قالوا : بلى ، قال : « فذاك إلى سعد بن معاذ » قالوا : قد رضينا .

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ فأرسل النبي ﷺ إلى سعد ، فأتى على حمار ، فلما دنا من المسجد قال للأنصار : قوموا إلى سيدكم ـ أو خيركم ـ فقال : « هؤلاء نزلوا على حكمك » فقال : تقتل مقاتلهم وتسبي ذراريهم قال : « قضيت بحكم الله وربما قال بحكم الملك »)[(١)].

قال ابن القيم : (قالوا : يا سعد إن هؤلاء القوم قد نزلوا على حكمك وقال : وحكمي نافذ عليهم ؟ قالوا : نعم ، قال : وعلى المسلمين ؟ قالوا : نعم ، قال : وعلى من هاهنا وأعرض بوجهه وأشار ناحية رسول الله ﷺ إجلالاً وتعظيماً ، قال : نعم وعليّ قال : فإني أحكم فيهم أن يُقْتَلَ الرجالُ وتُسْبَى الذريةُ وتُقْسَمَ الأموالُ ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات » وأسلم منهم تلك الليلة نفر قبل النزول ، وهرب عمرو بن سعد ، فانطلق فلم يُعْلَمْ أين ذهب ؟ وكان قد أبى الدخول معهم في نقض العهد .

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٤١١ ، رقم ٤١٢١ .

فلما حكم فيهم بذلك أمر رسول الله ﷺ بقتل كل من جرت عليه الموسى منهم ، ومن لم ينبت أُلْحِقَ بالذرية ، فحفر لهم خندقاً في سوق المدينة وضُرِبَتْ أعناقُهم وكانوا بين الستمائة والسبعمائة ولم يقتل من النساء أحد سوى امرأة واحدة كانت طرحت على رأس سويد بن الصامت رضي الله عنه رحى فقتلته [(١)] .

وأُتِيَ بحيي بن أخطب وعليه حلة فقاحية [(٢)] قد شقها من كل ناحية قدر أنملة ؛ لئلا يسلبها مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يخذل ، ثم أقبل على الناس فقال : يا أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل ، ثم جلس فضُرِبَتْ عُنُقُه [(٣)] .

ما يستخرج من غزوة بني قريظة من فوائد :

الأولى : مبادرة الصحابة إلى امتثال أمر الرسول ﷺ رغم ما بهم من الجهد والمشقة بعد غزوة الأحزاب ، ففور عودتهم نادى منادي رسول الله ﷺ : لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة ، فبادروا إلى

---

(١) ابن القيم ، زاد المعاد ٣/١٣٤-١٣٥ ، وانظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٤/١٢١ ، وانظر : إبراهيم العلي ، صحيح السيرة النبوية ص ٣٧٦ - ٣٧٧ .

(٢) قال ابن هشام : (فقاحية : ضرب من الوشي) .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ /٢٦٠ .

الخروج فوراً امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ ، وهذا هو شأن المسلم ، الامتثال للأمر ، بل المبادرة إلى امتثال الأمر ، ولو كان الأمر شاقاً ، وترك التسويف والتأجيل للامتثال والعيش مع الأماني . ينبغي على المسلم فور سماعه لآيات الله سبحانه وتعالى أو سماعه لأحاديث رسول الله ﷺ أن يمتثل ما فيها من أمر ويجتنب ما تضمنته من نهي ، طاعة لله ولرسوله ﷺ .

الثانية : خرج الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ إلى بني قريظة ودخل وقت الصلاة ، فمنهم من صلّى ومنهم من تمسك بظاهر النص ولم يُصَلِّ إلا بعد وصوله إلى بني قريظة ، فهم قد اجتهدوا في فهم النص الشرعي وإذا اجتهد المجتهد فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد .

الثالثة : إن الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ اجتهدوا واجتهادهم في طلب الحكم الشرعي فاختلفوا ، ومع ذلك لم يعنِّف الرسول ﷺ أياً منهم ، ولم يكن هذا الخلاف سبباً للعداوة والشقاق والنزاع بينهم ، وذلك لأنه خلاف في أمور فقهية ، والخلاف فيها سائغ لا يؤدي إلى عداوة وبغضاء .

والخلاف المذموم هو الخلاف الناشئ عن اجتهاد في نصوص شرعية لم يأذن الشارع في الاجتهاد فيها مثل الخلاف في العقائد أو ما فيه نص شرعي قاطع لا يسوغ لأحد أن يجتهد على خلافه .

الرابعة : استدل البعض بفعل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ هذا بأن الحق يتعدد ، وتحرير المسألة (أن يقال : إن كان المقصود بالحق الذي يقابل الباطل ، فإن الحق لا يمكن أن يتعدد ، والحق واحد ، أما إن كان المقصود بالحق في نظر الشرع أي الذي يرضى عنه الشرع ، فإن الحق بهذا المعنى يتعدد ، أي علينا أن نفرق بين الحق في ذاته ، وبين ما يعتبره الشرع حقاً يثاب صاحبُه .

فالحق في ذاته واحد لا يتعدد ، وأما الذي يعتبره الشرع حقاً ويرضى عنه ويثيب عليه فيجوز أن يتعدد .

وورد في الحديث أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد [1] والله لا يعطي الأجر على الباطل .

ومثل هذا قصة صلاة العصر في الطريق إلى بني قريظة ومثله في عصرنا الحاضر تعدد المذاهب الفقهية الأربعة واختلاف أتباعها ، فمع اختلافهم في بعض المسائل ، فإن المقلّد لواحد منها يكون إن شاء الله على حق أي على عمل شرعي مرضي) [2] .

---

(١) متفق عليه : صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ، كتاب الاعتصام ، باب أجر الحاكم إذا أجتهد فأصاب أو أخطأ ١٣/ ٣١٨ ، رقم ٧٣٥٢ ، وصحيح مسلم ٣/١٣٤٢ ، رقم ١٧١٦ ، وهو في صحيح البخاري بلفظ : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد » .

(٢) علي الطنطاوي ، فتاوى علي الطنطاوي ص ٥١ .

الخامسة : موقف أبي لبابة ﷺ الذي ذهب إلى بني قريظة لأجل أن يستشيروه ، فلما وصل إليهم وسألوه أخبرهم أن نزولهم على حكم الرسول ﷺ يعني الذبح ، وقد شعر أن في هذا خيانة لله ولرسوله ﷺ ، فذهب وربط نفسه بسارية المسجد حتى نزل قبول توبته . من هذه القصة نأخذ أهمية النصيحة لله ولرسوله ﷺ ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم ، فلا تجوز الخيانة ، لا خيانة الله ولا خيانة رسوله ولا خيانة كتابه ولا خيانة إمام المسلمين ولا خيانة عامة المسلمين .

السادسة : ومن هذه القصة أيضا نستفيد أهمية المبادرة إلى التوبة فور الوقوع في الذنب ، فإن ابنَ آدمَ خطَّاءٌ وخيرُ الخطَّائِيْنَ التوَّابون[1] .

السابعة: ومن هذه القصة أيضا نستفيد أهمية الابتعاد عن مواطن المعاصي ، فإن أبا لبابة جعل من توبته أن لا يعود مرة أخرى إلى ديار بني قريظة وهذا مفيد للتائب ، فإن من تاب من معصية ينبغي عليه أن يبتعد عن مواطنها ، ومجالسة أصحابها ، فإن ذلك من دلائل صدق توبته وعزمه أن لا يعود إلى ذنبه ومعصيته مرة أخرى وبخاصة أولئك الذين وقعوا في الخطأ نتيجة الارتباط بجلساء السوء ، فإن من دلائل صدق التوبة عدم مقاربة أولئك القرناء[2] .

الثامنة : أيضاً في قصة أبي لبابة ﷺ تبين لنا مبلغ قوة الإيمان ، وتذكر القلب ويقظة الضمير الذي أدرك الخطأ وندم عليه قبل أن

---

(١) انظر : أبو زهرة ، خاتم النبيين ٢/ ٩٥٤ .

(٢) انظر : أبو شهبة ، السيرة النبوية ٢/ ٤٠٨ .

يتحرك من مكانه الذي هو فيه والمتقون هم الذين إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ، وسرعان ما يتوبون ويعودون إليه جل شأنه عودة سريعة [١] .

التاسعة : في القصة أيضاً صدق التوبة وشدَّة الندم على ما سلف وقوة العزيمة على تدارك ما مضى حيث أقدم على ربط نفسه بالسارية عدة ليال حتى نزلت توبته من الله سبحانه وتعالى .

العاشرة : في قول الرسول ﷺ لما جاء سعد بن معاذ رضي الله عنه « قوموا إلى سيدكم » مشروعية احترام أهل الفضل [٢] والأكابر ، وتوقيرهم وتقديرهم ، سواء كانوا أكابر لمنزلتهم في السن أو في العلم أو الولاية ، فيُشْرَعُ القيامُ إلى الكبير والعالم والأمير واحترامهم وتقديرهم .

---

(١) ونتذكر بهذا أيضاً حديث الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً ، ثم سأل راهباً هل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله ، ثم سأل عالماً فقال له : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا ، فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك ، فإنها أرض سوء ، فخرج فمات في منتصف الطريق ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقاسوا فوجدوا أنه أدنى إلى الأرض التي أراد ، فقبضه ملائكة الرحمة) والحديث متفق عليه في صحيح البخاري المطبوع مع الفتح الباري ٦/٥١٢ ، رقم ٣٤٧٠ ، وصحيح مسلم ٤/ ٢١١٨ ، رقم ٢٧٦٦ ، فقد نصح العالم هذا الرجل التائب بمغادرة مكان المعصية ومجالسة الصالحين محافظة على توبته .

(٢) انظر : النووي ، شرح صحيح مسلم ١٢ / ٩٣ .

الحادية عشرة : ينبغي أن نفرق هنا بين القيام إلى الشخص والقيام للشخص والقيام على الشخص .

فالقيام إلى الشخص : هو ملاقاته إذا دخل للترحيب به مثلاً أو تهنئته مثل ما حصل من طلحة بن عبيد الله ﷺ لما دخل كعب بن مالك المسجد بعد نزول توبة الله عليه ، فقد قام طلحة إلى كعب فصافحه وهَنَّأه بتوبة الله عليه كما سيأتي في قصة غزوة تبوك وهذا القيام لا بأس به بل مستحب وقد جاءت به السنة أمراً وإقراراً وفعلاً . أما الأمر فقصة سعد بن معاذ ﷺ هنا ، وأما الإقرار فقصة طلحة بن كعب السابق الإشارة إليها وأما الفعل فقيامه ﷺ إلى ابنته فاطمة ـ رضي الله تعالى عنها ـ لما دخلت عليه (١) .

والقيام للشخص : وهو أن تقوم للشخص وأنت باقٍ في مكانك لا تتحرك إليه ، فهذه الصفة قال الشيخ محمد بن عثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ فيها : (لا بأس به إذا اعتاده الناس ؛ لأنه لم يرد النهي عنه ، وإنما النهي والتحذير من الذي يقام له لا من القائم وإن كان الأولى تركه . فإن من يقام له قال فيه النبي ﷺ : « مَنْ أَحَبَّ أن يتمثَّل له الناسُ قياماً فَلْيَتَبَوَّأْ مقعدَه من النار ») (٢) .

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الأدب ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٣/٩٧٩ ، رقم ٤٣٤٧ .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٣/٩٨٢ ، رقم ٤٣٥٧ ، وأخرجه الترمذي في سننه ، صحيح الترمذي للألباني ٢/٣٥٧ ، رقم ٢٢١٢ وانظر : محمد العثيمين ، شرح رياض الصالحين ١/٢٥٧ و ٢٥٩ .

وخالفه في ذلك آخرون فرأوا أن النهي كما يشمل الذي يقام له فهو أيضاً يمنع الشخص من القيام ، وذلك اتباعاً لعادة السلف ـ رضي الله عنهم ـ فما كانوا يقومون في عهد الرسول ﷺ وعهد خلفائه الراشدين ، ولما فيه من التعاون على الخير وعدم فتح باب الشر ، قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (ومحصل المنقول عن مالك إنكار القيام ما دام الذي يقام لأجله لم يجلس ولو كان في شغل نفسه فإنه سُئِلَ عن المرأة تبالغ في إكرام زوجها فتتلقاه وتنزع عنه ثيابه وتقف حتى يجلس ، فقال : أما التلقي فلا بأس به وأما القيام حتى يجلس فلا ، فإن هذا فعل الجبابرة)[(١)] .

أما القيام على الشخص : وذلك بأن يكون الشخص جالساً ويقوم واحد على رأسه تعظيماً له فهذا منهي عنه إلا في حالتين :

أ) إذا دعت الحاجة إلى ذلك كأن يخاف عليه أن يعتدي عليه أحد ، فلا بأس أن يقوم عليه القائم .

ب) إذا قام عليه إكراماً له في حال يقصد فيه إكرامه وإهانة العدو مثل ما حصل من المغيرة بن شعبة ﷺ في صلح الحديبية حينما كانت قريش تراسل الرسول ﷺ للمفاوضة بينهما[(٢)] .

---

(١) فتح الباري ١١/٥٠-٥١ ، وللمزيد يرجع إلى شرح صحيح مسلم للنووي ١٢/٩٣ وفتاوي اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ١/ ١٤٤- ١٤٥ ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها للألباني ١/٧١ - ٧٥ ، حديث رقم ٣٥٧ .

(٢) انظر : محمد بن العثيمين ، شرح رياض الصالحين ١/٢٥٩-٢٦٠ ، وينظر أيضاً : ابن قاسم ، الدرر السنية ١٥/٣٨٧-٣٨٨ .

الثانـية عشـرة : قـد نجـد من يستعظم حكم سعد بن معاذ ﷺ في بني قـريظة [١] ولكـي تتضـح الـرؤية الكاملـة عـن هـؤلاء القـوم ويتضـح عدالة الحكم الذي صدر فيهم نشير إلى ما يلي :

١. يقـول ابن القيـم ـ رحمـه الله تعـالى ـ : (وأما قريظةُ فكانتْ أَشَدَّ اليهودِ عداوةً لرسول الله ﷺ وأغلظَهم كفراً ولذلك جرى عليهم ما لم يَجْرِ على إخوانهم) [٢] .

٢. أن نـتذكر مـاذا سـيحل بالمسـلمين مـن هـؤلاء الـيهود لـو نجـح الأحـزاب في غـزوهم للمديـنة ، مـاذا سيحصـل لـو تمكن بنو قريظة من مهاجمـة المسـلمين من ظهورهم والتعدي على نسائهم وذراريهم ؟ إلى أي مـدى سـتكون الكارثـة ؟ لا شـك أنهـا سـتكون كارثـة كـبرى فـيها الاعـتداء عــلى النســاء والــذراري ، والمســلمونَ في صـفوفهم أمـام

---

(١) نقل الدكتور أكرم العمري أن بعض الباحثين المعاصرين في مؤتمر السيرة العالمي المنعقد في قطر جنح إلى نفي الروايات المتعلقة بالعقوبات التي واجهتها بنو قريظة وتضعيفها ، بزعم أن إثباتها يجرح المشاعر الإنسانية ويخدم الدعاية الصهيونية ،ثم علق بقوله : (وليس الأمر كذلك فإن أوثق المصادر الإسلامية قد أثبتت وقوع ذلك ولم تكن العقوبة الشديدة إلا جزاء للخيانة العظمى التي ارتكبها بنو قريظة عندما غدرت بالمسلمين وتبرأت من حلفهم بدل أن تشترك معهم في الدفاع عن المدينة المنورة بموجب نصوص المعاهدة بين الطرفين . وما زالت الدول تحكم بقتل الخونة المتواطئين مع الأعداء حتى في الوقت الحاضر ... إلى أن قال : فليس من داع للتنصل من حقائق التاريخ وتكذيب الروايات الصحيحة) السيرة النبوية الصحيحة ١ / ٣١٧ .

(٢) ابن القيم ، زاد المعاد ١٢٩/٣ .

الأحزاب وتلك الخيانة الكبرى التي وقع فيها بنو قريظة وجعلتهم يستحقون هذه العقوبة [١] .

٣. أن بني قريظة كانوا مقاتلين واستمرت لهم هذه الصفة إلى آخر لحظة ولم يكونوا ناكثين للعهد فقط ، بل حملوا السلاح وأمدوا الأحزاب بالمؤن وساعدوهم واستمروا على الحرب حتى تم نزولهم على حكم رسول الله ﷺ [٢] .

٤. أن بني قريظة كانوا مواطنين مع المسلمين في المدينة يمثلون جميعاً الوطن الواحد الذي تعاهدوا فيه على النصرة على من دهمهم ، وعندما جاء الأعداء من الخارج إذا ببني قريظة ـ وهم مواطنون في المدينة ـ يتآمرون ضد أبناء المدينة المسلمين ويرتكبون ثلاث جرائم :

أ. اتصلوا بالعدو ونقلوا له أخباراً عن المدينة وأهلها .

ب. مدوا العدو الغازي بما أمكنهم من عون مادي ومعنوي .

ت. رفعوا السلاح ضد جيش المدينة ونكثوا العهد وأعلنوا استعدادهم لضرب أبناء بلدهم من الخلف في ظرف بالغ الخطورة [٣] .

لأجل هذا فليس غريباً أن يصدر فيهم هذا الحكم من سعد بن معاذ رضي الله عنه ويؤيده وينفذه رسول الله ﷺ ، فتلك جريمة ضد المجتمع المسلم

---

(١) انظر: أبو شهبة ، السيرة النبوية ٢/ ٤١٠ .

(٢) انظر : أبو زهرة ، خاتم النبيين ٢/ ٩٤٩ .

(٣) انظر : با شميل ، غزوة بني قريظة ص ٢٥٠ .

بكامله كبيره وصغيره وضد مؤسساته بل وضد الرسول ﷺ وكفى بها جرماً .

٥. أن حكم سعد ﷺ هذا هو ما قضى به كتابهم المقدس ، يقول محمد أبو شهبة ـ رحمه الله تعالى ـ تعليقاً على حكم سعد : (وهو ما قضى به كتابهم المقدس (العهد القديم) في حق العدو المهزوم ، ففي سفر التثنية الإصحاح ١٣ ، فقرة ١٣ و ١٤ : « وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم ، وكل ما في المدينة ، كل غنيمتها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك » وهكذا يتبين لنا أن ما قضى به سعد لم يخرج عما حكمت به التوراة ، وأيضاً فهم ليسوا أعداء مهزومين فحسب بل خائنون غادرون غير وافين بالعهد »[١] .

❁❁❁

(١) السيرة النبوية ٢ / ٤٠٩ .

الفصل السادس

فقه السيرة من غزوة الحديبية إلى نهاية غزوة مؤتة

ويتكون من :

تمهيد .

المبحث الأول : فقه السيرة في غزوة الحديبية .

المبحث الثاني : فقه السيرة في رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء .

المبحث الثالث : فقه السيرة في غزوة خيبر .

المبحث الرابع : فقه السيرة في غزوة ذات الرقاع .

المبحث الخامس: فقه السيرة في عمرة القضاء .

المبحث السادس : فقه السيرة في غزوة مؤتة .

تمهيد

تحدثنا في الفصل السابق عن فقه السيرة من وصول الرسول ﷺ إلى المدينة إلى انتهاء غزوة الأحزاب ورجوعهم خاسرين والقضاء على بني قريظة وقول الرسول ﷺ : « لا يغزوننا ، نحن نغزوهم » وهي تعني انتقال الصدام بين المسلمين في المدينة وأعدائهم من مرحلة إلى مرحلة ، ففي تلك المرحلة شُرِعَ الجهادُ بمراحله المتدرجة وحاول الكفار القضاء على الدعوة في بدر وأحد والأحزاب وفي كلها تكون البداءة من الأعداء ، من كفار قريش ، أما هذه المرحلة التي نحن بصدد الحديث عنها في هذا الفصل فهي تمثِّل مرحلة جديدة لم يكن موقف الرسول ﷺ موقف الدفاع عن الإسلام والمسلمين وإنما موقف الهجوم على الكفار في عقر دارهم سواء في الحديبية عندما جاءهم في ديارهم أو في خيبر وما بعدها من أحداثٍ ، حيث نجد أن الرسول ﷺ هو الذي يمسك زمام المبادرة وهو المؤدِّب لتلك القبائل الناهض إليها في عقر دارها ، وأصبح هذا سمة واضحة لتلك المرحلة وتلك الحقبة من الزمن .

المبحث الأول

فقه السيرة في غزوة الحديبية *

كان سبب الخروج إلى هذه الغزوة هو رؤيا رآها الرسول ﷺ أنه دخل البيت هو وأصحابه وطافوا وحلّق بعضهم وقصّر البعض وأخبر أصحابه بذلك ، فاستبشروا يقول الله سبحانه وتعالى في الآيات التي نزلت بعد ذلك : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [١].

خرج رسول الله ﷺ في مستهل ذي القعدة سنة ست من الهجرة النبوية الشريفة [٢] حيث استنصر الرسول ﷺ العرب ومن حوله من البوادي من الأعراب ؛ ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت ، فأبطأ عليه كثير من

---

* الحديبية يقال : سُمِّيَتْ بشجرة حدباء هناك ، فتح الباري ٢/ ٥٢٣ ، والحديبية : بالتثقيل والتخفيف لغتان وأنكر كثير من أهل اللغة التخفيف ، ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٤٣٩ ، وهي الآن على مسافة اثنين وعشرين كيلاً غرب مكة على طريق جدة ولا تزال تُعْرَفُ بهذا الاسم ، محمد شراب ، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ص ٩٧ ، وتُعْرَفُ أيضاً بالشميسي .

(١) سورة الفتح ، الآية رقم (٢٧).

(٢) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣/ ٢٨٦ ، والعيني ، عمدة القارئ ١٤/ ٦ .

الأعراب ، فخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار وبمن لحق به من العرب وساق معه الهدي ، وأحرم بالعمرة ؛ ليأمن الناس من حربه ، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت مُعَظِّماً له [١] .

وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش حتى إذا كان بعسفان لقيه عينه بسر بن سفيان الكعبي ، فقال : يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بسيرك ، فخرجوا معهم العوذ [٢] المطافيل [٣] قد لبسوا جنود النمور وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموا إلى كراع الغميم ، فاستشار النبي ﷺ أصحابه وقال : « أترون أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم ؟ أم ترون أن نؤم البيت ، فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ » قال أبو بكر ﷺ : الله ورسوله أعلم ، إنما جئنا معتمرين ولم نجئ لقتال أحد ، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه ، فقال النبي ﷺ : « فروحوا إذاً » [٤] ثم قال : « من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ » فقال رجل من أسلم : أنا يا رسول الله ، فسلك بهم طريقاً وعراً ، فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٤/١٦٤-١٦٥ .

(٢) العوذ : جمع عائذ وهي الناقة ذات اللبن .

(٣) المطافيل : الأمهات اللاتي معهن أطفالهن ، يقصد أنهم خرجوا بذوات اللبن ؛ ليتزودوا بألبانها فلا يرجعوا ، الشامي ، سبل الهدى ٥/١٣١ .

(٤) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣/٢٨٩ .

فأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي [١] وصلى الرسول ﷺ بأصحابه بعسفان صلاة الخوف [٢] .

فلما رأت خيل قريش قترة الجيش قد خالفوا عن طريقهم رجعوا راكضين إلى قريش [٣] .

وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك ثنية المرار بركت ناقته ، فقال الناس : خلأت القصواء ، فقال النبي ﷺ : « ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس القيل » ثم قال : « والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » ثم زجرها ، فوثبت به فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء ، فلم يلبث الناس أن نزحوه فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فانتزع سهماً من كنانته ، فأعطاه رجلاً من أصحابه ، فنزل به في قليب من تلك القلب فغرزه في جوفه فجاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعطن .

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أتاه بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة ، فكلموه وسألوه ما الذي جاء به ؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً ، وإنما جاء زائراً للبيت معظّماً لحرمته ، فرجعوا إلى قريش فأخبروهم ، فما قبلوا منهم ، فبعثوا إليه مكرز بن حفص ، فلما رآه الرسول ﷺ

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣/ ٣٥٧ .
(٢) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٧/ ٤٢٣ .
(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣/ ٣٥٧ .

مقبلاً قال : « هذا رجل غادر » فلما انتهى إلى الرسول ﷺ وكلّمه قال له مثلما قال لبديل فرجع إلى قريش فأخبرهم ، ثم بعثوا بالحليس بن علقمة وكان سيد الأحابيش ، فلما رآه الرسول ﷺ مقبلاً قال : « هذا من قوم يَتَأَلَّهُوْنَ فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه » فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى ، فقال لهم ذلك ، فقالوا : اجلس إنما أنت أعرابي ، ثم بعثوا عروة بن مسعود الثقفي ، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ، ثم قال : أجمعت أوباش الناس ؟ ثم جئت بهم إلى بيضتك ؛ لتفضها بهم ، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا غدا عنك ، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : امصص بظر اللات أنحن نفر عنه ، فقال : من هذا يا محمد ؟ قال : « هذا ابن أبي قحافة » قال : أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها ، ولكن هذه بهذه . قال : وجعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد ، فجعل يقرع يده عندما يتناول لحية رسول الله ﷺ ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك ، فقال عروة : من هذا ؟ قالوا : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة ، قال أي غدر ، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس ؟ (١) .

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية ٣/ ٣٦٢ ، و ابن كثير ، البداية والنهاية ٤/ ١٦٦- ١٦٧ .

وكان عروة يرقب ما يصنع الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ ؛ لا يتوضأ الرسول ﷺ إلا ابتدروا الوضوء ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه ، فرجع إلى قريش ، فقال : يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشئ أبداً ، فروا رأيكم[(١)] .

ودعا رسول الله ﷺ خراش بن أمية الخزاعي ، فبعثه إلى قريش وحمله على بعير له يقال له : الثعلب ؛ ليبلغ أشرافهم عن ما جاء به ، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله ، فمنعه الأحابيش فخلوا سبيله[(٢)] .

فدعا الرسول ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ ليبعثه إليهم ، فاعتذر لعدم وجود قوم له ينصرونه وأشار إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فبعثه رسول الله ﷺ وقال : أخبرهم إنا لم نأتِ لقتال ، وإنما جئنا عماراً ، وادعهم إلى الإسلام ، وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ، فيبشرهم بالفتح ، فانطلق عثمان رضي الله عنه فمر على قريش ببلدح ، فأخبرهم وقام إليه أسامة بن سعيد بن العاص فذهب به وأسرج له فرسه وحمله عليه وأجاره وقال بعض المسلمين قبل أن يرجع عثمان : خلص عثمان قبلنا

(١) انظر : ابن هشام، السيرة النبوية ٣/ ٣٦٢-٣٦٣ .

(٢) انظر : المرجع السابق .

إلى البيت وطاف به ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون » فقالوا : وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص إليه ؟ قال : « ذلك ظني به ألا يطوف بالكعبة حتى نطوف معه »[١] .

وبلغ رسولَ اللهِ ﷺ أن عثمان قد قُتِلَ ، فدعا إلى البيعة ، فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ تحت الشجرة فبايعوه ، فأخذ الرسول ﷺ بيد نفسه وقال : « هذه عن عثمان » ولم يتخلف عن البيعة إلا الجد بن قيس[٢] .

ولما تمت البيعة رجع عثمان فقال المسلمون : اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت ، قال : بئس ما ظننتم بي ، والذي نفسي بيده لو مكثت بها سنة ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ ، ولقد دعتني قريش إلى الطواف بالبيت ، فأبيت فقال المسلمون : رسول الله ﷺ كان أعلمنا بالله وأحسننا ظناً .

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو ، وقالوا : ائتِ محمداً وصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها عنوة أبداً .

فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال : « قد سهل لكم من أمركم » وقال : « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا

---

(١) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣/٢٩١ .

(٢) انظر : صحيح الإمام مسلم ٣ / ١٤٨٣ ، رقم ١٨٥٦ .

الرجل » فلما انتهى إلى الرسول ﷺ تكلم سهيل وأطال وتراجعا ، ثم جرى بينهما الصلح ، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر رضي الله عنه فأتى أبا بكر رضي الله عنه فقال : يا أبا بكر : أليس برسول الله ؟ قال بلى ! قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ! قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ! قال : فعلام نعطى الدنية في ديننا ؟ فقال أبو بكر : يا عمر الزم غرزه ، فإني أشهد أنه رسول الله ، قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله ، ثم أتى رسول الله ﷺفقال : يا رسول الله ألست برسول الله ؟ قال : بلى ، أوَ لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال أوَ ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : « أنا عبد الله ورسوله لا أخالف أمره ولن يضيعني » وكان عمر رضي الله عنه يقول : ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذٍ مخافة كلامي الذي قلته يومئذٍ حتى رجوت أن يكون خيراً ...

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : « اكتب باسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل : لا أعرف هذا ولكن اكتب : باسمك اللهم ، فقال رسول الله ﷺ : « اكتب باسمك اللهم » فكتبها ، قال : « ثم اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمر » فقال سهيل : لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب : اسمك واسم أبيك ، فقال رسول الله ﷺ : « اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع

الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة (١) وأنه لا إسلال (٢) ولا إغلال (٣) وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل » فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم .

وكان من ضمن الشروط أن يرجع الرسول ﷺ عامه هذا ، فإن كان عام قابل خرجت قريش ، فدخلها الرسول ﷺ بأصحابه ثلاثة أيام ليس معهم سوى سلاح الراكب .

وبينما الرسول ﷺ يكتب الكتاب مع سهيل إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ ، فلما رأى سهيل ابنه أبا جندل قام إليه ، فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه وقال : هذا أول ما قاضيتك عليه يا محمد ، فأراد الرسول ﷺ من سهيل أن يدعه فلم يقبل ، فقال الرسول ﷺ : « يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معكم من المستضعفين فرجاً ومخرجاً وإنا قد

---

(١) أي صدر صاف خال من الغل والخداع مطوي على نية الوفاء بالصلح ، والمكفوفة أي المسرجة المشدودة ، ابن الأثير ، النهاية ٣/٣٢٧ .

(٢) أي لا سرقة .

(٣) أي لا خيانة .

عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم » .

فزاد هذا الموقف من غم المسلمين وحزنهم لما رأوا أنهم لن يدخلوا مكة ورأوا أبا جندل وهو يجر من أيديهم لا يستطيعون نصرته وقد وصل إلى أيديهم .

فلما فرغ رسول الله ﷺ من الصلح قال : قوموا ، فانحروا ، ثم احلقوا ، فما قام رجل منهم ، فقام ودخل على أم سلمة ـ رضي الله تعالى عنها ـ فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت أم سلمة : اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك ، فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً [١] .

وكان منهم من حلّق ومنهم من قصّر فقال رسول الله ﷺ : « يرحم الله المحلّقين » قالوا : والمقصِّرين ؟ قال : « يرحم الله المحلّقين ، ثم قال في الثالثة والمقصِّرين » [٢] .

---

(١) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٢٩٥ .

(٢) انظر : الخلاف في تاريخ هذا الدعاء في فتح الباري لابن حجر ٥٦٢/٣-٥٦٤ وخاصة قوله ص ٥٦٤ عن هذا الدعاء : (ثم قال النووي : لا يبعد أن يكون وقع في الموضعين انتهى ، وقال عياض كان في الموضعين وكذا قال ابن دقيق العيد أنه الأقرب ، قلت : بل هو المتعين لتظاهر الروايات بذلك في الموضعين كما قدمنا إلا أن السبب في الموضعين مختلف) أي الحديبية وحجة الوداع .

وكان الرسول ﷺ قد ساق في هديه جملاً في رأسه برة من فضة كان لأبي جهل كان من غنائم بدر وذلك ؛ ليغيظ المشركين (١) .

ثم انصرف رسول الله ﷺ من وجهه ذلك قافلاً حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ ﴾ (٢)... ثم قال الله تعالى : ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ (٣) (٤) .

ولما رجع إلى المدينة جاءه أبو بصير رجل من قريش مسلماً ، فأرسلوا في طلبه رجلَيْنِ ، وقالوا : العهد الذي جعلت بيننا فدفعه إلى الرجلَيْنِ ، فخرجا به حتى إذا بلغوا ذا الحليفة نزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا جيداً ، فاستله الآخر فقال : أجل والله إنه لجيد ، فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه ، فأمكنه منه فضربه ، حتى برد ، وفر الآخر يعدو حتى بلغ المدينة ، فدخل المسجد فقال رسول الله ﷺ حيث رآه : « لقد رأى هذا ذعراً

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٤/١٧٠ .
(٢) سورة الفتح ، الآيتان رقم (١ - ٢) .
(٣) سورة الفتح ، الآية رقم (٢١) .
(٤) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣/٣٧٠

» فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال : قتل والله صاحبي وإني لمقتول ، فجاء أبو بصير فقال : يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك وقد رددتني إليهم ، فأنجاني الله منهم ، فقال النبي ﷺ : « ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد » فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر وينفلت أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير فلا يخرج رجل من قريش وقد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة ، فو الله لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما يرسل إليهم ، فمن آتاه منهم فهو آمن [١] .

الفوائد المستخرجة من غزوة الحديبية :

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ عن الحِكَم التي تضمنتها الغزوة : (وهي أكبر وأجل من أن يحيط بها إلا الله الذي أحكم أسبابها فوقعت الغاية على الوجه الذي اقتضته حكمته وحمده) [٢] ذلك أن غزوة الحديبية مليئة بالحكم والفوائد ولقد كتب عنها الإمام ابن القيم وأطال فيها في زاد المعاد وكتب عنها الإمام محمد بن عبد الوهاب مبحثاً

---

(١) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٢٩٦- ٢٩٧ ، وقد أورد البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ في صحيحه المطبوع مع الفتح قصة غزوة الحديبية ٣٢٩/٥ ، الحديث رقم ٢٧٣١ و ٢٧٣٢ .

(٢) ابن القيم ، زاد المعاد ٣٠٩/٣ .

مستقلاً [١] أوصل فيه الفوائد إلى مائة وتسع وثلاثين فائدة ، وهنا أوجز مجموعة من الفوائد المستخرجة من هذه الغزوة العظيمة .

الأولى : من بعث بسر بن سفيان وكان مشركاً عيناً له يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (الاستعانة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة ؛ لأن عينه الخزاعي كان كافراً إذ ذاك ، وفيه من المصلحة أنه أقرب إلى اختلاطه بالعدو ، وأخذه أخباره) [٢] .

وقال ابن حجر : (وفيه جواز استنصاح بعض المعاهدين وأهل الذمة إذا دلّت القرائن على نصحهم وشهدت التجربة بإيثارهم أهل الإسلام على غيرهم ولو كانوا من أهل دينهم ، ويستفاد منه جواز استنصاح بعض ملوك العدو استظهاراً على غيرهم ولا يُعَدُّ ذلك من موالاة الكفار ولا موادة أعداء الله ، بل من قبيل استخدامهم وتقليل شوكة جمعهم وإنكاء بعضهم ببعض ولا يلزم من ذلك جواز الاستعانة بالمشركين على الإطلاق) [٣] وكل هذا مبني على أن بسر

---

(١) ملحق المصنفات ضمن مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله .

(٢) ابن القيم ، زاد المعاد ٣/ ٣٠١ ، وانظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن الكريم ٨/ ٩٩ ، وابن حجر ، تلخيص الحبير ٤/ ١٠١ ، والنووي ، شرح صحيح مسلم ١٢/ ١٩٩ .

(٣) ابن حجر ، فتح الباري ٥/ ٣٣٨ ، وانظر : الشوكاني ، نيل الأوطار ٨/ ١٩٠ حيث قال : (وإن الاستعانة بالمشرك الموثوق به في أمر الجهاد جائزة للحاجة ؛ لأن عينه الخزاعي كان كافراً) .

كان مشركاً وأما على القول بأنه كان مسلماً فلا مدخل لهذه الفائدة هنا [١] .

الثانية : من قول الرسول ﷺ : « خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق » يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (ومنها رد الكلام الباطل ولو نُسِبَ إلى غير مكلف ، فإنهم لما قالوا : خلأت القصواء يعني حرنت وألحت ، فلم تسر ، والخلاء في الإبل بكسر الخاء والمد نظير الحران في الخيل ، فلما نسبوا إلى الناقة ما ليس من خلقها وطبعها رده عليهم ، وقال : « ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق » ثم أخبر ﷺ عن سبب بروكها وأن الذي حبس الفيل عن مكة حبسها للحكمة العظيمة التي ظهرت بسبب حبسها وما جرى بعده) [٢] .

ومنه إذا كان الرسول ﷺ دفع عن عرض غير مكلف ، فمن باب أولى الدفع عن عرض المكلف المصون بأن لا نقول غيبة لأحد أو نسمعها في أحد وندفع الغيبة ونرد على المغتاب .

الثالثة : في صلاة الرسول ﷺ صلاة الخوف دلالة على أهمية الصلاة وأهمية الصلاة جماعة حيث حافظ الرسول ﷺ على الجماعة حتى في ظروف الحرب والخوف من الأعداء ولم يأذن الرسول ﷺ للمسلمين أن يصلوا فرادى في أمكنتهم ، وقد تهاون المسلمون كثيراً في

---

(١) انظر : حافظ الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية ص ٢٧٨-٢٧٩ .

(٢) ابن القيم ، زاد المعاد ٣٠٢/٣ .

عصرنا الحاضر في صلاة الجماعة في المسجد ، ولو عرف المسلم سيرة سلفنا الصالح في المحافظة عليها وعظم الأجر المترتب على هذه العبادة لحافظ عليها .

الرابعة : في قول أبي بكر الصديق ﷺ لعروة بن مسعود : امصص بظر اللات أنحن نفر منه ، يقول ابن حجر : (وفيه جواز النطق بما يستبشع من الألفاظ لإرادة زجر من بدا منه ما يستحق به ذلك)[١] ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ : (قول أبي بكر ﷺ لعروة ليس من الفحش المذموم)[٢] .

الخامسة : من وقوف المغيرة بن شعبة ﷺ على رأس رسول الله ﷺ يقول ابن حجر : (فيه جواز القيام على رأس الأمير بالسيف بقصد الحراسة ونحوها من ترهيب العدو ولا يعارض النهي عن القيام على رأس الجالس لأنه محله ما إذا كان على وجه العظمة والكبر)[٣] يقول الشيخ محمد العثيمين ـ رحمه الله ـ : (فالقيام على الرجل منهي عنه اللهم إلا إذا دعت الحاجة لذلك كأن يخاف أن يعتدي عليه أحد ، فلا بأس أن يقوم عليه القائم وكذلك إذا قام عليه الرجل إكراماً له في

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٥/٣٤٠ .
(٢) محمد بن عبد الوهاب ، بعض فوائد صلح الحديبية ص ٦ ، ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ملحق المصنفات .
(٣) ابن حجر ، فتح الباري ٥/٣٤٠ ، وانظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣/٣٠٤ ، وابن قاسم ، الدرر السنية ٥/ ٣٨٧-٣٨٨ .

حال يقصد فيه إكرامه وإهانة العدو مثل ما حصل من المغيرة بن شعبة رضي الله عنه في صلح الحديبية)[١] .

السادسة : محبة الصحابة لرسول الله ﷺ وعظيم توقيرهم له يقول ابن حجر في الفوائد من هذا الموقف : (وما كان عليه الصحابة من المبالغة في تعظيم النبي ﷺ وتوقيره ومراعاة أحواله وردع من جفا عليه بقول أو فعل والتبرك بآثاره)[٢] .

السابعة : في أثناء تلك المراسلة فعل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ شيئاً لا يفعلونه في العادة ، كان عليه الصلاة والسلام إذا تنخع تلقوا نخامته بأيديهم ، ثم يمسحون بها وجوههم وصدورهم ، مع أنهم ما كانوا يفعلون هذا ، لكن لأجل إذا ذهب رسول الكفار إلى الكفار بيَّنَ لهم حال الصحابة مع نبيهم عليه الصلاة والسلام)[٣] والمقصود من ذلك إغاظة العدو وإظهار توقير الصحابة للرسول ﷺ .

الثامنة : أهمية السلوك وأن له تأثيراً أشد من تأثير القول ، فإن عروة قال للرسول ﷺ عن الصحابة في البداية : إني أرى أوشاباً من الناس ولكأني بهم قد انكشفوا غداً عنك ، وسرعان ما تغير هذا الظن عنده ، لما جلس معهم ورأي تعامل الصحابة مع الرسول ﷺ ،

---

(١) ابن عثيمين ، شرح رياض الصالحين ١/ ٢٦٠ .
(٢) ابن حجر ، فتح الباري ٥/ ٣٤٢ .
(٣) ابن عثيمين ، شرح رياض الصالحين ١/ ٢٦١ .

وعظيم احترامهم ، وشديد توقيرهم له ، حتى عاد لقريش وقال لها : يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً ، فروا رأيكم . ويستغرب الشخص كيف يصدر هذا القول المتعارض من شخص واحد ولكن حينما يتبين الأمر يعرف تأثير السلوك في الشخص ، وأنه مغير مؤثر أكثر من طويل الكلام .

التاسعة : لما تأخر عثمان ﷺ ظن بعض المسلمين أن عثمان ﷺ طاف بالبيت ولكن الرسول ﷺ قال : ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون ، فكان الأمر كما ظنه الرسول ﷺ ، وهكذا على المسلم دائماً أن يحسن الظن بأخيه ، ويقدم الظن الحسن على الظن السيئ والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ [١] وقال عمر ﷺ : (لا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً وأنت تجد لها من الخير محملاً) [٢] .

العاشرة : في المواقف الحرجة يجتهد الأعداء في إلقاء الإشاعة والإرجاف بالمؤمنين وهنا أُشِيْعَ أن عثمان ﷺ قد قُتِلَ ، فعلى المسلم أن يكون حَذِراً من الإشاعة ، فلا يستمعْ إليها ولا يُصَدِّقْهَا ولا يروِها

---

(١) سورة النور ، الآية رقم (١٢).

(٢) ابن الجوزي ، تاريخ عمر بن الخطاب ص ٢٠٣ .

ولا يَتَأَثَّرْ بها ، وليتأكّدْ منذ البداية أن مصدرها هو العدو ، فلا يتعجل الخبر بل يتثبت ويتبين ولا يتصرف تصرفاتٍ تَسُرُّ العدوَ وتُدْخِلُ الخوفَ والفزعَ على المسلمين .

الحادية عشرة : التعامل مع الإشاعة أمر مهم وهنا نرى كيف تعامل الرسول ﷺ مع الإشاعة بعكس ما يحقّق هدف العدو ، فالإشاعة كان القصد منها أن تفت في عضد المسلمين وتُدْخِلَ الفرقةَ والخلافَ بينهم ، ولكن الذي حصل بعد الإشاعة هو عكس ما يريد العدو ألا وهو الدعوة إلى بيعة الرضوان ، فتسابق الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إلى البيعة وظهروا بمظهر المجتمع المتماسك المتكاتف المستعد للتضحية ومواجهة الأعداء بكل تصميم وإقدام ، وهكذا تحولت الإشاعة لتصبح مصدر قوة للأمة المسلمة ، ونحن علينا أن نتعامل على هذا النحو مع ما نسمعه من إشاعات ، فنحوّلها إلى مصدر تكاتف بيننا لا مصدر تفريق ونزاع ووهن كما يريد العدو .

الثانية عشرة : لما أقبل سهيل بن عمرو ورآه الرسول ﷺ قال : « قد سهل أمركم » وهذا يدلنا على استحباب التفاؤل ، يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ :(ومنها استحباب التفاؤل وأنه ليس من الطيرة المكروهة ؛ لقوله ﷺ لما جاء سهيل : « سهل أمركم »)[1] .

---

(١) ابن القيم ، زاد المعاد ٣/٣٠٥ ، وانظر : الفائدة رقم (١٠١) في بعض فوائد صلح الحديبية للشيخ محمد بن عبد الوهاب .

الثالثة عشرة : في موقف بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من صلح الحديبية نأخذ منه أهمية اتهام العقل أمام النصوص الشرعية [١] وأن نتمسك بقول أبي بكر ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ : الزم غرزه ، فإنه رسول الله .

وأن نحذر في مقابل ذلك من الرأي والآراء التي تصادم نصوص الشرع يقول عمر بن الخطاب ﷺ : (أيها الناس اتهموا الرأي على الدين ، فقد رأيتُني أردّ أمرَ رسولِ الله ﷺ برأيي اجتهاداً ، فو الله ما آلو عن الحق ، وذلك يوم أبي جندل) [٢] .

ويقول سهل بن حنيف ﷺ : (انهوا رأيكم ، رأيتُني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته) [٣] ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ في فوائد صلح الحديبية : (التاسعة عشرة : معرفة فضيلة التسليم للشارع فيما لم يدرك بالعقل) [٤] .

فعلينا أن نحذر من معارضة نصوص الشرع بالعقل ، بل علينا أن نتَّهم العقلَ ونُقَدِّمَ نصوصَ الشرعِ من الكتاب والسنة ونسلِّم لها

---

(١) انظر : الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية ص ٣٠١ .

(٢) أخرجه الطبراني ، المعجم الكبير ١ / ٧٢ ، تحقيق حمدي السلفي ، الطبعة الثانية (الموصل ، مكتبة العلوم والحكم ١٤٠٤هـ) ، والهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٤٦ وقال: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح ، و ١/ ١٧٩ وقال : رواه أبو يعلى ورجاله موثوقون وإن كان فيه مبارك بن فضالة .

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٦/ ٢٨١ ، رقم ٣١٨١ .

(٤) الإمام محمد بن عبد الوهاب بعض فوائد صلح الحديبية ص ٥ .

ونذعن لمرادها ولو خالفتِ الرأيَ والعقلَ ، فهي في الحقيقة لا تخالف العقل ولكن لقصور في عقولنا ظننا أحياناً أنها تخالفه .

الرابعة عشرة : من قول عمر ﷺ : (ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعتُ مخافة كلامي الذي قلته يومئذٍ حتى رجوتُ أن يكون خيراً) يتبين لنا فضل الله العظيم وسعة رحمته والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (١) .

فإذا شعر المسلم أنه وقع في خطأ معين فعليه بالأعمال الصالحات بعد التوبة النصوح ، فإن في هذه الأعمال تعويضاً عما فاته من خير وتكفيراً لما وقع منه من زَلَل ولله الحمد رب العالمين.

الخامسة عشرة : في تسليم أبي جندل بن سهيل بن عمرو ﷺ للمشركين بعد مجيئه فاراً إلى المسلمين بسبب الصلح ندرك أمرين :

١. ما كان عليه الرسول ﷺ من المحافظة على العهد والوفاء به مهما كان قاسياً على النفس .

٢. أهمية وفاء المسلم بالعهد الذي يقطعه على نفسه رخاء أو شدة ، له أو عليه وقد امتدح الله المؤمنين بوفائهم بالعهد قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ (٢) (٣) ونقارن هذا بما

---

(١) سورة هود ، الآية رقم (١١٤) .

(٢) سورة الرعد ، الآية رقم (٢٠) .

(٣) انظر : الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية ص ٣٠٦ .

عليه كثير من الناس اليوم من وفائهم بعهودهم متى كان الحق لهم ، وسرعان ما ينكثون إذا كان الحق عليهم ، وهذا على المستوى الفردي أو الدولي .

السادسة عشرة : عندما أمر الرسول ﷺ أصحابه بالحلق والنحر فلم يأتمروا ، فقام ودخل على أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ فقالت له : اخرج إليهم وادع حالقك واحلق رأسك وانحر هديك ، فلما فعل ذلك تسابق الصحابة إلى حلق رؤوسهم ونحر هديهم وهذا يدلنا على أهمية القدوة الحسنة وأنها تُؤَثِّرُ أكثرَ من تأثير القول ، فالأب في منزلة قدوة لأولاده يتأثرون بسلوكه وبما يرونه يفعله وإن لم يدعهم إلى هذا السلوك وكذلك المدرِّس مؤثِّر بسلوكه أمام طلابه أكثرَ من تأثير أقواله . ولذلك على الداعية إلى الله أن يلحظ ذلك وأن يهتم بسلوكه وأن يجعل سلوكه دعوة وقدوة حسنة لمن حوله .

السابعة عشرة : أسلوب الترغيب في الدعوة إلى الله ، فقد بَيَّنَ الرسول ﷺ أفضلية الحلق على التقصير من خلال تكرار دعوته للمحلّقين بالرحمة ثلاث مرات ولم يدع للمقصِّرين إلا مرة واحدة ، وهذا معناه الترغيب في حلق الرأس للمحرم في تحلله من نسكه .

الثامنة عشرة : ساق الرسول ﷺ في هديه جملاً كان لأبي جهل في أنفه برة من فضة وذلك إغاظة للمشركين ، يقول ابن القيم ـ رحمه

الله تعالى ـ : (ومنها استحباب مغايظة أعداء الله ، فإن النبي ﷺ أهدى في جملة هديه جملاً لأبي جهل في أنفه برة من فضة يغيظ به المشركين وقد قال تعالى في صفة النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ [1] .

وقال عز وجل : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [2] .

التاسعة عشرة : أن ندرك أن العبرة بما تؤول إليه الأمور وعسى أن يكره المؤمن شيئاً ويكون خيراً ، فقد كره بعض الصحابة صلح الحديبية وما فيه من شروط وتبين بعد ذلك ما فيه من الخير للإسلام والمسلمين يقول ابن حجر عن هذا الفتح : (وكان في الصورة الظاهرة ضيماً للمسلمين وفي الصورة الباطنة عزاً لهم) [3] فعلى المسلم أن لا يتعجل ويحكم على الأمور بظاهرها وليسأل الله الخير الآجل والعاجل ويرضى بما يكتب الله سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة الفتح ، الآية رقم (٢٩) .
(٢) سورة التوبة ، الآية رقم (١٢٠) .
(٣) ابن حجر ، فتح الباري ٣٤٨/٥ ، وانظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣١٠/٣ .

العشـرون : كان لهذا الصلح نتائج عظيمة نوجز شيئاً منها :

١) ذهاب هيبة قريش بدليل مبادرة خزاعة للانضمام إلى عهد محمد ﷺ وعقده دون خوف من قريش [(١)].

٢) اعتراف قريش بكيان المسلمين ، فقد كانت قريش منذ ظهور الدعوة الإسلامية تعتبر النبي ﷺ ومن معه شرذمةً لا كيان لهم ولا مكان ، لكن في صلح الحديبية اعترفت بهم قريش وجلست معهم جلوس الند للند [(٢)].

٣) اختلاط المسلمين بالمشركين ، وتأثيرهم عليهم ، وسماعهم للإسلام ، ومشاهدتهم عن قرب لأعمال المسلمين ، يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (ولما كانت قصة الحديبية مقدمة للفتح سُمِّيَتْ فتحاً ، فإن الفتح في اللغة فتح المغلق والصلح كان مغلقاً حتى فتحه الله وكان من أسباب فتحه صد المسلمين عن البيت ، وكان في الصورة الظاهرة ضيماً للمسلمين وفي الصورة الباطنة عزاً لهم ، فإن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم اختلط بعضهم ببعض من غير نكير ، وأسمع المسلمون المشركين القرآن وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين ، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية ، وظهر من

---

(١) انظر : مهدي رزق الله ، السيرة ص ٤٩٥ .

(٢) انظر : با شميل ، غزوة الأحزاب ص ٣٣١ ، وانظر : أكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ٢ / ٤٥٠ .

كان يخفي إسلامه ، فذل المشركون من حيث أرادوا العزةَ وأُقْهِرُوا من حيث أرادوا الغلبة)[١] .

الحادية والعشرون : بعد صلح الحديبية يكون الرسول ﷺ قد فرغ من عدو لدود للإسلام والمسلمين وبالتالي تمكن من التفرغ لأعمال أخرى[٢] مثل التوجه إلى اليهود في عقر دارهم حيث لم يبق في المدينة بعد الحديبية إلا فترة قصيرة جداً ثم توجه إلى خيبر وفتحها .

وكذلك كاتب الرسول ﷺ ملوك وأمراء العالم وأرسل إليهم رسلاً من عنده يبلغونهم دعوة الله إلى الناس كافة .

الثانية والعشرون : في فضل غزوة الحديبية :

لقد استحقت هذه الغزوة أن تقرن بغزوة بدر في الفضيلة لما ترتب عليها من عز وانتصار للإسلام وذل وانكسار للكفر والنفاق[٣] .

قال ابن عبد البر ـ رحمه الله تعالى ـ : (ليس في غزوات الرسول ﷺ ما يعدل بدراً أو يقرب منها إلا غزوة الحديبية وهذا هو الراجح عندنا وأما متكلمو الأشاعرة فقدموا غزوة أحد في الفضيلة على الحديبية ، فزعموا أن غزوة أحد هي التي تلي غزوة بدر في الفضيلة والأول أولى ، والله أعلم)[٤] .

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٥/ ٣٤٨ .
(٢) انظر: أكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٥٠ .
(٣) السفاريني ، شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد ١/ ٢٧٨ .
(٤) السفاريني ، شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد ١/ ٢٧٨ .

وعن البراء ﷺ قال : (تَعُدُّوْنَ أنتم الفتحَ فتحَ مكة وقد كان فتحُ مكةَ فتحاً ونحن نَعُدُّ الفتحَ بيعةَ الرضوانِ يومَ الحديبيةِ)[١] .

يقول الزهري : (فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ولم يكلمهم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخله فيه ، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر) .

قال ابن هشام : (والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله ـ رضي الله تعالى عنهما ـ ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف)[٢] .

هذا بالنسبة للصلح أما من حضره وبايع بيعة الرضوان فيقول الله تعالى : ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[٣]

ويقول جابر ﷺ : (قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية : « أنتم خير أهل الأرض » وكنا ألفاً وأربعمائة ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة)[٤] .

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٤٤١/٧ ، رقم ٤١٥٠ .
(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ٣٧٢/٣ .
(٣) سورة الفتح ، الآية رقم (١٨).
(٤) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٤٤٣/٧ ، رقم ٤١٥٤ .

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال : أخبرتني أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ عند حفصة : « لا يدخل النارَ إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحدٌ ، الذين بايعوا تحتها » قالت : بلى يا رسول الله ، فانتهرها ، فقالت حفصة : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا ﴾ [1] فقال النبي ﷺ : « قد قال الله عز وجل : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ » [2] [3] .

❁❁❁

(١) سورة مريم ، الآية رقم (٧١) .

(٢) سورة مريم ، الآية رقم (٧٢) .

(٣) صحيح الإمام مسلم ٤/١٩٤٢ ، رقم ٢٤٩٦ .

المبحث الثاني
فقه السيرة في رسائل النبي ﷺ
إلى الملوك والأمراء

بعد غزوة الحديبية وما جرى فيه من صلح بين المسلمين وقريش ، بدأ الرسول ﷺ بمكاتبة الملوك والأمراء . والباحث في تاريخ هذه الرسائل يجد اضطراباً بين المؤرخين في تاريخها ، ولا يستطيع أن يجزم بتاريخ محدد لها سوى أن المرجح هو أَنَّ توجه الرسولِ ﷺ نحو الكتابة وبَعْثَ الرسلِ كان بعد الصلح ، ولما أراد الرسول ﷺ أن يكتب قيل له : (إنهم لا يقرأون كتاباً إلا مختوماً فاتخذ خاتماً من فضة نقشه محمد رسول الله)[(١)] .

ومن أوثق الرسائل تلك الرسالة التي بعثها الرسول ﷺ إلى هرقل حيث ورد نص هذه الرسالة في صحيح البخاري ونص الكتاب : (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، يُؤْتِكَ اللهُ أجرَك مرتين ، فإن تَوَلَّيْتَ فإنما عليك إثم الأريسين ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ١/١٥٥ ، رقم ٦٥ .

ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾)[١] [٢] وفيه قصة هرقل مع أبي سفيان لما سأله عن النبي ﷺ وصفته وأشياء أخرى بعد ورود الرسالة إليه يحملها دحية الكلبي ﷺ ولم يستجب قيصر وإن كان رد رداً جميلاً لكنه ضن بملكه فلم يُكْتَبْ له الهداية .

وفي صحيح البخاري (عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمي ، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين ، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى ، فلما قرأه مَزَّقَه ، قال الراوي : فحسبت أن ابن المسيب قال : فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يُمَزَّقُوْا كُلَّ مُمَزَّقٍ)[٣] .

وبعث رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية ، فمضى بكتاب رسول الله ﷺ فقبل الكتاب وأكرم حاطباً وأحسن له وحمله هدايا للنبي ﷺ[٤] .

وفعل المقوقس هذا يدل على تقديره لرسول الله ﷺ كما يدل على أنه لم يسلم خوفاً على ملكه ولولا هذا لآمن ونال حظه من الإسلام[٥] .

(١) سورة آل عمران ، الآية رقم (٦٤) .
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ١/ ٣٢ ، رقم ٧ .
(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ١٢٦/٨ ، رقم ٤٤٢٤ .
(٤) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٢٧٢/٤ .
(٥) انظر: أبو شهبة ، السيرة ٣٦٢/٢ .

وكاتب رسول الله ﷺ النجاشي الذي أسلم وصلى عليه الرسول ﷺ لما مات ، ثم كاتب النجاشي الذي ولي بعده وكان كافراً [١] وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ [٢] .

وبعث رسول الله ﷺ سليط بن عمرو إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة [٣] فلم يسلم ، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى جيفر بن الجلندي وعمار بن الجلندي الأزديين صاحبي عمان [٤] .

وكتب إلى المنذر بن ساوي أمير البحرين مع أبي العلاء الحضرمي فأسلم وأقره النبي ﷺ على إمارته . وكلها رسائل يدعو فيها أولئك إلى الإسلام والدخول في هذا الدين.

الفوائد المستخرجة من مكاتبة الرسول ﷺ للملوك والأمراء :

الأولى : في مكاتبة الرسول ﷺ لأولئك الملوك والأمراء دليل على عالمية هذه الرسالة وأنها للناس كافة فقد قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [٥] وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا

---

(١) انظر: ابن حجر ، فتح الباري ١٢٩/٨

(٢) صحيح مسلم ١٣٩٧/٣ ، حديث رقم ١٧٧٤ .

(٣) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٢٧٣/٤ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) سورة الأعراف ، الآية رقم (١٥٨).

أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [١] وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ [٢] .

وبعد صلح الحديبية كان فرصة سانحة لتوسيع دائرة الدعوة ومخاطبة أمم لم تبلغهم الرسالة ومكاتبة آفاق لم تتم مكاتبتها من قبل .

ومن خلال النصوص الشرعية ، والتطبيق العملي في سيرة النبي ﷺ تظهر لنا هذه العالمية في الدعوة وفي ذلك رد على أولئك الذين يقولون : إن محمداً ﷺ مبعوثٌ للعرب فقط وليس للعالمين .

الثانية : من قبول الرسول ﷺ لاتخاذ الخاتم بعد أن أُخْبِرَ أن من سيكتب لهم لا يقرأون إلا كتاباً مختوماً ، نأخذ منه إمكانية الاستفادة مما لدى الغير مما لا يتعارض مع الدين .

الثالثة : في مكاتبة الرسول ﷺ للملوك والأمراء تنبيه إلى حقوق ذوي السلطة والمكانة ، فالرسول ﷺ يوجه إليهم الخطاب ويلقبهم بألقاب فيها تقدير لهم فهو يقول : (عظيم الروم ، عظيم فارس ، وهكذا) .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية رقم (١٠٧) وعالمية الرسالة أوضحتها آيات نزلت في العهد المكي مثل هذه الآية مما يوضح خطأ النظرة القائلة بالتدرج في نطاق الدعوة من الإقليمية إلى العالمية تبعاً لاتساع النفوذ السياسي للرسول ﷺ وأن الرسول ﷺ لم يخطر بباله العالمية إلا بعد أن انتشرت دعوته في الجزيرة العربية ويرد على هذا أن صفة العالمية كما تشير إليها الآية المذكورة تقررت والمسلمون مستضعفون بمكة يخافون أن يتخطفهم الناس ، انظر : أكرم العمري ، السيرة الصحيحة ٤٥٦/٢ .

(٢) سورة سبأ ، الآية رقم (٢٨).

الرابعة : نلحظ أن الرسول ﷺ يجمع في أسلوبه بين الترغيب والترهيب ، فهو يقول لعظيم الروم : « أَسْلِمْ تَسْلَمْ يؤتِكَ اللهُ أجرَكَ مرتين » وهذا ترغيب له ، ثم يقول : « فإن تولَّيتَ فإنما عليك إثمُ الإريسيين » وهذا ترهيب له من عاقبة عدم إسلامه (١) .

الخامسة : يُلاحَظُ على هذه الكتب عموماً الخبرةُ الدقيقةُ بنفوس من أُرْسِلَتْ إليهم وحُسْنُ اختيارِ الألفاظ المناسبة للكل والمثيرة للعواطف والمحرِّكة للمشاعر ولذلك من لم يسلم كان رده في الغالب جميلاً (٢) .

السادسة : في موقف الزعماء النصارى الذين كاتبهم النبي ﷺ وكانت ردودهم فيها التقدير للرسول ﷺ ، وإن لم تكن فيها الاستجابة نتذكر قول الله تعالى : ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٣) فإن النبي ﷺ وجد من نصارى الحبشة الإيواء والنصرة للمهاجرين إلى الحبشة ، وهنا لما أرسل الرسول كتبه إلى الملوك ورؤساء الشعوب كان النصارى من أحسنهم رداً ، فهرقل ملك

---

(١) انظر: ابن حجر ، فتح الباري ١/ ٣٩ - ٤٠ .
(٢) انظر : أبو شهبة ، السيرة النبوية ٢/ ٣٦٥ .
(٣) سورة المائدة ، الآية رقم (٨٢).

الروم في الشام حاول إقناع رعيته بقبول الإسلام فلم يستطع ، فاكتفى بالرد الحسن ، وضن بملكه ، والمقوقس عظيم القبط في مصر كان أحسن منه رداً ، وإن لم يكن أحسن منه ميلاً للإسلام ، وأرسل للنبي ﷺ هدية حسنة ، ثم لما فُتِحَتِ الشامُ ومصرُ وعرف أهلها الإسلام ، أسرعوا إلى الدخول فيه [(١)] .



(١) المراغي ، تفسير المراغي ٧/ ٦ .

المبحث الثالث

فقه السيرة في غزوة خيبر

لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية مكث عشرين يوماً أو قريباً من ذلك ثم خرج إلى خيبر وهي التي وعده الله إياها [١] .

قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم ، ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر [٢] وأمر أن لا يخرج معه إلا من شهد الحديبية ، وأراد بعض الأعراب الذين تخلفوا عن الحديبية أن يخرجوا معه فقال لهم : « لا تخرجوا معي إلا رغبة في الجهاد ، أما الغنيمة فلا أعطيكم منها شيئاً » وقد أراد الرسول ﷺ أن يبين لهم أن لا حاجةَ له إلى الذين لا هَمَّ لهم إلا الغنيمة ، ولا يَهُمُّهم نصرُ الإسلام [٣] .

وكان رسول الله ﷺ حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عِصْر [٤] ، فبنى له فيها مسجداً ، ثم على الصهباء [٥] ثم أقبل رسول

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ١٨١/٤ .
(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ / ٢٧٨ .
(٣) انظر : أبو شهبة ، السيرة النبوية ٤١٤/٢ .
(٤) عصر : بكسر أوله وسكون الثانية ، ويُرْوَى بفتح الاثنين جبل بين المدينة وخيبر في طريق رسول الله ﷺ إلى خيبر ، محمد حسن شراب ، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ص ١٩٢-١٩٣ .
(٥) الصهباء : جبل يطل على خيبر من الجنوب ويسمى اليوم جبل (عطوة) يشرف على بلدة (الشريف) قاعدة خيبر من الجنوب ، وعنده تزوج الرسول ﷺ صفية بنت حيي ، محمد حسن شراب ، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ص ١٦٢ .

الله ﷺ بجيشه حتى نزل بواد يقال له : الرجيع [١] ، فنزل بينهم وبين غطفان ؛ ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر ، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ ، فلما سمعت غطفان بمنزل الرسول ﷺ جمعوا له ثم خرجوا ؛ ليظاهروا اليهود عليه ، حتى إذا ساروا مرحلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حسا ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم في أهليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر [٢] .

وكان من شأن رسول الله ﷺ إذا غزا قوماً لم يغر عليهم حتى يصبح ، فإن سمع أذاناً كف وإن لم يسمع أذاناً أغار ، فوصل إلى خيبر ليلاً ، فبات حتى أصبح لم يسمع أذاناً ، فركب وركب معه أصحابه فاستقبلهم يهود خيبر بمساحيهم ومكاتلهم ، فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش معه ، قالوا : محمد والجيش معه فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباحُ الْمُنْذَرِينَ » [٣] .

---

(١) الرجيع : موضع قريب من خيبر في طريق الرسول ﷺ إلى خيبر (بين خيبر وغطفان) وهو غير الرجيع الموضع المشهور القريب من مكة الذي غدرت فيه عضل والقارة بسبعة النفر الذين بعثهم الرسول ﷺ معهم ، محمد شراب ، المعالم الأثيرة ص ١٢٥ .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ /٣٨٠-٣٨١ .

(٣) انظر الحديث في : صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٢/٨٩ ، رقم ٦١٠ ، كتاب الأذان ، باب ما يحقن بالأذان من الدماء .

وكان تعداد الجيش مع الرسول ﷺ ألفاً وستمائة ومعهم مائتا فرس وقيل : ثلاثمائة ، يقابلهم قوة كبيرة من يهود خيبر من أشد الطوائف اليهودية بأساً وأكثرهم مالاً وأوفرهم سلاحاً .

وكانت قريش والعرب في الجزيرة تنتظر ماذا تؤول إليه هذه المعركة الفاصلة الحاسمة ، حتى حصل من البعض التراهن على أي الفريقين سيكون الغلبة .

وحاصر المسلمون حصونَ خيبرَ التي تحصنوا بها ، فأخذ المسلمون في افتتاح هذه الحصون واحداً تلوَ الآخرِ وكان أول ما سقط من حصونهم ناعم ، ثم القموص حصن ابني أبي الحقيق ، و حصن الصعب بن عاذ ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعاماً و ودكاً منه ، ثم انتهوا إلى حصني منطقة الوطيح والسلالم وكانا آخر حصون أهل خيبر افتتاحاً [١] .

وفيما كان الرسول ﷺ مُحَاصِراً لهم جاء إليه راعي غنم لهم أسود ومعه غنم له ، كان فيها أجيراً لرجل يهودي ، فقال : يا رسول الله اعرض علي الإسلام فعرضه عليه فأسلم ، وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحداً أن يدعوه إلى الإسلام ويعرضه عليه ، فلما أسلم قال : يا رسول الله إني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم وهي أمانة عندي فكيف أصنع بها ؟ قال : « اضرب في وجوههما ، فإنها سترجع إلى وليها »

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣/ ٣٨١- ٣٨٣ .

فقام الأسود فأخذ حفنة من الحصباء فرمى بها في وجوهها وقال : ارجعي إلى صاحبك فو الله لا أصحبك [(١)] .

وقد واجه المسلمون مقاومةً شديدةً عند فتح هذه الحصون ؛ لأن اليهود يعلمون أن هزيمتهم ما هي إلا القضاء الأخير عليهم في جزيرة العرب ، ومع اشتداد القتال واستماتة اليهود في الدفاع واستبسال المسلمين في التضحية قال الرسول ﷺ : « لأعْطِيَنَّ هذه الرايةَ غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب اللهَ ورسولَه ويحبه اللهُ ورسولُه » قال : فبات الناس يدركون ليلتهم أيهم يعطاها ؟ .

فلما أصبح الناس غَدَوْا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعْطَاهَا ، فقال : « أين علي بن أبي طالب ؟ » فقيل : هو يا رسول الله يشتكي عينيه ، قال : « فأرسلوا إليه » فأُتِيَ به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الرايةَ ، فقال علي : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، فقال : « أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأَخْبِرْهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم » [(٢)] .

ولما ذهب إليهم خرج مرحب اليهودي يختال في سلاحه ويرتجز ويدعو إلى المبارزة ، فبرز له محمد بن مسلمة فقتله ، وخرج بعد

(١) انظر: ابن هشام ، السيرة النبوية ٣/ ٣٩٨ .
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٤٧٦/٧ ، رقم ٤٢١٠ .

مرحب أخوه ياسر يقول هل من مبارز؟ فبرز له الزبير بن العوام رضي الله عنه فقتله [١].

ثم فتح الله على يد علي بن أبي طالب رضي الله عنه [٢] واستولى اليأس على اليهود ، فطلبوا من النبي ﷺ الصلح على أن يحقن دماءهم ، قال ابن حجر : (أخرج البيهقي بإسناد رجاله ثقات ، من حديث ابن عمر : أن النبي ﷺ لما ترك من ترك من أهل خيبر على أن لا يكتموه شيئاً من أموالهم ، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد ، قال : فغيبوا مسكا فيه مال وحلي لحيي بن أخطب كان احتمله معه إلى خيبر فسألهم عنه فقالوا : أذهبته النفقات ، فقال : العهد قريب والمال أكثر من ذلك ، قال : فوُجِدَ بعد ذلك في خربه ، فقتل النبي ﷺ ابني أبي الحقيق وأحدهما زوج صفية) [٣].

وفي غزوة خيبر حصلت صورتان متضادتان :

الأولى : جاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ ، فآمن به واتبعه فقال : أهاجر معك فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله ﷺ شيئاً فقسم وقسم له فأعطى أصحابه ما قسم له وكان يرعى ظهرهم فلما جاء دفعوه إليه فقال : ما هذا ؟ قال : قسم قسمه لك ، فأخذه فجاء به النبي ﷺ فقال : ما هذا يا محمد ؟

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣/ ٣٨٥ .
(٢) انظر: ابن كثير ، البداية والنهاية ١٨٦/٤ .
(٣) ابن حجر ، فتح الباري ٤٧٩/٧ .

قال : قسم قسمته لك ، قال : ما على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعت على أن أُرْمَى هاهنا وأشار إلى حلقه بسهم فأموت فأدخل الجنة ، فقال : « إن تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ » ثم نهضوا إلى قتال العدو ، فأتي به النبي ﷺ يحمل وقد أصابه سهم حيث أشار فقال النبي ﷺ : « هو هو ؟ » قالوا : نعم ، قال : « صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ »[(١)] .

الثانية : (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : شهدنا خيبر فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يدعي الإسلام : « هذا من أهل النار » فلما حضر القتال قاتل الرجل أشد القتال حتى كثرت به الجراح ، فكاد بعض الناس يرتاب ، فوجد الرجل ألم الجراحة ، فأهوى بيده إلى كنانته فاستخرج منها أسهماً فنحر بها نفسه ، فاشتد رجال من المسلمين ، فقالوا : يا رسول الله ، صدق الله حديثك ، انتحر فلان فقتل نفسه فقال : « قم يا فلان فأَذِّنْ أنه لا يدخل الجنةَ إلا مؤمنٌ ، إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر »[(٢)] .

وبعد الفراغ من الغزوة حاول اليهود قتل الرسول ﷺ بالسم ، فقد أهدته امرأة منهم شاة مشوية مسمومة وأكثرت السم في ذراع الشاة

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٤/ ١٥-١٦ واللفظ له ، والنسائي ، سنن النسائي ٤/ ٦٠-٦١ ، والحاكم في المستدرك ٣ / ٥٩٥-٥٩٦ وسكت عنه ، ووافقه الذهبي وقال إبراهيم العلي في هامش صحيح السيرة النبوية : (وإسناده صحيح) ص ٤٤٦ .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٧ / ٤٧١ ، رقم ٤٢٠٣ ، وصحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه إلا أنه ذكر (حنيناً بدل خيبر) قال القاضي عياض في شرح مسلم للنووي : (صوابه خيبر بالخاء المعجمة) .

عندما عرفت أنه يحبه ، فلما أكل من الذراع أخبرته الذراع ، فلفظ اللقمة واستجوب المرأة ، فاعترفت بجريمتها فلم يعاقبها في حينها [(١)] ، ولكنه قتلها عندما مات بشر بن البراء بن معرور من أثر السم الذي ابتلعه مع الطعام عندما أكل مع الرسول ﷺ [(٢)] .

وقد بقى اليهود في خيبر يزرعونها على أن للمسلمين الشطر من كل زرع ونخيل وشيء ما بدا لرسول الله ﷺ وكان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يأتيهم كل عام ، فشكوا للرسول ﷺ شدة خرصه وأرادوا أن يرشوه ، فقال : يا أعداء الله تطعمونني السحتَ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي ، ولأنتم أبغض الناس إلي من عدتكم من القردة والخنازير ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم ، فقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض [(٣)] .

ولما فتح الله على المسلمين خيبر وغنموا منها وصالحوا أهلها على بعض ثمارها وكان فيها النخيل والتمر استفاد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من ذلك ، تقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ : (لما فُتِحَتْ خيبرُ

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣/ ٣٨٩-٣٩٠ ، وأصل القصة في صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ١٠ / ٢٤٤- ٢٤٥ ، رقم الحديث ٥٧٧٧ .

(٢) انظر : الحاكم ، المستدرك ٣/ ٢٢٠ ، وانظر : ابن حجر ، فتح الباري ١٠ / ٢٤٥ وقال : (ومن المستغرب قول محمد بن سحنون : أجمع أهل الحديث أن رسول الله ﷺ قتلها) .

(٣) انظر : ابن كثير ، البداية ٤/١٩٩ .

قلنا : الآن نشبع من التمر) [١] وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : (ما شبعنا حتى فتحنا خيبر) [٢] .

الفوائد المستنبطة من هذه الغزوة :

الأولى : في قول الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب ﷺ : « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » في هذا بيان لفضل الدعوة إلى الله وعظيم أجر الداعي إلى الله ، فاستجابة شخص واحد لدعوته وإيمانه بالله خير له من حمر النعم التي هي أثمن الأموال وأغلاها في ذلك الوقت .

الثانية : في دعوة الرسول ﷺ للأسود الراعي وقول ابن هشام في السيرة : (وكان رسول الله ﷺ لا يحتقر أحداً أن يدعوه إلى الإسلام ويعرضه عليه) أن على الداعية إلى الله أن لا يحتقر أحداً في عرض الدعوة ، وأن يعرضها على صغير القوم كما يعرضها على كبيرهم ورئيسهم وقد جاء في كتاب الله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ ﴾ [٣] .

الثالثة : من قول الرسول ﷺ لما رأى اليهود قد خرجوا ومعهم مساحيهم : (الله أكبر خربت خيبر) يقول السهيلي : (فيه إباحة

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ، لابن حجر ٤٩٥/٧ ، رقم ٤٢٤٢ .
(٢) المرجع السابق ، رقم ٤٢٤٣ .
(٣) الآيات الأول من سورة عبس .

التفاؤل وذلك أنه لما رأى المساحي والمكاتل وهي من آلة الهدم والحفر ، مع أن لفظ المساحي من سحوت الأرض إذا قشرتها)[١] .

الرابعة : في قصة خيبر فضيلة ظاهرة لعلي بن أبي طالب ﷺ حيث بين الرسول ﷺ محبة الله ورسوله له ، ومحبته لله ولرسوله ﷺ ولأجل ذلك رأينا أن الصحابة كل واحد منهم كان يتطلع لها لعظم هذه الفضيلة ، والتي كانت من نصيب علي ﷺ وأرضاه .

الخامسة : من قبول الرسول ﷺ الشاة المصلية التي جاءت بها المرأة اليهودية نأخذ قبول هدية الكافر وجواز الأكل من ذبائح أهل الكتاب وحل طعامهم[٢] .

السادسة : في محاولة اليهود قتل الرسول ﷺ بيان ما عليه اليهود من الخبث والخيانة ، حيث ترك لهم الرسول ﷺ مزارعهم وأرضهم ولم يجلهم منها ، وصالحوه ومع ذلك حاولوا قتله ﷺ ، فهم منذ القدم أهل الخيانة والمؤامرات على الإسلام والمسلمين .

السابعة : في إخبار الذراع للرسول ﷺ بأنه مسموم آية للرسول ﷺ ، وهذا إخبار من الرسول ﷺ بالغيب الذي أعلمه الله إياه وتكليم الجماد له ﷺ[٣] .

---

(١) السهيلي ، الروض الأنف ٤/٥٨ مع حذف يسير ، وانظر : ابن حجر ، فتح الباري ٧/ ٤٦٨ .

(٢) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣/٣٥١ ، وابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٤٩٨ .

(٣) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ١٠ / ٢٤٦ .

الثامنة : في قصة الأعرابي الذي أسلم وحسن إسلامه وحسن مقصده في طلب الشهادة ، فحقق الله له مراده ولم يلتفت إلى شيء من الدنيا حتى نصيبه من الغنيمة رفض أن يأخذ منه شيئاً ، إنه صورة عظيمة تحتذى في طلب الآخرة وصلاح النية والتعلق بما عند الله سبحانه وتعالى ، في وقت طلبت الدنيا بأمور الآخرة ، نسأل الله العافية والسلامة .

التاسعة : في قصة الرجل الذي ظاهره الإسلام وقاتل مع المسلمين أشد القتال ، ومع ذلك ومع إسهامه الكبير في هذا العمل العظيم فالرسول ﷺ يقول عنه : إنه من أهل النار ، فكانت خاتمته أن قتل نفسه ، وفي هذا التحذير من الاغترار بالعمل وأن على العبد أن لا يتكل عليه ولا يركن إليه مخافة انقلاب الحال للقدر السابق (١) ويسأل اللهَ دائماً حُسْنَ الختام ، كما ينبغي علينا أن لا نغتر بالمظاهر ، فهذا الرجل رغم قيامه بالجهاد في سبيل الله مع رسول الله كانت خاتمته النار والعياذ بالله .

العاشرة : في هذا الحديث آية لرسول الله ﷺ حيث أخبر بما سيؤول إليه حال هذا الرجل ، فكان كما أخبر ﷺ حيث أقدم على قتل نفسه بكنانته .

---

(١) انظر : النووي ، شرح صحيح مسلم ٢ / ١٢٦ .

الحادية عشرة : حاول اليهود رشوة عبد الله بن رواحة ﷺ عندما جاء ؛ ليخرص الثمر عليهم ، فقال : أتطعمونني السحتَ وحبي لرسول الله ﷺ وبغضي لكم لا يحملني على أن لا أعدل معكم

هذا هو المسلم التقي لا يقبل الرشوة ولا يؤثر فيه البغض والحب في مجانبة العدل والحيف على أحد الطرفين ، فالرشوة سحت وهي آفة المجتمعات وهي نقيض العدل ورفيق الظلم والحيف والجور .

الثانية عشرة : من قول اليهود لعبد الله بن رواحة ﷺ : (بهذا قامت السماوات والأرض) أي بالعدل قامت السماوات والأرض ، وبالظلم تنهدم المجتمعات وتتحول إلى غابات يأكل فيها القويُّ الضعيفَ ، وبالعدل يكون العمرانُ والبناءُ والصلاحُ ، فاليهود يعرفون العدل ولكنهم يبتغون الحيف والجور من المؤمنين لمصلحتهم ولما رفض ابن رواحة ﷺ وأبى إلا العدل قالوا مقالتهم تلك . والعدل أساس صلاح الأحوال ونصر الله سبحانه وتعالى ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ : (فإن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة ، وعاقبة العدل كريمة ، ولهذا يُرْوَى : الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة) [(١)] وهذا ما لم يرده اليهود للمسلمين .

---

(١) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، جمع ابن قاسم ٦٣/٢٨ .

الثالثة عشرة : قول عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ وقول عمر بن الخطاب ﷺ في شبع الصحابة من التمر بعد فتح خيبر يدل على ما كان عليه الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من الجوع والفاقة وأنهم كانوا لا يجدون ما يشبعهم حتى من التمر مع أن المدينة ذات نخل وهم أسوتنا وقدوتنا ـ رضي الله عنهم ـ وأرضاهم ، فلا نتعلق بالدنيا ولا نحرص الحرص الشديد عليها إذ لو كان في ذلك خير لكان للصحابة منها النصيب الأوفر .

۞۞۞

المبحث الرابع

فقه السيرة في غزوة ذات الرقاع

يترجح للناظر في السيرة أن غزوة ذات الرقاع كانت بعد خيبر كما ذكر ذلك البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ (١) وابن القيم (٢) وابن حجر (٣) وذلك لمشاركة أبي موسى الأشعري وأبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنهما ـ فيها وقد جاءا بعد خيبر.

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ (أن النبي ﷺ صلى بأصحابه صلاة الخوف في غزوة السابعة ذات الرقاع) (٤).

وعن جابر رضي الله عنه قال : (خرج النبي ﷺ إلى ذات الرقاع من نخل ، فلقى جمعاً من غطفان وأخاف الناس بعضهم بعضاً ، فصلى النبي ﷺ ركعتي الخوف) (٥).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : (خرجنا مع النبي ﷺ في غزاة ونحن في ستة نفر بيننا بعير نعتقبه ، فنقبت أقدامنا ونقبت قدماي وسقطت أظفاري ، فكنا نلف على أرجلنا الخرق فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا ، وحدث أبو موسى بهذا

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٤١٦/٧ ، باب غزوة ذات الرقاع .
(٢) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٢٣٥/٣ .
(٣) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٤١٩/٧-٤٢٠ .
(٤) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٤١٦/٧-٤١٧ ، رقم ٤١٢٥ .
(٥) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٤١٧/٧ ، رقم ٤١٢٧ .

الحديث ثم كرر ذلك قال : ما كنت أمنع بأن أذكره كأنه كره أن يكون شيئاً من عمله أفشاه) [١] .

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال : (كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع ، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ ، فجاء رجل من المشركين وسيف النبي ﷺ معلق بالشجرة فاخترطه ، فقال له : تخافني ؟ فقال له : « لا » قال : فمن يمنعك اليوم مني ؟ قال : « الله » فتهدده أصحاب النبي ﷺ وأقيمت الصلاة ، فصلى بطائفة ركعتين ، ثم تأخروا وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين وكان للنبي ﷺ أربع وللقوم ركعتان ، وقال مسدد عن أبي عوانة عن أبي بشر : اسم الرجل غورث بن الحارث) [٢] .

وقال أبو هريرة : (صليت مع رسول الله ﷺ في غزوة نجد صلاة الخوف) وإنما جاء أبو هريرة إلى النبي ﷺ أيام خيبر [٣] .

وفي هذه الغزوة حصلت قصة الحراسة وملخصها أن المسلمين في مرجعهم من غزوة ذات الرقاع سبوا امرأة من المشركين ، فنذر زوجها أن يهرق دماً في المسلمين ، فجاء ليلاً وقد جعل الرسول ﷺ عمار ابن ياسر وعباد بن بشر ـ رضي الله عنهما ـ يحرسان المسلمين أثناء نومهم فكان عباد قائماً يصلي فضربه بسهم فنزعه ومضى في صلاته ، ثم

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٤١٧/٧ ، رقم ٤١٢٨ .
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٤٢٦/٧ ، رقم ٤١٣٦ .
(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٤٢٦/٧ ، رقم ٤١٣٧ .

ضربه بالثاني ،ثم بالثالث ، فلما سلم أيقظ صاحبه فوثب ، فلما رأي ما به من الدماء قال : هلا نبهتني ، فقال : كنت في سورة أقرأوها ، فلم أحب أن أقطعها ، فلما تابع علي الرمي ركعت فآذنتك ولولا أن أضيع ثغراً أمرني الرسول ﷺ بحفظه لقطع نفسي أو أكمل السورة [١] .

وفي الغزوة أيضاً قصة جمل جابر ﷺ حيث تأخر عن الركب فقال له الرسول ﷺ : « مالك يا جابر ؟ فقلت : يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا ، قال : فأنخه وأناخ رسول الله ﷺ ، ثم نخسه الرسول ﷺ فصار يكاد يسبق ناقة رسول الله ﷺ ، ثم حادثه الرسول ﷺ واشترى جمله منه ولما وصل إلى المدينة ذهب جابر إلى الرسول ﷺ ؛ ليعطيه الجمل فرد الرسول ﷺ جمله وأعطاه ثمنه وأرجح [٢] .

الفوائد المستنبطة من هذه الغزوة :

الأولى : أهمية الصلاة وأنها لا تسقط بحال من الأحوال لا في السفر ولا في الحضر ولا في الأمن ولا في الخوف وذلك لعظم مكانتها وأهميتها في الإسلام .

الثانية : أهمية صلاة الجماعة ، فمع شدة الخوف وملاقاة الأعداء يقيم المسلمون الصلاة جماعة مما يدلنا على أهمية الصلاة جماعة في المسجد الذي بني لأجل إقامة الصلاة فيه .

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٤/٨٥ ، وإبراهيم العلي ، صحيح السيرة النبوية ص ٤٧٨ وقال : (وإسناده حسن) .

(٢) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٤/٨٦-٨٧ ، وإبراهيم العلي ، صحيح السيرة النبوية ص ٤٧٨-٤٧٩ .

الثالثة : فقر الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فلم يكونوا يجدون ما ينتعلون به حتى نقبت أقدامهم وسقطت أظفارهم وكانوا يلفون على أرجلهم الخرق ويجاهدون في سبيل الله .

الرابعة : ثقة الرسول ﷺ بالله تعالى فمع أن الأعرابي قد اخترط السيف بيده وهو نائم والرسول ليس بيده سلاح ومع ذلك يقول للأعرابي : « الله يمنعني منك » ، فهو واثق من حفظ الله ورعايته له ، فلم يتمكن الأعرابي أن يصنع شيئاً وقد قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [١] .

يقول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ : (أي بلغ أنت رسالتي وأنا حافظك من الناس وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم ، فلا تخف ولا تحزن فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك) [٢] يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ : (والله سبحانه وتعالى قد أمر رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه وضمن له حفظه وعصمته من الناس وهؤلاء المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينهم وتبليغهم له) [٣] .

الخامسة : حرص الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ على العبادة وقيام الليل ، فالصحابيان عمار بن ياسر وعباد بن بشر ـ رضي الله عنهما ـ لما كلفهما الرسول ﷺ بالحراسة اقتسما الليل نصفين أحدهما

(١) سورة المائدة ، الآية رقم (٦٧) .
(٢) ابن كثير ، تفسير ابن كثير ، تحقيق مقبل الوادعي ٣ / ١٩٠ .
(٣) محمد أويس الندوي ، التفسير القيم لابن القيم ص٤٣٠ .

يصلي النصف الأول والآخر يصلي النصف الثاني . وهذا دأب الصالحين ـ رضي الله عنهم ـ، وهو المحافظة على هذا الورد الليلي وقد مر معنا حديث حول هذا في خلوة الرسول ﷺ وتعبده قُبيل البعثة .

السادسة : خشوع الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ في صلاتهم وتوقيرهم لوقوفهم بين يدي ربهم سبحانه وتعالى ، فهذا الصحابي الجليل ﷺ يصلي النافلة ـ وليس الفريضة ـ فيصاب بسهم فلا يفزع ولا يخاف ، بل ينزع السهم ويمضي في صلاته ، ثم يصاب بالسهم الثاني وينزف الدماء وينزعه ويمضي في صلاته ، ثم يصاب بالسهم الثالث فأتم صلاته ولم يقطعها ثم أيقظ صاحبه لا خوفاً من الرامي ولكن خوفاً على ثغر المسلمين ، أين نحن من هؤلاء السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ ؟ الذين تعلقوا بالصلاة وعرفوا قدرها ووعوا مكانتها ، فكانوا يرتاحون بها لا منها ، وكانت قلوبهم ـ وهم في كل مكان ـ معلقة بالمساجد وبها ، ونحن ندخل المسجد ونؤدي الصلاة وقلوبنا لا تدخل المسجد بل معلقة بالأسواق وأمور الدنيا وصخبها ، نسأل الله الرحمة .

السابعة : من كراهية أبي موسى الأشعري ﷺ للحديث عما حصل له في غزوة ذات الرقاع من المشقة يقول النووي ـ رحمه الله تعالى ـ: (فيه استحباب إخفاء الأعمال الصالحة وما يكابده العبد من المشاق في طاعة الله تعالى ولا يظهر شيئاً من ذلك إلا لمصلحة مثل بيان

حكم ذلك الشيء والتنبيه على الاقتداء به فيه ونحو ذلك وعلى هذا يُحْمَلُ ما وجد للسلف من الإخبار بذلك)[1] فعلى المسلم أن يحرص على بقاء الأعمال الصالحة بينه وبين ربه فهو أخلص وأعظم للأجر وأبعد عن الحبوط ، والشيطان يحرص على منع المسلم من عمل الصالحات ، فإذا انتصر عليه وعمل العمل الصالح سعى الشيطان في إبطال هذا العمل وإنقاص أجره وذلك بالحديث عن هذا العمل.

الثامنة : في قصة جمل جابر ﷺ نأخذ متابعة الرسول ﷺ لأحوال أصحابه ورفقه بهم ومؤانسته لهم ، والحديث معهم وتفقده لشؤونهم ، وقد ورد أنه إذا كان مع أصحابه سار في آخرهم ؛ لكي يتمكن من معرفة أحوالهم وإعانة ضعيفهم وهذا من تواضعه ﷺ .

التاسعة : أيضاً من كريم أخلاقه ﷺ وحسن قضائه لجابر ﷺ أنه عندما وصل إلى المدينة رد عليه جمله الذي اشتراه منه وأعطاه ثمنه وأرجح له في الثمن . اللهم صَلِّ وسَلِّمْ وبَارِكْ على هذا النبي العظيم .

۞۞۞

(١) النووي ، شرح صحيح مسلم ١٢/١٩٧-١٩٨ .

المبحث الخامس

فقه السيرة في عمرة القضاء

قال ابن حجر : (قال الحاكم في الإكليل : تواترت الأخبار أنه ﷺ لما أهل ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم وأن لا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية ، فخرجوا إلا من استُشْهِدَ وخرج معه معتمرون آخرون ، فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان قال : وتُسَمَّى أيضاً عمرةَ الصلح)[١] قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (قلت : فتحصل من أسمائها أربعة : القضاء والقضية والقصاص والصلح)[٢] .

خرج رسول الله ﷺ سنة سبع من الهجرة[٣] بعد استدارة العام من الشهر الذي صده المشركون فيه عن مكة ، وساق معه ستين بدنة وحمل السلاح والبيض والدرع والرماح وقاد مائة فارس احتياطاً من غدر المشركين ، فلما انتهى إلى ذي الحليفة قدم الخيل أمامه عليها محمد بن مسلمة رضي الله عنه وقدم السلاح واستعمل عليه بشير بن سعد رضي الله عنه .

وأحرم النبي ﷺ والمسلمون يلبون معه ومضى محمد بن مسلمة رضي الله عنه في الخيل إلى مر الظهران ، فوجد بها نفراً من قريش فسألوه ، فقال :

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٧/٥٠٠ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣/٣٧٠ .

هذا رسول الله ﷺ يصبح هذا المنزل غداً إن شاء الله تعالى ، فأتوا قريشاً فأخبروهم ففزعوا .

ونزل رسول الله ﷺ بمر الظهران وقدم السلاح إلى بطن يأجج [١] حيث ينظر إلى أنصاب الحرم [٢] ، وخلف عليه أوس بن خولي الأنصاري في مائتي رجل .

وخرجت قريش من مكة إلى رؤوس الجبال ، وقدم رسول الله ﷺ الهدي أمامه فحبس بذي طوى [٣] .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال : (قدم رسول الله ﷺ وأصحابه ، فقال المشركون : إنه يقدم عليكم وقد وهنتهم حمى يثرب ، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة وأن يمشوا ما بين الركنين ، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم ، وزاد ابن سلمة عن أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما قدم النبي ﷺ لعامه الذي استأمن قال : « ارملوا ليرى المشركون قوتكم ، والمشركون من قبل قعيقعان » [٤] .

---

(١) يأجج : بالهمزة وجيمين ، اسم لمكان قريب من مكة ، وهو واد من أودية مكة ، شمال التنعيم ، ووادي التنعيم يصب في يأجج ، يقطعه الطريق إلى المدينة على عشرة أكيال من المسجد الحرام ، يعرف اليوم باسم ياج . محمد شراب ، المعالم الأثيرة ص ٢٩٧ .

(٢) أي أعلام حدوده .

(٣) القسطلاني ، المواهب ١/٥٤١-٥٤٢ .

(٤) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧/٥٠٨-٥٠٩ ، رقم ٤٢٥٦ ، وقعيقعان جبل يشرف على الركنين الشاميين ومن كان به لا يرى من بين الركنين اليمانيين ، فتح الباري ٧/٥١٠ .

وفي السيرة لابن هشام : (فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال : « رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة » ، ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى إذا واراه البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن الأسود ، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرها)[١] .

ثم طاف رسول الله ﷺ بين الصفا والمروة على راحلته ، فلما كان الطواف السابع عند فراغه وقد وقف الهدي عند المروة قال : « هذا المنحر وكل فجاج مكة منحر » .

وأمر رسول الله ﷺ ناساً منهم أن يذهبوا إلى أصحابهم ببطن يأجج فيقيموا على السلاح ويأتي الآخرون فيقضوا نسكهم ففعلوا[٢]

وفي صحيح البخاري : (فلما دخلها ومضى الأجل أتوا علياً فقالوا : قل لصاحبك : اخرج عنا فقد مضى الأجل ، فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادي يا عم يا عم ، فتناولها علي فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام : دونك ابنة عمك احمليها فاختصم فيها علي وزيد وجعفر . قال علي : أنا أخذتها وهي بنت عمي ، وقال جعفر : ابنة عمي وخالتها تحتي ، وقال زيد: ابنة أخي ، فقضى بها

(١) انظر: ابن هشام ، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف ٤/ ٦٩ .
(٢) انظر: القسطلاني ، المواهب اللدنية ١/ ٥٤٤ .

النبي ﷺ لخالتها ، وقال : « الخالة بمنزلة الأم » وقال لعلي : « أنت مني وأنا منك » وقال لجعفر : « أشبهت خلقي وخلقي » وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا »(١) .

وفي طريق عودته وبموضع يقال له : (سرف) تزوج الرسول ﷺ ميمونة بنت الحارث ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ ثم واصل سيره إلى المدينة عليه الصلاة والسلام(٢) .

الفوائد المستخرجة من عمرة القضاء :

الأولى : كانت عمرة القضاء تمثل صورة من صور انتصار المسلمين على الكفار ، فقد تمكن المسلمون من دخول مكة والطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة وإعلان شعائر التوحيد على مرأى من قريش ولا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً ، وتتجلى صورة هذا الانتصار واضحة بالمقارنة بين حال المسلمين في بداية الدعوة وحالهم يوم عمرة القضاء حيث كانوا في بداية الدعوة لا يستطيعون حتى المجاهرة بالإسلام أو تلاوة شيء من آيات القرآن الكريم ، ويوم عمرة القضاء يُلَبُّوْنَ ويطوفون ويسعون آمنين مطمئنين .

الثانية : في حمل رسول الله ﷺ للسلاح معه ووضعه في يأجج قريباً من مكة للحيطة والحذر من غدر المشركين نأخذ من ذلك

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧/٤٤٩ ـ رقم ٤٢٥١ .
(٢) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣/٣٧٢ .

مشروعية الحيطة والحذر وبخاصة في المواقف التي يُخْشَى فيها من غدر الكفار ومباغتتهم للمسلمين .

الثالثة : مشروعة إغاظة الكفار ، فإن الرسول ﷺ لما علم بما قاله المشركون وأن المسلمين قد وهنتهم حمى يثرب أمر بالرمل في الطواف ؛ ليرى المشركون جلد المسلمين وقوتهم وليريهم من المسلمين ما يغيظهم ، قال في زاد المعاد : (وكان رسول الله ﷺ يكايدهم بكل ما استطاع)[١] وقال مثل ذلك ابن كثير[٢] والشامي[٣] ـ رحمهم الله تعالى ـ .

الرابعة : أن هذه الأفعال بقيت مشروعة إلى يوم القيامة ولو ذهب سبب مشروعيتها ، قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (وهذه قاعدة من قواعد الشرع أن الأحكام المشروعة لهذه الأسباب في الأصل لا يُشْتَرَطُ في ثبوتها قيامُ تلكَ الأسبابِ)[٤] .

الخامسة : في قول الرسول ﷺ : « رحم الله امرءاً أراهم من نفسه اليوم قوةً » أسلوب دعوي فيه الترغيب في إظهار القوة لإغاظة الكفار وأسلوب الدعاء استخدمه الرسول ﷺ في بعض المواقف مثل

---

(١) ابن القيم ، زاد المعاد ٣/ ٣٧١ .

(٢) انظر: ابن كثير ، البداية والنهاية ٤/ ٢٢٩ .

(٣) انظر: الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٥/ ٢٩٣ .

(٤) ابن القيم ، بدائع الفوائد ٣/ ١٦١ ، وانظر: زاد المعاد ٢/ ٢١٥ ، وتهذيب السنن ٢/ ٣٠٩-٣١٠ .

قوله : « رحم الله المحلقين ثلاثاً » وذلك عندما رغّب في الحلق وفضّله على التقصير في صلح الحديبية كما مر معنا من قبل .

السادسة : في قضاء الرسول ﷺ في بنت حمزة ﷺ وعنها ، ثم تطييبه لنفوس كل من علي وجعفر وزيد ـ رضي الله تعالى عنهم أجمعين ـ [1] يظهر حسن خلق الرسول ﷺ وكريم تعامله وحرصه على تطييب النفوس وإراحة الخواطر فينبغي أن يكون أسوة وقدوة للدعاة بخاصة ، ولغيرهم بعامة .

❁❁❁

(١) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٥٠٧ .

المبحث السادس

فقه السيرة في غزوة مؤتة

يطلق عامة كتب السير على هذه السرية اسم غزوة مع أن الرسول ﷺ لم يشارك فيها وذلك لكثرة عدد رجالها حيث بلغ من خرج فيها ثلاثة آلاف مقاتل ، وهو عدد كبير بالنسبة لغزوات الرسول ﷺ .

وقد كانت هذه الغزوة في شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة وتُنْسَبُ إلى المكان الذي وقعت فيه وهو قرب (مؤتة)[١] .

وسبب هذه المعركة أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى ، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني ، فأوثقه رباطاً وضرب عنقه[٢] ، فغضب الرسول ﷺ لمقتل رسوله وأرسل هذه السرية ، وأَمَّرَ عليها زيدَ بنَ حارثةَ رضي الله عنه ثم قال : « إن قُتِلَ زيدٌ فجعفرٌ وإن قُتِلَ جعفرٌ فعبدُ الله بنُ رواحةَ »[٣] رضي الله تعالى عن الجميع .

وعندما تهيأ الجيش للخروج وَدَّعَ الناس أمراء الرسول ﷺ ، وأوصاهم الرسول ﷺ أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدعوا من

---

(١) مؤتة : تقع في شرق الأردن على مسيرة أحد عشر كيلاً جنوب الكرك ، وهي قرية الآن عامرة بالسكان . محمد شراب ، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ص ٢٣٧ .

(٢) انظر : القسلانى ، المواهب اللدنية ١/٥٤٩ .

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح لابن حجر ٧ / ١٠ ، رقم ٤٢٦١ .

هنالك إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم وقاتلوهم ، وحينئذ بكى عبد الله بن رواحة ﷺ ، فسألوه عن السبب فقال : أما والله ما بي حبٌّ لدنيا ولا صبابة بكم ولكن سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله عزوجل يذكر فيها النار : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [١] ، فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود ، فقال المسلمون : صحبكم الله ودفع عنكم وردكم صالحين فقال ابن رواحة ﷺ :

ولكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ... ذات فـرغ تقـذف الـزبدا
أو طعـنة بيدي حـران مجهـزة ... بحربة تنفذ الأحشـاء والكبدا
حتى يقـال إذا مـروا علي جدثى ... أرشده الله من غاز وقد رشدا

ثم خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ مودِّعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع ، فوقف وودعهم .

ولما بلغ الروم مخرج الجيش الإسلامي خرجوا مع هرقل في مائة ألف مقاتل وانضم إليهم من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي مائة ألف آخرين .

فلما بلغ هذا الأمر إلى المسلمين أقاموا على معان ليلتين يتشاورون في أمرهم وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا ، فإما

---

(١) سورة مريم ، الآية رقم (٧١) .

أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي ، فشجع عبد الله بن رواحة ﷺ الناس وقال : يا قوم إن التي تكرهون للتي خرجتهم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة ، فقال الناس : قد صدق والله عبد الله بن رواحة ﷺ [١] ، فاستقر الرأي على ما قاله عبد الله بن رواحة ﷺ ، وتحرك الجيش لملاقاة العدو حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية يقال لها : (مشارف) ثم دنا العدو فانحاز المسلمون إلى قرية (مؤتة) فعسكروا هناك وتعبأوا للقتال .

وفي مؤتة التقى الجيشان ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات جيش متلاطم يبلغ عدده مائتي ألف مقاتل ، معركة عجيبة ولقاء غير متكافئ فاسْتُشْهِدَ قائدُ المسلمين زيدُ بنُ حارثةَ ﷺ ، فأخذ الرايةَ جعفرٌ ﷺ ، فاقتحم عن فرس له شقراء ، ثم عقرها ثم قاتل حتى قُطِعَتْ يمينُه ، فأخذ الراية بشماله ولم يزل بها حتى قُطِعَتْ شِمالُه ، فاحتضن الراية حتى قُتِلَ شهيداً ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ وأثابه الله بجناحين في الجنة يطير بهما حيث [٢] يشاء ولذلك سُمِّيَ بجعفر ذي الجناحين[٣] .

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣/٤٣٠ ، وابن كثير ، البداية والنهاية ٤ / ٢٤٣.
(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣/ ٤٣٣- ٤٣٥ .
(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧/٧٥ ، رقم ٣٠٧٩ .

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : (أَمَّرَ رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيدَ بنَ حارثةَ ، فقال رسول الله ﷺ : « إن قُتِلَ زيدٌ فجعفرٌ وإن قُتِلَ جعفرٌ فعبدُ الله بنُ رواحةَ » قال عبد الله : كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفراً ، فوجدناه في القتلى ووجدنا في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية)(١) .

وكان ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ إذا حيَّا ابن جعفر قال : (السلام عليك يا ابن ذي الجناحين)(٢) .

وبعد استشهاد جعفر رضي الله عنه أخذ الرايةَ عبدُ الله بنُ رواحةَ رضي الله عنه ، فقاتل حتى قُتِلَ ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ ثم تقدم ثابت بن أرقم رضي الله عنه فأخذ الراية وقال : يا معشرَ المسلمين اصْطَلِحُوا على رجل منكم ، قالوا : أنت ، قال : ما أنا بفاعل ، فاصْطَلَحُوا على خالد بن الوليد رضي الله عنه .

فلما أخذ الرايةَ خالدٌ قاتل قتالاً مريراً ، فعن قيس بن أبي حازم قال : سمعت خالد بن الوليد يقول : (لقد انقطعتْ في يدي يومَ مؤتة تسعةُ أسيافٍ ، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية)(٣) .

ولما بات خالد رضي الله عنه أصبح وقد جعل مقدمة الجيش ساقته وساقته مقدمته وميمنته ميسرته وميسرته ميمنته ، فأنكر الأعداء ما كانوا يعرفون من رايات وهيئات المسلمين وقالوا : قد جاءهم مدد فرعبوا .

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧/٥١٠ ، رقم ٤٢٦١ .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧/٥١٥ ، رقم ٤٢٦٤ .

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧/٥١٥ ، رقم ٤٢٦٥ .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم »[١] .

وعلى الرغم من ضراوة هذه المعركة وكثرة أعداد جيش العدو إلا أنه لم يُقْتَلْ من المسلمين إلا دون العشرة[٢] ، أما الأعداء فلم يُعْرَفْ عدد قتلاهم غير أن وصف المعركة يدل على أنهم كثير. فقد اندقت في يد خالد بمفرده تسعة أسياف كما سبق أن أشرت من قبل وهذا يدل على كثرة القتلى في صفوف العدو ، وعاد المسلمون من هذه الغزوة ظافرين[٣] .

ما يستفاد من أحداث هذه الغزوة :

الأولى : أن مقتل الرسل جريمة من أكبر الجرائم فقد جرى العرف على أن الرسل لا يُقْتَلُون ، لكن من لا دين له فلا خلق له ، فقد أقدم

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧/٥١٢ ، رقم ٤٢٦٢ .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ / ٤٤٧ .

(٣) انظر : ابن حجر ،فتح الباري ٧ / ٥١٣ ، و إبراهيم العلي ، صحيح السيرة النبوية ص ٥٠١ – ٥٠٢ حيث عرض الأقوال في هذه الغزوة ورجح القول القائل بانتصار المسلمين استناداً إلى أدلة أهمها قول الرسول ﷺ الذي سبق الإشارة إليه حينما نعى زيداً وجعفراً وعبد الله بن رواحة وقال في نهاية الحديث : « حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليه » ففي هذا دلالة على أن الفتح والنصر كان بجانب المسلمين .

شرحبيل الغساني على قتل رسول رسول الله ﷺ صبراً ، ولم تكن هذه الجريمة ليسكت الرسول ﷺ عنها ، فقد بعث هذا الجيش الكبير من أجل مقتل هذا الرجل المسلم الذي يحمل رسالة رسول الله ﷺ إلى عظيم بصرى .

الثانية : كانت غزوة مؤتة فاتحة للقاء المسلمين بالروم ، ومجاهدتهم في سبيل الله حيث تم الانتصار عليهم وإخراجهم من أرض الشام كلها وتحويلها إلى بلاد إسلامية .

الثالثة : في تولية الرسول ﷺ لزيد بن حارثة قيادة الجيش وهو من الموالي مع أن في الجيش ابن عم رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وفيه أيضاً عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه وغيرهم يدلنا هذا على عدم اعتبار القبلية أو القومية في ميزان التفاضل كما قال تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1] فاختيار القائد يخضع لمصلحة المسلمين لا لقبيلة أو قومية وينظر إلى تقاة في نفسه لا إلى آبائه وأجداده ونسبه .

الرابعة : كان لقاء المسلمين بالجيوش الرومية رغم كثرة عددها وقوتها وسمعتها المرهبة للعرب ، كان هذا سبباً لخوف القبائل العربية من المسلمين مما جعل العديد من القبائل تدخل في الإسلام بعد ذلك .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية رقم (١٣).

الخامسة : موقف عبد الله بن رواحة الصحابي الجليل ﷺ عندما بكى لما تذكر آية من كتاب الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً ﴾ إنه موقف إيماني عظيم يجب أن يفقهه المسلم ويفكر فيه ويعد من الآن أداة الصدور بعد تيقنه من الورود نسأل الله السلامة .

السادسة : ثقة الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ بنصر الله وأنهم لا يقاتلون بعددٍ ولا عدة ، وإنما يقاتلون بالإيمان الذي وقر في قلوبهم ، فرغم قلة عددهم ومعرفتهم بأعداد الكفار الهائلة استعدوا للمواجهة واثقين من نصر الله .

السابعة : فضيلة جعفر ﷺ الذي أبى أن يسلم اللواء رغم قطع يمينه ثم شماله كل ذلك يصرُ على بقاء لواء المسلمين مرفوعاً حتى قُتِلَ ، فأبدله الله بجناحين يطير بهما في الجنة [1] فرضى الله عنه وأرضاه .

الثامنة : في إخبار الرسول ﷺ الصحابة بنتائج غزوة مؤتة واستشهاد قواده الثلاثة وتولية خالد بن الوليد ﷺ وانحيازه بالمسلمين علم ظاهر من أعلام النبوة [2] .

التاسعة : فضيلة ظاهرة لخالد بن الوليد [3] ﷺ حيث سماه الرسول ﷺ بعد هذه الغزوة سيفاً من سيوف الله وقال : « فتح الله

(١) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٧/ ٧٦ .
(٢) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٥١٣/٧ .
(٣) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٥١٣/٧ .

على يديه » وهو البطل العظيم الذي كانت له المشاهد المذكورة في فتوح المسلمين في فارس والشام .

العاشرة : لقد تضمنت غزوة مؤتة دروساً وخبرات عظيمة في لقائهم الأول مع الروم أفادوا منها كثيراً في مستقبل جهادهم معهم حيث تعرفوا على قوتهم وخططهم وطبيعة أراضيهم التي يقاتلون عليها [١] .

❁❁❁

(١) انظر: أكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ٢ / ٤٧٠ .

الفصل السابع

فقه السيرة من فتح مكة

إلى وفاة الرسول ﷺ

ويتكون من :

تمهيد .

المبحث الأول : فقه السيرة في فتح مكة .

المبحث الثاني : فقه السيرة في غزوة حنين وحصار الطائف .

المبحث الثالث : فقه السيرة في غزوة تبوك .

المبحث الرابع : فقه السيرة في حجة الوداع .

المبحث الخامس : فقه السيرة في حادثة وفاة الرسول ﷺ .

تمهيد :

تحدثت في الفصل السابق عن فقه السيرة من صلح الحديبية إلى نهاية غزوة مؤتة والتي تمثِّل حلقة من حلقات السيرة النبوية تبدأ بإقبال العرب على الدخول في الإسلام بعد صلح الحديبية حتى نهاية غزوة مؤتة والتى تمثِّل بداية الاحتكاك بالقبائل خارج الجزيرة العربية وبداية اللقاء بالروم والفرس اللذَيْنِ كانا يمثِّلان القوتين الكبيرتين في ذلك الوقت .

وفي هذا الفصل الذي يبدأ مع فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً وأمر الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ بالإكثار من الاستغفار استعداداً لدنو الأجل في هذه المرحلة التي تُعْتَبَرُ تاجاً على رأس الدعوة الإسلامية حيث فتح الرسول ﷺ مكة وما جاورها كالطائف وواصل لقاءه خارج الجزيرة العربية في غزوة تبوك ، ثم حجه بالناس حجة الوداع ، ثم وفاته عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم . وهذا ما سيكون مجال الدراسة في هذا الفصل وفق المباحث التالية .

المبحث الأول

فقه السيرة في فتح مكة

قال ابن القيم : (فصل في الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين ، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين ، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجاً ، خرج له رسول الله ﷺ بكتائب الإسلام وجنود الرحمن سنة ثمان لعشر مضين من رمضان)[1].

وكان سببُ هذا الفتح نقضَ قريشٍ العهدَ الذي وقع في الحديبية ، فإنه كان قد وقع الشرط أنه من أحبَّ أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فعل ، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فعل ، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده .

وكان بين بني بكر وخزاعة حروب وثارات ، فلما كانت الهدنة خرج نوفل بن معاوية الديلي من بني بكر في نفر من قومه حتى بيتوا

---

(١) ابن القيم ، زاد المعاد ٣/٣٩٤ .

خزاعة وهم على ماء لهم يقال له الوتير [١] فاقتتلوا ، وأمدت قريش بني بكر بالسلاح وقاتل بعضهم معهم ليلاً في خفية [٢] .

فخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ يخبرونه بالذي أصابهم ويستنفرونه فقال له رسول الله ﷺ : « نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم » [٣] .

وقدم أبو سفيان إلى المدينة لمحاولة تجديد العهد وتوثيقه ، وقابل الرسول ﷺ فأبى عليه فعاد إلى مكة ولم يحقّق ما يريد .

وأخذ رسول الله ﷺ في الاستعداد لفتح مكة ، وكتب حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه إلى أهل مكة يخبرهم بغزو الرسول ﷺ لهم ، فأطلع الله سبحانه وتعالى نبيه على ذلك ، فبعث خلف المرأة التي حملت الكتاب عليَّ بنَ أبي طالب والزبيرَ والمقدادَ ـ رضي الله تعالى عنهم ـ فجاؤوا بالكتاب، فقال الرسول ﷺ لحاطب : « ما هذا ؟ » فاعتذر رضي الله عنه بأنه كان امرأً ملصقاً في قريش وليس لأهلي قرابة يحمونهم ، فأردت أن أجعل لي يداً عندهم يحمون بها قرابتي هناك ، فقال عمر رضي الله عنه : دعني يا رسول الله أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله وقد نافق ، فعفا عنه الرسول ﷺ وقال : « لعل الله اطلع على من شهد بدراً قال :

---

(١) الوتير : ويعرف اليوم بالوتائر ، ويقال: الوتران وهما شعبان جنوب غربي مكة ، وقيل : هو ماء لخزاعة ويقع أسفل مكة ، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ص ٢٩٥ .

(٢) انظر: القسطلاني ، المواهب اللدنية ١/٥٦١ – ٥٦٢ .

(٣) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٤ / ٢٧٨ .

اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » فأنزل الله سورة الممتحنة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله :﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [١] .

وخرج رسول الله ﷺ من المدينة في عشرة آلاف ، فلقيه في الطريق العباس بن عبد المطلب ﷺ خرج من مكة مهاجراً بأهله وعياله وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته ورسول الله ﷺ عنه راضٍ [٢] .

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى مر الظهران [٣] نزل فيه ، فأمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار ولم يبلغ قريشاً مسيرهم وهم مغتمون لما يخافون من غزوه إياهم ، وخرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار حتى بلغوا مر الظهران ، فلما رأوا العسكر أفزعهم (فرآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ ، فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله ﷺ ، فأسلم أبو سفيان ، فلما سار قال للعباس : « احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين » فحبسه العباس ، فجعلت القبائل تمر مع النبي ﷺ) [٤] .

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٥١٩/٧ ، رقم ٤٢٧٤ .

(٢) انظر: ابن كثير ، البداية والنهاية ٢٨٧/٤ .

(٣) مر الظهران : واد فحل من أودية الحجاز ويمر شمال مكة ، على مسافة اثنين وعشرين كيلاً . ويصب في البحر جنوب جدة ومن قراه : الجموم ، وبحرة . المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ص ٢٥٠ .

(٤) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٦٠٥/٨ ، رقم ٤٢٨٠ .

وقد كان العباس ﷺ قال للرسول ﷺ : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً ، قال : « نَعَمْ ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن »[١] .

وبعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل من كدا ومن أعلى مكة وأمره أن يغرز رايته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه .

وبعث خالدَ بنَ الوليدِ في قبائل قضاعة وسليم وغيرهم وأمره أن يدخل مكة من أسفلها وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت .

وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله ﷺ وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم[٢] .

ودخل رسول الله ﷺ يوم الفتح وذقنه على راحلته متخشعاً[٣] ، تواضعاً لله سبحانه وتعالى يتلو القرآن الكريم وهو على ناقته يقرأ سورة الفتح[٤] .

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٤/ ٢٩٠ .

(٢) انظر : القسطلاني ، المواهب اللدنية ١/ ٥٧٠ .

(٣) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٨/ ١٨ .

(٤) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٩ / ٩٢ ، كتاب فضائل القرآن (٦٦) ، باب الترجيع (٣٠) ، حديث رقم (٥٠٤٧) ، وصحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب ذكر قراءة النبي ﷺ ١/ ٥٤٧ ، رقم (٧٩٤) .

ومضى خالد بن الوليد رضي الله عنه ودخل مكة من أسفلها وقد تجمع بنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناف وناس من هذيل ومن الأحابيش الذين استنفرت بهم قريش فقاتلوا خالداً فقاتلهم فانهزموا .

وقد استثنى الرسول ﷺ من الأمان العام الذي أعلنه للناس أربعة رجال وامرأتين حيث أهدر دماءهم ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة وهم : عكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة وعبد الله بن أبي السرح وقد قُتِلَ ابنُ خطل وهو متعلق بأستار الكعبة وقُتِلَ مقيس في مكة واختفى عكرمة وابن أبي السرح حتى ضمنا الأمان من الرسول ﷺ فجاءا مسلمَيْنِ [1] . والمرأتان هما فرتنى وسارة جاريتان لابن خطل .

وركزت راية رسول الله ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح ، ثم نهض رسول الله ﷺ والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله حتى دخل المسجد ، فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ، ثم طاف بالبيت وفي يده قوس ، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنها بالقوس ويقول : ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [2]

---

(١) انظر : النسائي ، سنن النسائي المطبوع مع شرح السيطي ٧ / ١٠٥ - ١٠٦ ، وأبو داود ، سنن أبي داود وصححه الألباني ، صحيح سنن أبي داود ٢ / ٥١٠ ، رقم ٢٣٣٤ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية رقم (٨١) .

، ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾[(١)] والأصنام تتساقط على وجوهها[(٢)] .

ثـم طـاف ﷺ بالبيت على راحلة ، ثـم دعـا عثمان بـن طلحة ﷺ فأخذ منه مفتاح الكعبة ، فأمر بهـا ، ففُتِحَتْ ، فدخلها فرأى فيها الصور ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يستقسمان بالأزلام ، فقال : « قاتلهم الله والله إن استقسما بها قط » .

ورأى في الكعبة حمامة من عيدان ، فكسرها بيده وأمر بالصور فمُحِيَتْ .

ثم صلَّى في البيت ، ثم وقف على قريش وقد ملأت المسجد فخطب فيهم إلى أن قال : « يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[(٣)] .

ثـم قـال : « يـا معشـر قـريش مـا تـرون أنـي فـاعل بكم ؟ » قالوا : خيراً ، أخ كـريم وابـن أخ كـريم قـال : « فـإني أقـول لكـم كمـا قـال يوسف لإخوته : « لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

---

(١) سورة سبأ ، الآية رقم (٤٩) .

(٢) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٤٠٦ .

(٣) سورة الحجرات ، الآية رقم (١٣) .

ثم جلس في المسجد فقام إليه علي بن أبي طالب ﷺ ، فسأله مفتاح الكعبة ، فقال : أين عثمان بن طلحة ؟ فَدُعي له ، فقال : « هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بِرٍّ ووفاء » [(١)] .

ولما فتح الله مكة على رسوله ﷺ قال الأنصار فيما بينهم : أترون أن رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟ وكان ﷺ يدعو على الصفا رافعاً يديه ، فلما فرغ من دعائه قال : « ماذا قلتم ؟ » قالوا : لا شيء يا رسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال ﷺ : « معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم » [(٢)] .

وبايع رسول الله ﷺ الناس جميعاً الرجال والنساء والكبار والصغار ، وبدأ بمبايعة الرجال على الصفا ، فأخذ عليهم البيعة على الإسلام والسمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا .

ثم بايع النساء من غير مصافحة فقد كان لا يصافح النساء ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم منه قالت عائشة رضي الله عنها : (والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة وما بايعهن إلا بقوله) [(٣)] .

ولما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد الحرام أتاه أبو بكر ﷺ بأبيه يقوده ـ وقد كان كفيفاً ـ فلما رآه الرسول ﷺ قال : « هلا تركت

---

(١) انظر: ابن القيم ، زاد المعاد ٣ /٤٠٧ – ٤٠٩ .
(٢) انظر : القسطلاني ، المواهب اللدنية ١/ ٥٨٤ .
(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٥/ ٣١٢ ، رقم ٢٧١٣ (عن عروة) ، وصحيح مسلم ٣/ ١٤٨٩ ، رقم ١٨٦٦ .

الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه » قال أبو بكر : يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه ، ثم مسح الرسول ﷺ على صدره ودعاه إلى الإسلام فأسلم [١] ، وعن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ هنأ أبا بكر بإسلام أبيه[٢] .

وأقام الرسول ﷺ بمكة بضعة عشر يوماً ، وفي هذه المدة أرسل النبي ﷺ بعض الصحابة للدعوة إلى الإسلام وهدم الأصنام والأوثان والأنصاب حول مكة ، حيث أرسل خالد بن الوليد ﷺ إلى نخلة لهدم العزى التي كانت مضر جميعاً تعظّمها فهدمها ، وأرسل عمرو بن العاص ﷺ إلى سواع صنم هذيل فهدمه ، وأرسل سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة بالمشلل ـ على طريق مكة / المدينة ـ فهدمها وبذلك أُزِيْلَتْ مراكزُ الوثنيَّةِ من جزيرة العرب[٣] .

من أحداث فتح مكة نأخذ الفوائد التالية :

الأولى : الوفاء بالعهد فالمتابع لأحوال المسلمين والمشركين يدرك مدى تفوُّق المسلمين على الكفار في ذلك الوقت ، ولكن قد يكون العهد مانعاً من فتح مكة ، فلما نكثت قريش بالعهد كان عاقبة ذلك

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣ /٤٦ – ٤٧ وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وسكت عنه الذهبي . انظر : البيهقي ، دلائل النبوة ٥/٩٥-٩٦ ، وقال الهيثمي في المجمع ٦ /١٧٣ – ١٧٤ : (رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات) ، وإبراهيم العلي ، صحيح السيرة النبوية ص ٥٣٢ .

(٢) انظر : البيهقي ، دلائل النبوة ٥/٩٦ .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٤/ ٦٤ ، و ابن سعد ، الطبقات ١/١٤٥-١٤٦ .

عليها بأن غزاها الرسول ﷺ في عقر دارها وأزال الوثنية الموجودة في مكة .

الثانية : وكذلك أيضاً نأخذ الوفاء بالعهد من قول الرسول ﷺ لعمرو بن سالم : « نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم » فإن هذا من مقتضيات العهد الذي بين الرسول ﷺ وخزاعة . فالاعتداء على قبيلة من أطراف الصلح يُعَدُّ اعتداءً على جميع من في هذا الطرف ، ونقضه مع خزاعة نقض له مع الرسول ﷺ .

الثالثة : في بعث الرسول ﷺ خلف المرأة التي كانت تحمل كتاباً من حاطب رضي الله عنه آية للرسول ﷺ ، فقد اطلع عن طريق الوحي بخبر هذه الرسالة ومكان المرأة ، فبعث خلفها من يأخذ الخطاب منها ، وحدَّد المكان الذي يجدونها فيه ، فوجدوها كما ذكر الرسول ﷺ .

الرابعة : في قصة حاطب رضي الله عنه بيان لمكانة أهل بدر ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ ورفعة منزلتهم وعظيم سابقتهم في نصرة الإسلام والمسلمين .

الخامسة : في قصة حاطب رضي الله عنه أهمية الرجوع إلى أهل العلم فيما يشكل ، فإن عمر رضي الله عنه قال للرسول ﷺ : دعني أضرب عنق هذا المنافق ولم يتصرف من نفسه بل استأذن ، فبيَّن له الرسول ﷺ الموقف الشرعي الصحيح في هذا .

السادسـة : في قصـة حاطـب ﷺ بـيان لمكانـة أهـل الفضـل وأن أخطـاءهم تـذوب في بحـور حسـناتهم ، فالعـلماء وأصـحاب الفضـل عموماً أخطاؤهم ليست كأخطاء غيرهم ، بل تقدر حسناتهم ، ويراعى التجاوز عن أخطائهم ، تقديراً لتلك الحسنات .

السابعة : يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في فوائد فتح مكة : (وفيها أن الرجل إذا نسب المسلم إلى النفاق والكفر متأوِّلاً وغضباً لله ورسوله ودينه لا لهواه وحظه ، فإنه لا يكفر بذلك بل لا يأثم بذلك ،بل يثاب على نيته وقصده وهذا بخلاف أهل الأهواء والبدع ، فإنهم يكفرون ويبدعون لمخالفة أهوائهم ونحلهم وهم أولى بذلك ممن كفروه وبدعوه)[1] .

الثامنة : وقال أيضاً : (وفيها أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تُكَفَّرُ بالحسنة الكبيرة الماحية ، كما وقع الجس من حاطب ﷺ مكفراً بشهوده بدراً)[2] .

التاسعة : إنزال الناس منازلهم نأخذها من قول الرسول ﷺ : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن »[3] ففي هذا توقير لأبي سفيان وتمييز له وهو سيد من سادات قريش .

العاشرة : اهتمام الرسول ﷺ بتأليف القلوب ، فقد ألَّف قلب أبي سفيان وهو رجل يحب الفخر بأن جعل من دخل داره فهو آمن ،

---

(١) ابن القيم ، زاد المعاد ٣ /٤٢٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٢٣ – ٤٢٤ .
(٣) انظر : أبو بكر الجزائري ، هذا الحبيب ص ٤٠٠ .

وفي هذا تأليف لقلب أبي سفيان وتثبيت له على الإسلام الذي هو حديث عهد به[١] .

الحادية عشرة : دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح متواضعاً متخشعاً متذللاً لله سبحانه وتعالى . وإن قيمة هذا التواضع في موقف يُعَدُّ أكبر نصر للمسلمين تتضاعف في النفوس والعقول معاً ، إذا قارناه بمواقف الجبروت والعظمة التي أبداها الكثير من القادة في مختلف الظروف عندما حازوا نصراً أقل قيمة من فتح مكة بكثير .

إن تواضع الرسول ﷺ درس عملي لكل قائد منتصر ، وما أصعب الظهور بهذا المظهر ساعة النصر[٢] يقول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ : (وهذا التواضع في هذا الموطن عند دخوله ﷺ مكة في مثل هذا الجيش الكثيف العرمرم بخلاف ما اعتمده سفهاء بنى إسرائيل حين أمروا أن يدخلوا بيت المقدس وهم سجود ـ أي ركع ـ يقولون : حطة ، فدخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون : حنطة في شعيرة)[٣] .

الثانية عشرة : سبق أن ذكرنا أن الرسول ﷺ كان يوم الهجرة عندما لحقه سراقة سمعه يتلو القرآن الكريم ويوم فتح مكة كان الرسول ﷺ أيضاً على ناقته يتلو القرآن الكريم وهذا يدلنا على الاستفادة من الوقت في العبادة ، وهي فرصة لحفظة كتاب الله تعالى أو

---

(١) انظر : البوطي ، فقه السيرة ص٣٧٠ .
(٢) انظر : محمود خطاب ، الرسول القائد ص ٣٥٦ .
(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ٤/٢٩٣ .

حفظة جزء منه أن يستغلوا أوقاتهم أثناء التنقل بتلاوة القرآن الكريم وغيرهم كذلك يمكن أن يستفيد من وقته بالقراءة في المصحف أو بالاستماع إلى ما يفيد .

يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ نقلاً عن ابن أبي جمرة قوله : (وفي الحديث ملازمته ﷺ للعبادة ؛ لأنه حالة ركوبه الناقة وهو يسير لم يترك العبادة بالتلاوة)[1] .

الثالثة عشرة : نلحظ أن الرسول ﷺ بادر إلى تحطيم الأصنام وهدم صروح الوثنية المنصوبة حول الكعبة فور دخوله مكة مما يدل على أهمية التوحيد ومكانته في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى . فالدعوة إلى التوحيد لها مكانة الصدارة والأولوية ولا يصح أن ينشغل الداعية بشيء قبل الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك بالله سبحانه وتعالى .

الرابعة عشرة : في إعادة مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة ﷺ درس في الوفاء حيث قال له وهو يعيد إليه المفتاح : « اليوم يوم بِرٍّ ووفاء » .

ومن وفائه ﷺ وفاؤه مع الأنصار حيث تخوفوا أن يقيم في مكة بعد أن فتحها الله عليه ولكنه طمأنهم وقال لهم : « معاذ الله ، المحيا محياكم والممات مماتكم » .

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٩/٩٢ .

الخامسة عشرة : في موقفه العظيم عندما عفا عن مشركي قريش الذين آذوه وأخرجوه من بلده وقاتلوه ثم لما قدر عليهم وتمكن منهم قال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » وقد كان من أثر عفو النبي الشامل عن أهل مكة والعفو عن بعض من أهدر دماءهم أن دخل أهل مكة رجالاً ونساء في دين الله طواعية واختياراً ورغبة في هذا الدين[١] .

السادسة عشرة : كان من أبرز نتائج هذا الفتح أن أخذت قبائل العرب تبادر إلى الإسلام ؛ لأنهم كانوا ينتظرون نتيجة الصراع بين المسلمين وقريش ففي صحيح البخاري من حديث عمرو بن سلمة (وكان يمر بنا الركبان فنسألهم ما للناس ، ما للناس ؟ ما هذا الرجل ؟ فيقولون : يزعم أن الله أرسله ، أوحى إليه ، أو أوحي إليه بكذا فكنت أحفظ ذلك الكلام فكأنما يقر في صدري وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح فيقولون : اتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق ، فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم)[٢] والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾[٣] .

السابعة عشرة : من قول الرسول ﷺ لأبي بكر ﷺ لما جاء بأبيه يقوده : « هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه » نأخذ منه

(١) انظر : أبو شهبة ، السيرة النبوية ص ٤٥٦ .
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٨/٢٢ ، رقم ٤٣٠٢ .
(٣) سورة النصر .

حُسْنَ خُلُق الرسول ﷺ وتواضعه ونأخذ مشروعية توقير الكبير واحترامه والرسول ﷺ يقدِّم لنا الأسوة والقدوة في ذلك في هذه القصة ، ويقول أيضاً : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يعرف شرف كبيرنا »[(١)].

الثامنة عشرة : من تهنئة الرسول ﷺ لأبي بكر ﷺ بإسلام أبيه نأخذ مشروعية التهنئة للمسلم بما يجد من خير ديني ، وسيأتي نموذج لذلك في قصة الثلاثة الذين خُلِّفُوا عندما هنَّأ الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ كعب بن مالك ﷺ بتوبة الله عليه[(٢)] حيث قال ابن القيم : (وفيه دليل على استحباب تهنئة من تجددت له نعمة دينية ، والقيام إليه إذا أقبل ، ومصافحته ، فهذه سنة مستحبة ، وهو جائز لمن تجددت له نعمة دنيوية)[(٣)] فالتهنئة في النعم الدينية مستحبة ، وفي النعم الدنيوية جائزة كما يقول شيخ الإسلام ابن القيم ـ رحمه الله ـ والله أعلم .

❁❁❁

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢/١٧٩ ، حديث رقم ١٥٦٦ .
(٢) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٥٥٥ .
(٣) المرجع السابق ص ٥٨٥ .

المبحث الثاني

فقه السيرة في غزوة حنين (١) وحصار الطائف

تُعَدُّ غزوةُ حُنَيْنٍ امتداداً لفتح مكة ، ذلك أن غزوة حُنَيْن ناشئة عنه ومتمِّمة له ، وقد خرج الرسول ﷺ من مكة إلى حُنَيْن في السادس من شهر شوال من السنة الثامنة من الهجرة (٢) بعد أنْ علم بما تقوم به ثقيف وهوازن من الاستعداد لملاقاته .

وعيَّن على مكة أميراً عليها عتاب بن أسيد ﷺ واستعار من صفوان بن أمية ـ وهو على شركه ـ مائة درع بما يكفيها من السلاح (٣) .

وكان مع الرسول ﷺ عشرة آلاف بالإضافة إلى ألفين من الطلقاء من أهل مكة .

وكانت هوازن لما سمعت برسول الله وما فتح الله عليه من مكة تجمعت تحت قيادة مالك بن عوف النصري واجتمع إليه من هوازن وثقيف كلها واجتمعت نصر وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بني هلال وهم قليل . ومن بني جشم دريد بن الصمة شيخ كبير ليس له فيه شيء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب وكان شيخاً مجرباً .

---

(١) حنين تبعد عن مكة ستة وعشرين كيلاً شرقاً وتُعْرَف الآن بالشرائع ، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ص ١٠٤ .

(٢) انظر : ابن هشام ،السيرة النبوية ٤/ ٦٤- ٦٥ ، والقسطلاني ، المواهب اللدنية ١/ ٥٩٦ .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف ٤/١٢٣ .

وأمر الناس إلى مالك بن عوف النصري ، فلما أجمع المسير إلى رسول الله ﷺ حط مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس وفيهم دريد بن الصمة في شجار[١] له يقاد به فلما نزل قال : بأي واد أنتم قالوا بأوطاس قال نعم مجال الخيل لا حزن فرس ولا سهل دهس مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، قال : أين مالك ؟ قيل : هذا مالك ودُعْي له ، فقال : يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ، مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء ؟ قال : سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم وقال : لم ذاك ؟ قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم ، قال : راعي ضان والله ! وهل يرد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك[٢] .

وبلغ عدد من مع مالك بن عوف عشرين ألف[٣] تجمعوا لمحاربة الرسول ﷺ ، ورتب مالك عيونه فأتوه وقد تفرقت أوصالهم فقال :

---

(١) الشجار هو مركب مكشوف دون الهودج ، ابن الأثير ، النهاية ٢ / ٤٤٦ .
(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف ١٢٢/٤ .
(٣) انظر : الواقدي ، المغازي ٣ / ٨٩٣ ، وابن حجر ، فتح الباري ٢٩/٨ .

ويلكم مالكم ؟ فقالوا رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى ، فما رده ذلك عن وجهه وقصده (١) .

وبعث الرسول ﷺ من يأتيه بخبر هوازن ، فدخل في القوم فوجدهم قد جمعوا جموعهم لمحاربة الرسول ﷺ ونقل ما رأي للرسول ﷺ فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله » (٢) .

وفي الطريق مر المسلمون بشجرة للمشركين يقال لها : ذات أنواط (٣) يعلّقون عليها أسلحتهم (ويتبرَّكون بها) فقالوا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال النبي ﷺ : « سبحان الله كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم » (٤) وقال رجل من المسلمين لما رأى كثرة عدد الجيش : لن نغلب اليوم من قلة ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ (٥) وأنزل الله قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ

---

(١) انظر : البيهقي ، دلائل النبوة ٥ / ١٢٣ .

(٢) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٨/ ٢٧ ، والقسطلاني ، المواهب اللدنية ١/ ٥٩٧ .

(٣) قال في النهاية في غريب الحديث ١٢٨/٥ : (هي اسم شجرة بعينها كان المشركون ينوطون بها أسلحتهم أي يعلقونه بها ويعكفون حولها) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢١٨/٥ ، وانظر : أكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ٤٩٧/٢ .

(٥) انظر : أحمد البنا ، بلوغ الأماني ٢١ / ١٦٩ .

كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [١] .

وكان مالك بن عوف قد سبق رسول الله ﷺ إلى حنين ، فأعدوا أنفسهم وكمنوا في مضايق الوادي وأحنائه وأقبل رسول الله ﷺ في أصحابه حتى نزلوا بالوادي في عماية الصبح ، وإنهم لكذلك إذ شدت عليهم قبائل هوازن وثقيف شدة رجل واحد ، وخرج من كان مستتراً في شعاب الوادي ومضايقه وأمطروهم بالسهام ، فاختلط أمر المسلمين وأذهلتهم المفاجأة ، فولّوا مدبرين متقهقرين لا يلوون على شيء وثبت رسول الله ﷺ وقلة من المؤمنين معه منهم العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن الحارث ـ رضي الله تعالى عنهما ـ [٢] وجعل الرسول ﷺ ينادي : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » [٣] وكان من دعائه : « اللهم إنك إن تشأ لا تُعبد بعد اليوم » [٤] .

وأمر رسول الله ﷺ العباس ﷺ أن ينادي يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة ، فثاب المسلمون إلى مصدر الصوت وجعل

---

(١) سورة التوبة ، الآيتان (٢٥ ، ٢٦) ، وانظر : البيهقي ، دلائل النبوة ٥ / ١٢٤ — ١٢٥ .

(٢) انظر : البيهقي ، دلائل النبوة ٥ / ١٢٧ .

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٨/ ٢٧ ، رقم ٤٣١٥ .

(٤) الإمام أحمد ، المسند ٣/ ١٢١ عن أنس بن مالك .

الرجل منهم إذا لم يستطع أن يلوي عنق بعيره ينزل عنه ويأخذ سيفه ورمحه ويقصد الصوت حتى تجمّع حول الرسول ﷺ عدد كبير تمكن من مجالدة العدو [١] .

وأشرف رسول الله ﷺ على المعركة والناس يجتلدون وقد بدت كفة الميزان تتغير لصالح المسلمين ، فقال : « الآن حمي الوطيس » [٢] ، وأمدَّ الله المؤمنين بجند من عنده [٣] واشتدت مطاردة المسلمين للمشركين وما هي إلا ساعة حتى انهزم المشركون وجيء بالأسرى إلى الرسول ﷺ .

ولما انهزم المسلمون في البداية تكلّم بعض جفاة الأعراب وممن لم يدخل في الإسلام ممن كان مع المسلمين وبعض حديثي العهد بالإسلام كلاماً ينمّ عن التّشفّي والشماتة ، فقال كلدة بن الحارث وهو أخو صفوان بن أمية لأمه : ألا بطل السحر اليوم ، فقال له صفوان وكان لا يزال على شركه : اسكت فض الله فاك فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن [٤] .

---

(١) انظر: ابن هشام ، السيرة النبوية ٤/٧٤ ، و القسطلاني ، المواهب اللدنية ١/ ٥٩٨ .

(٢) انظر: القسطلاني ، المواهب اللدنية ١/ ٥٩٩.

(٣) انظر : الطبري ، تفسير الطبري ، تحقيق التركي ١١/ ٣٩٠ عند تفسير قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ سورة التوبة ، الآية رقم (٢٦) .

(٤) انظر البيهقي ، دلائل النبوة ٥ / ١٢٨ ، وانظر : الهيثمي ، مجمع الزوائد ١٧٩/٦-١٨٠ وقال : (رواه أحمد وأبو يعلي ورجال أحمد رجال الصحيح) .

ومر رجل بصفوان فقال : أبشر بهزيمة محمد وأصحابه ، فوالله لا يجبرونها أبداً ، فزجره صفوان وقال : تبشّرني بظهور الأعراب .

ولم يعنِّف الرسول ﷺ أحداً ممن فرَّ منه ، بل لما قالت له أم سليم الأنصارية : أن يقتل الطلقاء لفرارهم قال : « إن الله قد كفى وأحسن »(١) .

وأمر الرسول ﷺ بتعقُّب الفارّين، وأباح سلب المشرك لقاتله ، ولما رأى امرأة مقتولة (نهى عن قتل النساء والصبيان)(٢) .

وممن وقع في الأسر الشيماءُ أختُ الرسول ﷺ من الرضاعة وقد أكرمها الرسول ﷺ(٣) كما تدل روايات ليست قوية لكنها تتضافر لإسناد الخبر التأريخي على أن أمه من الرضاعة حليمة السعدية قدمت إليه فأكرمها وطوى لها ثوبه ؛ لتجلس عليه(٤) .

---

(١) الإمام مسلم ، صحيح مسلم ٣ / ١٤٤٢ ، رقم ١٨٠٩ .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٦/ ١٤٨ ، رقم ٣٠١٥ وكان النهي في غزوة حنين كما في ابن هشام ، السيرة النبوية ٤/ ٩٠-٩١ ، وابن حجر ، فتح الباري ٦/ ١٤٧-١٤٨ .

(٣) انظر : البيهقي ، دلائل النبوة ٥ / ١٩٩-٢٠٠ ، وانظر : أكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ٢ / ٥٠٦ ، وقال : (تضافرت الأحاديث المرسلة من ابن إسحاق وغيره على إكساب هذه المادة القوة التاريخية) .

(٤) انظر : البيهقي ، دلائل النبوة ٥/ ١٩٩ ، وسنن أبي داود المطبوع مع بذل المجهود ٨١/٢٠ ، وانظر : قول صاحب بذل المجهود ٨١/٢٠ ، وقال الألباني عن الحديث : (ضعيف الإسناد) رقم ١١٠٢ في ضعيف سنن أبي داود للألباني (١١٠٢) ، وانظر : الطبري ، جامع البيان ١٠١/١٠ ، طبعة دار الفكر ، وقال عنه أكرم العمري في

ولما انهزمت هوازن وثقيف تفرَّقوا ، فذهبت فرقة منهم إلى الطائف يتقدمهم رئيسهم مالك بن عوف حيث دخلوا الطائف وتحصَّنوا بها ، وسارت فرقة أخرى فعسكرت بمكان يقال له : أوطاس [١] وتوجَّهت فرقة ثالثة نحو نخلة ، فبعث رسول الله ﷺ خلف من توجَّه قِبَلَ أوطاس سريةً [٢] وأمَّر عليها أبا عامر الأشعري ، فالتقوا وتناوشوا للقتال [٣] ، وأبلى أبو عامر بلاء حسناً حتى قُتِلَ وحَمَلَ الرايةَ بعده ابنُ أخيه أبو موسى الأشعري [٤] .

وسار الرسول ﷺ خلف من تحصَّن بالطائف وحاصرهم [٥] ، فصار أهل الطائف يرمون بالنبل من فوق السور ، فأصابوا عدداً من المسلمين فابتعد المسلمون عن الحصون وأقاموا محاصرين للطائف بحيث

السيرة النبوية الصحيحة ٢/٥٠٦ : (من مراسيل قتادة بإسناد حسن) ، وانظر : الحاكم ، المستدرك ٣ / ٦١٨- ٦١٩ ، و٤/ ١٦٤ وقال : (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه) وسكت عنه الذهبي .

(١) أوطاس : موضع يقع شرق مكة أقرب المواضع المأهولة منه عشيرة ، غرب وادي العقيق على مقربة من البركة شمالها نحو الغرب ولا تزال هذه المواضع معروفة الآن . سعد الجنيدل ، معجم الأمكنة الوارد ذكرها في صحيح البخاري ص ٤٠ .

(٢) انظر: ابن هشام ،السيرة النبوية ٤/ ٨٤ .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٤/ ٨٧ .

(٤) انظر في قصة أبي عامر ﷺ : صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٨/٤١ ، رقم ٤٣٢٣.

(٥) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٤/ ١٢٢ .

لا تصل إليهم سهام من على الحصن وبُنِيَ في هذا المكان مسجدٌ لا يزال يُعْرَف حتى اليوم بمسجد ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ [١] .

ومكث رسول الله ﷺ حول الحصون بضع عشرة ليلة [٢] استخدم خلالها المنجنيقَ والدبابةَ ولكنهم لم يتمكنوا من فتح الحصن [٣] .

وعاد رسول الله ﷺ والمسلمون من غير أن يفتح الطائف ، وقيل للرسول ﷺ : ادع الله عليهم فقال : « اللهم اهدِ ثقيفاً » [٤] .

وعاد الرسول ﷺ من الطائف إلى الجعرانة حيث السبي والغنائم ، ويقول ابن هشام في السيرة عن هذه الغنائم : (وكان مع الرسول ﷺ من سبي هوازن ستة الآف من الذراري والنساء ومن الإبل والشاة ما لا يدرى ما عدده) [٥] واستأن ـ أي انتظر ـ بهوازن لعلهم يقدمون مسلمين بضع عشرة ليلة ثم بدأ بقسم الأموال .

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٤/ ١٢٧ ، وأكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ٢ /٥٠٨ .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٤/ ١٢٧ ، وأكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ٢ / ٥٠٧ ، وابن كثير ، البداية والنهاية ٤/ ٣٥٦ ، وفي صحيح مسلم ٢ / ٧٣٧ ، رقم ١٠٥٩ أن الحصار دام أربعين ليلة .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٤/ ١٢٨ .

(٤) أخرجه الترمذي في سننه وقال : حديث حسن صحيح غريب وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي ص ٥٢٧ ، رقم ٨٣٠ ، وأخرجه أحمد في السنن ٣ /٣٤٣ ، وقال إبراهيم العلي في صحيح السيرة ص ٥٦٦ : (ورجاله ثقات) ، وانظر : أكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ٢ /٢١١ .

(٥) ابن هشام ، السيرة النبوية ٤/ ١٣٤ .

وطفق يعطي رجالاً المائة من الإبل يتألفهم على الإسلام ، فأعطى مائةً من الإبل لكل من أبي سفيان وابنَيْهِ معاويةَ ويزيدَ ، والحارث بن هشام ، وحكيم بن حزام وغيرهم .

وأعطى صَفْوَانَ بنَ أُمَيَّةَ وكان لا يزال مشركاً عطاءً كثيراً ، قال ابن شهاب : حدثني سعيد بن المسيب أن صفوان قال : (والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إلي ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحبّ الناس إليّ)[1] .

ثم أتاه وفد هوازن بالجعرانة ، قد أسلموا ، فقالوا : يا رسول الله إنا أهل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك فامنن علينا من الله عليك ، فقال رسول الله ﷺ : « أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ » فقالوا : يا رسولَ الله خَيَّرْتَنَا بين أموالنا وأحسابنا ، بل تردّ علينا نساءنا وأبناءنا ، فهذا أَحَبُّ إلينا ، فقال لهم : « أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا فأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم » فلما صلّى رسول الله ﷺ بالناس الظهر ، فقاموا فتكلموا بالذي أمرهم به ، فقال رسول الله ﷺ : « أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم » فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا

---

(١) صحيح مسلم ٤ / ١٨٠٦ ، رقم ٢٣١٣ .

، وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا ، فقالت بنو سليم : بلى ، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي ، فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبي أصيبه فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم »(١) .

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال : (أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة منصرفه من حنين وفي ثوب بلال فضة ورسول الله ﷺ يقبض منها يعطي الناس ، فقال يا محمد : اعدل ، قال ﷺ : « ويلك ! ومن يعدل إذا لم أكن أعدل ؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل » ، فقال عمر بن الخطاب ﷺ : دَعْني يا رسول الله أَقْتُلْ هذا المنافقَ ، فقال ﷺ : « معاذ الله ! أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي ، إن هذا وأصحابه يقرأون القرآن لا يتجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية »(٢) .

ولما أعطى الرسول ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى قال قائلهم : لقد لقي والله رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢/١٨٤ ، وابن هشام في السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف ٤/١٥٢ ، والبيهقي ، دلائل النبوة ٥/ ١٩٤ – ١٩٦ ، وقال الهيثمي في المجمع ٦ /١٨٧ – ١٨٨ : (رواه أبو داود باختصار كثير ورواه أحمد ورجال أحمد أسانيده ثقات) ، وانظر : إبراهيم العلي ، صحيح السيرة ص ٥٦٩ - ٥٧٠ ، وانظره مختصراً في صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٨/٣٢ – ٣٣ ، رقم ٤٣١٨ – ٤٣١٩ .

(٢) صحيح مسلم ٢/٧٤٠ ، رقم ١٠٦٣ .

قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة ﷺ فقال : (يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعتَ في هذا الفيء الذي أصبتَ قسمتَ في قومك وأعطيتَ عطايا عظاماً في قبائل العرب ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء ، قال ﷺ : « فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ » قال : يا رسول الله ما أنا إلا من قومي ، قال : « فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة » قال : فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا له أتاه سعد ﷺ فقال : قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثني عليه بما هو أهله ، ثم قال : « يا معشر الأنصار : ما قالة بلغتني عنكم ؟ وجدة وجدتموها علي في أنفسكم ؟ ـ (في صحيح البخاري فلما اجتمعوا قام النبي ﷺ فقال : ما حديث بلغني عنكم ؟ فقال فقهاء الأنصار : أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئاً ، وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا : يغفر الله لرسول الله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم)[1] ـ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألّف الله بين قلوبكم ؟ » قالوا : بلى الله ورسوله أمن وأفضل ، ثم قال : « ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟ » قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل ، قال ﷺ : « أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم أتيتنا مُكَذَّباً فصدَّقناك ومخذولاً فنصرناك

(١) صحيح البخاري المطبوع مع ٨/ ٢٥- ٥٣ ، رقم ٤٣٣١ .

وطريداً فآويناك وعائلاً فآسيناك أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن تذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً ، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا)[1] .

وقد سُرَّ الرسولُ ﷺ بإسلام هوازن وسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف النصري ، فأخبروه أنه بالطائف مع ثقيف ، فقال ﷺ : « أخبروا مالكاً أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيه مائة من الإبل » فأتي مالك بذلك فخرج إليه من الطائف حتى لحق برسول الله ﷺ فأسلم فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل واستعمله على من أسلم من قومه ، فكان يقاتل بهم ثقيفاً ولا يخرج لهم سرحاً إلا أغار عليه حتى يصيبه[2] .

---

(١) الإمام أحمد ، المسند ٣ / ٧٦-٧٧ ، وا نظر : ابن هشام ، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف ٤/ ١٥٦ – ١٥٧ ، وانظر القصة مختصرة في : صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٨ / ٤٧ و ٥٢ ، حديث رقم ٤٣٣٠ ، ورقم ٤٣٣١ ، ورقم ٤٣٣٢ ، ورقم ٤٣٣٤ ، وصحيح مسلم ٢/ ٧٣٣ و ٧٣٨ ، رقم ١٠٥٩ ، ورقم ١٠٦١ .

(٢) أخرجه البيهقي ، دلائل النبوة ٥/ ١٩٨ – ١٩٩ ، و انظر : أكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ٢ / ٥١٧ .

ودخل رسول الله ﷺ مكة محرماً بالعمرة من الجعرانة ، ثم بعد انتهاء عمرته عاد عليه الصلاة والسلام إلى المدينة مظفراً .

وبعد عودة الرسول ﷺ من غزوة تبوك قدم عليه وفد ثقيف ، فأنزلهم رسول الله ﷺ المسجد وبنى لهم خياماً ؛ لكي يسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلوا ، فأسلموا وطلبوا من الرسول ﷺ أن يؤخِّر هدم اللات ثلاث سنين فأبى إلا هدمها ، كما طلبوا إعفاءهم من الصلاة وطلبوا الإذن لهم بالخمر والزنا والربا كل ذلك يأبى رسول الله ﷺ وأرسل معهم أبا سفيان والمغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنهما ـ ؛ ليتوليا هدم اللات فهدماها ، وأمَّر عليهم عثمان بن أبي العاص [1] ـ وكان أصغرهم سناً ـ لما رأى حرصه على تعلم القرآن الكريم والتفقه في الدين [2] ورُوِيَ أنه أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كان طواغيتهم [3] .

---

(١) عثمان هذا هو الذي أمسك ثقيفاً عن الردة في أيام الردة حيث قال لهم : يا معشر ثقيف كنتم آخر الناس إسلاماً ، فلا تكونوا أولهم ارتداداً ، انظر : السهارنفوري ، بذل المجهود ٣ / ٢٨١ .

(٢) انظر : البيهقي ، دلائل النبوة ٥/ ٢٩٩ — ٣٠٤ ، وأكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٥١٧ — ٥٢٠ .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ١ / ٣١١ ، كتاب الصلاة ، باب في بناء المساجد ، حديث رقم (٤٥٠) ، وأخرجه ابن ماجة ١ / ٢٤٥ ، كتاب المساجد والجماعات ، باب أين يجوز بناء المسجد ؟ ، حديث رقم (٧٤٣) ، وضعفه الألباني في سنن أبي داود ص ٤٢ ، رقم (٨٣) وأخرجه الحاكم في المستدرك ٣ / ٦١٨ وسكت عليه هو والذهبي في التلخيص . وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢ / ٤٣٩ . وقال الشوكاني في نيل

الفوائد المستخرجة من غزوة حنين وحصار الطائف :

الأولى : نـأخذ مـن اسـتعارة الرسـول ﷺ للـدروع مـن صـفوان فائدتين :

١. أن للإمام أن يستعير سلاح المشرك لقتال العدو [(١)] .

٢. الاستعداد للقتال امتثالاً لقول الله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [(٢)] [(٣)] .

الثانـية : في قـول بعـض مـن مـع الرسـول ﷺ : اجعـل لـنا ذات أنـواط كما لهم ذات أنواط نأخذ الحذر من الشرك ، فإن هؤلاء يعلّقون سيوفَهم بالشجرة على سبيل التبرُّك ومع ذلك قال الرسول ﷺ : إن هذا مثل قول أصحاب موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .

الثالثة : نأخذ أيضاً الحذر من التشبه بالكفار ، والرسول ﷺ يبين ذلك فيقول : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة » لذلك مما ينبغي على المسلم بل مما يجب عليه هو الحذر من التشبه بالكفار في

الأوطار ٢ / ١٥١ : (رجال إسناده ثقات) ، وانظر : الألباني ، الثمر المستطاب من فقه السنة والكتاب ١ / ٤٩٦ ، وعند النسائي أنه أمر أهل اليمامة أن يتخذوا المسجد مكان بيعة كانت عندهم ، انظر : سنن النسائي ، كتاب المساجد ، باب اتخاذ البيع مساجد ٢ / ٣٨ – ٣٩ ، وانظر : ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ فقد أورد هذين الحديثين في اقتضاء الصراط المستقيم ١ /٢٣٣ – ٢٣٤ ، وقد قال محقق هذا الكتاب عن حديث النسائي : (إسناده جيد) .

(١) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ /٤٧٩ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية رقم (٦٠) .

(٣) انظر : إبراهيم قريبي ، مرويات غزوة حنين ٣ / ٩٨ .

جميع أمورهم والتحذير من اتباع أهل الأهواء والزيغ من الأمم الماضية [١] ، كما أن التشبه بالكفار من أهم أسباب البدع ، ففي هذا الحديث أن التشبه بالكفار هو الذي حمل بني إسرائيل على أن يطلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهة يعبدونها ، كما أن للكفار آلهة يعبدونها وهو الذي حمل بعض أصحاب محمد ﷺ ورضي الله عنهم أن يسألوه أن يجعل لهم شجرة يتبرَّكون بها من دون الله ، وهذا هو الواقع اليوم ، فإن كثيراً من المسلمين قلّدوا الكفار في عمل البدع والشركيات وكان بداية ذلك التشبه بالكافرين [٢] .

الرابعة : في قول بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ (اجعل لنا ذات أنواط) دليل على أنه مستقر عند الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أن العبادات مبناها على الأمر [٣] وهذا مبدأ مهم في سد باب الابتداع في الدين .

الخامسة : لما قال رجل من المسلمين : (لن نغلب اليوم من قلة) ونتيجة ذلك ، وما نزل فيه من القرآن نأخذ الحذر من الغرور ، يقول أبو بكر الجزائري فيه : (حرمة الإعجاب بالنفس أو العمل أو القوة إذ ترتب على ذلك هزيمة المؤمنين في أول لقائهم بعدوهم) [٤] .

---

(١) انظر : سعيد بن حجي ، الكلام المنتقى مما يتعلق بكلمة التقوى ص ٣٩ (مطبوع على الآلة) .

(٢) انظر : صالح الفوزان، كتاب التوحيد (الرياض : مكتب الأثير ، د.ت) ص ٨٧ .

(٣) انظر : إبراهيم قريبي ، مرويات غزوة حنين ص ١٣٤ .

(٤) أبو بكر الجزائري ، هذا الحبيب ص ٤١١ .

السادسة : في هذا الموقف أيضاً درس في العقيدة ، فإن وقعة بدر قد قررت للمسلمين أن القلة لا تضرهم شيئاً في جنب أعدائهم إذا كانوا صابرين ومتقين وأن غزوة حنين قد قررت للمسلمين أن الكثرة أيضاً لا تفيدهم إذا لم يكونوا صابرين ومتقين .

السابعة : لما نادى العباس ﷺ أصحاب بيعة الشجرة ، ونادى الأنصار والخزرج كانوا يبادرون إلى الاستجابة والرجوع إلى رسول الله ﷺ حتى إذا لم يتمكن أحدهم من عطف جمله نزل عنه وتركه ورجع بسلاحه إلى رسول الله ﷺ وهذا يؤكد لنا وجوب الاستجابة لرسول الله ﷺ ويذكرنا بأهمية المبادرة إلى ذلك فور سماعنا للنصوص الشرعية من الكتاب والسنة .

الثامنة : نلاحظ أن الرسول ﷺ وهو الرؤوف الرحيم بالمؤمنين لم يعنِّف أحداً ممن فرّ منه ، بل لما قالت له أم سليم أن يقتل الطلقاء لفرارهم قال : « إن الله قد كفى وأحسن » . فالتعنيف واللوم لأمور مضت وانتهت لا سبيل إلى تداركها وبخاصة في مثل أمور الحرب التي تندهش فيها النفوس رأى الرسول ﷺ بكريم خلقه عدم إثارتها وهكذا يحسن العفو والتجاوز والإقلال من التثريب على ما يقع من المسلم من الأخطاء التي لا يمكن تداركها ويلتمس للمسلم بعض العذر في ذلك والله أعلم .

التاسعة : مشروعية الدعاء والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى ، وهو ما نرى الرسول ﷺ يسلكه وبخاصة عندما تشتد الأمور ، فهو في حنين يناشد ربه ويلحّ في الدعاء لنصر المسلمين على المشركين .

والنصر من عند الله سبحانه وتعالى واتجاه الرسول ﷺ إلى ربه في هذا الموقف العصيب كان عاملاً قوياً في تغيير دفة القتال لصالح المسلمين (١) .

العاشرة : لما لم يتمكن الرسول ﷺ من فتح حصن الطائف قيل له : (ادع الله عليهم) فدعا لهم بالهداية ولم يَدْعُ عليهم . وهذا من كمال رأفته ورحمته ﷺ وإلا فأهل الطائف آذوا الرسول ﷺ وأخرجوه لما جاء يدعوهم إلى الله ورموا عقبيه بالحجارة (٢) ومع ذلك دعا لهم ﷺ بالهداية وهم من ألدّ أعدائه وهذا من دلائل شفقته ورحمته ﷺ بأمته وقد استجاب الله لدعائه فجاءوا مسلمين بعد ذلك بدون عناء أو مشقة (٣) ، وهكذا يحسن بالمسلم أن يجعل من دعوته الدعاء بالهداية لمن يدعوه إلى الله سبحانه وقد دعا الرسول ﷺ بإسلام عمر بن الخطاب ودعا لأم أبي هريرة ﷺ بالإسلام فأسلمت .

---

(١) انظر : محمد فرج ، العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ ص ٦٠٢ ، دار الفكر العربي للنشر ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٧٧ م .

(٢) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٥٠٤ – ٥٠٥ .

(٣) انظر : ابراهيم قريبي ، مرويات غزوة حنين ص ٣٤٣ .

الحادية عشرة : قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في الحكمة من تأخير فتح الطائف : (وكانت الحكمة الإلهية تقتضي أن يُؤَخَّرَ الفتحُ عامئذٍ لئلا يستأصلوا قتلاً ؛ لأنه قد تقدم أنه عليه السلام لما كان خرج من الطائف فدعاهم إلى الله تعالى وإلى أن يؤووه حتى يبلغ رسالة ربه عز وجل وذلك بعد موت عمه أبي طالب ، فردوا عليه قوله وكذَّبوه ، فرجع مهموماً لم يستفق إلا عند قرن الثعالب ، فإذا هو بغمامة وإذا فيها جبريل فناداه ملك الجبال فقال : يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام وقد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، فإن شئتَ أن أطبق عليهم الأخشبين ؟ فقال رسول الله ﷺ : « بل أستأني بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئاً » فناسب قوله بل أستأني بهم أن لا يفتح حصنهم لئلا يقتلوا عن آخرهم وأن يؤخر الفتح ؛ ليقدموا بعد ذلك مسلمين في رمضان من العام المقبل)[١] .

الثانية عشرة : يقول الشامي في سبل الهدى عن حكمة عطاء المؤلَّفة قلوبهم : (اقتضت حكمة الله تعالى أن غنائم الكفار لما حصلت قسمت على من لم يتمكن الإيمان من قلبه من الطبع البشري ، من محبة المال فقسمه فيهم لتطمئن قلوبهم وتجتمع على محبته ؛ لأنها جُبِلَتْ على حُبّ من أحسن إليها ومنع أهل الجهاد من كبار المجاهدين ورؤساء الأنصار مع ظهور استحقاقهم لجميعها ؛ لأنه لو قسم ذلك

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ٤/٣٥٢ .

فيهم لكان مقصوراً عليهم بخلاف قسمه على المؤلَّفة ؛ لأن فيه استجلاب قلوب أتباعهم الذين كانوا يرضون إذا رضى رئيسهم ، فلما كان ذلك العطاء سبباً لدخولهم في الإسلام ولتقوية قلب من دخل إليه قبل ، تبعهم من دونهم في الدخول فكان ذلك مصلحة عظيمة)[١] .

الثالثة عشرة : ونأخذ أيضاً من هذا دقة نظر الرسول ﷺ وعمق معرفته بدخائل النفوس البشرية وما يقوم اعوجاجها حيث أعطى تلك العطايا السخية ومنح تلك المنح الهائلة لأناس يعادونه وكفار لم يدخلوا في دين الله بَعْدُ وآخرين يتألف بهم قومهم لعلهم يهتدون ويسلمون ، وكانت النتيجة التي توخَّاها ﷺ من تخصيص هؤلاء الذين تألفهم بهذه العطايا أن أسلموا وحَسُنَ إسلامُهم وكانوا جنوداً صادقين في الدفاع عن الإسلام[٢] .

الرابعة عشرة : في مبادرة الرسول ﷺ إلى رد ما بيده وما بأيدي بني عبد المطلب من السبي إلى وفد هوازن نأخذ سلوك القدوة في الدعوة إلى الله ، فالرسول ﷺ بدأ بنفسه في رد السبايا لكي يمتثل ويقتدي به الآخرون في رد ما بأيديهم إلى هوازن .

الخامسة عشرة : من مقالة ذي الخويصرة ندرك مدى جفوة هذا الرجل وأمثاله وجرأتهم وغلظتهم حيث خاطب الرسول ﷺ بهذا

---

(١) انظر : الشامي ، سبل الهدى ٥/٥٩٥ .

(٢) انظر : إبراهيم قريبي ، مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ص ٤٠١ ، و أكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ٢ / ٥١٢ .

القـول الـذي يـدل عـلى خبـث طويـة وفســاد معـتقد وحقـد وغلظـة وشراسة .

السادسـة عشـرة : نـأخذ صبر الرسـول ﷺ وحـلمه عـلى أولـئك الأعـراب الجفـاة الغـلاظ ، وأن صـفة الصـبر والحـلم مـن أبـرز الصـفات التي ينبغي أن يتحلى بها المسلم بعامة والداعية إلى الله بخاصة .

السـابعة عشـرة : نـأخذ أيضاً الحذر من الغلو في الدين ، فإن هذا الـرجل دفعـه الغلـو في الديـن إلى المـروق مـنه فهـو يـأبى التسـليم لله ولرسـوله ﷺ ويـرد عـلى رسـول الله ﷺ ، ويطـالبه بـالعدل ويحتكم إلى عقله وهواه في تحديد معنى العدالة ، فزاغ من حيث طلب الهدى .

الثامـنة عشـرة : مـن قـول الرسـول ﷺ لعمـر رضي الله عنه لما طلب منه أن يـأذن له بقتل المنافق فقال ﷺ : « معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي » وهذا يدل على مشروعية الدفع عن العِرْض وعدم التعرُّض لمواقـف التهم وقـد روي « مـن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقـف التهـم » [١] ولـذا فعـلى المسـلم أن يحمـي عِرْضَه من أن يتحدث الـناس فيه ، وهـو مـا نستنبطه هنا مـن حـرص الرسـول ﷺ عـلى عدم

(١) انظر : الزمخشري ، الكشاف ٣ / ٢٧٣ ، والعجلوني ، كشف الخفاء ٢ / ٣٣٣ ، وأورده عـادل بـن عبد القـادر ، منبر الإيمـان (خطـب جمع) ص ١١١ موقوفاً على عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، واجتناب مواضع التهم مطلوب شرعاً في أكثر من دليل ، صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٤/ ٢٧٨ ، رقم ٢٠٣٥ (حديث صفية رضي الله عنها) ، وتعليق ابن حجر في الفتح ٢/٣٣٦ و ٤ / ٢٨٠ .

إتاحة الفرصة لمتحدث ينال من هذا الدين مع تطبيق قاعدة : (درء المفسدة مقدَّم على جلب المصلحة) فالمفسدة التي تترتب على قتل هذا الرجل أعظم من المصلحة المتحققة من قتله ومن ذلك حديث الناس حديث الشامت أنه يقتل أصحابه ؛ لأن حقيقة هذا الرجل ليست ظاهرة للناس ، والله أعلم .

التاسعة عشرة : أن في عدم إعطاء الرسول ﷺ للأنصار من الغنائم ليس جهلاً بحقهم ولا حطّاً من قدرهم حاشاه ﷺ من ذلك وإنما تركهم ثقة منه بقوة إيمانهم وسخاوة نفوسهم وأعطى الغنائمَ أناساً يخاف هلعهم وجزعهم ويتألفهم على الإسلام[1] .

العشرون : أن الأنصار وجدوا في أنفسهم حيث اختص بالغنائم غيرهم ولم ينلهم منها شيء حتى حصل منهم ما حصل وتكلّم منهم من تكلّم وكان ذلك قبل أن يظهر لهم وجه الحكمة في توزيع الغنائم على سائر القبائل دونهم ولما تبين لهم الأمر واتضح لهم الحال وعرفوا الهدف الذي قصده الرسول ﷺ طابت نفوسهم واغتبطوا برسول الله ﷺ ورضوا به قسماً وحظاً وعلموا يقيناً أن الذي حظوا به لا يوازيه ولا يدانيه شيء ، وما الدنيا وحطامها أمام رضا رسول الله ﷺ عنهم وتمنيه أن يكون واحداً منهم ووجوده بين أظهرهم حياً وميتاً وإنه لشرف عظيم حظيت به الأنصار دون سائر القبائل[2] .

---

(١) انظر : إبراهيم قريبي ، مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ص ٤١٥ .
(٢) انظر : إبراهيم قريبي ، مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ص ٤٣٣ .

الحادية والعشرون : نأخذ من خطبة الرسول ﷺ في الأنصار مشروعية الخطبة ، يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (وفيه مشروعية الخطبة عند الأمر الذي يحدث سواء كان خاصاً أم عاماً) [١] ولقد خطب النبي ﷺ في الأنصار خطبة بليغة ، ما سمع في باب الاسترضاء أروع من هذه الخطبة البليغة الجامعة بين الحق والصراحة والرقة والاستعطاف [٢] فعليه صلوات الله وسلامه المتجددة بتجدد الأوقات إلى يوم الدين .

الثانية والعشرون : في خطبة الرسول ﷺ في الأنصار نأخذ (تسلية من فاته شيء من الدنيا بما حصل له من ثواب الآخرة) [٣] .

الثالثة والعشرون : فيه فضيلة للأنصار بسرعة رجوعهم إلى الحق وتسليمهم له فور تبيين الرسول ﷺ لهم ، وحسن إنصاتهم وأدبهم في مخاطبة الرسول ﷺ وإجابته حين كان يلقي عليهم الأسئلة . وقد قلنا من قبل : (إن الرجوع إلى الحق من جملة الدين) [٤] فينبغي للمؤمن أن لا يستنكف عن الرجوع إلى الحق إذا تبين له .

الرابعة والعشرون : قال في سبل الهدى : (لما منع الله سبحانه وتعالى الجيش غنائم مكة ، فلم يغنموا منها ذهباً ولا فضة ولا متاعاً ولا سبياً ولا أرضاً وكانوا قد فتحوها بأنجاب الخيل والركاب وهم

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٨/٥٢ .
(٢) انظر : أبو شهبة ، السيرة النبوية ٢/ ٤٨٤ .
(٣) ابن حجر ، فتح الباري ٨/٥٢ .
(٤) العيني ، عمدة القارئ ١ / ٦٦ .

عشرة آلاف وفيهم حاجة على ما يحتاجه الجيش من أسباب القوة حرَّك الله سبحانه وتعالى قلوبَ المشركين في هوازن لحربهم وقذف في قلب كبيرهم مالك بن عوف إخراج أموالهم معهم وشبابهم وشيبهم معهم نزلاً وكرامة وضيافة لحزب الله تعالى وجنده)[١] .

الخامسة والعشرون : أن العطاءَ للمصلحة العامة مُقَدَّمٌ على العطاء لأجل الحاجة ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ : (ولما كان عام حنين قسم غنائم حنين بين المؤلَّفة قلوبهم من أهل نجد والطلقاء من قريش ، كعيينة ين حصن ، والعباس بن مرداس ، والأقرع بن حابس ، وأمثالهم وبين سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وأبي سفيان بن حرب وابنه معاوية وأمثالهم من الطلقاء الذين أطلقهم عام الفتح ، ولم يعط المهاجرين والأنصار شيئاً . أعطاهم ليتألف بذلك قلوبهم على الإسلام ، وتأليفهم عليه مصلحة عامة للمسلمين ، والذين لم يعطهم وهم أفضل عنده ، وهم سادات أولياء الله المتقين ، وأفضل عباد الله الصالحين بعد النبيين والمرسلين ، والذين أعطاهم منهم من ارتد عن الإسلام قبل موته ، وعامتهم أغنياء لا فقراء ، فلو كان العطاء للحاجة مقدَّماً على العطاء للمصلحة العامة لم يعط النبي ﷺ هؤلاء الأغنياء السادة المطاعين في عشائرهم ، ويدع عطاء من عنده من المهاجرين والأنصار الذين هم أحوج منهم

---

(١) الشامي ، سبل الهدى ٥ / ٥٩٤ .

وأفضـل)[١] وهـذا مما ينبغي إدراكه ووعي مراميه البعيدة فإن المصلحة الكبيرة التي تتحقق من وراء هذا قد تخفى على بعض الناس .

السادسة والعشرون : في وعد الرسول ﷺ لمالك بن عوف النصري إن جاء مسلماً سيعيد له الرسول ﷺ أهله وماله ومائة من الإبل يفيدنا هذا أمرين :

الأول : أن الغاية من الجهاد إسلام الناس وليس الغنائم والمكاسب المالية ، فالرسول ﷺ يعد زعيم الطائف إن أسلم أن يرد عليه أهله وماله ومائة من الإبل مكافأة له وترغيباً له للدخول في الإسلام ؛ ليبين له الرسول ﷺ مدى الحرص عليه وعلى إسلامه وأن لا رغبة في استرقاق أهله ومصادرة ماله .

الثاني : هذا أسلوب دعوي عظيم سلكه الرسول ﷺ لتأليف هذا الزعيم العربي المصاب ، وأسلوب تأليف القلوب سلكه الرسول ﷺ وبخاصة في غزوة حنين التي أعطى فيها العطايا العظام لتأليف قلوب كبار الأعراب على الإسلام طعماً في إسلامهم وإسلام من وراءهم ، ولذلك ينبغي للشخص أن يعي مرامي العطايا التي يبذلها الإمام لتحقيق مصالح عامة للمسلمين .

السابعة والعشرون : أن الرسول ﷺ لما أَمَّرَ عثمانَ بنَ أبي العاص على الطائف أَمَرَه أن يبني مسجداً محل طواغيتهم (والحديث يدل على جواز جعل الكنائس والبِيَع وأمكنة الأصنام مساجدَ ، وكذلك فعل

---

(١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٢٨ / ٥٧٩ – ٥٨٠ .

الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ حينما فتحوا البلاد جعلوا متعبداتهم متعبدات للمسلمين وغيروا محاربيها وإنما صنع هذا لانتهاك الكفر وإيذاء الكفار حيث عبدوا غير الله هنا)[١] وفي ذلك إغاظة للكفار والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾[٢] وإظهار انتصار الإسلام ، وقد قال ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ : (فأما أماكن الكفر والمعاصي التي لم يكن فيها عذاب فإذا جُعِلَتْ مكاناً للإيمان أو الطاعة فهذا حسن كما أمر النبي ﷺ أهل الطائف أن يجعلوا المسجد مكان طواغيتهم وأمر أهل اليمامة أن يتخذوا المسجد مكان بيعة كانت عندهم)[٣] .

الثامنة والعشرون : قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ : (قال ابن القيم : اقتضت حكمة الله أن فتح مكة كان سبباً لدخول كثير من قبائل العرب في الإسلام وكانوا يقولون : دعوه وقومه فإن غلبهم دخلنا في دينه وإن غلبوه كفونا أمره ، فلما فتح الله عليه استمر بعضهم على ضلاله ، فجمعوا له وتأهبوا لحربه ، وكان من الحكمة في ذلك أن يظهر أن الله نصر رسوله لا بكثرة من دخل في دينه من القبائل ولا بانكفاف قومه عن قتاله)[٤] .

---

(١) شمس الحق العظيم آبادي ، عون المعبود ٢ /٤٤٧ ، وانظر : السهارنفوري ، بذل المجهود ٣ / ٢٨١ .
(٢) سورة الفتح ، الآية رقم (٢٩) .
(٣) ابن تيمية ، اقتصاء الصراط المستقيم ١ /٢٣٣ – ٢٣٤ .
(٤) ابن حجر ، فتح الباري ٤٩/٨ .

التاسعة والعشرون : يقول ابن القيم - رحمه الله - عن غزوة حُنَيْن : (ومنها أن الله سبحانه وتعالى افتتح غزو العرب بغزوة بدر وختم غزوهم بغزوة حُنَيْن ولهذا يقرن بين هاتين الغزاتين بالذكر فيقال : بدر وحُنَيْن ، وإن كان بينهما سبع سنين ، والملائكة قاتلت بأنفسهم مع المسلمين في هاتين الغزاتين ، والنبي ﷺ رمى في وجوه المشركين بالحصباء فيهما ، وبهاتين الغزاتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين . فالأولى خوفتهم وكسرت من حدهم والثانية استفرغت قواهم واستنفذت سهامهم وأذلت جمعهم حتى لم يجدوا بداً من الدخول في دين الله) [(١)] .

وقد كان من خصائص حُنَيْن أنها كانت المعركةَ الفاصلةَ الأخيرةَ بين المسلمين والمشركين في جزيرة العرب كما كانت بدرٌ الكبرى المعركةَ الفاصلةَ الأولى بين الطائفتين [(٢)] .

الثلاثون : في غزوة حُنَيْن أن الرسول ﷺ وجد امرأة مقتولة فقال : « ما كانت هذه لتقاتل » ونهى عن قتل النساء والصبيان ، يدلنا هذا على رفعة مكانة حقوق الإنسان - ولو كان كافراً - في هذا الدين ، فالإسلام يحترم الإنسان بصفته إنساناً ، مهما كانت ديانته ، ومعتقده ، حتى في حالة الحرب ، فكيف بحالات السِّلْم والمعايشة ، والحرب في الإسلام حرب شريفة لا يتخلى المسلم فيها عن المبادئ

---

(١) ابن القيم ، زاد المعاد ٣ /٤٧٩ .

(٢) إبراهيم قريبي ، مرويات غزوة حنين ١ /١٨٥ .

السامية ، فالنساء والصبيان ، لا شأن لهم في الحرب ، فيجب أن يكف عنهم ، و لا تُقْتَل المرأةُ إلا إذا باشرت بنفسها الحرب ، ولا تحمل أوزار قومها .

ومن يحفظ حقوق المرأة أو الإنسان بصفة عامة في حالة الحرب والقتال لهو أجدر أن يحفظ حقوق الإنسان في السلم . ولقد رفع الإسلام حقوق الإنسان حتى إننا لنرى ـ جلياً ـ أن حقوق الإنسان في الإسلام هي محور مقاصد الشريعة الإسلامية ، نقول هذا والعالم أجمع يرى ما يجري على أرض الواقع من انتهاك لحقوق المسلمين في بعض المجتمعات المتحضرة ، حيث نرى القتل الجماعي ، وتدمير المدن والمنازل فوق سكانها دون تفريق بين نساء وأطفال وشيوخ وبين محاربين مقاتلين ، والرسول ﷺ يمر بامرأة مقتولة في وقت حرب ، امرأة واحدة فقط فينكر هذا ، ويواريها ، وينهى عن قتل النساء والصبيان ، وتبعاً لذلك فقد قال الفقهاء : يحرم قتل النساء والصبيان إذا لم يقاتلوا [(١)] .

❁❁❁

---

(١) انظر : ابن حجر ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ٦ / ١٤٧ ، والنووي ، شرح صحيح مسلم ١٢/ ٤٨ .

المبحث الثالث

فقه السيرة في غزوة تبوك

أمر الرسول ﷺ أصحابه في شهر رجب من العام التاسع بالتهيؤ لغزو الروم ، وذلك في زمان من عسرة الناس وشدة من الحر ، وجدب من البلاد ، وحين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه .

وكان الرسول ﷺ قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها ، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يقصد ، إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو ؛ ليتأهب الناس لذلك أهبتها فأمر بالجهاز ، وأخبرهم أنه يريد الروم (١) .

وسبب هذه الغزوة أنه بلغه من الأنباط الذين يقدمون بالزيت إلى المدينة أن الروم تجمعت بالشام مع هرقل لحرب المسلمين (٢) .

وحث الرسول ﷺ على البذل والإنفاق في سبيل الله ، وتسابق الخيرون في هذا المضمار ، فتبرع عثمان ﷺ بألف دينار جاء بها في ثوبه ، فجعل الرسول ﷺ يقلبها وهو يقول ما ضر ابن عفان ما عمل بعد

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف ١٣٧/٤ .

(٢) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ١١١/٨ .

اليوم يردد ذلك مراراً [١] ورُوِيَ أنه تبرَّع بثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في غزوة تبوك [٢] .

وأراد عمر ﷺ مسابقة أبي بكر ﷺ في التصدق ، فجاء بنصف ماله ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أبقيت لأهلك ؟ » قال : مثله وأتى أبو بكر الصديق ﷺ بكل ما عنده ، فقال ﷺ : « يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك ؟ » فقال : أبقيت لهم الله ورسوله ، قال عمر : (لا أسابقك إلى شيء أبداً) [٣] وجاء عبد الرحمن بن عوف بثمانية آلاف درهم [٤] وجاء غيرهم بمال كثير وأرسلت النساء ما استطعن من حليهن وجاء جماعة إلى رسول الله ﷺ وكانوا سبعة يسألونه ما يحملهم عليه ، فلم يجدوا فرجعوا وهم يبكون [٥] ولما تأهب رسول الله ﷺ للخروج قال

---

(١) الإمام أحمد ، المسند ٥/٦٣ ، والإمام أحمد ، فضائل الصحابة ١/ ٤٥٧ ، وقال محققه وصي الله عباس : (وإسناده حسن) ، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣ / ٢٠٨ ، رقم ٢٩٢٠ .

(٢) ضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي ص ٤٩٥ — ٤٩٥ ، رقم ٧٦٤ ، وضعف الحديث لا يمنع أنه قدم ذلك فقد ثبت أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أقروا له بتجهيز جيش العسرة وهم ثلاثون ألف مقاتل فلابد أنه أنفق نفقة عظيمة في ذلك ، انظر : صحيح سنن الترمذي ٣ / ٢٠٨ ، رقم ٢٩١٩ ، وأكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ٢ / ٥٢٥ .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي في سننهما وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود ١ / ٣١٥ ، رقم ١٤٧٢ ، وصحيح سنن الترمذي ٣ /٢٠٢ ، رقم ٢٩٠٢ ، وانظر : حاشية بذل المجهود ٨ /٢٢٧ .

(٤) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٨/٣٣٢ .

(٥) انظر : الطبري ، تفسير الطبري ، تحقيق التركي ١١/ ٦٢٦-٦٢٧ ، وابن هشام ، السيرة النبوية ٤/ ١٢٧ .

قوم من المنافقين : لا تنفروا في الحر فنزل قول الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾[١] وعن ابن مسعود قال : لما أُمِرْنا بالصدقة كنا نتحامل فجاء أبو عقيل بنصف صاع وجاء إنسان بأكثر منه ، فقال المنافقون : إن الله لغني عن صدقة هذا ، وما فعل هذا الآخر إلا رئاءً فنزلت : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾[٢] .

وقد كان جماعة من المنافقين يسيرون مع النبي ﷺ فجعل بعضهم يقول : أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ، والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال إرجافاً وترهيباً للمؤمنين ، فأخبر الرسول ﷺ بقولهم فجاءوا يعتذرون ويقولون : إنما كنا نخوض ونلعب ، فنزل فيهم قول الله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[٣] .

---

(١) سورة التوبة ، الآية رقم (٨١) .

(٢) سورة التوبة ، الآية رقم (٧٩) والحديث أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع فتح الباري ٨/ ٣٣٠ ، رقم ٤٦٦٨ .

(٣) سورة التوبة ، الآيات (٦٥ ، ٦٦) ، وانظر : الرفاعي ، مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٥٠-٣٥١ .

واستخلف الرسول ﷺ علياً ﷺ فقال : (أتخلفني في الصبيان والنساء ؟) قال ﷺ : « ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي ؟ » [١] .

وتخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب منهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ـ رضي الله عنهم ـ وفيهم نزل : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ [٢] .

وتخلف أيضاً أبو ذر وأبو خيثمة ـ رضي الله عنهما ـ لكنهما لحقاه فيما بعد [٣] .

وسار الرسول ﷺ في ثلاثين ألف أو أكثر ، قاصداً تبوك في قلة من الظهر ، وفي جهد شديد حتى كان الرجلان والثلاثة يعتقبون على بعير واحد ، وفي قلة من المؤنة حتى استأذنوا رسول الله ﷺ أن ينحروا رواحلهم ؛ ليأكلوا ويشربوا ما في كرشها من الماء [٤] .

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٨/ ١١٢ ، رقم ٤٤١٦ .

(٢) سورة التوبة ، الآية رقم (١١٨) ، وانظر : الطبري ، تفسير الطبري ، تحقيق التركي ١٢/ ٥٦ ، وابن هشام ، السيرة و النبوية ٤/ ١٣٧ .

(٣) انظر : ابن هشام السيرة النبوية ٤/ ١٧٥ و ١٧٩ ، والقسطلاني ، المواهب اللدنية ١/ ٦٣٠ .

(٤) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٥/ ٩-١٠ ، والقسطلاني ، المواهب اللدنية ١ / ٦٣٠ ، والشامي ، سبل الهدى والرشاد ٥/ ٦٣٨ .

ولما مر الرسول ﷺ بالحجر ـ ديار ثمود ـ قال : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم » ثم زجر فأسرع حتى خلفها [(١)] .

ولما وصلوا إلى تبوك لم يجدوا أحداً هناك ؛ لأن الروم لما بلغهم مسير هذا الجيش آثروا الانسحاب إلى بلادهم ؛ ليتحصنوا بحصونها ، فلم ير النبي ﷺ داعياً لتتبعهم داخل بلادهم وأقام في المنطقة بضع عشرة ليلة حيث أتاه صاحب أيلة فصالحه وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية وكتب ﷺ لهم كتاباً [(٢)] .

ثم انصرف عائداً إلى المدينة فلما أقبل عليها دعا مالك بن الدخشم ومعن العجلاني وأمرهما بالذهاب إلى المدينة وهدم وحرق مسجد الضرار الذي بناه المنافقون وطلبوا من الرسول ﷺ أن يصلي فيه ووعدهم بالصلاة فيه بعد العودة من تبوك فذهبا إلى المسجد وأشعلا فيه النيران وهدماه [(٣)] .

---

(١) متفق عليه : صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٨ / ١٢٥ ، رقم ٤٤١٩ ، صحيح مسلم ٢٢٨٦/٤ ، رقم ٢٩٨٠ واللفظ له .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٤/ ١٨٠ .

(٣) انظر : الطبري ، جامع البيان ١٤ / ٤٦٨ ، تحقيق أحمد شاكر ، والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٨ / ٢٥٣ ، والبيهقي ، دلائل النبوة ٢٥٩/٥ — ٢٦٠ ، وابن القيم ، زاد المعاد ٣ /٥٤٩ ، وهناك اشارات إلى مسجد الضرار في فتح الباري لابن حجر ١ /٥٥٢ ، و١٠ /٣٢ و١١ /٢٥٦ وقال الألباني في تخريجه لفقه السيرة للغزالي : (ضعيف رواه ابن هشام ٣٢٢/٢ عن ابن إسحاق بدون سند لكن ذكره ابن كثير في

ولما دنا من المدينة قال : « إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم » قالوا : يا رسول الله وهم بالمدينة ؟ قال : « وهم بالمدينة حبسهم العذر » (١) .

ولما وصل المدينة تلقاهم الناس والصبيان يرحبون بهم (٢) .

وجاء من كان تخلف عنه فمنهم من حلف له فعذره واستغفر له وجاءه كعب وصاحباه ـ رضي الله عنهم ـ فصدقوه وأخبروه أنهم ما تأخروا وتخلفوا لعذر وإنما بسبب التسويف فصدقهم رسول الله ﷺ وأرجأ أمرهم وأمر الناس بهجرهم وعدم الحديث معهم حتى نزلت التوبة عليهم بعد خمسين يوماً وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ (٣) .

التفسير ٢/٣٨٨ عن ابن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر وابن قتادة وغيرهم مرسلاً والله أعلم) ص ٤١٥ .

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٨ / ١٢٦ ، رقم ٤٤٢٣ .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٨/ ١٢٦ ، رقم ٤٤٢٧ ، وانظر : الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٥/ ٦٧٣ .

(٣) سورة التوبة ، الآيتان رقم (١١٧ ، ١١٨) وقصة الثلاثة الذين خلفوا أخرجها البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح ٨ / ١١٣ ، رقم ٤٤١٨ وانظر في فوائد هذه القصة : د. زيد بن عبد الكريم الزيد ، تأملات في قصة الثلاثة الذين خلفوا .

وكان المتخلفون في غزوة تبوك أربعة أصناف :

الأول : مأمورون مأجورون كعلي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة ـ رضي الله عنهما ـ .

والثاني : معذورون وهم الضعفاء والمرضى .

والثالث : عصاة مذنبون كالثلاثة الذين خُلِّفُوْا .

والرابع : ملومون مذمومون وهم المنافقون [(١)] .

الفوائد المستنبطة من غزوة تبوك :

الأولى : مشروعية الجهاد بالمال وأنه قرين الجهاد بالنفس بل ورد مقدَّماً عليه في عدة آيات من كتاب الله عز وجل قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [(٢)] .

الثانية : مبادرة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إلى الجهاد بالمال والنفس ولنا بهم أسوة حسنة في المبادرة إلى التبرع بالمال للجهاد في سبيل الله أو لمصلحة شرعية اقتضت ذلك .

الثالثة : مشروعية التنافس في الخير فإننا نرى أن الرسول ﷺ لما دعا إلى الصدقة للنفقة في غزوة تبوك بادر عمر ﷺ منافساً ومسابقاً لأبي بكر ﷺ كما مر معنا في الحديث حيث تصدَّق بنصف ماله ظانّاً أنه سيسبق أبا بكر ﷺ لكن أبا بكر ﷺ سبقه بالصدقة بكل ماله .

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٥/ ٢٧ .
(٢) سورة الحجرات ، الآية رقم (١٥) .

الرابعة : فضيلة ظاهرة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي جاء بماله كله للجهاد في سبيل الله وهذا يظهر قوة توكُّله على الله وعِظَم إيمانه الراسخ . وكذلك فضيلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي جاء بنصف ماله وكذلك عثمان رضي الله عنه الذي تصدق بتلك الصدقات الكبيرة حتى قال عنه الرسول ﷺ : « ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم » .

الخامسة : جاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه بكل ماله إلى الرسول ﷺ فقبله منه (وفي سنن أبي داود أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ بمثل بيضة من ذهب فقال : يا رسول الله أصبت هذا من معدن فخذها فهي صدقة ما أملك غيرها ، فأعرض عنه الرسول ﷺ ، ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن فقال مثل ذلك ، فأعرض عنه ، ثم أتاه من قبل ركنه الأيسر فأعرض عنه رسول الله ﷺ فأتاه من خلفه ، فأخذها رسول الله ﷺ فحذفه بها فلو أصابته لأوجعته أو لعقرته . فقال رسول الله ﷺ : « يأتي أحدكم بما يملك فيقول هذه صدقة ثم يقعد يستكف الناس ، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى »[(١)] .

وكعب بن مالك رضي الله عنه لما نزلت توبته قال للرسول ﷺ : (إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ) قال رسول الله ﷺ : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك »[(٢)] .

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٢/ ١٢٨ ، وانظر : ابن القيم ، زاد المعاد ، هامش ٣ / ٥٨٩ ، حيث قال محققه : (ورجاله ثقات) ، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبو داود ص ١٦٩ ، رقم ٣٦٩ .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٣٤/٥ ، كتاب رقم ٦٤ ، باب ٧٩ .

فقد قبل الرسول ﷺ من أبي بكر الصديق الصدقة بماله كله وعنَّف الرجل الذي جاء يريد الصدقة بكل ما يملك وأشار على كعب ﷺ بالأرفق من إمساك بعض المال وعدم الصدقة بالجميع . فالرسول ﷺ عامل كل واحد بما هو الأصلح له فلم ينكر على أبي بكر ﷺ لعلمه بقوة صبره وتوكله [١] والذي لا يحتمل اختلفت معاملته ، فلا يُؤْذَن للشخص بالصدقة بكل ماله إذا كان ممن يخشى عليه الفتنة أو لا يستطيع الصبر على الفقر [٢] وهذا من الحكمة في الدعوة إلى الله وذلك بمراعاة تفاوت الأشخاص واختلاف قواهم الإيمانية ومقدرتهم على التحمل والصبر ، والتعامل مع كل فرد بحسبه [٣] .

السادسة : في غزوة تبوك فضيلة ظاهرة لعلي بن أبي طالب ﷺ عندما قال له الرسول ﷺ حينما استخلفه في المدينة : « ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي ؟ .

السابعة : لما بادر المؤمنون إلى الصدقة كل بما يستطيع ، فمن كان موسراً تصدَّق بالكثير ومن كان مُقِلاً تصدَّق بالقليل ، لكن المنافقين لا يسلم منهم أحد فإذا رأوا غنياً ينفق كثيراً قالوا : هذا مُرَاءٍ ، وإذا جاء فقير بشيء قليل قالوا : إن الله عن صدقة هذا لَغَنِيٌّ ، ولذلك فعلى

---

(١) انظر : السهارنفوري ، بذل المجهود ٨ / ٢٢٧ .

(٢) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ /٥٨٩ ، والخطابي ، معالم السنن المطبوع مع مختصر سنن أبي داود للمنذري ٢ / ٢٥٤ ، وابن العربي ، عارضه الأحوذي ١٣ / ١٤٠ ، والعظيم آبادي ، عون المعبود ٥/ ٩٤.

(٣) انظر : زيد بن عبد الكريم الزيد ، الحكمة في الدعوة إلى الله ص ٥٢ — ٥٥ .

المؤمن أن يبادر إلى عمل الصالحات ولا يهتم بما يقوله أمثال هؤلاء الذين قل أن يسلم منهم عصر أو مصر .

الثامنة : الحذر من السخرية والاستهزاء وسوء عاقبة ذلك . فإن المنافقين سَخِرُوْا من المؤمنين وقالوا : أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال ، ثم قالوا : إنما كنا نخوض ونلعب ، فنزلت الآيات التي تبيِّن حُرْمَةَ هذا القول وسوء عاقبته في الدنيا والآخرة ويكفي فيه قوله تعالى : ﴿ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ .

التاسعة : أن المنافقين سخروا من المؤمنين ومع ذلك نزلت الآية تبين أن هذه سخرية بالله وآياته ورسوله مما يدل على شدة هذا القول وحرمة عِرْض المؤمنين حينما جعل السخرية بالمؤمنين سخرية بالله وآياته ورسوله والاستهزاء والسخرية بالأمر استهزاء وسخرية بالآمر وليس بالمأمور . وهذا يدل على شدة الاستهزاء والسخرية بشيء من القرآن الكريم أو من السنة النبوية أو شيء من الأحكام الشرعية .

العاشرة : لما مرَّ الرسول ﷺ بالحجر ـ ديار ثمود ـ أسرع السير ، ولذلك ينبغي على من مرّ بديار المغضوب عليهم والمعذَّبين أن لا يدخلها ، بل يسرع السير ويتقنع بثوبه حتى يجاوزها ولا يدخل عليهم إلا باكياً معتبراً (١) .

---

(١) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٥٦٠ .

الحادية عشرة : في غزوة تبوك مصداق لقول الرسول ﷺ : « نُصِرْتُ بالرعب مسيرةَ شهرٍ » (١) فإن الروم جمعوا جموعهم وما أن سمعوا بمقدم الرسول ﷺ حتى فرّوا إلى حصونهم وديارهم وهزمهم الرسول ﷺ قبل أن يلتقي بهم ، قال ابن حجر : (وهذه الخصوصية حاصلة له على الإطلاق حتى لو كان وحده بغير عسكره وهل هي حاصلة لأمته من بعده ؟ فيه احتمال) (٢) .

الثانية عشرة : في تخلف الثلاثة وتسويفهم حتى فاتهم الركب نأخذ الحذر من التسويف في الطاعة وأن الحزم هو في المبادرة إلى الطاعة واستغلال الفرصة ؛ لأنها قد لا تُتَاح مرة أخرى ، فالحزم كل الحزم في انتهازها والمبادرة إليها والعجز في تأخيرها والتسويف بها (٣) .

الثالثة عشرة : في أمر الرسول ﷺ الصحابِيَّيْنِ بأن يذهبا إلى مسجد الضرار وحرقه وهدمه (يبين ﷺ بهذا العمل السنة في القضاء على العمل الذي يُرَادُ منه الإضرارُ بالمؤمنين وتفريقُ كلمتِهم ، فالداء العضال لا يعالج بتسكينه والتخفيف منه وإنما يعالج بحسمه وإزالة آثاره حتى لا يتجدد ظهوره بصورة أخرى) (٤) إذ بالإمكان الاستفادة من

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ١ / ٤٣٦ ، رقم ٣٣٥ .
(٢) ابن حجر ، فتح الباري ١ / ٤٣٧ .
(٣) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٥٧٤ .
(٤) عبد العزيز الحميدي ، المنافقون في القرآن الكريم ص ٤٠١ .

هذا المبنى في مصلحة من المصالح لكن الرسول ﷺ أراد اجتثاث الشر من جذوره .

لكن ينبغي علينا أن نلاحظ أن هذا موكول للإمام وليس لأحد من الناس أن يتصرف هذا التصرف ، فالصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لم يفعلوا ذلك إلا عندما أمرهم الرسول ﷺ ، فالمرجع إليه ثم إلى ولاة الأمر بعده والله أعلم .

الرابعة عشرة : من حرق مسجد الضرار يقول القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ : (قال علماؤنا : وكل مسجد بني ضراراً أو رياء وسمعة فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه)[١] .

الخامسة عشرة : من قوله تعالى في آية مسجد الضرار ﴿ وتفريقا بين المؤمنين ﴾ هذا يدلنا على أن المقصد الأكبر والغرض الأظهر من وضع الجماعة تأليف القلوب والكلمة على الطاعة وذلك كي يقع الأنس بالمخالطة وتصفو القلوب من وضر الأحقاد[٢] .

السادسة عشرة : يقول الدكتور عبد العزيز الحميدي : (وإذا كان المنافقون في عصر النبي ﷺ قد أنشأوا مسجداً للضرار فإن العصور التي تلت ذلك العصر قد شهدت من أعمال المكر والخداع المتلبس بالتدين ما يربو أثره على ذلك المسجد الذي أقيم في عهد النبي ﷺ وخصوصاً

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨ / ٢٥٤ ، وانظر : الألباني ، الثمر المستطاب في فقه السنة والكتاب ١ / ٣٩٨ .

(٢) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٨ / ٢٥٧ .

في هـذا العصر الـذي تعقـدت فيه الحياة وتلونـت فيه أسـاليب المكـر والخـداع وأصبحت مـن كثرة ممارسـة النـاس لها تـتخذ شـكل الشرعية والأحقـية ، فقـد أُنْشِئَتْ عـلى مـدى العصـور الإسـلامية أحزابٌ تتَّسم بالتديُّن والدعوة إلى الإسلام في ظاهرها وهي في باطنها تحارب الإسلام الممـثل في دعاتـه المخلصـين فـتحاول أن تـنفر الـناس عـنهم وتهـدم في ساعات ما بنوه في سنوات) [١] .

السابعة عشرة : توفيق الله لكعب وصاحِبَيْهِ ـ رضي الله عنهم ـ حينما تميزوا من بين الآخرين بالصدق ، فلم يختلقوا أعذاراً وإنما تحدثوا بالصدق فأعقبهم الله سبحانه وتعالى الفلاح كل الفلاح ، ولذلك أمرنا بالتأسي بهم في قوله تعالى في نهاية قصتهم : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [٢] ولأجل هذا كانت قصتهم مؤثِّرة لمن تدبَّرها ، يقول عبد الله بن الإمام أحمد : (ما رأيتُ أبي يبكي قط إلا في حديث توبة كعب) [٣] .

الثامـنة عشـرة : في هجر الرسول ﷺ للثلاثة الذين خلفوا وأمره بهجـرهم ، يقـول ابـن القـيم ـ رحمـه الله تعـالى ـ : (فـيه دلـيل عـلى هجـران الإمـام والعـالم والمطـاع لمـن فعـل مـا يستوجب العتـب ويكـون

(١) عبد العزيز الحميدي ، المنافقون في القرآن الكريم ص ٤٠٥ .
(٢) سورة التوبة ، الآية رقم (١١٩) .
(٣) ابن مفلح ، الآداب الشرعية ٢ / ١٠٣ .

هجـرانه دواء لـه بحيث لا يضـعف عـن حصـول الشـفاء بـه ولا يـزيد في الكمية والكيفية عليه فيهلكه إذ المراد تأديبه لا إتلافه) [١] .

التاسعة عشرة : في إحـراق كعب ﷺ للرسالة التي وردته من ملك الغساسنة نأخذ المبادرة إلى إتلاف ما يخشى منه الفساد والمضرة في الدين والتخلص منه حتى لا يعود إليه في يوم من الأيام [٢] .

العشـرون : استحباب تهنئة مـن تجـددت له نعمة دينية والقيام إليه إذا أقبل ومصـافحته فهـذه سنة مستحبة وهـو جائز لمن تجددت له نعمة دنيوية [٣] .

الحادية والعشرون : عِظَمُ عاقبة الصدق ، فقد كان به نجاة كعب وأصحابه ـ رضي الله تعالى عنهم ـ وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ : (فالصدق مفتاح كل خير ، كما أن الكذب مفتاح كل شر) [٤] ويقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: (وفيها عظم مقدار الصدق وتعليق سعادة الدنيا والآخرة والنجاة من شرهما به ، فما أنجى الله من أنجاه إلا بالصدق ولا أهلك من أهلكه إلا بالكذب وقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين

---

(١) ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٥٧٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٨١ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٨٥ .

(٤) ابن تيمية ، الاستقامة ٢ / ٤٦٧ .

فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [١] .

وقد قسم سبحانه الخلق إلى قسمين : سعداء وأشقياء ، فجعل السعداء هم أهل الصدق والتصديق ، والأشقياء هم أهل الكذب والتكذيب ، وهو تقسيم حاصر مطرد منعكس ، فالسعادة دائرة مع الصدق والتصديق ، والشقاوة دائرة مع الكذب والتكذيب .

وأخبر سبحانه وتعالى أنه لا ينفع العباد يوم القيامة إلا صدقهم وجعل علم المنافقين الذي يتميزون به هو الكذب في أقوالهم وأفعالهم ، فجميع ما نعاه عليهم ، أصله الكذب في القول والفعل ، فالصدق بريد الإيمان ودليله ومركبه وسائقه وقائده وحليته ولباسه بل هو لُبُّه وروحه ، والكذب بريد الكفر والنفاق ودليله ومركبه وسائقه وقائده وحليته ولباسه ولُبُّه ، فمضادة الكذب للإيمان كمضادة الشرك للتوحيد ، فلا يجتمع الكذب والإيمان إلا ويطرد أحدهما صاحبه ويستقر موضعه ، والله سبحانه وتعالى أنجى الثلاثة بصدقهم وأهلك غيرهم من المخلَّفين بكذبهم ، فما أنعم الله على عبد بعد الإسلام بنعمة أفضل من الصدق الذي هو غذاء الإسلام وحياته ولا ابتلاه ببلية أعظم من الكذب الذي هو مرض الإسلام وفساده والله المستعان) [٢] ويقول

---

(١) سورة التوبة ، الآية رقم (١١٩) .

(٢) ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٥٩٠ – ٥٩١ .

الشيخ العدوى : (ولو لم يكن من قبح الكذب سوى فرار الكفرة أعداء صالح نبي الله منه لكفى أهله معرة وذماً)[١] .

الثانية والعشرون : نأخذ من قبول الرسول ﷺ اعتذار المنافقين ظاهراً أن من أساء إليك ثم جاء ليعتذر من إساءته ، فإن عليك أن تقبل عذره وتكل أمره إلى الله ، يقول ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (وكذلك من أساء إليك ثم جاء يعتذر عن إساءته فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته حقاً كان أو باطلاً وتكل سريرته إلى الله تعالى كما فعل رسول الله ﷺ في المنافقين الذين تخلفوا عنه في الغزوة فلما قدم جاءوا يعتذرون إليه فقبل أعذارهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى)[٢] .

الثالثة والعشرون : أهمية النية في العمل ونأخذها من موقفَيْنِ حدثا في غزوة تبوك :

الأول : المنافقون حينما بنوا مسجداً ادَّعوا فيه صلاح النية وبيَّتوا خلاف ذلك ، فأمر الرسول ﷺ بهدمه وسمَّاه مسجدَ الضِّرارِ .

---

(١) العدوى ، دعوة الرسل إلى الله تعالى ص ٣٩ ، ويعنى الشيخ قول الله تعالى : ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ (النمل : ٤٩) .

(٢) ابن القيم ، تهذيب مدارج السالكين (هذبه عبد المنعم صالح العلي العزي) ص ٤٣٣ ، طبعة وزارة العدل في الإمارات العربية المتحدة .

الثاني : الأقوام الذين بالمدينة لم يتمكنوا من مرافقة الرسول ﷺ حبسهم العذر ، ومع ذلك لهم أجر الذين خرجوا للجهاد كما قال الرسول ﷺ : « إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم العذر »[1] .

فالمنافقون عملوا ولكن نيتهم فاسدة فباؤوا بالخسران وأصحاب الأعذار صلحت نياتهم فرفعهم ذلك إلى درجة العاملين وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وهذا يدلنا على أهمية صلاح النية في العمل .

الرابعة والعشرون : نلحظ أن الرسول ﷺ قَبلَ أعذارَ المنافقين الذين جاءوا يعتذرون إليه من عدم الذهاب إلى تبوك لكنه شدَّد على الثلاثة الصادقين المؤمنين فأمر بهجرهم ثم أمرهم باعتزال نسائهم .

وذلك لأن الشدة والقسوة في هذا المقام مظهر للإكرام والتشريف[2] بدليل العاقبة التي حصلت لهم والمنافقون لا يستحقون العاقبة والنهاية التى فاز بها الثلاثة الذين خُلِّفُوْا وصدقوا في اعتذارهم وتوبتهم ، فقد نزلت آيات تُتْلَى في توبتهم والعفو عنهم ، أما المنافقون فحقهم الإهمال وموعدهم يوم الحساب .

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (فأراد هجر الصادقين وتأديبهم على هذا الذنب ، وأما المنافقون فجرمهم أعظم من أن يقابل

---

(١) سبق تخريجه قريباً .

(٢) انظر : البوطي ، فقه السيرة ص ٤١٤ .

بالهجر ، فدواء هذا المرض لا يعمل في مرض النفاق ولا فائدة فيه ، وهكذا يفعل الرب سبحانه وتعالى بعباده في عقوبات جرائمهم فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهوكريم عنده بأدنى زلة وهفوة فلا يزال مستيقظاً حذراً ، وأما من سقط من عينه وهان عليه فإنه يخلى بينه وبين معاصيه وكلما أحدث ذنباً أحدث له نعمة والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة وأنه يريد به العذاب الشديد والعقوبة التي لا عاقبة معها)[1] .



(١) ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٥٧٨ .

المبحث الرابع
فقه السيرة في حجة الوداع

في السنة التاسعة من الهجرة بعث رسول الله ﷺ أبا بكر ﷺ أميراً على الحج ؛ ليقيم للمسلمين حجهم ، وأهل الشرك على منازلهم من حجهم لم يصدوا بعد عن البيت ، ومنهم من له عهد مؤقت إلى أمد . فلما خرج أبو بكر ﷺ بمن معه من المسلمين أنزل الله عز وجل هذه الآيات من أول سورة التوبة ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[١] فبعث علياً ﷺ بعد أبي بكر ﷺ ليكون معه ويتولى علي بنفسه إبلاغ البراءة إلى المشركين نيابة عن رسول الله ﷺ لكونه ابن عمه من عصبته .

فلما قدم على أبي بكر ﷺ قال له أبو بكر ﷺ : أمير أو مأمور ؟ فقال : بل مأمور ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس حجهم حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب ﷺ فأذن بالذي أمره به رسول الله ﷺ وأجّل أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ؛ ليرجع كل قوم إلى مأمنهم

(١) سورة التوبة ، الآيات الأول منها حتى الآية (٣٣) ، وانظر : ابن حجر ، فتح الباري ٨/٣١٩ .

وبلادهم ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته ، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان ، ثم قدما على رسول الله ﷺ [١] وكان هذا تمهيداً لحج الرسول ﷺ في العام العاشر من الهجرة حينما تجهز الرسول ﷺ للحج في شهر ذي القعدة وأمر الناس بالجهاز له .

ولما أُذِّنَ في الناس (أن رسول الله ﷺ حاجٌّ قدم المدينةَ بشرٌ كثيرٌ كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله) [٢] .

وخرج رسول الله ﷺ لخمس ليال بقين من ذي القعدة [٣] ثم أحرم بالحج والعمرة من ذي الحليفة ، ثم واصل سيره حتى قرب من مكة حيث بات بذي طوى بعد أن قضى في الطريق ثماني ليال يصحبه ما يزيد عن مائة ألف من المسلمين .

فدخل المسجد الحرام وطاف وسعى ولم يحل ؛ لأنه كان قارناً ، وأمر من لم يكن معه هدى من أصحابه أن يحلوا إحرامهم وأن يجعلوها عمرة ، فترددوا فقال ﷺ : « لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما أهديتُ ، ولولا أن معي الهَدْيَ لأحللتُ » فحل من لم يكن معه هدي من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ .

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٤/ ٢٠٣-٢٠٤ ، وابن حجر ، فتح الباري ٨/ ٣١٩ .

(٢) صحيح مسلم المطبوع مع شرح النووى ١٧٢/٨ .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف ٤ /٢٣٠ ، وابن حجر ، فتح الباري ٨/ ١٠٤ .

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة توجَّه إلى منى فصلَّى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء وبات تلك الليلة ، ثم في الصباح ذهب إلى عرفات ووقف فيها وخطب فيها فكان مما قال : « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث وكان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع من ربا الجاهلية ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله ، فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله »[١] .

وأمر بالسمع والطاعة لولاة الأمر[٢] ، وبعد أن فرغ من خطبته نزل عليه قول الله تعالى :﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[٣] .

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٨٨٦ ، رقم ١٢١٨ .

(٢) أخرجه الترمذي وصححه الألباني صحيح سنن الترمذي ١ /١٩٠ ، رقم ٥٠٢ .

(٣) سورة المائدة ، الآية رقم (٣) ، وانظر : الطبري ، تفسير الطبري ، تحقيق التركي ٨/ ٩١.

ثم وقف في عرفات فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس ثم بات في مزدلفة ثم مضى في مناسك حجه وهو يقول : « لتأخذوا عني مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه »(١) .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته : « القط لي الحصى » (فلقطت له سبع حصيات هن حصى الخذف ، فجعل ينفضهن في كفه ويقول : « أمثال هؤلاء فارموا » ثم قال : « يا أيها الناس ! إياكم والغلو في الدين ، فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين »(٢) .

وجاء عمر ﷺ إلى الحجر فقبَّله وقال : (إني أعلم أنك حجر لا تضرّ ولا تنفع ولولا أني رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقبِّلكَ ما قبَّلْتُكَ)(٣) .

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع فجعلوا يسألونه فقال رجل : لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح ، قال : « اذبح ولا حرج » فجاء آخر فقال : لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي ، قال : « ارم ولا حرج » فما سُئِلَ يومئذٍ عن شيء قدّم ولا أخّر إلا قال : « افعل ولا حرج »(٤) .

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٩٤٣ ، رقم ١٢٩٧ .

(٢) أخرجه ابن ماجة في سننه وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ٢ / ١٧٧ ، رقم ٢٤٥٥ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح ٣ / ٤٦٢ ، رقم ١٥٩٧ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح ٣ / ٥٦٩ ، رقم ١٧٣٦ .

وعن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : « اللهم اغفر للمحلّقين » قالوا : وللمقصِّرين ، قال : « اللهم اغفر للمحلّقين » قالوا : وللمقصِّرين قالها ثلاثاً قال : « وللمقصِّرين »[(١)] .

وخطب رسول الله ﷺ يوم النحر خطبة قال في آخرها : « ألا هل بلّغْتُ ؟ قالوا : نعم ، قال : « اللهم اشهد ، فليبلّغ الشاهدُ الغائبَ ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أوعى من سامع ، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضُكم رِقَابَ بعضٍ »[(٢)] ولما شكت عائشة ــ رضي الله عنها ــ أن الناس يعودون بحج وعمرة وتعود بحج بسبب حيضها ، أمر أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ أن يخرج بها إلى التنعيم فاعتمرت فقال : « هذه مكان عمرتك »[(٣)] .

وبعد أن أكمل رمي الجمار أيام التشريق ، نفر النبي ﷺ من منى فنزل بخيف بين كنانة من الأبطح وأقام هناك بقية يومه وليلته (وصلّى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم رقد رقدة بالمحصب ، ثم ركب إلى البيت فطاف به)[(٤)] طواف الوداع ثم لما قضى مناسكه توجّه إلى المدينة النبوية[(٥)] .

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٣ / ٥٦١ ، رقم ١٧٢٨ ، وانظر : تاريخ وقوع هذا الدعاء في فتح الباري ٣ / ٥٦٢ – ٥٦٤ .
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٣ / ٥٧٤ ، رقم ١٧٤١ .
(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٣ / ٤١٥ ، رقم ١٥٥٦ .
(٤) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٣ / ٥٩٠ ، رقم ١٧٦٤ .
(٥) انظر : القسطلاني ، المواهب اللدنية ٤ / ٤٦٢-٤٦٣ .

وعن زيد بن أرقم قال : قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال : « أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال : « وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي » فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده ، قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس ، قال : كل هؤلاء حرم الصدقة ؟ قال : نعم[(١)] .

الفوائد المستخرجة من حجة الوداع :

الأولى : في خروج أبي بكر الصديق ﷺ أميراً على الحج في السنة التاسعة فضيلة ظاهرة لأبي بكر ﷺ .

---

(١) صحيح مسلم المطبوع مع شرح النووي ١٥ / ١٧٩ – ١٨٠ ، كتاب فضائل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فضائل علي ﷺ ، وانظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ٤ / ٣٣٠ ، رقم ١٧٥٠ حيث جاء في الطريق الأول للحديث ما نصه : (لما دفع النبي ﷺ من حجة الوداع ونزل غدير خم ... الخ) ، وانظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٥ / ٢٠٩ .

الثانية : في خروج علي بن أبي طالب ﷺ ليبلغ عن الرسول ﷺ مع أبي بكر ﷺ فضيلة ظاهرة لعلي بن أبي طالب ﷺ .

الثالثة : أن حج أبي بكر ﷺ وإبلاغ علي ﷺ كان تمهيداً لحج الرسول ﷺ ، والمقصود منه تطهير مكة من الشرك والمشركين حتى إذا حَجَّ رسول الله ﷺ لم يجد في مكة شركاً ولا مشركاً .

الرابعة : أن إبلاغ البراءة من المشركين التي حملها علي ﷺ كانت لمرة واحدة تحققت بها الغاية وهي تطهير مكة من المشركين وبالتالي فلا يُشْرَع تكرارُها بدليل أن النبي ﷺ حجَّ حجة الوداع ولم يأمر علياً ولا غيره بالبراءة .

الخامسة : الوفاء بالعهد الذي التزمه الرسول ﷺ للمشركين ، فمن كان له عهد فهو إلى مدته ، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهد ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولاً ﴾ [(١)] ورسول الله ﷺ خير من طبَّق كتاب الله سبحانه وتعالى وعمل به ، وهو القائل ﷺ في صفات المنافق إنه « إذا عاهد غدر » [(٢)] .

السادسة : التعليم بالقدوة فقد كان من مصالح خروج الرسول ﷺ بنفسه تعليم الناس مناسك الحج تعليماً عملياً يؤدي أمامهم مناسك

---

(١) سورة الاسراء ، الآية رقم (٣٤) .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ١ / ٨٩ ، رقم ٣٤ .

الحج ، مؤكداً عليهم هذا التعليم العملي بقوله : « خذوا عني مناسككم » ويؤدِّيها المسلمون كما أدَّاها ﷺ .

السابعة : حرص الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على التأسِّي بالرسول ﷺ والاقتداء به ، فقد اجتمع معه عليه الصلاة والسلام جمع من الحجاج لم يجتمع معه من قبل مثله كلهم يريد أن يتأسَّى بالرسول ﷺ ويأخذ عنه .

الثامنة : أسلوب التدرُّج الذي سلكه الرسول ﷺ مع أصحابه في إذهاب ما في قلوبهم من أمر الجاهلية في تحريم العمرة في أشهر الحج [١] حيث أمرهم بأن يفسخوا الحج بالعمرة أمر تخيير ، ثم أكَّد عليهم بعد ذلك ، ثم قال : « لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما سقتُ الهديَ » وجعله أمراً إلزامياً لمن لم يسق الهديَ .

التاسعة : في خطبة الرسول ﷺ في عرفة والتي تبيِّن عِظَمَ حق المسلم ، وحرمة دمه وماله وعِرْضه وأنه مُصَان لا يجوز انتهاك حرمة شيء من ذلك .

العاشرة : من قوله ﷺ : « ألا كل شيء من أمر الجاهلية موضوع تحت قدمي هذا » نعرف الإعراض عن التشبه بالكفار والبعد عن كل شيء من تقاليد الجاهلية وأعرافها وعاداتها التي جاء الإسلام بإبطالها .

---

(١) انظر : السهيلي ، الروض الأنف ٤/ ٢٤٧ .

الحادية عشرة : تحريم الربا والمبادرة فوراً إلى ترك الموجود منها ، وأن على الداعية إلى الله أن يبدأ بنفسه وأقاربه في التخلص من المنكرات .

الثانية عشرة : الأمر بالسمع والطاعة لولاة الأمر من قوله ﷺ : « وأطيعوا أمراءكم تدخلوا جنة ربكم »(١) .

الثالثة عشرة : التحذير من الغلو في الدين وأنه سبب من أسباب الهلاك حتى إن الرسول ﷺ بيَّن أن الغلو أهلك من كان قبلنا كما مر ، وقد قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: (ومن كيده ـ أي الشيطان ـ أنه يشام النفس حتى يعلم أي القوتين تغلب عليها : قوة الإقدام والشجاعة أو قوة الانكفاف والإحجام والمهانة ؟ فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام أخذ في تثبيطه وإضعاف همته وإرادته عن المأمور به وثقله عليه ، فهون عليه تركه حتى يتركه جملة أو يقصر فيه ويتهاون به ، وإن رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة أخذ يقلّل عنده المأمور به ويوهمه أنه لا يكفيه وأنه محتاج معه إلى مبالغة وزيادة ، فيقصر بالأول ويتجاوز بالثاني كما قال بعض السلف : ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان إما إلى تفريط و تقصير وإما إلى مجاوزة وغلو ولا يبالي بأيهما ظفر ، وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقل القليل في هذين الواديين : وادي التقصير ، ووادي المجاوزة والتعدي ،

---

(١) سبق تخريجه قريباً .

والقليل منهم جداً الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه)[١]. وقبله قال شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (فان الشيطان قصده أن يحرف الخلق عن الصراط المستقيم ولا يبالي إلى أي الشقين صاروا)[٢].

الرابعة عشرة : استغلال المناسبة في الدعوة إلى الله ، فالرسول ﷺ يأمر بلقط الحصى لرمى الجمار ويأخذه في مثل الخذف ، ثم يستغل هذه المناسبة التي يغلو فيها بعض الأشخاص برمى الجمار بحصى كبار يظن ذلك أزكى في العبادة فنهى عن هذا ونهى عموماً عن الغلو في الدين .

الخامسة عشرة : في نزول قول الله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ في حجة الوداع لنا أن نتساءل ما المقصود بتمام النعمة ؟ أذلك في أمور الدنيا أم أمور الآخرة ؟ .

أما أمور الدنيا فإن الرسول ﷺ يركب الجمل وينام على الحصير الذي يؤثر في جنبه ، ويمر عليه الهلال تلو الهلال لا يوقد في بيته نار وإنما طعامه وأهله الأسودان التمر والماء ، وهكذا كانت صحابته ـ رضي الله عنهم ـ معه ، فالكمال هنا وتمام النعمة المرادة إنما هو الكمال الأخروي وتمام النعمة بالسعادة الأبدية لمن فاز باتباع هذا الدين دون

(١) ابن القيم ، إغاثة اللهفان ١/ ١١٥ — ١١٦ .
(٢) ابن تيمية ، اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٢٤ .

نظر لحاله في الدنيا سواء كان يلبس الثوب المرقع أم أفخر الثياب وسواء كـان يمشـي عـلى أقدامـه أم يركـب أفخر المراكب ، ولذلك فلا ننظر إلى مقاييس الحياة الدنيوية وملذاتها وترفها وإنما ميدان التنافس الحقيقي في طلـب الكمـال هـو طلـب الآخـرة حيـث كمـل التشـريع وتمـت الـنعمة بإيضـاح طريقها لمن يطلـبها ويسـعى إليها وأكثر الناس كمالاً أكثرهم سلوكاً لهذا الطريق وأعظمهم نعمة أسبقهم إلى الجنة والله أعلم .

السادسـة عشـرة : في تقبيل عمر بن الخطاب ﷺ للحجر الأسود وقوله : (إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبِّلك ما قبَّلتُكَ) قـال ابـن حجـر ـ رحمه الله تعـالى ـ : (قـال الطبري : إنما قال ذلك عمر ﷺ ؛ لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصـنام ، فخشـي عمـر أن يظـن الجهـال أن استلام الحجـر من بـاب تعظـيم بعـض الأحجـار كمـا كانـت العـرب تفعـل في الجاهلية [1] فأراد عمر أن يعلِّـم الـناسَ أن استلامه اتـباع لفعل الرسول ﷺ لا لأن الحجر ينفع ويضر بذاته كما كان الجاهلية تعتقد في الأوثان) [2] .

السابعة عشرة : قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ : (وفي قول عمر ﷺ هـذا التسـليم للشـارع في أمور الدين وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن

(١) لم يقتصـر الأمـر عـلى حديـثي العهـد بعـبادة الأصنام بل لا يزال هناك من يحاول إثارة الشبه على المسلمين بسبب تقبيل الحجر الأسود فيجاب بمثل ما قال الطبري هنا .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ٣ / ٤٦٢ – ٤٦٣ .

معانيها ، وهو قاعدة عظيمة في اتباع النبي ﷺ فيما يفعله ولو لم يعلم الحكمة فيه) [١] .

الثامنة عشرة : من قول الرسول ﷺ : « رحم الله المحلّقين ثلاثاً » ثم قال : « رحم الله المقصّرين » هذا أسلوب دعوة فيه الترغيب بالحلق في النسك سواء كان حجاً أو عمرة حيث دعا الرسول ﷺ للمحلّقين ثلاثاً وللمقصّرين بعدهم واحدة ، والمسلم يستكثر من دعوة الرسول ﷺ ما استطاع وقد مر علينا مثل هذا في غزوة الحديبية .

التاسعة عشرة : من قول الرسول ﷺ للصحابة الذين كانوا يسألونه يوم العيد عن تقديم بعض أعمال الحج في ذلك اليوم على بعض ، فكان يقول تلك القاعدة العظيمة التي بنى عليها هذا التشريع ، وهو قاعدة التيسير ورفع المشقة والحرج عن المسلمين فكان ﷺ يقول : « افعل ولا حرج » وكان ﷺ يوصي بهذا أصحابه عندما يبعثهم في مهام الدعوة إلى الله تعالى حيث يقول : « (يسِّروا ولا تُعَسِّرُوْا ، وبشِّروا ولا تُنَفِّرُوْا » [٢] .

العشرون : في موقف الرسول ﷺ مع عائشة ـ رضي الله عنها ـ حينما اشتكت إليه أنها بسبب حيضها لم تتمكن من عمرة مفردة قبل

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٣ /٤٦٣ .

(٢) قال ذلك لمعاذ بن جبل ولأبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنهما ـ عندما بعثهما إلى اليمن ، صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٨ / ٦٠ ، رقم ٤٣٤١ – ٤٣٤٢ .

الحج ، فأراد الرسول ﷺ تطييب خاطرها بأن أمر أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ أن يخرج بأخته عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلى التنعيم ؛ لتحرم بعمرة وانتظرها حتى خرجت وعادت محرمة وأدَّت عمرتها ، كل هذا من حسن خلقه ﷺ ورفقه بأهله وتطييبه لخواطرهم ومراعاة لنفسياتهم وقد قال ﷺ : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي »[١] .

الحادية والعشرون : في خطبة الرسول ﷺ في طريق عودته إلى المدينة أكّد على مكانة الكتاب الكريم والاعتصام به وأن فيه الهدى والنور ، وأمر بالأخذ به والتمسك بنصوصه والعمل بما فيه .

الثانية والعشرون : أيضاً أكّد ﷺ في خطبته على حقوق آل البيت عندما قال : « أذكركم الله في أهل بيتي » (وأهل بيت النبي ﷺ هم (آل النبي ﷺ الذين حرمت عليهم الصدقة وهم آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس وبنو الحارث بن عبد المطلب وأزواج النبي ﷺ وبناته)[٢] (وأهل السنة يحبونهم ويكرمونهم ؛ لأن ذلك من محبة النبي ﷺ وإكرامه وذلك بشرط أن يكونوا متبعين للسنة مستقيمين على الملة كما

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣ / ٢٤٥ ، رقم ٣٠٥٧ ، وأخرجه الدارمي في سننه ٢ / ٨٢ ، رقم ٢٢٦٥ ، وقال عبد القادر الأرناؤوط في هامش جامع الأصول لابن الأثير ١ / ٤١٧ : (وإسناده صحيح) .

(٢) صالح الفوزان ، كتاب التوحيد ص ٦٩ .

كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه وعلي وبنيه ، أما من خالف السنة ولم يستقم على الدين ، فإنه لا تجوز موالاته ولو كان من أهل البيت)[١] .

الثالثة والعشرون : نلحظ كثرة خطب النبي ﷺ في حجة الوداع فهو ﷺ يستغل كل مناسبة في إلقاء خطبة عامة يوضِّح بها للناس دينهم ويذكِّرهم ويعظهم ، حيث خطب الناس في عرفات وفي منى وفي الطريق إلى المدينة وهذا أسلوب دعوة يستفيده الداعية إلى الله بأن يستغل الأوقات المناسبة التي تجمع الناس ليلقي فيهم خطباً يدعو فيها إلى الله سبحانه وتعالى .

❁❁❁

---

(١) المرجع السابق ص ٦٩ - ٧٠ .

المبحث الخامس

فقه السيرة في حادثة وفاة الرسول ﷺ

عاد الرسول ﷺ من حجة الوداع بعد أن نزل عليه قول الله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾ والتي تضمنت نعي رسول الله ﷺ [١] وبدأت تظهر علي لسان رسول الله ﷺ عبارات التوديع وتبرز من خلال أفعاله ، فقد قال للناس في حجة الوداع : « لتأخذوا عني مناسككم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا »[٢] وفي المدينة خرج إلي البقيع واستغفر لأهله [٣] وخرج وصلى على شهداء أحد وخطب في الناس كالمودِّع للأموات والأحياء [٤] .

وفي نهاية شهر صفر من عام (١١) للهجرة بدأ يشكو من الصداع وأخذ يثقل به المرض [٥] ويزداد مع الأيام وكان خلال مرضه يوصي بوصايا منها :-

١. أوصى بإخراج المشركين من جزيرة العرب [٦] .

---

(١) انظر : صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٨/ ٣٠ ، رقم ٤٤٣٠ .
(٢) سبق تخريجه قريباً .
(٣) انظر : مسند الإمام أحمد ٣ / ٤٨٨ — ٤٨٩ .
(٤) انظر : صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٣٧٧ ، رقم ٤٠٨٥ .
(٥) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٨ / ١٢٩ .
(٦) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٨ /١٣٢ ، رقم ٤٤٣١ .

٢. وأوصى بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم (١) .

٣. وأوصى بالاعتصام بالكتاب (٢) .

٤. وأوصى بتنفيذ جيش أسامة رضي الله عنه (٣) .

٥. وأوصى بالأنصار خيراً (٤).

٦. وأوصى بالصلاة وما ملكت أيمانكم (٥) .

ولعن اليهود والنصارى لاتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد ونهى عن اتخاذ قبره وثناً يُعْبَد (٦) .

وأمر بإخراج اليهود من جزيرة العرب (٧) .

وخطب في الناس كالمودِّع لهم محذِّراً من التنافس على الدنيا (٨) لئلا تهلكهم كما أهلكت الأمم قبلهم .

واستأذن زوجاته في أن يمرض في بيت عائشة ـ رضي الله عنها ـ فأَذِنَّ له (٩) ، وعندما اشتد به المرض قال للصحابة الذين كانوا حوله في

---

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٨ ، رقم ٤٤٦٠ .

(٣) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ١٥٢/٨ .

(٤) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٧ / ١٢٠ – ١٢١ ، رقم ٣٧٩٩ .

(٥) سنن أبي داود ، صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٣ /٩٦٩ ، رقم ٤٢٩٥ .

(٦) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٨ / ١٤٠ ، رقم ٤٤٤١ .

(٧) مسند الإمام أحمد ١ /١٩٥ ، والطحاوي في مشكل الآثار ١٣/٤ ، وقال الهيثمي في المجمع ٣٢٥/٥ : (رواه أحمد بأسانيد ورجال طريقين منهما ثقات متصل إسنادهما) ، وانظر : صحيح السيرة النبوية للعلي ص ٧١٢ .

(٨) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٧ / ٣٧٧ – ١٢١ ، رقم ٤٠٨٥ .

(٩) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ١٤١/٨ ، رقم ٤٤٤٢ .

المنزل وفيهم عمر بن الخطاب ﷺ : « هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده » فقال عمر ﷺ : قد غلب عليه الوجع ، وعندكم القرآن حسبكم كتاب الله ، فاختلفوا فمنهم من يقول : قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ ومنهم من يقول ما قال عمر ﷺ ، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله ﷺ : « قوموا عني »[١] ولما لم يستطع الخروج إلى الناس والصلاة بهم أمر أبا بكر ﷺ أن يصلي بالناس فصلى بالناس عدة أيام في حياة رسول الله ﷺ[٢] .

وقبل يوم من وفاته تصدق بدنانير عنده قليلة[٣] وقال : « لا نُوْرَثُ ، ما تركناه صدقةٌ »[٤] .

وفي يوم الاثنين من شهر ربيع الأول لعام ١١ من الهجرة[٥] وعند الضحى تُوُفِّيَ رسولُ اللهِ ﷺ تسليماً كثيراً ، تقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ : (فلما نزل به ورأسه على فخذي غشي عليه ، ثم أفاق

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٨/١٣٢ ، رقم ٤٤٣٨ .
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٢ / ١٥١ ، رقم ٦٦٤ .
(٣) انظر : ابن سعد، الطبقات ٢/ ٢٣٧- ٢٣٩ .
(٤) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح الباري ١٢ / ٧ ، رقم ٦٧٣٠ .
(٥) اختلف أهل العلم في تاريخ وفاته ﷺ بعد اتفاقهم على أنه يوم الاثنين في شهر ربيع الأول . والجمهور على أنه الثاني عشر ، ولكن قال بعض العلماء : إنه لا يصح ؛ لأن حجة الوداع كانت وقفتها يوم الجمعة فلا يستقيم أن يكون يوم الاثنين ثاني عشر من ربيع الأول . محمد عمر بحرق ، حدائق الأنوار هامش ص ٣٩٠ التعليق .

فأشخص بصره إلى سقف البيت ، ثم قال : « اللهم الرفيق الأعلى »[(١)] .

وتسرَّب هذا النبأ الفادح والحدث الجلل إلى الصحابة ، فأظلمت عليهم الدنيا حزناً على فراق الحبيب خليل الرحمن المصطفى ﷺ .

وأصاب الناس بهذا الحدث الجلل العظيم دهشة عظيمة ، فمنهم المصدِّق ومنهم غير ذلك وقام عمر ﷺ يخطب في الناس ويقول : (ما مات رسول الله ﷺ ولا يموت حتى يقتل الله المنافقين)[(٢)] .

أما أبو بكر الصديق ﷺ فإنه (خرج وعمر يكلِّم الناس فقال : اجلس يا عمر فأبى عمر أن يجلس ، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر ﷺ فقال : أما بعد من كان منكم يعبد محمداً ﷺ ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت قال الله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ إلى قوله : ﴿ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[(٣)] قال راوي الحديث : والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر ﷺ قال : والله ما

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح الباري ٨ / ١٥٠ ، رقم ٤٤٦٣ ، والمراد بالرفيق الأعلى الجماعة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ النساء ، الآية رقم (٦٩) ولفظة رفيق تُطلَق على الواحد والجمع ، فتح الباري ٨/ ١٣٨ .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ٨/١٤٦ .

(٣) سورة آل عمران ، من الآية (١٤٤) .

هو إلا سمعت أبا بكر تلاها فقعدت حتى ما تقلني رجلاي وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها علمت أن النبي ﷺ قد مات)[١] .

واجتمع الناس بقية ذلك اليوم - يوم الاثنين - في سقيفة بني ساعدة وانتهوا إلى بيعة أبي بكر الصديق ﷺ الخاصة ، ثم بُوْيِعَ أبو بكر الصديق ﷺ البيعة العامة يوم الثلاثاء وكان ذلك قبل تجهيز رسول الله ﷺ تسليماً كثيراً[٢] .

فلما بويع أبو بكر ﷺ أقبل الناس على جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء[٣] ، وفي المسند أن أبا عسيب قال بهز إنه شهد الصلاة على النبي ﷺ قالوا كيف نصلي عليه قال : (ادخلوا أرسالاً ، أرسالاً ، قال فكانوا يدخلون من هذا الباب فيصلون عليه ثم يخرجون من الباب الآخر)[٤] .

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٨ / ١٤٥ ، رقم ٤٤٥٤ .

(٢) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٥/ ٢٤٨ و ٥ / ٢٦٠ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٢٦٠ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/٨١ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/٣٧ : (رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح) قال ابن كثير - رحمه الله تعالى - : (وقد قال بعض العلماء : إنما لم يؤمهم أحد ليباشر كل واحد من الناس الصلاة عليه منه إليه ، ولتكرر الصلاة عليه مرة بعد مرة من كل فرد من آحاد الصحابة رجالهم ونسائهم وصبيانهم حتى العبيد والإماء (البداية والنهاية ٥/ ٢٦٥).

ثـم دفـن ﷺ حيـث مـات لـيلة الأربعاء [(١)] في حجرة السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ التي كانت تختص بها شرقي مسجده في الزاوية الغربية القبلية من الحجرة [(٢)] .

وعـن أنـس ﷺ قـال : (لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضـاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء . وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا) [(٣)] .

قـال ابـن حجـر ـ رحمـه الله تعـالى ـ : (يريد أنهـم وجدوها تغيرت عمـا عهـدوه في حياته من الألفة والصفا والرقة لفقدان ما كان يمدهم به من التعليم والتأديب) [(٤)] .

ويـؤيـد هذا قوله ﷺ : « النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السـماء مـا توعـد ، وأنـا أمنة لأصـحابي فـإذا ذهبتُ أتـى أصـحابي مـا يوعـدون ، وأصـحابي أمنة لأمـتي فـإذا ذهـب أصـحابي أتـى أمـتي مـا يوعدون » [(٥)] .

قـال الـنووي ـــ رحمـه الله تعـالى ـــ : (وقولـه ﷺ : « وأنـا أمـنة لأصـحابي فـإذا ذهبـتُ أتـى أصـحابي مـا يوعـدون » أي مـن الفـتن

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٥/٢٧١ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٧٢ .
(٣) أخرجه ابن ماجة في سننه ، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ١ / ٢٧٣ ، رقم ١٣٢٢ .
(٤) ابن حجر ، فتح الباري ٨ / ١٤٩ .
(٥) صحيح مسلم ٤ / ١٩٦١ ، رقم ٢٥٣١ .

والحروب وارتداد من ارتد من الأعراب واختلاف القلوب ونحو ذلك مما أنذر به صريحاً وقد وقع كل ذلك)[١] .

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على نبينا المصطفى محمد بن عبد الله صلاة دائمة أبدية تتجدد بتجدد الأوقات ، اللهم احشرنا تحت لوائه وأوردنا حوضه وأدخلنا معه الجنة برحمتك يا أرحم الراحمين .

الفوائد المستخرجة من قصة وفاة المصطفى ﷺ :[٢]

الأولى : كان الرسول ﷺ وهو في مرض موته يحرص أن يبيت عند كل زوجة في ليلتها حتى ثقل ، فاستأذنهن في أن يمرض في بيت عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقد كان يحمل من بيت إلى بيت ليبيت فيه وفي هذا درس عظيم في العدل بين النساء في المبيت نتذكره فنتذكر كمال عدله وحسن معاشرته ﷺ لنسائه ، مع أن القسم بين نسائه ليس واجباً على الأرجح[٣] ، ونتذكره حينما نرى تهاون البعض في العدل بين

---

(١) النووي ، شرح صحيح مسلم ١٦ / ٨٣ .

(٢) لقد شق علي وأنا أكتب الفصل الأخير من فوائد سيرة المصطفى الحبيب ﷺ وداعه أولاً ثم وداع الكتابة في سيرته ﷺ ومطالعة الكتب التي تتحدث عن سيرته والعيش معها بعد صحبتها سنوات لقد شق علي الشعور بقرب الفراق فأحببت أن أتنفس قليلاً وأتمتع بصحبة المصطفى ﷺ وبخاصة مع هذا الفصل الخاص جداً عن لحظات وداع الحبيب للدنيا الفانية فأكثرت الفوائد أكثر من المعتاد وهي مشاعر يعيشها كل مسلم يقرأ لحظات وداع الحبيب المصطفى للدنيا .

(٣) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٢١٤ ، وابن حجر ، فتح الباري ١/ ٣٠٣ ، والسباعي ، المرأة في الفقه والقانون ص ٨٤ ، وأبو صالح ، مرض النبي ﷺ ص ٤٨ .

الزوجات والحيف في حقوقهن وتفضيل بعضهن على بعض واتباع الهوى وميل النفس لزوجة دون أخرى في حال الرخاء ، والرسول ﷺ في مرض الموت لا ينسى العدل ، فهل من متأسٍ مقتدٍ بالحبيب المصطفى ﷺ ؟ .

الثانية : فضيلة خاصة لعائشة بنت الصديق ـ رضي الله عنهما ـ عندما اختار الرسول ﷺ أن يمرض عندما وكان قبل ذلك يسأل أين أنا غداً استعجالاً ليومها ـ رضي الله تعالى عنها وأرضاها ـ .

الثالثة : قد تضمنت قصة وفاة النبي ﷺ أربع فضائل ، بل خصائص لأبي بكر الصديق ﷺ :

١) أن الرسول ﷺ خطب فقال : « إن الله خيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » فبكى أبو بكر ﷺ ـ قال الراوي : فقلت في نفسي ما يبكي هذا الشيخ إن يكن الله خيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله ؟ فكان رسول الله ﷺ هو العبد ، وكان أبو بكر أعلمنا)[(١)] .

٢) قوله ﷺ في بقية الحديث السابق : « وإن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن أخوة في الإسلام ومودته لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر »[(٢)] .

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ١ / ٥٥٨ ، رقم ٤٦٦ .
(٢) المرجع السابق .

٣) حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : لما مرض رسول الله ﷺ مرضه الذي مات فيه فحضرت الصلاة فأذن فقال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس »[١] .

٤) حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال في ابتداء مرضه الذي مات فيه[٢] : « لقد هممت ـ أو أردت ـ أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهد ، أن يقول القائلون أو يتمنى المتمنون ثم قلت : يأبى الله ويدفع المؤمنون أو يدفع الله ويأبى المؤمنون »[٣] .

هذه جملة من خصائص أبي بكر الصديق ﷺ التي وقعت مع مرضه ﷺ والتي كانت بمثابة الإشارات المتتابعة لأحقية أبي بكر الصديق ﷺ في الخلافة من بعده .

الرابعة : الأحاديث السابقة كما فيها تكريم لأبي بكر الصديق ﷺ ، ففيها منهج يدلنا عليه الرسول ﷺ وهو الإقرار بالفضل لأهله[٤] وذكر أهل الإحسان والخير بما يستحقونه من الاعتراف لهم بالصنيع الحسن .

الخامسة : في قصة بعث أسامة بن زيد بن حارثة ـ رضي الله عنهما ـ وهو مولى ابن مولى لا يصل عمره عشرين سنة ومع ذلك فلا

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٢ / ١٥١ ، رقم ٦٦٤ .
(٢) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ١٠ / ١٢٥ .
(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ١٠ / ١٢٣ ، رقم ٥٦٦٦ .
(٤) انظر : أبو شهبة ، السيرة النبوية ٢ / ٥٩٢ .

الصغر ولا الرق القديم منع الرسول ﷺ من أن يجعله أميراً على عامة الصحابة فيهم من كبارهم وفيهم القرشيون بل فيها من هو أفضل من أسامة كالفاروق ـ رضي الله عنهما ـ في غزوة مهمة بعيدة المدى يدلنا هذا على أن تلك الصفة لا تحط من قدر الشخص في الإسلام والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ (١) .

السادسة : نأخذ أيضاً من هذا الموقف فضل أسامة بن زيد ـ رضي الله تعالى عنهما ـ حيث اختاره الرسول ﷺ قائداً لهذا الجيش وهي تزكية عظيمة من الرسول ﷺ وهو الحب بن الحب ﷺ وعن والده وقد قال ﷺ عنه وعن أبيه : « وإن كان لخليقاً للإمارة وإن كان لمن أحب الناس إلي ، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده » (٢) .

السابعة : في اختلاف الصحابة بين يدي الرسول ﷺ وهو مريض ، وقد قال لهم هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده فاختلفوا في ذلك فقال النبي ﷺ : « قوموا عني » نأخذ آداب زيارة المريض ، يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (ويؤخذ من هذا الحديث أن الأدب في العيادة أن لا يطيل العائد عند المريض حتى يضجر ، وأن لا يتكلم عنده بما يزعجه) (٣) .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية رقم (١٣) .
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٨٦ ، رقم ٣٧٣٠ .
(٣) ابن حجر ، فتح الباري ١٠ / ١٢٦ .

الثامنة : التحذير من الدنيا والمنافسة عليها تلك التي يخشى علينا الرسول ﷺ المنافسة فيها فتهلكنا كما هلك من قبلنا ، ولذلك ينبغي أن تبقى هذه الوصية في التحذير من الدنيا نصب أعيننا راسخة في أذهاننا تلك الوصية من الرسول الرؤوف الرحيم الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ .

التاسعة : كانت آخر وصاياه (الصلاة ، الصلاة) تلك التي كان ﷺ يوصي بها وهو يجود بنفسه حتى انقطع صوته وهو يؤكد عليها ويذكر بها ويرغب فيها ، فمن ضيَّع هذه الوصية وفرَّط في الصلاة لم يبق له من دينه ما يعول عليه ، فيا أخي حافظ على الصلاة حافظ على وصية المصطفى ﷺ وهو يودع الدنيا ولا شك أن الرجل في تلك اللحظة يجود بأغلى وأثمن وأهم الوصايا عنده .

العاشرة : كانت وصية الرسول ﷺ بالصلاة قارنتها وصية أخرى وهي قوله ﷺ : « الصلاة ، الصلاة ، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم » فرغم حالته ﷺ التي تقتضي الانشغال عن غيره ، فلم ينس ﷺ هذه الفئة التي هي مظنة الضعف والانتقاص من الناس ، لكن الإسلام ـ وبوصية الرسول ﷺ ـ أراد الرفع من شأن هذه الفئة والتوصية بحسن معاملتها وقد قال ﷺ : « إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا

تكلّفوهم فإن كلّفتموهم فأعينوهم »[١] فسمّاهم إخوة وأمر بالعدل معهم وعدم ظلمهم أو تكليفهم ما يشقّ عليهم ومشاركتهم في ذلك إذا وقع شيء من الكلفة ، ففي أي تشريع أو في أي تعاليم تجد مثل هذه الوصايا ومثل هذا الاهتمام من أعظم رجل في أصعب اللحظات ، إنه التشريع الإلهي الفريد .

الحادية عشرة : نقلنا عدداً من الأحاديث والوصايا المهمة العظيمة التي أوصى بها الرسول ﷺ في آخر أيامه ومن ذلك وصيته عليه الصلاة والتسليم بالصلاة وما ملكت أيمانكم وهو يغرغر في اللحظات الأخيرة من عمره وينقطع صوته ولا يسمع منه إلا الاهتمام البالغ بأمر هذا الدين[٢] ، أليس لنا في هذا دروس وعبر بالاهتمام بالدين في حياتنا اليومية وأن نولي هذا الدين ما يستحق من العناية التي كان يوليها إياه رسول الله ﷺ في لحظات النزع الأخيرة .

الثانية عشرة : من لعن الرسول ﷺ اليهود والنصارى لاتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد نستفيد منه التحذير من الشرك ووسائله والتأكيد على التوحيد والحذر من كل ما يجرحه أو ينقصه فضلاً عما ينقضه وهذه هي خلاصة دعوته ﷺ ودعوة الأنبياء من قبله عليهم السلام ،

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ١/٨٤ ، رقم ٢٠ .
(٢) انظر : فضل ، قصة بعث أبي بكر جيش أسامة ـ رضي الله عنهما ـ ص ٢٣ .

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[١] قال ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ : (ما ورد في القرآن الكريم من العبادة فمعناه التوحيد) وعلى هذا جميع المفسرين والعلماء[٢] .

ولذلك فمما يؤلم القلب ما نراه من انتشار اتخاذ القبور في المساجد في العالم الإسلامي والطواف حولها وتقديم بعض العبادات التي لا يجوز أن تصرف إلا لله سبحانه وتعالى كالدعاء والتوسل وغيرها ، وهذا عين ما حذَّر منه النبي ﷺ .

الثالثة عشرة : في لعن الرسول ﷺ لليهود والنصارى في آخر حياته تذكير لكل مسلم بهؤلاء الأعداء للمسلمين في كل عصر ، فهم أعداء من ينتمي إلى هذا الدين ويستجيب له ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿

(١) سورة الأنبياء ، الآية رقم (٢٥) .
(٢) ابن قاسم ، الدرر السنية ٢ /٢٩١ ، ٣٠٩ — ٣١٠ .
(٣) سورة البقرة ، الآية رقم (١٠٥) .
(٤) سورة البقرة ، الآية رقم (١٠٩) .

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ ﴾[١] وغيرها من الآيات التي تبين خبث هؤلاء الأعداء وحقدهم على المسلمين لا فرق بين من كان يعيش في عهد الرسول ﷺ أو من جاء بعدهم ، فهم على ملة واحدة في عدائهم للمسلمين ولذلك فإن استمرار عداوتهم للمسلمين في العصور التالية لعصر الرسول ﷺ إلى عصرنا الحاضر معجزة للرسول ﷺ حينما لعنهم عليه الصلاة والتسليم وكان عليه الصلاة والتسليم على يقين من استمرار هذا العداء للمسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

الرابعة عشرة : من وصيته ﷺ بإخراج المشركين من جزيرة العرب ، قد يتساءل البعض عن الحكمة من هذه الوصية ، ومع التسليم لأمر الرسول ﷺ إلا أن هذا لا يمنعنا من محاولة التعرف على الحكمة من ذلك ، ولعلها تكمن في أن الرسول ﷺ أراد المحافظة على هذه الجزيرة معقلاً للإسلام ، وأن يبعد عنها كل أسباب تعرضها للهلاك ، بسبب كثرة الكفار وغلبتهم ، ذلك أن الكفار إذا كثروا في مكان عرّضوه للهلاك ، كما ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ لما قيل له : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم ، إذا كثر الخبث »[٢] فإذا أذن لليهود والنصارى والمشركين بالبقاء في جزيرة العرب كان هذا

---

(١) سورة البقرة ، الآية رقم (١٢٠) .

(٢) متفق عليه : صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ١٣/١٠٦ ، رقم ٧١٣٥ ، وصحيح مسلم ٤/ ٢٢٠٧ ، رقم ٢٨٨٠ .

سبيلاً لتكاثرهم ، وتزايد أعدادهم حتى يربو عددهم على عدد المسلمين وتكون لهم الأغلبية ، وعندها يكثر الخبث ، ويكون معقل الإسلام معرَّضاً للهلاك [١] .

الخامسة عشرة : في فجر اليوم الذي توفي فيه المصطفى ﷺ وهو فجر يوم الاثنين وهي آخر صلاة فريضة صلاها رسول الله ﷺ رفع ستر حجرته واطلع على الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وهم يصلون صفوفاً منتظمة خلف أبي بكر الصديق ﷺ ثم تبسم يضحك ، ثم أرخى الستر فتوفي رسول الله ﷺ من يومه ذلك [٢] وهذا يرشدنا إلى أن تفكيره ﷺ كان منصرفاً تلك الساعة إلى أمته وإلى ما سيكون عليه حالهم بعد وفاته ، لقد رأى منهم ما يسره ويطمئن قلبه ، يظهر هذا في ابتسامته الشريفة ﷺ وهو ينظر إليهم في صفوفهم المنتظمة ، لقد كتب الله جل شأنه أن يكون آخر مشهد يراه الرسول ﷺ من أمته مشهد الصلاة جماعة في المسجد ، فيا أخي المسلم العهد العهد الذي فارق رسول الله ﷺ الدنيا وهو راضٍ عنه يبتسم من أجله لا يفوتنك ولا تغب عن هذا المشهد اليومي العظيم .

السادسة عشرة : في مصيبة موت رسول الله ﷺ التي واجهها صحابة رسول الله ﷺ درس لنا في كيفية التعامل مع المصائب ،

---

(١) انظر : محمد العثيمين ، شرح رياض الصالحين ٤/ ٥٣٦ .

(٢) انظر : صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٨ / ١٤٣ ، رقم ٤٤٤٨ ، وأبو حاتم البستي ، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء ص ٤٠٠ .

فالموقف يدلنا على أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ مع عظم ما نزل بهم حتى اقعدوا عن القيام وأخرسوا عن الكلام إلا أن ذلك لم يجعلهم يخمشون وجهاً أو يشقون جيباً أو يلطمون خداً أو تسمع لهم صوت نائحة أو اعتراض أو تسخط ، بل أدب إسلامي وصبر واحتمال واحتساب للأجر عند الله سبحانه وتعالى ، كل هذا نأخذ منه درساً عظيماً لنا فيما نواجه من مصائب هي ـ بلا شك ـ دون هذه المصيبة العظمى والفادحة الكبرى التى حلت بالمسلمين إلى يوم الدين .

السابعة عشرة : في وفاة المصطفى ﷺ خير الخلق وأكرمهم على الله سبحانه وتعالى تبرز حقيقة مهمة يسقط عندها جبروت المتجبرين وعناد الملحدين وطغيان المتألهين ، إنها الحقيقة التي تصبغ الحياة كلها بصبغة العبودية والذل والخضوع لله الواحد القهار ، إنها حقيقة حية تعلن أن لا ألوهية حقيقة إلا لله وحده ، فهو الباقي سبحانه ، المستحق للعبودية وحده لا مفر منه إلا إليه ، المتفرد بالبقاء فلا مخرج عن حكمه ولا غالب على أمره ، حقيقة تُعلي شأن الآخرة وترخص الدنيا فلا يتجاوز كونها معبراً وممراً للآخرة ، الحقيقة التي لو حصل فيها استثناء لكان لهذا النبي العظيم ﷺ ولكنها حقيقة أعلنها القرآن الكريم : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ (١) .

(١) سورة آل عمران ، الآية رقم (١٨٥) ، وانظر : البوطي ، فقه السيرة ص٤٦٠ / ٤٦١ .

الثامنة عشرة : إن أعظم مصيبة حلت بالأمة الإسلامية هي موته ﷺ فلم ينزل بالمسلمين ولن ينزل بهم مصيبة تدنو من مصيبة فَقْدِهم للنبي ﷺ يقول ﷺ : « فإن أحداً من أمتي لن يصاب بمصيبة أشدَّ عليه من مصيبتي »[١] قال القرطبي : (قال أبو عمر : وصدق رسول الله ﷺ ؛ لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة)[٢] ولذلك لما حلت هذه المصيبة العظمى بالصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ كان وقعها أشد الوقع وأعظمه ، يقول ابن رجب ـ رحمه الله تعالى ـ : (ولما توفي رسول الله ﷺ اضطرب المسلمون فمنهم من دهش فخولط ، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام ، ومنهم من أنكر موته بالكلية)[٣] فرحم الله أولئك الصحب الكرام الذين واجهوا هذا المصاب الجلل وعايشوه وذاقوا مرارته وغصته بعد أن عايشوا حلاوة مصاحبة الحبيب المصطفى ﷺ وهذا يزيد المصاب وقعاً ، ويعظم الخطب ، ولذلك فلا تلمهم على ما دهاهم في مصابهم الخطير .

التاسعة عشرة : إن في مصيبة موت رسول الله ﷺ عزاء من كل مصيبة ، يقول الرسول ﷺ : « يا أيها الناس أيّما أحد من الناس أو من

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه ، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ١ / ٢٦٧ ، رقم ١٣٠٠ .
(٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢/١٧٦ .
(٣) ابن رجب ، لطائف المعارف ١١٣ / ١١٤ .

المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعز بمصيبته بي ، عن المصيبة التي تصيبه بغيري فإن أحداً من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي » [١] .

وكان أبو بكر الصديق ﷺ إذا عزى رجلاً كان مما يقول له : (اذكروا فَقْدَ رسولِ الله ﷺ تصغر مصيبتكم وأعظم الله أجرَكم) [٢] .

وقال ابن رجب ـ رحمه الله تعالى : (كل المصائب تهون عند هذه المصيبة ... قال أبو الجوزاء : كان الرجل من أهل المدينة إذا أصابته مصيبة جاء أخوه فصافحه ويقول : يا عبد الله اتق الله فإن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة) [٣] .

ويقول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ : (فيا لها من مصيبة ما أصبنا بعدها بمصيبة إلا هانت إذا ذكرنا مصيبتنا به ﷺ) [٤] .

العشرون : لقد خرج الرسول ﷺ من هذه الدنيا كما جاء إليها لم يترك مالاً ولا ديناراً ولا درهماً [٥] لم يترك بنين ولا بنات إلا فاطمة الزهراء ـ رضي الله عنها ـ التي أسر لها أنها أول أهل بيته لحوقاً به [٦]

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ١ / ٢٦٧ ، رقم ١٣٠٠ .
(٢) انظر : السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ٩٥ .
(٣) ابن رجب ، الطائف المعارف ص ١١٤ .
(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ٥/٢٧١ .
(٥) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ص ١٤٨ ، حديث رقم ٤٤٦١ .
(٦) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٧٨ ، رقم ٣٧١٦ .

مات ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير [١] طعاماً لأهله مما يدل على أنه كان ﷺ أبعد الناس عن طلب المال [٢] ، وإنما ترك بعده ﷺ هداية وإيماناً وشريعة عامة خالدة وميراثاً عظيماً وأمة هي خير الأمم وأوسطها [٣] .

وهو ﷺ أسوتنا وقدوتنا فلم يعط للدنيا أدنى عناية في الجمع والبقاء بعده وإنما خَلَّفَ العلم النافع والنهج السديد في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، فكم لك ـ يا أخي ـ من هذا النصيب يوم تلقى ربك ؟! .

الحادية والعشرون : مات المصطفي ﷺ وقد قال : « لا نُوْرَثُ ، ما تركناه صدقةٌ » [٤] فلم يترك وراءه مالاً لورثته ولكنه ورَّث شيئاً آخر وهو العلم كما قال ﷺ : « إن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورَّثوا العلمَ ، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافرٍ » [٥] .

ومعنى هذا الحديث (أنه يقول) إننا لا نُوْرَث بالانتساب وإنما نُوْرَث بالاكتساب ، فهذا هو ميراث رسول الله ﷺ حي باقٍ يتنافس فيه

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٨ / ١٥١ ، رقم ٤٤٦٧ .
(٢) انظر : ابن تيمية ، منهاج السنة ٧ /٤٦٧ .
(٣) انظر : أبو شهبة ، السيرة النبوية ٢ / ٥٩٤ .
(٤) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٤٩٣ ، رقم ٤٢٤٠ .
(٥) أخرجه ابن ماجة في سننه ، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ١ / ٤٣ ، رقم ١٨٢ .

العلماء وطلبة العلم ، فليكن لك ـ أخي طالب العلم ـ أوفر الحظ والنصيب من ميراث رسول الله ﷺ الخالد الذي فيه الرفعة والعزة في الدنيا والآخرة .

فأوصيك بالعلم ، واعلم : (أن من لم يطلب العلم لم يفلح ، حتى كانوا يعدون من لا علم له من السفلة قال ذو النون وقد سُئِلَ عن السفلة فقال : من لا يعرف الطريق إلى الله تعالى ولا يتعرفه) (١) .

الثانية والعشرون : لقد مات رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير طعاماً لأهله (٢) فعل هذا وهو رأس الدولة وولي الأمر والحاكم الشرعي ، يموت ودرعه عند يهودي لم يصادر حق اليهودي الشخصي ولم يستغل سلطته ، وحسبك منه ﷺ وهو بهذه المكانة لكي يقترض من يهودي ارتهنه درعه (٣) !!! فهل بعد هذا نحتاج إلى دليل حول عدل الإسلام واحترامه لأهل الذمة وصيانته لحقوقهم واحترامه لأموالهم .

الثالثة والعشرون : لما توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين بادر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إلى الاجتماع وانشغلوا باختيار خليفة لهم حتى قدَّموا اختيار الخليفة على تجهيز الرسول ﷺ ودفنه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وهذا العمل منهم يدلنا على أهمية اختيار الإمام ،

---

(١) ابن قاسم ، الدرر السنية ٢ / ٢٧٨ .
(٢) حديث صحيح في صحيح البخاري وقد سبق تخريجه قريباً .
(٣) انظر : الغزالي ، فقه السيرة ص ٤٢٥ .

يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ: (لم يكن بين الوفاة النبوية وعقد الخلافة لأبي بكر إلا دون اليوم والليلة)[١] ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: (يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من واجبات الدين بل لا قيام للدين إلا بها ، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولابد لهم عند الاجتماع من رأس ... ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والْجُمَع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة ، ولهذا روي « أن السلطان ظل الله في الأرض »[٢] ويقال : « ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان »[٣] والتجربة تبين ذلك ... والواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله ، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات)[٤].

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ١٣ / ٢٠٨ .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٨/١٦٢ ، وانظر : العجلوني ، كشف الخفاء ١/ ٢٤٦، و١/٥٥٢ ، ومجمع الزوائد للهيثمي ٨/١٦٢ ، ٥/١٩٦ ، وقال : رواه البزار وفيه سعيد بن سنان أبو مهدي وهو متروك ، وفي ٥ / ٢١٥٨ بلفظ الإمام ظل الله في الأرض وقال عنه : (رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات) .

(٣) بحثت عن هذا اللفظ فلم أجده وفي سنن البيهقي ٨/ ١٦٢ (يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة) .

(٤) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى (جمع ابن قاسم) ٢٨/٣٩٠ – ٣٩١ .

ولعلنا ندرك من مبادرة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ تلك ، أن إقامة الخليفة من الضرورات العاجلة التي لا يجوز تأخيرها [١] ثم ندرك أيضاً مكانة ولي الأمر وما له من حق السمع والطاعة ؛ لأنه لا فرق بين نصبه واستمرار نصبه ، فكل منهما مطلوب من المسلم أن يعي أهميته ، بل ضرورته لصالح الفرد والمجتمع ، وأن الأمة الإسلامية منذ أن وجد فيها من تهاون بمنصب الإمام ، وتطاول على الخليفة بغير حق ، وشق عصا الطاعة ، والأمة في فرقة ونزاع وفتن ، والأحداث التاريخية تشهد بأن الخلاف والنزاع والفتن قارن مبدؤها مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ .

الرابعة والعشرون : إن الدعوة لا ترتبط بالأشخاص بل هي دين قائم يخطئ من يربطه بشخص معين ولذلك فليس في الإسلام انتماء إلى الأشخاص أو تعلق بهم أو انتماء للأحزاب والجماعات وإنما هو دين قائم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يذهب الأشخاص ويقيض الله لهذا الدين من يحمله جيلاً بعد جيل ويخطئ من يعلّق بقاء هذا الدين على شخص معين مهما كان هذا الشخص ، فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [٢] .

(١) انظر : عبد الله قادري ، الشورى ص ٥٧ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية رقم (١٤٤) .

يقول القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ : (فأعلم الله تعالى في هذه الآية أن الرسل ليست بباقية في قومها أبداً ، وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل وإن فُقِدَ الرسول بموت أو قتل ... فهذه الآية من تتمة العتاب على المنهزمين أي لم يكن لهم الانهزام وإن قُتِلَ محمدٌ ، والنبوة لا تدرأ بالموت ، والأديان لا تزول بموت الأنبياء)[(١)] ومن باب أولى من هو دونهم من الدعاة والعلماء في أي عصر أو مصر .

والمسلم يوقن أن الله سبحانه وتعالى قد ضمن حفظ القرآن الكريم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[(٢)] وأن الله سبحانه قد جعل طائفة من أمة محمد لا تزال قائمة على الحق كما قال ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك »[(٣)] .

وأن الله سبحانه وتعالى وعد على لسان رسوله ﷺ أن يبلّغ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار ـ ووعده حق ـ حيث قال ﷺ : « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر[(٤)] ولا

(١) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٤/٢٢٢ .

(٢) سورة الحجر ، الآية رقم (٩) .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم ، صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ١٣ / ٢٩٣ ، رقم ٧٣١١ ، وصحيح مسلم ٣ / ١٥٢٣ ، رقم ١٩٢٠ واللفظ له .

(٤) المدر : جمع مدرة بوزن شجرة وهي اللبن بكسر الباء الذي تستخدمه بيوت المدن والقرى .

وبر [١] إلا أدخله الله هذا الدين بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل ، عزاً يعزّ الله به الإسلام أو ذلاً يذلّ الله به الكفر » [٢] .

ولأجل هذا فلا تعلق بالأشخاص ولا خوف على الدين ، ولا خطر عليه من موت عالم مهما كان له باع في نشره والقيام عليه ، ولا يصح لنا أن ننتمي لشخص أو جماعة ونترك الانتماء الأكبر لهذا الدين ؛ لأن هذا كما هو غير سائغ شرعاً ، فهو يعلّق القلوب بغير الله سبحانه وتعالى ويجعل الأمة أوزاعاً .

الخامسة والعشرون : الحذر من الاختلاف والنزاع فقد كان الاختلاف سبباً في حرمان الأمة من كتاب نبيها ﷺ لها لا تضل بعده أبداً وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول : (إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم) [٣] قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : وفي الحديث دليل (على أن الاختلاف قد يكون سبباً في حرمان الخير كما وقع في قصة

---

(١) الوبر : هو شعر الإبل الذي يتخذ منه ومن نحوه الخيام بيوتاً لسكان البوادي والمعنى أن دين الإسلام يبلغ جميع سكان الأمصار والقرى والبوادي . أحمد البناء ، بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني ١ / ٩٠ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/١٠٣ ، وقال عنه الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ٦ / ١٤ : (رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح) وقال البناء في بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني ١/٩٠ : (لم أقف عليه وسنده جيد) .

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٨/١٣٢ ، رقم ٤٤٣٢ .

الرجلين اللذين تخاصما فرفع تعيين ليلة القدر بسبب ذلك) [(١)] وقال أيضاً ـ رحمه الله تعالى ـ : (ولما وقع منهم الاختلاف ارتفعت البركة) [(٢)] .

السادسة والعشرون : في حادثة الوفاة وما جرى بعدها مواقف متميزة للصديق ﷺ ، فقد اختلف الصحابة رضي الله عنهم في موته ﷺ حتى أزال الشك عنهم أبو بكر ﷺ ، ثم اختلفوا أين يدفن ؟ حتى أزال الشك عنهم الصديق ﷺ ، فدفن ﷺ حيث مات ، ثم اختلف الأنصار والمهاجرون ، وأراد بعض الأنصار التميز عن المهاجرين ، فأطفأ الله

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ١ / ٢٠٩ .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ٨ / ١٣٣ ، وقال : (قال المازري : إنما جاز للصحابة الاختلاف في هذا الكتاب مع صريح أمره لهم بذلك ؛ لأن الأوامر قد يقارنها ما ينقلها من الوجوب فكأنه ظهرت منه قرينة دلت على أن الأمر ليس على التحتم بل على الاختيار ، فاختلف اجتهادهم وصمَّم عمر على الامتناع لما قام عنده بأنه ﷺ قال ذلك من غير قصد جازم .... وقامت عنده قرينة بأن الذي أراد كتابته ليس مما لا يستغنون عنه إذ لو كان من هذا القبيل لم يتركه ﷺ لأجل اختلافهم ، ولا يعارض قول ابن عباس ﷺ : إن الرزية ... الخ ؛ لأن عمر ﷺ كان أفقه منه قطعاً) ص ١٣٣ – ١٣٤ ، وانظر أيضاً : النووي (مهم) شرح صحيح مسلم ١١/٩٠-٩٢ ، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ : (ولما علم ﷺ أنهم يجتمعون على أبي بكر ﷺ استغنى بذلك عن كتابة الكتاب الذي كان قد عزم على أن يكتبه لأبي بكر ﷺ) منهاج السنة ٦/١٤٩ ، وانظر أيضاً : ص ٣١٥ وص ٤٥٣ ، وانظر أيضاً : ٨ /٥٧١ و ٥٧٣ .

نـار الفتنة على يد أبي بكر الصديق ﷺ بأن الأئمة من قريش ولهذا قال أبو هريرة ﷺ : (لو لا أبو بكر ﷺ لهلكت هذه الأمة) [١] .

السابعة والعشرون : في اختلاف الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بعد وفاة الرسول ﷺ وقول عمر ﷺ في ذلك يدلنا على أن الرجل وإن كان عظيماً قد يفوته بعض الشيء وتغيب عنه بعض الأدلة ويكون الصواب مع غيره وقد يخطئ سهواً أو نسياناً [٢] فلا عصمة لأحد بعد النبي ﷺ ، ولـو كانت العصمة لأحد بعـد النبي ﷺ لكان أولى الناس بها بعد النبي ﷺ أبو بكر الصديق ﷺ وقد قال عن نفسه في أول خطبة بعد توليه الخلافة : (أيها الناس ! فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوِّموني ... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم) [٣] .

وقد رُوِيَ عن علي بن أبي طالب ﷺ قوله : (إن الحق لا يُعْرَفُ بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله) [٤] .

---

(١) انظر : محمد عمر بحرق ، حدائق الأنوار ص ٣٩٠- ٣٩١ ، وانظر : ابن تيمية ، منهاج السنة ٦ / ٣٢٣ ، وناصر العقل ، مقدمات في الأهواء والافتراق والبدع ص ٩٣ .

(٢) انظر : سعيد القحطاني ، وداع الرسول ﷺ لأمته ص ١٢٦ .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ٦/٣٠١ ، وقال : (وهذا إسناد صحيح) ، وانظر : ابن الجوزي ، صفة الصفوة ١/٢٦٠ – ٢٦١ ، و فضل إلهي ، قصة بعث أبي بكر جيش أسامة ـ رضي الله عنهما ـ ص ٤١ – ٤٢ .

(٤) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١/٣٤٠ .

ولذلك (فالمحققون يعرفون الرجال بالحق لا الحق بالرجال ولنعم ما قيل : لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال)[١] هذا هو المقياس الشرعي وهو التعرف على الحق دون تقييد ذلك بشخص بعينه ، إذ العصمة منتفية عن غير النبي ﷺ والكل من هؤلاء معرَّض للخطأ أو السهو أو النسيان كما رأينا وقوع شيء من ذلك من الْمُلْهَم الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ فضلاً عن أن عمر ﷺ كان يشاركه رأيه هذا عدد من الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ .

الثامنة والعشرون : قلنا من قبل : إن العصمة للرسول ﷺ وتبعاً لهذا فالخطأ متوقّع ممن بعده لكن هل يترك الخطأ دون تصويب خاصة ممن لديه القدرة العلمية على ذلك ؟ .

يجيب على هذا فعل أبي بكر الصديق ﷺ الذي بادر إلى التوضيح فيما كان يقوله عمر بن الخطاب ﷺ وغيره من الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ الذين كانوا يرون عدم وفاة الرسول ﷺ وصوب للناس ما ينبغي أن يكونوا عليه في هذا الموقف العصيب مستنداً في ذلك إلى النصوص الشرعية[٢] ولذلك فعلى الداعية إلى الله أن يصوب للناس ما قد يطرح من أقوال ويصحّح لهم الأخطاء ولكن ينبغي ملاحظة أدب تصحيح الأخطاء في ذلك كما فعل أبو بكر الصديق ﷺ .

---

(١) صديق بن حسن القنوجي ، أبجد العلوم ١/ ٨٦ .

(٢) انظر : مذكرة في تاريخ الدعوة غير مطبوعة للدكتور فضل إلهي ص ٧ من محاضراته في مادة تاريخ الدعوة للدراسات العليا عام ١٤١٣هـ .

التاسعة والعشرون : استحضار النصوص والاستشهاد بها وإرجاع الناس إليها موهبة من الله سبحانه وتعالى ، وبخاصة في مواطن الشدة ومواقع الخلاف ، ولقد غابت بعض النصوص عن جملة من الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - عند وفاة الرسول ﷺ وجاء أبو بكر الصديق ﷺ ليخطب في الناس مستحضراً هذه النصوص مستشهداً بها في موقعها الملائم مذكّراً للناس بها وتلك نعمة من الله يمنّ بها على من يشاء من عباده والداعية إلى الله تعالى أحوج الناس أن يسأل الله أن يرزقه هذا التوفيق والتسديد في دعوته إلى الله سبحانه وتعالى، وقد قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

الثلاثون : أننا لكي نتفادى آثار الخلاف الذي يطرأ بين المسلمين علينا أن نسلك ما سلكه سلفنا الصالح - رضي الله عنهم - وذلك برد الخلاف والنزاع إلى الكتاب والسنة .

فعندما اختلف الصحابة في وفاة النبي ﷺ رد أبو بكر ﷺ الأمة إلى الكتاب الكريم وتلا عليهم - كما مر معنا - قول الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ

---

(١) سورة الأنفال ، الآية رقم (٢٩) .
(٢) سورة البقرة ، الآية رقم (٢٨٢) .

أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ (١) .

وعندما تنازعوا في اختيار خليفة لهم رد بعضهم بعضاً إلى سنة رسول الله ﷺ والتي تضمنت تقديم النبي ﷺ أبا بكر ﷺ إماماً في الصلاة (٢) .

الحادية والثلاثون : مع تحذيرنا من الاختلاف والتذكير بآثاره إلا أننا نود أن نبين أن الاختلاف قد وقع بين الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ في مواقف كثيرة منها اختلافهم بين يديه ﷺ وهو مريض عندما طلب منهم أن يحضروا له كتاباً ؛ ليكتب لهم ـ كما مر معنا ـ كما اختلفوا بعد وفاته ﷺ هل مات فعلاً أم لم يمت ؟ ثم حصل خلاف في مَنْ يكون أميراً بعد وفاته ﷺ ؟ ثم اختلفوا في مكان دفنه وهل يكون لحداً أم شقاً ؟ إلى غير ذلك من الاختلاف الذي لم يسلموا منه ـ رضي الله عنهم ـ منذ مرضه ووفاته وبعد ذلك ، لكن هذا الخلاف لم يتجاوز الخلاف في الرأي مع بقاء المودة والاحترام والتآلف وإحسان الظن بالفريق الآخر ، ولم يقعوا في شيء من التباغض أو التدابر أو التقاتل .

الثانية والثلاثون : اختلف الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في شأن وفاة الرسول ﷺ وكان قلة منهم يتقدمهم أبو بكر ﷺ يرون وفاته ،

(١) سورة آل عمران ، الآية رقم (١٤٤) .

(٢) انظر : فضل إلهي ، قصة بعث أبي بكر جيش أسامة ـ رضي الله عنهما ـ ص ٥٠ .

وكان أكثر الصحابة على خلاف ذلك [١] حتى قام الصديق ﷺ وخطب الناس وبيَّن لهم وردَّهم إلى الصواب ولكن هذا الموقف يُؤْخَذ منه كما قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (أن الأقل عدداً في الاجتهاد قد يصيب ويخطئ الأكثر فلا يتعين الترجيح بالأكثر ولاسيما إن ظهر أن بعضهم قلَّد بعضاً) [٢] .

وهذا هو الذي يبدو من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ فقد قال : (وإن كان أمراً قد تنازع فيه المسلمون فينبغي أن يستخرج من كل منهم رأيه ووجه رأيه ، فأي الآراء كان أشبه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ عمل به) [٣] .

والحق لا يُعْرَف بالرجال و لا بكثرة من قاله ، وإنما يُعْرَف الرجالُ بقدر تمسكهم بالحق وإن كانوا هم القِلَّةَ [٤] .

ولهذا (فالعبرة شرعاً ليست في كثرة الآراء ، وإنما العبرة بسداد الآراء وصوابها وإن قلت) [٥] .

وهذا الذي عليه عمل السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ في مواقف كثيرة منها :

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٨ / ١٤٦ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى (جمع ابن قاسم) ٣٨٧/٢٨ .

(٤) انظر : ابن القيم ، إغاثة اللهفان ١/٦٩ ، والقرطبي ، تفسير القرطبي ١ / ٣٤٠ ونقل قول علي ﷺ : (إن الحق لا يُعْرَف بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله) .

(٥) عبد العزيز الحميدي ، التاريخ الإسلامي مواقف وعبر ٣٦٠/١٠ .

١. موقف أبي بكر الصديق ﷺ في إنفاذ جيش أسامة ﷺ وعدم التفاته إلى رأي الأكثرية .

٢ . إصرار أبي بكر ﷺ على حرب أهل الردة وعدم التفاته إلى رأي الأكثرية .

٣. إصرار عمر ﷺ على حبس أرض العراق والشام ومتابعة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ له على الرغم من إصرار بعضهم على خلافه [١] .

ولا يعني هذا عدم اعتبار رأي الأكثرية في جميع الأحوال بل قد يُصَار إلى رأي الأكثرية عند عدم المرجِّحات الأخرى ، أما إذا أمكن أن يرجح بغيرها فلا يصار إليها ، وعلى هذا يحمل قول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ في الفتح عندما تحدث عن اختلاف الصحابة في دخول الشام بعد أن ظهر فيها الوباء واستشار عمر ﷺ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ [٢] حيث قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (وفيه الترجيح بالأكثر عدداً ، والأكثر تجربة لرجوع عمر ﷺ لقول مشيخة قريش مع ما انضم إليهم ممن وافق رأيهم من المهاجرين والأنصار ، فإن مجموع ذلك أكثر من عدد من خالفه من كل من المهاجرين والأنصار ووازن ما عند الذين خالفوا ذلك من مزيد الفضل في العلم

---

(١) انظر : عبد الله قادري ، الشورى ص ٨٧ وما بعدها .
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ، كتاب الطب ، باب ما يذكر في الطاعون ١٠ / ١٧٩ ، رقم ٥٧٢٩ .

والدين ما عند المشيخة من السن والتجارب ، فلما تعادلوا من هذه الحيثية رجح بالكثرة ووافق اجتهاده النص)[١] .

ويقول سماحة الشيخ محمد بن ابراهيم آل الشيخ ـ رحمه الله ـ : (... الأكثرية مرجح وهو كذلك في الجملة لا بالجملة ، هي مرجح إذا فقدت المرجِّحات الآخر يصار إليها ، أما وأمكن أن يرجح بغيرها فلا يصار إليها ، ثم هي أيضاً ليست إلا في الأمور التي تنظر وللرأي فيها مدخل فهذا الموجود عند الدول الآن من اتخاذ الأصوات في الأشياء هذا ما يصلح أخذه عاماً في كل شيء .. إلى أن قال : والمقصود أن هذا مرجح في الجملة بعدما تقدم المرجحات الذاتية ولم يعرف هذا في الشريعة في الأمور الهامة)[٢] .

وعلى هذا فأكثرية الآراء مرجح من المرجحات ، لكنها تأتي في منزلة متأخرة من قائمة المرجِّحات الأخرى عند اختلاف الآراء ، فمتى وُجِدَ مرجح ذاتي مما سبق الإشارة إليه أو نحوه ، قدم عليها والله أعلم .

الثالثة و الثلاثون : من موقف أبي بكر الصديق ﷺ عندما أبلغ بموت الرسول ﷺ فجاء ودخل حجرة الرسول وقبَّله ثم خرج خطيباً في الناس يعلن لهم الوفاة ويقرِّر هذه الحقيقة بثبات راسخ تميز فيه عن سائر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والرجال إنما يتميزون عند الشدائد

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ١٠/١٩٠ .
(٢) محمد بن إبراهيم ، فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم ، جمع ابن قاسم ١٢/١٧٤ .

، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ : (قال أنس ﷺ : خطبنا أبو بكر ﷺ ونحن كالثعالب فما زال يثبتنا حتى صرنا كالأسود)[١] ويقول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ : (فاشتدت الرزية بموته ﷺ وعظم الخطب وجل الأمر وأصيب المسلمون بنبيهم ، وأنكر عمر بن الخطاب ﷺ ذلك وقال : إنه لم يمت وإنه سيعود كما عاد موسى لقومه وماج الناس وجاء الصديق المؤيد المنصور ﷺ وخطب الناس)[٢] وقال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ : (هذه الآية أول دليل على شجاعة الصديق وجرأته ، فإن الشجاعة والجرأة حدهما ثبوت القلب عند حلول المصائب ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ فظهرت عنده شجاعته وعلمه ، قال الناس : لم يمت رسول الله ﷺ منهم عمر ، وخرس عثمان ، واستخفى علي واضطرب الأمر ، فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسنح)[٣] وقال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (وفي الحديث قوة جأش أبي بكر ﷺ وكثرة علمه)[٤] .

فرحم الله الصديق أبا بكر ﷺ ، واعرف له أيها الأخ السلم قدره ومكانته التي امتاز بها في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته ، فلو لم يكن له إلا هذا الموقف العظيم لكفى .

---

(١) ابن تيمية ، منهاج السنة ٥٢/٨ .
(٢) ابن كثير ، الفصول في سيرة الرسول ﷺ ص ١٩٧ .
(٣) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢٢٢/٤ .
(٤) ابن حجر ، فتح الباري ١٤٦/٨ .

الرابعة والثلاثون : في موقف عمر ﷺ في اليوم التالي لوفاة الرسول ﷺ وقيامه خطيباً بين يدي أبي بكر الصديق ﷺ يعلن رجوعه عن مقالته التي كان يرى فيها عدم موت الرسول ﷺ ، فقد وقف خطيباً على المنبر وقال : (فإني قلت مقالة وإنها لم تكن كما قلت وإني والله ما وجدت المقالة التي قلت في كتاب الله تعالى ولا في عهدٍ عهده إلي رسول الله ﷺ ولكني كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يُدْبِرَنَا)[١] ولذلك فالمسلم رجَّاع إلى الحق إذا تبين له (والرجوع إلى الحق من جملة الدين)[٢] وقد قال تعالى في قصة نوح عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[٣] (فهذه الآية فيها إنابة نوح وتسليمه

---

(١) يدبرنا أي يكون آخرنا .
والحديث أخرجه عبد الرازق في مصنفه ٥ / ٤٣٧ – ٤٣٨ وهذا اللفظ له وأخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح ١٣ / ٢٠٦ ، رقم ٧٢١٩ . وقد يقول قائل : كيف يحصل هذا من عمر ﷺ ؟ كيف يتوعد من قال بوفاته ﷺ ؟ (نقول : لا شيء في ذلك ـ بحول الله وقوته ـ فإنه ﷺ لم يتحمل شدة الخطب وهول المصيبة ، فقال ذلك لعظيم ما ورد عليه وخشي الفتنة وظهور النفاق ، فلما شاهد قوة الصديق ﷺ وتفوهه بالآيات الباهرات تنبه وقال : كأني لم أسمع بذلك من قبل) (القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٤/٢٢٣) وكيف ينكر عليه ذلك ﷺ وقد حدث من موسى ﷺ ما هو أشد وذلك لما رجع إلى بني إسرائيل وشاهدهم وهم يعبدون العجل من دون الله عز وجل فألقى الألواح وفيها كلام الله ، وأخذ بلحية أخيه يجره وهو نبي مثله ، وعذره ربه ـ عز وجل ـ في ذلك. فاعرف للصحابة قدرهم ودعك من تشغيب أهل الزيغ والضلال) ، خالد أبو صالح ، مرض النبي ﷺ ووفاته ص ٢٩ .
(٢) العيني ، عمدة القارئ ١ / ٦٦ .
(٣) سورة هود ، الآية رقم (٤٧) .

لأمر الله واستغفاره) [١] فلا يستنكف المسلم عن الرجوع إلى الحق وله في المسدد الْمُلْهَم الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ أسوة وقدوة فقد رجع إلى الحق وأعلن ذلك على منبر رسول الله ﷺ .

فرحم الله الفاروق عمـر بن الخطاب ورضـي الله عنه وأرضاه في كل وقت وحين وبهذه المناسبة الخاصة التي يعطينا هذا الدرس العظيـم الـذي يستنكف عنه كثير من الناس وهـم لا يبلغون شيـئاً من منزلة عمر ﷺ .

والله المستعـان و ﷺ وبـارك عـلى عبدك ونبيك وخليلك محمد بن عبد الله وآله وصحبه ومن تبعه وسار على نهجه إلى يوم الدين .

۞۞۞

(١) ابن عطية ، المحرر ٧ / ٣١٦ .

المصادر والمراجع

١. **إبراهيم العلي : صحيح السيرة النبوية** ، الطبعة الثالثة (الأردن : دار النفائس ، ١٤١٨هـ) .

٢. **إبراهيم قريبي : مرويات غزوة حنين وحصار الطائف** (جمع وتحقيق ودراسة) (المدينة : الجامعة الإسلامية) .

٣. **أبو الحسن الندوي : السيرة النبوية** ، الطبعة الأولى (جدة : دار الشروق ، ١٣٩٧ هـ) .

٤. **أبو بكر جابر الجزائري : هذا الحبيب يا محب** ، الطبعة الأولى (دمنهور ، مكتبة البينة ١٤٠٨هـ) .

٥. **أبو داود : سنن أبي داود** ، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت ، دار الفكر للنشر والتوزيع) .

٦. **أبو داود : ضعيف سنن أبي داود** ، محمد بن ناصر الدين الألباني ، الطبعة الأولى (الرياض : مكتب التربية العربية لدول الخليج ١٤١٢هـ) .

٧. **أبو داود ، سليمان بن الأشعث : صحيح سنن أبي داود** ، صحح الأحاديث محمد بن ناصر الدين الألباني ، الطبعة الأولى (بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٩ هـ) .

٨. **أحمد بن حنبل : المسند** (بيروت : دار صادر ، د.ت) .

٩. **أحمد بن حنبل : مسند الإمام أحمد** ، تحقيق شعيب الأرناؤوط وزملاؤه ، إشراف عبد الله التركي ، الطبعة الأولى (بيروت : مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ) .

١٠. **أحمد بن حنبل : فضائل الصحابة** ، حققه وصي الله ابن محمد عباس ، الطبعة الأولى (مكة المكرمة : جامعة أم القرى ، ١٤٠٣ هـ) .

١١. **أحمد بن عبد الرحمن البناء : الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني** (القاهرة : دار الشهاب ، د.ت) .

١٢. **أحمد بن عبد الرحمن البناء : بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني** (القاهرة ، دار الشهاب ، د.ت) .

١٣. **أحمد بن عبد الله القادري : مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني** ، حققه عبد الوهاب أبو سليمان وزميله ، الطبعة الأولى (جدة : تهامة للنشر ، ١٤٠١هـ) .

١٤. **أحمد بن يحيى البلاذري : أنساب الأشراف** ، حققه محمد حميد الله (مصر : دار المعارف ، د.ت) .

١٥. **أحمد نوفل : الحرب النفسية من منظور إسلامي** ، الطبعة الثانية (عمان : دار الفرقان ، ١٤٠٧هـ) .

١٦. **الأصبهاني ، أبو القاسم إسماعيل بن محمد : دلائل النبوة** ، حققه مساعد بن سليمان الراشد الحميد ، الطبعة الأولى (الرياض : دار العاصمة ، ١٤١٢هـ) .

١٧. **أكرم ضياء العمري : السيرة النبوية الصحيحة** ، الطبعة الأولى (الرياض : مكتبة العبيكان ، ١٤١٦هـ) .

١٨. **الألباني : صحيح الجامع الصغير وزياداته** ، الطبعة الثالثة (بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٢هـ) .

١٩. **الألباني ، محمد ناصر الدين : دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد على جهالات البوطي في كتابه فقه السيرة** (دمشق ، مكتبة الخافقين ، د.ت) .

٢٠. **الألباني ، محمد ناصر الدين : سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها** (بيروت : المكتب الإسلامي ، د. ت) .

٢١. **الألباني ، محمد ناصر الدين : ضعيف الجامع الصغير وزياداته** (الفتح الكبير) ، الطبعة الثانية (بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٣٩٩هـ) .

٢٢. **الألباني ، محمد ناصر الدين : نصب المجانيق في نسف قصة الغرانيق** (الطبعة الأولى ، بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٩٧٢م) .

٢٣. **ابن أبي شيبة : المصنف في الأحاديث والآثار** ، حققه مختار أحمد الندوي ، الطبعة الأولى (الهند : الدار السلفية ، ١٤٠٠هـ) .

٢٤. **ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر** ، حققه طاهر بن أحمد الزاوي ومحمود بن محمد الطناحي (مكة المكرمة : دار الباز للنشر والتوزيع ب . ت) .

٢٥. **ابن الأثير : جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ** ، حققه عبد القادر الأرناؤوط (مكتبة دار البيان، ١٣٩١هـ) .

٢٦. **ابن الجوزي: الوفاء بأحوال المصطفى** (الرياض : المؤسسة السعيدية . ب.ت) .

٢٧. **ابن الجوزي: تاريخ عمر بن الخطاب ﷺ** (دمشق : دار إحياء علوم الدين ، د.ت) .

٢٨. **ابن الجوزي : صفة الصفوة** ، الطبعة الثالثة (بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠٥هـ) .

٢٩. **ابن الجوزي ، عبد الرحمن: صيد الخاطر** ، حققه محمد عبد الرحمن عوض ، الطبعة الأولى (بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٥ هـ) .

٣٠. **الخطيب البغدادي : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع** ، تحقيق رأفت سعيد ، الطبعة الأولى (الكويت : مكتبة الفلاح ١٤٠١هـ) .

٣١. **ابن الديبع الشيباني ، وجيه الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد : حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار** ، حققه الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، الطبعة الثانية (قطر ، دار إحياء التراث الإسلامي ، ١٤٠٣هـ) . وفي نسبة هذا الكتاب لابن الديبع شك ، فقد صدر هذا الكتاب بعينه مشار فيه إلى أن مؤلفه محمد ابن عمر بحرق الحضرمي الشافعي عن دار المنهاج للنشر والتوزيع بجدة عام ١٤١٩هـ ، وأشار الناشر في مقدمة الكتاب إلى أن نسبة الكتاب لابن الديبع خطأ من محقق الكتاب وذكر أدلة . والله أعلم .

٣٢. **ابن العربي : أحكام القرآن** ، حققه على بن محمد البجاوي (بيروت : دار الفكر ب.ت) .

٣٣. **ابن العربي : عارضة الأحوذي** (بيروت : دار الكتاب العربي ب.ت) .

٣٤. **ابن القيم : إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان** ، حققه محمد حامد الفقي (بيروت : دار الكتاب العربي ، ب.ت) .

٣٥. **ابن القيم : التفسير القيم لابن القيم** ، جمعه محمد أويس القرني (بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت) .

٣٦. **ابن القيم : الضوء المنير على التفسير جمع على الحمد الصالحي** (الرياض : مكتبة دار السلام د . ت) .

٣٧. ابن القيم: **الفوائد** (الرياض ، مكتبة الرياض ، د.ت) .

٣٨. ابن القيم: **القصيدة النونية** (لاهور : إدارة ترجمان السنة ، د.ت) .

٣٩. ابن القيم: **الكلام على مسألة السماع** ، حققه راشد الحمد ، الطبعة الأولى (الرياض : دار العاصمة ، ١٤٠٩هـ) .

٤٠. ابن القيم: **بدائع الفوائد** (بيروت : دار الكتاب العربي ، ب.ت) .

٤١. ابن القيم: **جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام** ، الطبعة الأولى (بيروت : دار الكتب العلمي ، ١٤٠٥هـ) .

٤٢. ابن القيم: **زاد المعاد في هدي خير العباد** ، حققه شعيب الأرناؤوط وزميله ، الطبعة الثالثة عشرة (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٦هـ) .

٤٣. ابن القيم: **مدارج السالكين** ، حققه محمد بن حامد الفقي ، الطبعة الثانية ، (بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٣٩٣هـ) .

٤٤. ابن اللحام ، أبو الحسن علاء الدين : **القواعد والفوائد الأصولية** ، الطبعة الأولى (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣هـ) .

٤٥. ابن تيمية : **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم** ، حققه ناصر بن عبد الكريم العقل ، الطبعة الأولى (توزيع

صاحب السمو الملكي الأمير/ سلطان بن عبد العزيز (مجاناً) ، ١٤٠٤هـ) .

٤٦. ابن تيمية : **الاستقامة حققه محمد رشاد سالم** ، الطبعة الأولى (الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٣هـ) .

٤٧. ابن تيمية : **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح** (مطابع المجد التجارية ، ب.ت) .

٤٨. ابن تيمية : **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية** ، الطبعة الرابعة (مصر : دار الكتاب العربي ١٩٦٩م) .

٤٩. ابن تيمية : **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية** (جمع عبد الرحمن بن قاسم) (الرباط ، مكتبة المعارف) .

٥٠. ابن تيمية : **منهاج السنة النبوية** ، حققه محمد رشاد سالم ، الطبعة الأولى (الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٦هـ) .

٥١. ابن حجر : **الإصابة في تمييز الصحابة** (بيروت : دار الكتب العلمية ، ب. ت) .

٥٢. ابن حجر : **تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير** ، حققه عبد الله بن هاشم المدني (المدينة : ب. ن ، ١٣٨٤هـ) .

٥٣. ابـن حجـر : **هـدي السـاري مقدمـة فـتح الـباري** ، راجعه الشيخ عبد العزيز بن باز (الرياض : الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، ب.ت) .

٥٤. ابـن حجـر ، أحمـد بـن حجـر : **فـتح البـاري شـرح صـحيح الـبخاري** ، حقق أجزاءه الأولى الشيخ عبد العزيز بن باز (الرياض : الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد د.ت) .

٥٥. ابن حزم : **الفصل في الملل والأهواء والنحل** ، الطبعة الأولى (مصر : المطبعة الأدبية ، ١٣١٧هـ) .

٥٦. ابـن حـزم ، أبـو محمـد علـى بـن أحمـد : **جوامـع السـيرة وخمـس رسـائل أخرى** ، حققه إحسان عباس وناصر الدين الأسد (لاهور : حديث أكاديمي ، ١٤٠١هـ) .

٥٧. ابـن خلـدون : **مقدمـة ابـن خلـدون** (بـيروت : دار الكتاب اللبناني ، ب.ت) .

٥٨. ابـن رجـب الحنبلي : **القواعـد في الفقـه الإسلامي** (بيروت : دار المعرفة ، د.ت) .

٥٩. ابـن رجـب الحنبلي ، عـبد الـرحمن بـن أحمـد : **لطـائف المعـارف في مـا لمواسـم العـام مـن الوظـائف** (بيروت ، دار الجبل ، د.ت) .

٦٠. **ابن رجب الحنبلي ، عبد الرحمن بن رجب : جامع العلوم والحكم** ، حققه شعيب الأرناؤوط وزميله ، الطبعة الثالثة (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤١٢هـ) .

٦١. **ابن سيد الناس : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير** ، (بيروت ، دار الأفاق الجديدة ، ١٣٩٧هـ) .

٦٢. **ابن عبد البر ، يوسف بن عبد الله : الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ، حققه على محمد البجاوي ، الطبعة الأولى (بيروت : دار الجبل ، ١٤١٢هـ) .

٦٣. **ابن عطية : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** ، حققه عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، والسيد عبد العال السيد إبراهيم ، الطبعة الأولى (الدوحة ، ١٤٠٤هـ) .

٦٤. **ابن قدامة ، عبد الله بن أحمد : المغني** (الرياض : مكتبة الرياض ، د. ت) .

٦٥. **ابن كثير ، إسماعيل بن كثير : تفسير القرآن العظيم** (دار الفكر ، بيروت ، د. ت) .

٦٦. **ابن كثير ، إسماعيل بن كثير : الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ** ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد العيد الخضراوي ومحيي الدين مستو (بيروت : مؤسسة علوم القرآن ، بيروت) .

٦٧. ابن كثير، إسماعيل ابن كثير : **البداية والنهاية** ، الطبعة الرابعة (بيروت : مكتبة المعارف ، ١٤٠٢هـ) .

٦٨. ابن ماجة : **سنن ابن ماجة** ، حققها محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت : دار الفكر ، د.ت) .

٦٩. ابن ماجة : **صحيح سنن ابن ماجة** ، صححه محمد ناصر الدين الألباني ، الطبعة الثانية (الرياض : مكتب التربية العربية لدول الخليج ، ١٤٠٨هـ) .

٧٠. ابن مفلح ، أبو عبد الله محمد : **الآداب الشرعية والمنح المرعية** (القاهرة : مؤسسة قرطبة ، ب.ت) .

٧١. ابن منظور : **لسان العرب** (بيروت : دار صادر ، ب.ت) .

٧٢. ابن هشام : **سيرة النبي ﷺ** (الرياض : الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، د.ت) .

٧٣. البخاري : **الأدب المفرد** (الإمارات : وزارة العدل والشئون الإسلامية والأوقاف ، ١٤٠١هـ) .

٧٤. البخاري : **صحيح البخاري** ، حققه مصطفى أديب البغا ، الطبعة الثالثة (بيروت : دار ابن كثير ، ١٤٠٧هـ) .

٧٥. البخاري ، محمد بن إسماعيل : **صحيح البخاري** (إستانبول : المكتبة الإسلامية ، ١٩٨١م) .

٧٦. البغوي : **معالم التنزيل** ، حققه خالد بن عبد الرحمن العلك ومروان سوار ، الطبعة الأولى (بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠٦هـ) .

٧٧. **بكر بن عبد الله أبو زيد : حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية** ، الطبعة الثانية (الدمام : دار ابن الجوزي ، ١٤١٠هـ) .

٧٨. **بكر بن عبد الله أبو زيد : التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل** ، الطبعة الأولى (الرياض : دار العاصمة د، ت) .

٧٩. **بكر بن عبد الله أبو زيد : تصحيح الدعاء** ، الطبعة الأولى (الرياض : دار العاصمة ، ١٤١٩هـ) .

٨٠. **البيضاوي : تفسير البيضاوي** المطبوع مع حاشية محي الدين شيخ زاده (بيروت : دار صادر ، ب.ت) .

٨١. **البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين : السنن الكبرى** (بيروت : دار الفكر ، د.ت) .

٨٢. **البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين : دلائل النبوة** ، الطبعة الأولى (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨هـ) .

٨٣. **الترمذي : صحيح سنن الترمذي** ، صحح أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني ، الطبعة الأولى (الرياض : مكتب التربية العربي لدول الخليج ، ١٤٠٨هـ) .

٨٤. **الترمذي : ضعيف سنن الترمذي** ، ضعفها محمد ناصر الدين الألباني ، الطبعة الأولى (بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤١١هـ) .

٨٥. **حافظ بن محمد بن عبد الله الحكمي : مرويات غزوة الحديبية** (المدينة : مركز إحياء التراث الإسلامي بالجامعة الإسلامية ، ١٤٠٦هـ) .

٨٦. **حافظ بن موسى بن محمد الحكمي : الأعياد المشروعة والأعياد الممنوعة** ، رسالة ماجستير مقدمة لقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في كلية أصول الدين بالرياض ، عام ١٤٢٠ - ١٤٢١ هـ) .

٨٧. **الحاكم ، أبو عبد الله النيسابوري : المستدرك على الصحيحين** (بيروت : دار المعرفة د. ت) .

٨٨. **حسن نور حسن : التأدب مع الرسول ﷺ** (جدة : دار المجتمع للنشر والتوزيع ، ١٤١٢هـ) .

٨٩. **الحلبي ، علي بن برهان الدين : إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروفة بالسيرة الحلبية** (بيروت ، دار المعرفة ١٤٠٠هـ) .

٩٠. **خالد أبو صالح : مرض النبي ﷺ ووفاته وأثر ذلك على الأمة** ، الطبعة الأولى (الرياض : دار الوطن ، ١٤١٤هـ) .

٩١. **الخطابي : معالم السنن** المطبوع مع مختصر سنن أبي داود للمنذري ، حققه أحمد شاكر ومحمد حامد الفقي (بيروت : دار المعرفة للنشر والتوزيع د. ت) .

٩٢. **الخطيب البغدادي ، أبو بكر أحمد : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع** ، حققه محمد رأفت سعيد ، الطبعة الأولى (الكويت : مكتبة الفلاح ، ١٤٠١هـ) .

٩٣. **خليل بن أحمد السهارنفوري : بذل المجهود في حل أبي داود** (بيروت : دار الكتب العلمية ب. ت) .

٩٤. **الدارمي ، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن : سنن الدارمي** ، تحقيق عبد الله بن هاشم المدني (باكستان : حديث أكاديمي ، ١٤٠٤هـ) .

٩٥. **الذهبي ، محمد بن أحمد : تلخيص المستدرك على الصحيح المطبوع مع المستدرك** (بيروت ، دار المعرفة ، ب.ت) .

٩٦. **الذهبي ، محمد بن أحمد : السيرة النبوية** ، حققه حسام الدين القدسي ، الطبعة الثانية (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٢هـ) .

٩٧. **الذهبي ، محمد بن أحمد : سير أعلام النبلاء** ، حققه شعيب الأرناؤوط وزملاؤه ، الطبعة الأولى (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣هـ) .

٩٨. **راجح بن عبد الحميد الكردي : شعاع من السيرة في العهد المكي** ، الطبعة الأولى (عمان : دار الفرقان ، ١٤٠٦هـ) .

٩٩. **الرازي : التفسير الكبير** ، الطبعة الثالثة (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، د.ت) .

١٠٠. **الرازي ، عبد القادر : مختار الصحاح** (بيروت ، دار الكتب العربية ، ب.ت) .

١٠١. **الزمخشري ، جار الله محمود بن عمر الكشاف** : الطبعة الأخيرة (مصر ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٩٢هـ) .

١٠٢. **الغزالي : المستصفى** ، الطبعة الأولى (مصر : المكتبة التجارية ١٣٥٦هـ) .

١٠٣. **زيد بن عبد الكريم الزيد : الحكمة في الدعوة إلى الله** ، الطبعة الأولى (الرياض : دار العاصمة ، ١٤١٢هـ) .

١٠٤. **زيد بن عبد الكريم الزيد : تأملات في قصة الثلاثة الذين خلفوا** ، الطبعة الأولى (الرياض : دار العاصمة ، ١٤١٢هـ) .

١٠٥. **زيد بن عبد الكريم الزيد : كيف أنصف الإسلام المرأة** ، الطبعة الأولى (الرياض : دار أركان للنشر ، ١٤١٥هـ) .

١٠٦. **زيد بن عبد الكريم الزيد : وظيفة المسجد في المجتمع** بحث منشور في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد الحادي عشر لشهر محرم ، ١٤١٥هـ .

١٠٧. **زيد بن عبد الكريم الزيد : وقفات في رحلة سفير الدعوة الأول مصعب بن عمير ﷺ إلى المدينة** ، الطبعة الأولى (الرياض : دار العاصمة ، ١٤١٢هـ) .

١٠٨. **سعدي أبو جيب : القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً** ، الطبعة الأولى (دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٢هـ) .

١٠٩. **سعود الفنيسان : غزوة الأحزاب في ضوء القرآن الكريم** ، الطبعة الأولى (الرياض : دار أشبيليا ، ١٤١٨هـ) .

١١٠. **سعيد بن علي بن وهف القحطاني : وداع الرسول ﷺ** ، الطبعة الثانية (الرياض : د . ن ، ١٤١٧هـ) .

١١١. **السفاريني : ثلاثيات مسند الإمام أحمد بن حنبل** (بيروت ، المكتب الإسلامي ١٣٩٢هـ) .

١١٢. **سليمان الندوي : الرسالة المحمدية** ، تعريب محمد ناظم الندوي ، الطبعة الثالثة (دمشق : مكتبة الفلاح ، ١٤٠١هـ) .

١١٣. سليمان العودة : **السيرة النبوية في الصحيحين عند ابن إسحاق دراسة مقارنة في العهد المكي** ، الطبعة الأولى (الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١٤هـ) .

١١٤. سليمان بن حمد العودة : **قضايا ومباحث في السيرة النبوية** ، الطبعة الأولى (الرياض : دار المسلم ، ١٤١٦هـ) .

١١٥. سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب : **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد** ، الطبعة الرابعة (بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٠هـ) .

١١٦. السمهودي : **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى** ، حققه محمد محيي الدين ، الطبعة الرابعة (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٤هـ) .

١١٧. السيوطي ، جلال الدين : **سنن النسائي بشرح السيوطي** ، الطبعة الأولى (بيروت : دار الفكر ، ١٣٤٨هـ) .

١١٨. السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر : **تاريخ الخلفاء** ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى (مصر : مطبعة السعادة ، ١٣٧١هـ) .

١١٩. الشاطبي : **الاعتصام** (الرياض : مكتبة الرياض الحديثة ، ب . ت) .

١٢٠ . الشاطبي : **الموافقات في أصول الأحكام** (بيروت : دار الفكر ، ب.ت) .

١٢١ . الشوكاني ، محمد بن علي : **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير** (بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٤٠٣هـ) .

١٢٢ . الشوكاني ، محمد بن علي : **نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار** (الرياض : توزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، ب.ت) .

١٢٣ . صالح بن أحمد الشامي : **أضواء على دراسة السيرة** ، الطبعة الأولى (بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤١١هـ) .

١٢٤ . صالح بن أحمد الشامي : **الغرانيق قصة دخيلة على السيرة النبوية** ، الطبعة الأولى (بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤١٩هـ) .

١٢٥ . صالح بن أحمد الشامي : **من معين السيرة** ، الطبعة الأولى (بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٥هـ) .

١٢٦ . صالح بن عبد الله العبود : **فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام** (الرياض : دار طيبة للنشر والتوزيع) .

١٢٧. **صالح بن فوزان الفوزان : كتاب التوحيد** (الرياض ، مكتب الأثير) .

١٢٨. **صديق بن حسن القنوجي : أبجد العلوم** ، الطبعة الأولى (لاهور ، المكتبة القدوسية ، ١٤٠٣هـ) .

١٢٩. **صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم** (المنصورة : دار الوفاء ، د.ت) .

١٣٠. **الطبراني ، سليمان بن أحمد : المعجم الكبير** ، حققه حمدي بن عبد المجيد السلفي ، الطبعة الثانية ، (الموصل : مكتبة العلوم والحكم ، ١٤٠٤هـ) .

١٣١. **الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن** (بيروت : دار الفكر ، ١٤٠٥هـ) .

١٣٢. **الطبري ، محمد بن جرير : جامع البيان عن تأويل آي القرآن** ، تحقيق محمود محمد شاكر ، الطبعة الثانية (مصر : دار المعارف ، د.ت) .

١٣٣. **الطبري ، محمد بن جرير : تفسير الطبري** ، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي ، الطبعة لأولى (القاهرة : مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية ١٤٢٢هـ) .

١٣٤. **الطحاوي : مشكل الآثار** ، الطبعة الأولى (الهند : مجلس دائرة المعارف النظامية ، ١٣٣٣هـ) .

١٣٥. **عاتق بن غيث البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية** ، الطبعة الأولى (مكة المكرمة : دار مكة للنشر والتوزيع ١٤٠٢ هـ) .

١٣٦. **عادل بن عبد الله بن عبد المحسن آل عبد القادر : منبر الإيمان** (خطب جمعة) الطبعة الأولى (الرياض ، د . ت ، ١٤١٥هـ) .

١٣٧. **عبد الحميد الهاشمي : الرسول العربي المربي** ، الطبعة الثانية (الرياض : دار الهدى للنشر والتوزيع ، ١٤٠٥هـ) .

١٣٨. **عبد الحميد بن باديس : الدرر الغالية في آداب الدعوة والداعية** . د.ط (الخرج : دار المنار د.ت) .

١٣٩. **عبد الحميد بن باديس : تفسير ابن باديس** ، الطبعة الأولى (بيروت ، دار الكتب العلمية ١٤١٦هـ) .

١٤٠. **عبد الرحمن الخليفي : مذكرة في فقه السيرة لطلاب** المستوى الأول في قسم الدعوة بكلية الدعوة والإعلام لعام ١٤١٦هـ غير مطبوعة .

١٤١. عبد الرحمن بن أبي الحسن السهيلي : **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام** (بيروت : دار الفكر العربي ، ١٤٠٩هـ) .

١٤٢. عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ : **مجموعة التوحيد** ، طبع على نفقة الشيخ محمد العبيكان .

١٤٣. عبد الرحمن بن حسن بن حبنكة الميداني : **مكايد يهود عبر التاريخ** ، الطبعة الثانية (بيروت : دار القلم ، ١٣٩٨هـ) .

١٤٤. عبد الرحمن بن زيد الزنيدي : **حقيقة الفكر الإسلامي** ، الطبعة الأولى (الرياض ، دار المسلم ، ١٤١٥هـ) .

١٤٥. عبد الرحمن بن محمد الدوسري : **النفاق آثاره ومفاهيمه** ، الطبعة الأولى (الكويت : دار الأرقم ، ١٤٠٠هـ) .

١٤٦. عبد الرحمن بن محمد بن قاسم : **الدرر السنية في الأجوبة النجدية** ، الطبعة السادسة (د.ن ، د.ت ، ١٤١٧هـ) .

١٤٧. عبد الرحمن بن ناصر السعدي : **القواعد الحسان لتفسير القرآن** (الرياض : مكتبة المعارف ، ١٤٠٣هـ) .

١٤٨. عبد الرحمن بن ناصر السعدي : **القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة** (الرياض ، مكتبة المعارف ، ١٤٠٦ هـ) .

١٤٩ . عبد الرحمن بن ناصر السعدي : **المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن السعدي** (عنيزة : مركز صالح ابن صالح الثقافي ١٤١١هـ) .

١٥٠ . عبد الرحمن بن ناصر السعدي : **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان** (جدة : دار المدني ١٤٠٨هـ) .

١٥١ . عبد الرحمن ين ناصر السعدي : **المواهب الربانية من الآيات القرآنية** ، الطبعة الثانية (الرياض ، رمادي للنشر ١٤١٧هـ) .

١٥٢ . عبد الرحمن رأفت الباشا : **العدوان على العربية عدوان على الإسلام** ، الطبعة الأولى (القاهرة : دار الأدب الإسلامي ، ١٤١٧هـ) .

١٥٣ . عبد الرزاق بن همام الصنعاني : **المصنف** ، حققه حبيب الرحمن الأعظمي ، الطبعة الثانية (بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٣هـ) .

١٥٤ . عبد العزيز بن باز : **نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع** ، الطبعة الخامسة (الرياض : الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، ١٤٠٣هـ) .

١٥٥ . **عبد العزيز الحميدي : التاريخ الإسلامي مواقف وعبر** ، الطبعة الأولى (جدة : دار الأندلس الخضراء ، ١٤١٧هـ) .

١٥٦ . **عبد العزيز الحميدي : المنافقون في القرآن الكريم** ، الطبعة الأولى (جدة : دار المجتمع للنشر والتوزيع ، ١٤٠٩هـ) .

١٥٧ . **عبد العزيز المسند : النهج المحمدي** (الرياض : النادي الأدبي ، ١٤٠٠هـ) .

١٥٨ . **عبد الكريم زيدان : أصول الدعوة** ، الطبعة الثالثة (الاسكندرية ، دار عمر بن الخطاب للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٣٩٥ هـ) .

١٥٩ . **عبد الكريم بكار : فصول في التفكير الموضوعي** ، الطبعة الأولى (دمشق : دار القلم ، ١٤١٣هـ) .

١٦٠ . **عبد الله بن أحمد قادري : الشورى** (جدة : دار المجتمع للنشر والتوزيع ، ١٤٠٦هـ) .

١٦١ . **عبد الله القصيمي : مشكلات الحديث النبوية وبيانها** (باكستان : دار الدعوة السلفية ، ١٤٠٦هـ) .

١٦٢ . **عبد الله بن محمد آل موسى : أسباب نجاح الدعوة الإسلامية في العهد النبوي** ، الطبعة الأولى (الرياض : دار غانم الكتب للنشر والتوزيع ، ١٤٠٥هـ) .

١٦٣ . عبد الله بن محمد الطيار : **الزكاة** (الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٧هـ) .

١٦٤ . عبد الله بن محمد الطيار : **الصيام** ، الطبعة الأولى (الرياض : مكتبة التوبة ، ١٤١٢هـ) .

١٦٥ . عبد المتعال بن محمد الجبري : **السيرة النبوية وأوهام المستشرقين** ، الطبعة الأولى (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٤٠٨هـ) .

١٦٦ . عبد المنعم بن صالح العلي : **تهذيب مدارج السالكين لابن القيم** (الإمارات ، وزارة العدل والشؤون الإسلامية ، د.ت) .

١٦٧ . عثمان بن أحمد دوكلي : **التدابير الواقية من التشبه بالكفار** ، رسالة دكتوراه (غير مطبوعة) مقدمة إلى قسم الدعوة بكلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض .

١٦٨ . العجلوني : **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس** ، حققه أحمد القلاش ، الطبعة الثالثة (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣هـ) .

١٦٩ . علي بن المتقي بن حسام الدين الهندي : **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال** (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٩هـ) .

١٧٠. **علي بن حسن بن عبد الحميد : الدعوة إلى الله بين التجمع الحزبي والتعاون الشرعي** ، الطبعة الأولى (جدة : مكتبة الصحابة ، ١٤١٢هـ) .

١٧١. **علي بن محمد الجرجاني : التعريفات** ، الطبعة الأولى (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣هـ) .

١٧٢. **عمر بن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى** ، حققه محمد بن فهيم شلتوت (مكة : جامعة أم القرى ، ١٤٠٣هـ) .

١٧٣. **العيني ، محمد محمود بن أحمد : عمدة القارئ شرح صحيح البخاري** (دار الفكر ، د.ت) .

١٧٤. **فضل إلهي : أهمية صلاة الجماعة في ضوء النصوص الشرعية وسير الصالحين** ، الطبعة الأولى (باكستان : إدارة ترجمان الإسلام ، ١٤١٢هـ) .

١٧٥. **فضل إلهي : الحسبة** (تعريفها ، مشروعيتها ، حكمها) ، الطبعة الأولى (باكستان : إدارة ترجمان الإسلام ، ١٤١٠هـ) .

١٧٦. **فضل إلهي : قصة بعث أبي بكر جيش أسامة رضي الله عنهما** ، الطبعة الأولى (باكستان : إدارة ترجمان الإسلام ، ١٤١٨هـ) .

١٧٧. **فضل إلهي : مذكرة في تاريخ الدعوة للدراسات العليا بقسم الدعوة** ، عام ١٤١٣هـ (غير مطبوعة) .

١٧٨ . **القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد : الجامع لأحكام القرآن** (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، د.ت) .

١٧٩ . **القسطلاني ، أحمد بن محمد : المواهب اللدنية بالمنح المحمدية** ، حققه صالح الشامي ، الطبعة الأولى (بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤١٢هـ) .

١٨٠ . **محمد أبو زهرة : خاتم النبيين** (قطر : إدارة إحياء التراث الإسلامي ، د.ت) .

١٨١ . **محمد أحمد جاد المولى بك : محمد المثل الكامل** (دمشق : المكتبة الأميرية ، ١٩٧٢م) .

١٨٢ . **محمد الأمين الشنقيطي : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن** ، طبع على نفقة الأمير أحمد بن عبد العزيز آل سعود .

١٨٣ . **محمد الأمين الشنقيطي : منهج التشريع الإسلامي وحكمته** (المدينة ، المكتبة العلمية د. ت) .

١٨٤ . **محمد السيد الوكيل : تأملات في سيرة الرسول ﷺ** ، الطبعة الأولى (جدة ، دار المجتمع للنشر والتوزيع ، ١٤٠٨هـ) .

١٨٥ . **محمد الصوياني : السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة** ، الطبعة الأولى (د.ن ، ١٤١٢هـ) .

١٨٦ . **محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير** (تونس : الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٤م) .

١٨٧ . **محمد الغزالي : فقه السيرة** ، الطبعة الأولى (دمشق ، دار القلم ، ١٤٠٢هـ) .

١٨٨ . **محمد بن أحمد التميمي البستي : السيرة النبوية وأخبار الخلفاء** ، الطبعة الأولى (بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٤٠٧هـ) .

١٨٩ . **محمد بن أحمد العدوي : دعوة الرسل إلى الله تعالى** (بيروت : دار الفكر ، ب.ت) .

١٩٠ . **محمد بن أحمد باشميل : صلح الحديبية** ، الطبعة الأولى (د.ت ، ١٣٩٠هـ) .

١٩١ . **محمد بن أحمد باشميل : غزوة الأحزاب** ، الطبعة الأولى (د.ت ، ١٣٨٥هـ) .

١٩٢ . **محمد بن أحمد باشميل : غزوة بني قريظة** ، الطبعة الثانية (بيروت : دار الفكر ، ١٣٩١هـ) .

١٩٣ . **محمد بن سعد : الطبقات الكبرى** (بيروت : دار صادر ، د.ت) .

١٩٤ . محمد بن سعيد القرا في : **الدروس الدعوية في غزوة بني المصطلق** (بحث تكميلي غير منشور لنيل درجة الماجستير من قسم الدعوة بكلية الدعوة بالمدينة ١٤٠٣هـ) .

١٩٥ . محمد بن سعيد بن سالم القحطاني : **الولاء والبراء في الإسلام** ، الطبعة الثانية (الرياض : دار طيبة للنشر ، ١٤٠٤هـ) .

١٩٦ . محمد بن سليمان المنصور فوري : **رحمة للعالمين** ، تعريب مقتدي حسن ياسين الأزهري ، الطبعة الأولى (بومباي : الدار السلفية ، ١٤١٠هـ) .

١٩٧ . محمد بن صالح العثيمين : **الشرح الممتع على زاد المستقنع** ، جمعه ورتبه سليمان أبا الخيل وخالد المشيقح ، الطبعة الأولى (الرياض ، مؤسسة آسام ، ١٤١٧هـ) .

١٩٨ . محمد بن صالح العثيمين : **الضياء اللامع من الخطب الجوامع** ، الطبعة الثالثة (الرياض ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، ١٤٠٣هـ) .

١٩٩ . محمد بن صالح العثيمين : **القول المفيد على كتاب التوحيد** ، جمع وترتيب سليمان أبا الخيل وخالد المشيقح ، الطبعة الأولى (الرياض : دار العاصمة ، ١٤١٥هـ) .

٢٠٠. **محمد بن صالح العثيمين : شرح العقيدة الواسطية** ، الطبعة الثانية ، (الدمام : دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، ١٤١٥هـ) .

٢٠١. **محمد بن صالح العثيمين : فتاوى الشيخ محمد بن صالح العثيمين** ، جمع أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، الطبعة الأولى (الرياض ، دار عالم الكتب ، للنشر والتوزيع ، ١٤١١هـ) .

٢٠٢. **محمد بن صالح العثيمين : مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن صالح العثيمين** ، جمع وترتيب فهد بن ناصر السليمان ، الطبعة الثانية (الرياض : دار الوطن ، ١٤١٣هـ) .

٢٠٣. **محمد بن صالح العثيمين : تفسير جزء عم** ، الطبعة الأولى (الرياض : دار الثريا ١٤٢٣هـ) .

٢٠٤. **محمد بن عبد الوهاب : مختصر سيرة الرسول ﷺ** (المطبعة اليوسفية ، د . ت) .

٢٠٥. **محمد بن عبد الوهاب : ملحق المصنفات ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب** (الرياض : منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) .

٢٠٦. **محمد بن محمد أبو شهبة : السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة** ، الطبعة الثانية (دمشق : دار القلم ، ١٤١٢هـ) .

٢٠٧. **محمد مصطفى الأعظمي : مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير** .

٢٠٨. **محمد بن منصور بن هاشم آل عبد الله : قبائل الطائف وأشراف الحجاز** ، الطبعة الأولى (الطائف : مطابع دار الحارثي للطباعة والنشر ، ١٤٠١هـ) .

٢٠٩. **محمد بن ناصر الشثري : الدعوة في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله تعالى** ، الطبعة الأولى (د.ن ، ١٤١٧هـ) .

٢١٠. **محمد بن يوسف الصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد** ، حققه مصطفى عبد الواحد (مصر : المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ١٤١٠هـ) .

٢١١. **محمد جميل زينو : منهاج الفرقة الناجية** ، الطبعة العاشرة (مصر : مطبعة مدني ، ب.ت) .

٢١٢. **محمد سعيد رمضان البوطي : فقه السيرة** ، الطبعة العاشرة (بيروت : دار الفكر المعاصر ، ١٤١١هـ) .

٢١٣. **محمد شمس الحق العظيم آبادي : عون المعبود شرح سنن أبي داود** ، حققه عبد الرحمن بن محمد عثمان ، الطبعة الثانية (المدينة : المكتبة السلفية ، ١٣٨٨هـ) .

٢١٤. **محمد صادق عرجون : محمد رسول الله - منهج رسالة -** ، الطبعة الأولى (دمشق : دار القلم ١٤٠٥هـ) .

٢١٥. **محمد ضياء الرحمن الأعظمي : اليهودية والمسيحية** ، الطبعة الأولى (المدينة : مكتبة الدار ، ١٤٠٩هـ) .

٢١٦. **محمد عزة دروزه: سيرة الرسول ﷺ** (قطر : إدارة إحياء التراث الإسلامي ، ب.ت) .

٢١٧. **محمد عمارة : نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية** ، الطبعة الثانية (القاهرة: دار التراث العربي للطباعة والنشر ، ١٤٠٦هـ) .

٢١٨. **محمد فرج : العقيدة العسكرية في غزوات الرسول ﷺ** ، الطبعة الثالثة (القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٧٧م) .

٢١٩. **محمد متولى الشعراوي : الإسراء والمعراج** (القاهرة : دار المسلم ، د.ت) .

٢٢٠. **محمد نسيب الرفاعي : تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير** (الرياض : مكتبة المعارف ، ١٤٠٨هـ) .

٢٢١. **محمود شعيب خطاب : الرسول القائد** ، الطبعة الخامسة (بيروت : دار الفكر ، ١٤٠٩هـ) .

٢٢٢ . محمود مهدي الاستانبولي : **دلائل النبوة في ضوء المعارف الحديثة** ، الطبعة الأولى (الكويت : مكتبة العلا ، ١٤٠٧هـ) .

٢٢٣ . محيي الدين شيخ زاده : **حاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي** (بيروت : دار صادر ، ب.ت) .

٢٢٤ . المراغي : **تفسير المراغي** ، الطبعة الثانية (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٩٨٥م) .

٢٢٥ . مسلم بن الحجاج القشيري : **صحيح مسلم** ، حققه محمد فؤاد عبد الباقي (دار إحياء الكتب العربية ، د.ت) .

٢٢٦ . مصطفى السباعي : **السيرة النبوية دروس وعبر** ، الطبعة السابعة (بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٤هـ) .

٢٢٧ . مناحي القناصي : **معجم قبائل الحجاز** (نقد) مقال منشور في مجلة العرب ، ج١ و٢ ، سنة ١٥ (رجب وشعبان ١٤٠٠هـ ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) الرياض .

٢٢٨ . المنذري : **مختصر سنن أبي داود المطبوع مع معالم السنن للخطابي** ، حققه محمد حامد الفقي (بيروت : دار المعرفة ، ب.ت) .

٢٢٩. منير محمد الغضبان : **فقه السيرة النبوية** ، الطبعة الأولى (مكة المكرمة : جامعة أم القرى ، مركز البحوث ، ١٤١٠هـ) .

٢٣٠. مهدي رزق الله : **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية** ، الطبعة الأولى (الرياض : مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ١٤١٢هـ) .

٢٣١. ناصر العقل : **الاتجاهات العقلانية الحديثة** ، الطبعة الأولى (الرياض : دار الفضيلة ، ١٤٢٢هـ) .

٢٣٢. ناصر العقل : **مناهج أهل الأهواء والافتراق والبدع وأصولهم وسماتهم** ، الطبعة الثانية (الرياض : دار الوطن ١٤١٧هـ) .

٢٣٣. النسائي : **سنن النسائي المطبوعة مع شرح السيوطي** ، الطبعة الأولى (بيروت : دار الفكر ، ١٣٤٨هـ) .

٢٣٤. النسائي : أحمد بن شعيب : **عمل اليوم والليلة** ، حققه فاروق حمادة ، الطبعة الأولى (الرباط : مكتبة المعارف ، ١٤٠١هـ) .

٢٣٥. النووي : **تهذيب الأسماء واللغات** (بيروت : دار الكتب العلمية ، ب.ت) .

٢٣٦. النووي ، **يحيى بن شرف** : **شرح صحيح مسلم** (الرياض ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، د.ت) .

٢٣٧. النووي ، **يحيى بن شرف** : **شرح صحيح مسلم** ، تحقيق علي أبو الخير وزملائه ، الطبعة الخامسة (بيروت : دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤٢٠هـ) .

٢٣٨. **الهيثمي** ، **علي بن أبي بكر** : **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** (بيروت : دار الريان للتراث ، ١٤٠٧هـ) .

٢٣٩. **الواقدي** : **المغازي** ، حققه مارسدن جونسن ، الطبعة الثالثة (بيروت ، عالم الكتب ، ١٤٠٤هـ) .

٢٤٠. **ولفرد نورثفليد وزميله** : **الموسوعة النفسية فن الترويح عن النفس** ، الطبعة الأولى (بيروت ، دار إحياء العلوم ، ١٩٨٢م) .

٢٤١. **قرار المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي** رقم (٦) في دورته العاشرة عام ١٤٠٨هـ ، قرارات مجمع الفقه الإسلامي ، (مكة : رابطة العالم الإسلامي د. ت) .

٢٤٢. **جريدة المسلمون الدولية** ، عدد ٤٣٧ في ٢٨/١٢/ ١٤١٣هـ .

٢٤٣ . **مجلة الأمة الصادرة عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الإسلامية بقطر** ، عدد ٣٩ .

٢٤٤ . **مجلة البحوث الإسلامية** : الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء ، الرياض .

فهرس الموضوعات

كتب للمؤلِّف:

١ ــ العفو عن العقوبة في الفقه الإسلامي (رسالة دكتوراه) نشر دار العاصمة بالرياض، عام ١٤٠٨هـ.
٢ ــ الحكمة في الدعوة إلى الله.
٣ ــ الوسطية في الإسلام.
٤ ــ في بناء الشخصية الإسلامية.
٥ ــ تأملات في قصة الثلاثة الذين خلفوا.
٦ ــ وقفات دعوية في رحلة سفير الدعوة الأول (مصعب بن عمير رضي الله عنه).
٧ ــ كيف أنصَفَ الإسلام المرأة.
٨ ــ وظيفة المسجد في المجتمع.
٩ ــ الرواسب الفكرية في الدعوة إلى الله.
١٠ ــ أولويات الدعوة في منهج الأنبياء عليهم السلام.
١١ ــ الداعي إلى الله (تكوينه ــ مسؤوليته).
١٢ ــ حب الوطن من منظور شرعي.
١٣ ــ رحلة الصدقة (من منشورات جامعة الإمام).
١٤ ــ توجيهات منهجية في التحصيل العلمي (من منشورات جامعة الإمام).
١٥ ــ التاريخ الهجري: أساسه ــ حكمه ــ مكانته عند الأمة الإسلامية (من منشورات جامعة الإمام).
١٦ ــ فقه السِّيرة.

أبحاث للمؤلِّف:

١ ــ حقوق اللاجىء من منظور شرعي.
٢ ــ حماية البيئة البحرية من منظور شرعي.
٣ ــ التحكيم في الشريعة الإسلامية.
٤ ــ حقوق الإنسان في السيرة النبوية.
٥ ــ العمل الدعوي من خلال المؤسسات.

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

